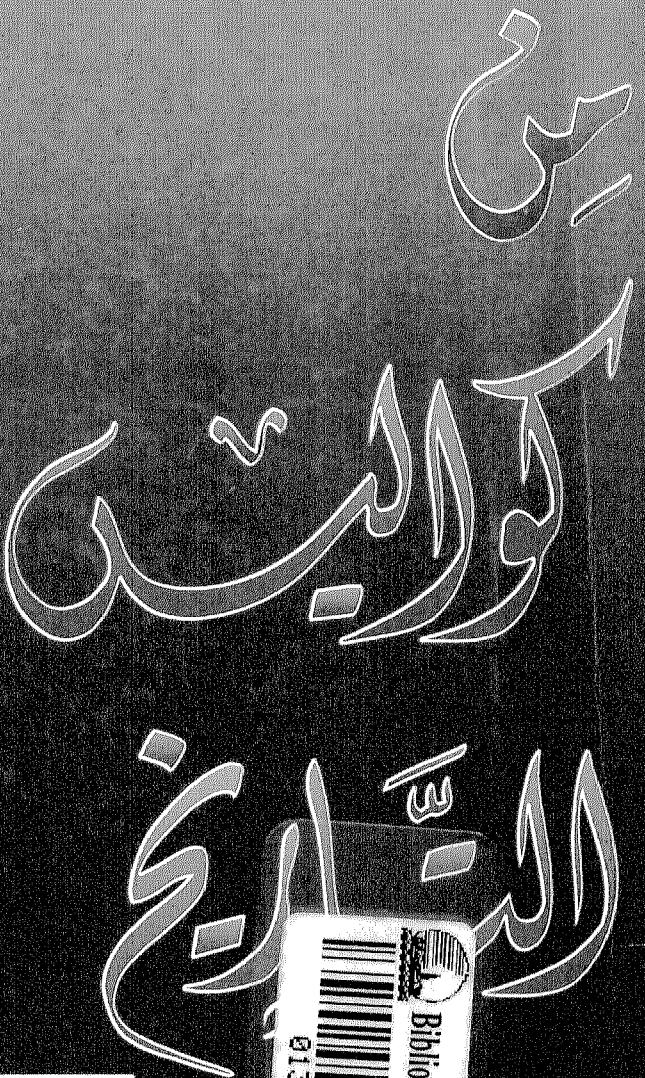
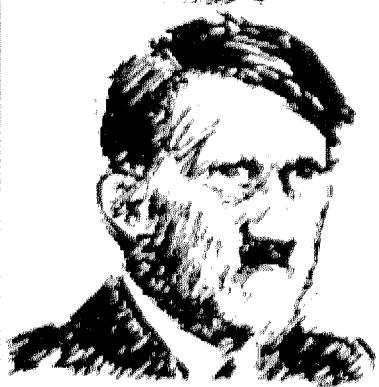


سمير شيخاني



المجزء الأول

دار البيضاء  
بيروت

من كواليسه التاريخ

سَمِير شِيخَانِي

# سِنْ وَالْبَرْدُ الْتَّارِخِ

الجزء الأول

ولِلْأَجْيَالِ

بَيْرُوت

جميع الحقوق محفوظة لدار الجليل

الطبعة الأولى

١٤١٣ - ١٩٩٣ م

## المجزء الأول

١ - من التاريخ الفرنسي

٢ - من التاريخ الانكليزي

## تقديم

في حقل التاريخ الأكاديمي ، يندر التجرد المدقق ، ذلك بأن المؤرخين يُغرسون حتماً على الكتابة بدرجة معينة من التحيز أو الهوى . وإنه لمن الصعب بالنسبة إلى مؤرخ ذي ميول يسارية ، ان يكون منصفاً عندما يكتب عن النظام الاقطاعي ، وليس أقل صعوبة على البروتستانتي الورع أن يضع رواية غير متحيزه عن الانشقاق الكبير في الكنيسة الرومانية الكاثوليكية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر . ويصبح ذلك مفهوماً اذا ما وضع وجهاً الرواية بوضوح ، ولا تكون مضطرين للموافقة على النتائج التي توصل إليها الكاتب .

من المؤسف أن الأمر لا يقتصر على ذلك ، فمن حين إلى آخر شوهدت شخصية بعض الملوك ، أو السياسيين ، أو القادة الروحيين ، أو الجنود ، لكي يتطابق ذلك مع خط تم تصوّره مقدماً للفترة موضوع الدراسة . وقد قلل من شأن الفضائل والنجاح كيلا يُحطّم عدم التحيز الصورة . وهكذا تكون الأجيال المتعاقبة فكراً ناقصة ، وربما غير منصفة عن شخصيته ، ودواجهه ، وحتى الأحداث التي مثل فيها دوراً رئيسياً . والعكس ، أيضاً ، غالباً ما كان الوضع ، وقد عزّزت سمعة الأبطال وشهرتهم اللتان وطدهما تكرار الفضائل والمنجزات البعيدة الاحتمال ، على حساب أولئك المسؤولين حقاً عن هذه الأمجاد .

إن ذلك لهو نتيجة تفضيل تشويه الواقع لكي تتناسب مع النظريات ، وهو أمر أسوأ من تشويه النظريات لمطابقة الواقع . وليس ثمة سوى خطوة واحدة من ذلك إلى عالم الاسطورة ، وقد اعتبرت ، أحياناً ، الدعاوة الناجمة عن ذلك تاريخاً جديداً . والأسوأ من ذلك كله أن هذه الدعاوة كرّرها مؤرخون آخرون .

وليس قليلاً من تاريخ العالم الذي كتب ، على ما يبدو ، بهذه الطريقة المتحيزه ، وقد نجم عن ذلك عدد من الأساطير والأسرار الغربية . وربما كان ، إذا ، المثل القديم السائر «ان التاريخ يعيد نفسه» غير صحيح بقدر صحة الملاحظة التي أطلقها بعضهم وهي : «ان المؤرخين يكرر بعضهم بعضاً»

ان هذا التكرار الذي غالباً ما يحدث في كتب التاريخ المدرسية ، والمصنفات الدراسية بألوان جديدة ، طبعاً ، وخيالاً خصب يتجدد جيلاً بعد جيل ، قد جعل تناول الاسطورة والتاريخ الحيطين بهذه الأسرار أشد تعقيداً .

وهذه غوامض تاريخية لا بد ان تثير جدلاً بالنسبة إلى الحلول التي ترافقتها ، الا انها ، على أي حال ، تبعث المتعة في نفس القارئ اذ تكشف له حلولاً كتلك التي تزخر بها الروايات البوليسية . . .

ويتناول هذا الكتاب عدداً من الأسرار التاريخية ، علمأً بأن الاقتراحات المقدمة فيها ، على الرغم من أنها مختلفة ، وربما مثيرة للجدل ، هي نتيجة النظر الى القضية من وجهيها . وهي حلول ، وليس الحلول ، ويترك للقارئ أن يقرر ما إذا كان يود قبولها أو نبذها .

١٩٩٢ / ٥ / ٢٥ بيروت ، في

سمير شيخاني

## ١ - من التاريخ الفرنسي

- من كان الرجل ذو القناع الحديدي؟
- لقاء مع القدر: ٢٠ حزيران ١٨١٠، الكونت دو فرسن يقضي اغتيالاً.
- «قضية زولا»: هل مات الكاتب الكبير مقتولاً؟
- فيشي: اخترع «قذائف ستالين» قبل قرن من ظهورها لاغتيال الملك لويس- فيليب!
- الحب والنكبة: امزجة سان - مارس.
- كان القتل صناعته، فطلبت المصلحة، في النهاية، بفوكيه - تانفيل نفسها.
- من ذيول مؤامرة ماله: شعر مدام سيلان المستعار.
- التاريخ لم يجعل سر الماريشال ناي: هل أعدم حقاً أم ظل حياً؟
- ملك السكر وامبراطور الصحراء: جاك لوبيدي وعرشه الشائك.
- نابوليون على حقيقته.
- نفي إمبراطوري!
- فولتير المثل.
- عندما كان هناك وقت للحب!
- هل كان شارل ناوندوف الملك لويس السابع عشر؟
- هل قضت الممثلة آدرلين لو كوفور بالسم على يد الدوقة دو بريون؟
- ملحق مصوّر

## من كان الرجل ذو القناع الحديدي؟

ان هوية الرجل ذي القناع الحديدي لهي أشهر أسرار التاريخ . فكل واحد منا تقريباً قد سمع به ، ولكن القليلين يعرفون الكثير عنه ، وما يحسبون انهم يعرفونه هو غالباً خطأ . إنها موضوع احدى أشهر روايات الكسندر دوما ، الأب ، التاريخية ، وقد استُخدمت هذه القصة ، في ما بعد ، لوضع عدد من المسرحيات ، فضلاً عن أنها صورت فيلماً سينمائياً . وقد أعيد تمثيل كل قصص القرن السابع عشر ، وقوامها المغامرات الفروسية والحب الشريف ، ولم يوفر اي خيال في خلق قصة مغامرات رائعة . غير ان تبسيط هذا السر الشهير وجعله في متناول مدارك الجمهور زاد من إلقاء الحقيقة في غياب النسيان وخمول الذكر .

ماذا نعرف عن الرجل والشكل الغريب للقناع الذي يعتقد أنه كان يضعه بكل شغف؟ في كتب المراجع ، عادة ما يوصف بأنه « سياسي فرنسي مجاهول سجين على عهد الملك لويس الرابع عشر » ، ويحدّد العام ١٧٠٣ موعداً لوفاته .

من حسن الحظ أنه من السهل الآن التخلص من الاسطورة القائلة إن القناع الذي كان يخفي وجه هذا السجين البائس كان حديدياً . على أي حال ، فإن مثل هذا القناع كان يمكن ان يكون نوعاً من اللباس غير مريح ، ومن غير الممكن استمرار الحياة طويلاً مع وجود هذا العائق . وقد وجّدت مفكرة كان يدوّن فيها أحد الضباط في سجن الباستيل مذكرة ، حيث كان ذو القناع الحديدي سجيناً ، وقد جاءت فيها عباره توضح أن القناع كان مصنوعاً من المholm الأسود . ولن يعرف ما اذا كانت دعائم القناع قد صنعت من الفولاذ الرقيق أو من البليـن (عظم فك الحوت) . ولكن كانت الغاية هي اخفاء هوية السجين ، لا القضاء عليه خنقاً ، فليس من المهم معرفة من اي مادة

صنعت الدعائم . فالأكثر أهمية هو من كان ذو القناع الحديدي ، وما كانت التهمة الملصقة به ، وكم من الوقت قضى في السجن وهو يضع على وجهه هذا القناع الغريب ؟

بالوسع أن نستخلص عدداً كبيراً من الاقتراحات من الأساطير والروايات الرومنطيقية ، وحتى من التخمينات المعاصرة . ولعلَّ أفضل طريقة للاقتراب من الحقيقة هي في إزالة الحلول غير الممكنة ، وهناك جملة منها . ومن أشهر النظريات ، التي استُخدمت أساساً لرواية ألكسندر دوما ، النظرية القائلة إنَّ ذا القناع الحديدي كان الآخ التوأم الشرعي للملك لويس الرابع عشر . وتروي القصة أنَّ الملك لويس الثالث عشر كاد يीأس من أنْ يُرزق وارثاً للعرش ، وكان في سبيل مناقشة أمر خلافته مع رجال البلاط عندما هرع إليه أحد الرسُّل ، وهمس شيئاً في أذنه ، فانتقل الملك من فوره إلى غرفة مجاورة ، وعاد بعد دقائق حاملاً طفلاً ذكرًا وضعته الملكة ل ساعتها . فلقد انجابت زوجته الملكة آن النمساوية (=آن دوتريش) أخيراً وارثاً ، فطار قلب البلاط فرحاً مثل هذا الحال المناسب لمشكلة معقدة .

ولكن لسوء الحظ ، وبعد بضع ساعات ، صدرت عن غرفة الملكة صيحات ألم وأنين شديد ، فهرع الملك لويس الثالث عشر لاستطلاع الخبر ، وسرعان ما علم ، لفروط رعبه ، أنَّ زوجته وضعـت الطفل التوأم الثاني - وكان ذكراً . ويعتقد أنَّ الملك راح يتخيَّل حدوث حرب أهلية في فرنسا بسبب التنافس بين الآخرين التوأمـين المطالبين بالعرش لدى وفاته . واستدعي الأطباء ، وسئلوا من هو في عرفهم ، وفي الواقع ، يجب أن يكون صاحب الحق بالخلافة . فأجابوا أنَّ التوأم الثاني الذي أبصر النور هو الذي حُبِّل به أولاً ، ولذا فإنَّ المولود الأول ليس الوارث . غير أنَّ لويس شعر ، وقد سبق أنَّ حمل الطفل الأول إلى رجال البلاط المعجبين على أنه الوارث المنتظر ، أنه ليس بوسعي العودة عن كلامه ، ولذا أرسل التوأم الثاني إلى مربية في القصر الملكي لتعنى به . وقد حدث ذلك في السنة ١٦٣٨ . وبعد عشرين سنة ، دبر الطفل الأول ، وقد أضحي اليوم الملك لويس الرابع عشر ، أمر سجن أخيه التوأم مدى الحياة ، مع التعليمات المشددة بأنَّ يظلَّ مقنعاً على الدوام إخفاءً لهويته .

ان هذه حبكة رائعة لرواية ، وقد استغلّها دوماً أفضل استغلال ، ولكنها لا ترتدي اي تأكيد تاريخي . ذلك بأنه كان من الأسهل إما القضاء على الطفل الثاني ، أو إرساله إلى الخارج . وهذه النظرية البارعة هي بالضبط ما يتوقعه المرء من روائي كبير أن ينسج خيوطها ، غير أنه يصعب قبولها كتاريخ .

وَثِمَةٌ نَظَرِيَّةٌ أُخْرَى تَقُولُ أَنَّ السُّجِينَ كَانُوا بْنَ الْمُلْكَةِ آنَّ النَّمْسَاوِيَّةِ مِنْ دُوقِ بِكْنِغَهَامِ، الَّذِي زَارَ فَرْنَسًا السَّنَةَ ١٦٢٥، وَقَدْ اعْتَنَى بِالطَّفْلِ الْوَزِيرِ الْأَوَّلِ الْفَرْنَسِيِّ الْكَارْدِنَالِ مَازَارَانَ، الَّذِي يَزْعُمُونَ أَنَّهُ كَانَ عَشِيقَ الْمُلْكَةِ آنَّ، وَلَكِنْ لُوِيسُ الرَّابِعُ عَشَرُ سُجْنَهُ لِدُقِّي وَفَاتَ مَازَارَانَ السَّنَةَ ١٦٦١. إِنَّ هَذِهِ النَّظَرِيَّةَ لَا تَسْتَنِدُ إِلَى أَيِّ أَسَاسٍ صَحِيحٍ، فَضْلًا عَنْ أَنَّهَا تَجْعَلُ السُّجِينَ يَقْضِي فِي الشَّمَائِيلِ مِنْ عُمْرِهِ، وَلَيْسَ هَذَا هُوَ الْوَاقِعُ، بِكُلِّ تَأْكِيدٍ. وَالنَّظَرِيَّةُ الْأُخْرَى حَوْلَ الدَّمِ الْمُلْكِيِّ الْمَزْعُومِ الَّذِي يَجْرِي فِي عَرْوَقِ السُّجِينِ، فَهِيَ أَنَّهُ كَانَ بْنَ آنَّ النَّمْسَاوِيَّةِ وَالْكَارْدِنَالِ مَازَارَانَ، وَأَنَّهُ أَبْصَرَ النُّورَ السَّنَةَ ١٦٤٤.

إن أسطورة الدم الملكي في عروق الرجل ذي القناع الحديدي ما تزال حية ، ومن أهم متفرعاتها الغريبة أنه قد تزوج في السجن ، واستقر ابنه في كورسيكا باسم دو بونابارته ، وكان جدّ نابوليون بونابارت : إن ذلك كان يمكن أن يشبع غرور نابوليون ، بكل تأكيد !

والاقتراحات الأخرى حول هوية ذي القناع الحديدي هي أنه كان دوق بوفور ، الذي توفي سنة ١٦٦٩ ، أو الكونت دو فرماندو المتوفى سنة ١٦٨٣ ، او مولير ، الروائي المسرحي الكبير ، المتوفى سنة ١٦٧٣ . حتى أنه زُعم أنه دوق مونث الذي قطع رأسه سنة ١٦٨٥ . وكل هذه الاقتراحات يسهل تكذيبها .

كان دوق بوفور الإبن الثاني للدوق دو فوندوم ، وهو ابن غير شرعي للملك هنري الرابع ، وقد وُلد السنة ١٦١١ ، وقد قُتل في نهاية حصار السنوات العشرين لكانديا ، على يد الاتراك العثمانيين ، في ٢٥ حزيران ١٦٦٩ . وقد أكَّد ذلك المركيز دو سانت أندريله مونبران الذي كان حاضراً . ولكن لما لم يُستعد قط جثمان الدوق ، فقد ساد الاعتقاد ، رداً من الزمن ، انه كان ذا القناع الحديدي ، وقد سُجن لأنَّه قاد ثورة

الفروند السنة ١٦٤٩ . وإذا كان دوق بوفور هو ذا القناع الحديدي ، إذًا كان قضى في سن الرابعة والتسعين - وهو أمر خاطئ تماماً . أما ثورة الفروند فهي الاسم الذي عرفت به الحرب الأهلية التي حدثت خلال فترة قصور الملك لويس الرابع عشر . وقد تسبّبت ، بصورة خاصة عن سياسة مازاران المالية . وكانت ذات مرحلتين : المرحلة الأولى ، وتُعرف باسم الفروند العجوز ، أو الفروند البرلمانية ، والفروند الثانية ، أو فروند الامراء ، وهي التي نحن بصددها ، وفيها شن كوند ، وبوفور ، ومدام دو لونغفيل ، بمساندة إسبانيا حملة عسكرية حقيقة على القوات الملكية التي كانت بقيادة تورين . وقد دامت هذه الحرب من السنة ١٦٤٨ إلى ١٦٥٣ ، في حين ان الفروند الأولى استمرت من السنة ١٦٤٨ إلى ١٦٤٩ .

كان الكونت دو فرماندوى ابن الملك لويس الرابع عشر وعشيقته مدام دو لا فالبier ، وقد أبصر النور السنة ١٦٦٧ . وتوفي السنة ١٦٨٣ . وقد احبه والده كثيراً ، على الرغم من انه كان في بعض الاوقات يوبخه على أعمال غير لائقة كان يقوم بها . ولكننا نجهل ما كانت طبيعة هذه الاعمال ، إلا أنها لا يمكن أن تبرر الحكم الجائر الذي صدر بحق ذي القناع الحديدي .

ومولير توفي السنة ١٦٧٣ ، ولما كان ذو القناع الحديدي لم يقض إلا بعد ذلك بثلاثين سنة ، فمن الصعب معرفة اين هو منشأ هذه الفكرة الغربية .

اما النظرية القائلة بأن ذا القناع الحديدي كان دوق مونوث ، فمن الصعب جداً تكذيبها او تسفيتها لأنها هي الاعتقاد السائد بين الكثيرين من الفرنسيين طوال فترة غير قصيرة من الزمن . وقد شاطر هذا الاعتقاد بعض أنصار مونوث في انكلترا - اولئك القلة الذين نجوا من غضبة القاضي ديجيفريز شبه القضائية . وحسب سان - فوى ، فإن الملك تشارلز الثاني طلب وهو على فراش الموت ، وكان على اطلاع واسع على مطامح ابنه وتهوره وعداً من أخيه دجيمس ، دوق يورك ، ألا يكون الموت عقاب مونوث مهما ارتكب من اساءات او جرائم .

ووافق دجيمس على ذلك ، لأنه كان مولعاً بهذا الشاب ، ولكن حرصاً منه على منعه من إلقاء السلام في انكلترا ، طلب إلى الملك لويس الرابع عشر أن يسجنه سراً

في فرنسا . وعندها يرى أن مونوث حُمل إلى فرنسا ، بينما وضع جسم بديل على خشبة الاعدام في تاور هل ، إثر معركة سدجمور ، السنة ١٦٨٥ . ولدعم هذا الرأي ، يزعمون أن سيدة هي اللايدي وتوريث استحصلت على إذن بفتح ضريح مونوث ، ولدى التفحّص ، هتفت : «آه هذا ليس هو !» وفضلاً عن ذلك ، زعموا ، كذلك ، ان حاكم برج لندن قال للايرل اوف دانبي ان الملك دجيمس الثاني وثلاثة اصدقاء أتوا الى البرج بعد سدجمور ، وحملوا مونوث . وأخيراً ، زعم طبيب جراح انكليزي اسمه نيليتن ، أنه استدعى الى سجن الباستيل ، خلال زيارة له الى فرنسا ، وقابل ذا القناع الحديدي الذي تكلم كامرئ انكليزي .

في «تاريخ انكلترا» لهيوم ، نقرأ أن الشعور الودي لدى الشعب ما زال يتبع مونوث في كل خطوة . حتى بعد اعدامه ، كان البعض يتعلّق بالأمل بأنه سيعود لقيادتهم ضد دجيمس الثاني ، وقد صدق ضمناً قصة الاستبدال في تاور هل .

اعتقد سان - فوى ان مونوث حُمل إلى سجن بنيرول (حيث أمضى ذو القناع الحديدي بضع سنوات) ، خلال غياب الحاكم سان - مارس . ولكن ذا القناع الحديدي كان في السجن قبل السنة ١٦٨٥ ، ولذا فلا يمكن أن يكون مونوث .

ليس ثمة اي شك على الاطلاق في إعدام دوق مونوث ، ذلك بأن شاهداً عياناً معاصرآ دون التفاصيل ، فقد روي أن الجلاد أخطأ عنق مونوث لدى الضربة الأولى ، ويزعمون ان مونوث نهض من على خشبة الاعدام وطلب اليه أن يصوّب بطريقة أفضل ! وفي السنة ١٧٠٣ ، لما توفي ذو القناع الحديدي ، كان الملك دجيمس الثاني قد توفي ، وتربيّعت على العرش المملكة آن ، ولم يعد ثمة اي سبب يجعل البلاط الفرنسي يحتفظ بسر واقعة ، إذا ما كشفت ، تبرئ ذكرى دجيمس من اللوم لأنّه نقض وعداً قطعه لأخيه تشارلز الثاني وهو على سرير الموت . وإذا كان ذو القناع الحديدي حقاً ، وفي الواقع ، دوق مونوث ، لكان الوزراء الفرنسيون أرضوا الفضول العام بإثباتهم ذلك .

وهنالك اقتراحات أخرى كثيرة حول هوية ذي القناع الحديدي من السخيف بحيث لا تستحق أن يُشار إليها ، ولكن اقتراحاً واحداً آخر يمكن أن يكون ذات أهمية ، لأنه يُظهر

كم هي بعيدة عن التصديق بعض النظريات المثيرة . فقد أعلن الكابيتين بازير ، من الجيش الفرنسي ، السنة ١٨٨٣ ، وكان خبيراً بالشيفرة أنه فك رموز رسالة مكتوبة ، على ما يزعمون ، بيد لوفوي ، وزير الحرية لدى الملك لويس الرابع عشر ، ووجهة إلى الماريشال كاتينا ، وهو قائد عسكري في ميدان القتال ، يطلب إليه فيها القبض على الجنرال دو بولوند بتهمة الجبن ، وسجنه في سجن بنيريول . وقد أمر الجنرال بوضع قناع حديدي على وجهه . ولما نشرت هذه الرسالة ، أحدثت دوياً . واعتبر أن السر قد حلّ أخيراً !

ولكن ذلك كان من الواقعية بحيث لا يصدق ! وكانت دقة فك الرموز مثاراً للجدل والتساؤل ، فضلاً عن برهان لا يدحض وهو أن الجنرال دو بولوند كان ما يزال حياً السنة ١٧٠٥ ، بينما توفي ذو القناع الحديدي السنة ١٧٠٣ .

إن الرجل ذا القناع الحديدي الأكثر احتمالاً ، إذا ، ولم يُذكر بعد اسمه ، كان الكونت الإيطالي إركولي ماتيولي ، المولود السنة ١٦٤٠ . كان سياسياً ودبلوماسياً إيطالياً استقر في مانتوى ، وشغل منصب وزير الخارجية لدى دوق مانتوى . أما لماذا استحق مصير الرجل ذي القناع الحديدي ، فسرى في ما بعد . إلا أنه من المهم في هذه المرحلة أن نُظهر أي بيّنة لدينا حول الواقع التاريخية الحقيقة المتعلقة بذى القناع الحديدي ، لا فرق من يكون .

يبدو أن ثمة ندرة في المصادر التي يمكننا الرجوع إليها ، ولكن في السنة ١٧٦٩ ، نُشرت مفكرة أحد ضباط سجن الباستيل ، القلعة الحصينة في العاصمة باريس ، وقد كان الهجوم عليها السنة ١٧٨٩ إشارة لنشوب الثورة الفرنسية . وكان الضابط يدعى ليتين دوجونكا ، وقد بدأت خدمته في السجن قبل وصول ذي القناع الحديدي ، ولم تتوقف إلا بوفاته شخصياً ، بعد سنوات ثلاث من وفاة ذي القناع الحديدي . والمفكرة كناية عن تسجيل بسيط يومي للأحداث ، بعيد عن التحييز ، وصادق مكتوب عن معرفة مباشرة ومن المصدر الأصلي . والاشارتان الأكثر أهمية المتعلقة بهذا السر كُتبتا يوم وصول ذي القناع الحديدي ، ويوم وفاته ، ويكتننا اقتباسهما كلياً ، حسب ترجمة الرائد البحري روبرت غولد :

« يوم الخميس الموافق ١٨ أيلول ١٦٩٨ ، وفي الساعة الثالثة من بعد الظهر ، وصل السيد دو سان - مارس ، حاكم حصن الباستيل من جزيرة سانت - مارغريت . وقد حمل معه في محققّة أحد سجنائه السابقين في بنيرول (حيث كان حاكماً من السنة ١٦٦٤ إلى السنة ١٦٨١ ) ، لم يُدْ كر اسمه ، وكان مقنعاً على الدوام . ولدى وصوله ، وُضع في برج لا باسيئير ، حتى هبوط الليل . وفي التاسعة مساءً قدمه شخصياً إلى الغرفة الثالثة في برج لا برتودير ، وكانت قد اهتممت بحسن تجهيزه قبل وصوله ، بناءً على أمر تلقيته من السيد سان - مارس . وقد رافقني أثناء نقله السيد دو روزارج ، الذي أقبل مع سان - مارس ، واعتنى بالسجناء ، وقام على خدمته ، وكان الحاكم قد وفر له طاولة . »

أما الاشارة الثانية الهامة في المفكرة ، فقد كُتبت بعد خمس سنوات ، وهذا نصّها : « يوم الإثنين في ١٩ تشرين الثاني ١٧٠٣ ، السجين المجهول ، الذي حمله السيد دو سان - مارس من جزيرة سانت - مارغريت حيث كان خلال فترة طويلة من الزمن تحت عنايته ، وكان مقنعاً دوماً بقناع من الجمل الأسود ، وجد نفسه أسوأ أمن ، بعد عودته من حضور القدس ، وتوفي هذا المساء الساعة العاشرة ، دون أن يعاني مرضًا خطيراً . وقد تلقى السيد جيرو ، القيسين الملحق بالسجن ، أمن اعتراه . ولما كانت وفاته مفاجئة ، فإنه لم يستطع التزوّد بالسر المقدس ، غير أنّ قسيسنا وعظه قبل دقائق قليلة من لفظه أنفاسه . وقد دُفِن يوم الثلاثاء ، في ٢٠ تشرين الثاني ، في مدفن أبرشيتنا ، أبرشية القديس بولس ، وكلفت جنازته أربعين ليرة . »

هذه المقتطفات دقيقة وواضحة المعالم ، وبلا تزويق . وهنا يمكننا اقتباس كلام سجل في أبرشية القديس بولس لتأكيد ملاحظات دو جونكا الخاتمية : « في السنة ١٧٠٣ ، وفي ١٩ تشرين الثاني ، توفي ماركيالي ، البالغ من العمر خمساً وأربعين سنة ، أو حوالي ذلك ، في الباستيل . وقد دُفِن جثمانه في مدفن هذه الابرشية ، أبرشية القديس بولس ، في اليوم العشرين من الشهر المذكور ، بحضور السيد دو روزارج ، الرائد في سجن الباستيل ، والسيد ريل ، الجراح الذي يوقع هذا وفقاً لذلك . »

من كل ما قيل عن السجين ذي القناع الحديدي ، لا شيء يمكن أن يتجاوز الاعتماد الذي يمكن أن يوضع على يوميات دو جونكا . إنها الكتابة الحقيقة لشاهد عيان ، كان يكتب في كل يوم بيده شخصياً وفي يوميات الأحداث كما كانت تحدث تماماً ، بكل دقة . وليس ثمة أي سبب إطلاقاً لكي يكون الحال غير ذلك .

الآن بات معروفاً ، بكل تأكيد ، متى سُجن ذو القناع الحديدي أصلاً ، ولكننا نعرف أنه أُرسل ، أولاً ، إلى بنينرول . ويبدو أنه وضع تحت عناية سان - مارس الخاصة ، وكان حاكماً لأربعة سجون في فرنسا هي : بنينرول من السنة ١٦٦٤ إلى ١٦٨١ ، وإكزيل من السنة ١٦٨١ إلى ١٦٨٧ ، وسانت - مرغريت من السنة ١٦٨٧ إلى ١٦٩٨ ، ثم سجن الباستيل من السنة ١٦٩٨ حتى وفاته . ومن حسن الطالع أن الكثير من مراسلاته ظلت سليمة ، إلا أنه من الصعب جداً معرفة من سُجن خلال مدة حاكميته للسجون الأربع ، ذلك بأن معظم السجناء كان يشار إليهم باسماء زائفة ، أو بعبارات مبهمة من مثل «ذو القناع الحديدي» . ولكن من الممكن وضع لائحة بأولئك السجناء الذين كانوا في سجن بنينرول ، وبعد أن يشطب أولئك الذين أطلق سراحهم ، وأولئك الذين قضوا ، يبقى معنا سجينان . أحدهما ، إذا ، يمكن إن يكون ذا القناع الحديدي . والسجنانيان كانوا ، واحداً يُدعى دوجه ، وقد أوقف السنة ١٦٦٩ بتهمة ربما لن تُعرف ، والأخر ماتيوولي . وتخبرنا مقتطفات مفكرة دو جونكا أن السجين المقصَّع حمله إلى الباستيل سان - مارس الذي كان مكلفاً بالإشراف عليه في بنينرول وسانت - مرغريت . وسنرى في ما بعد أن ماتيوولي أُرسل أولاً إلى بنينرول عندما أوقف السنة ١٦٧٩ .

قال السيد دو لاغرانج شانسيل ، وهو كاتب سُجن في سانت - مرغريت بسبب نظمته قصيدة هجائية بحق الوصي على العرش ، دوق اورليان ، إنه سمع ان سان - مارس كان يتصرف باحترام تجاه السجين المقصَّع . وكان الطعام يقدم إليه دوماً على صينية فضية ، وكان يزود بالملابس الثمينة حسب رغبته . وأضاف شانسيل إلى ذلك قوله إنه تحدث إلى شاهد عيان رأى ذا القناع الحديدي ، وهو أمرق طويل القامة ، رمادي الشعر . وزعم الأب لانغليه دوفينوي ، الذي سُجن في الباستيل لفترات

قصيرة متعددة ، أنه قابل السجين ذا القناع . وأعلن انه كان حاد الذكاء ، ومهذبا ، ويدا من حديثه أنه قام بأسفار في مختلف أرجاء أوروبا . والسيد لانغله ، الذي سُجن في الباستيل من السنة ١٧٨٠ إلى ١٧٨٢ ، قال له الخدم الذين قام آباؤهم على خدمة ذي القناع ، إن الحاكم كان يقوم على خدمته شخصيا أثناء تناول وجبات الطعام . وبعد وفاة ذي القناع الحديدي ، انتزع من حجرته كل أثر يمكن أن يدل على أنه عاش فيها . وقد كشطت الجدران ، وانتزعت الأرضية الخشبية ، وأحرقت ، وأنزل السقف وسحق تماماً . وأزيل كل أثر ممكن منه وأحرقت كل قطعة من الرياش حتى الرماد ، وصهرت كل الآنية المعدنية . وقد أثبتت ذلك مذكرة كتبها أحد ضباط قلعة الباستيل ، ويدعى شوفالييه ، كما أكد أن القناع كان مصنوعاً من المholm الاسود .

كان السيد دو شاميير آخر وزراء فرنسا ، يموت ومعه السر . وكان الى سرير موته صهره الماريشال فوياد ، فحاول انتزاع الحقيقة من الرجل المشرف على الموت ، ولكن شاميير رفض . وكان اعتقاد القول غالباً للذين كانوا يزعجونه بالسؤال ان ذا القناع الحديدي كان امراً مطلعاً على أسرار نيكولا فوكيه ، وزير المالية في عهد مازاران . وقد أوقف فوكيه السنة ١٦٦١ بتهمة اختلاس بضعة ملايين من الليرات الفرنسية ، وقد تكللت محاكمته التي استغرقت عدة سنوات ، بالحكم عليه بالسجن مدى الحياة ، وقد سُجن في بنينول . وقد نجم عن هذه الواقعة الاعتقاد الذي دام بضع سنين ، بأن ذا القناع الحديدي ليس إلا فوكيه ، وأنه الأخ غير الشقيق وغير الشرعي للouis الرابع عشر . وبالإمكان صرف النظر عن هذه النظرية واعتبارها غير ذات قيمة . غير انه يبدو أكيداً نوعاً ما أن يعرف فوكيه السجين ذا القناع ، لأن هذا الأخير وصل الى بنينول خلال محكومية فوكيه . ويمكن أن يكون قد عرف كل شيء عن فوكيه ، مما يُظهر هكذا صحة أقوال شاميير .

سُنل الماريشال دوق ريشيليوا ، حفيد أخي الكاردينال السياسي الدهاهية الشهير ريشيليوا ، من كاتب ترجمته سولافي ، اذا كان الرجل ذو القناع الحديدي هو الأخ الأكبر للouis الرابع عشر ، وقد وُلد دون علم Louis الثالث عشر . فأجاب إن ذا القناع هذا لم يكن الأخ غير الشرعي للouis الرابع عشر ، ولا دوق مونموث ، ولا الكونت دو

فرماندو ، ولا دوق بوفور . ولكنه أضاف ان تفاصيل كثيرة حول ذي القناع كما يرويها مقال لفولتير هي صحيحة . ويقتبس كاتب سيرة ريشيليوا عبارة من ريشيليوا ، على النحو التالي : «كل ما يمكنني قوله ان السجين لم يكن من الامامية لدى وفاته في مطلع القرن الحالي ، كما كان لدى زوجه في السجن في بادئ الأمر . فقد سُجن لأسباب سياسية هامة . لماذا لا تقرأ ما نشره فولتير مؤخرًا حول هذا الموضوع ، وبخاصة في الختام ، وتتأمل فيه؟»

بوسعنا اقتباس الجزء الأخير من مقال فولتير ، ولكن قبل القيام بذلك ، تقضي الضرورة بتلخيص قصة ماتيوولي ، والأسباب المحتملة لسجنه مقنّعاً بالقناع المحملي الأسود .

سبق أن ذكرنا أن ماتيوولي ولد في إيطاليا ، السنة ١٦٤٠ ، وأنه كان وزير الخارجية لدى دوق مانتوى . وخلال مدة ولايته ، تورط في مفاوضات سرية أدّت إلى ما يمكن تسميته «حياة مزدوجة» . ساوم الفرنسيين لكي يسمح للقلعة الحدودية كازاله ، في مانتوى ، بأن تستقل إلى يدي الملك لويس الرابع عشر ، لقاء ١٠٠ ألف كراون ، على ما يزعمون . إلاّ أنه في الوقت نفسه ، كان دوق مانتوى يهتم بطرد الفرنسيين من إيطاليا ، فاستخدم ماتيوولي للقيام بمفاوضات مع مختلف البلاطات في إيطاليا ، لحملها على الانضمام إلى عصبة ضد الفرنسيين . فنجح مع كثير منها حتى وصل إلى تورينو لفصل دوق سافوى عن المصالح الفرنسية . وخلال قيامه بهذه المهمات الدبلوماسية ألغى الصفقة مع فرنسا الخاصة بقلعة كازاله ، وكان من عدم الفطنة بحيث راح يتحدث عن ذلك .

وكان من الخطير تماماً خداع لويس بهذه الطريقة و«اللعب معه على الجبلين» ، وعرف قصر فرساي بالأمر . فأرسل الملك الشمس تعليمات إلى عملاء للقبض على ماتيوولي في تورينو ، وحمله سرًا إلى فرنسا . ونُفذ الأمر ، وسُجن ماتيوولي على الفور في بشيرول (١٦٧٩) .

صحيح أن جرائم من هذا النوع لم تكن غير مألوفة في القرن السابع عشر ، إلا أن اختفاء وزير خارجية في مثل هذه الظروف الغريبة ، كان يمكن أن يُحدث احتجاجاً

من قبل دوق مانتوى . إلا أنه ليس ثمة ، مع الأسف ، أي مراسلة معاصرة تؤكد هذا الاحتجاج ، ولم يُحفظ طويلاً سر مصير ماتيولي . وبعد ثلاث سنوات ، نُشر في مدينة كولونيا الألمانية كتاب نعرف منه ان ماتيولي قُتُل بعد القبض عليه مباشرة . وتعطي رسائل سان - مارس والوثائق إشارات الى أنه ينبغي اتخاذ كل التدابير الآيلة الى الاهتمام بعدم افتضاح هوية السجين .

أما لماذا لم تحفظ أي مراسلة من دوق مانتوى حول هذا الموضوع ، فبالإمكان الآن توضيحها بأن الأمير اوجين ، الذي استولى على مانتوى السنة ١٧٠٧ ، ارسل كل المحفوظات الرسمية (الارشيف) الى فيينا ، حيث اختفى مذاك ، الكثير منها . وأظهر تدقيق مضاعف في محفوظات تورينو أن الرسائل والوثائق التي كتبت بين السنة ١٦٦٠ و ١٧٠٠ قد فقدت . وقد احتاج دوق مانتوى ، بالفعل ، بشدة ، ولكن لويس الرابع عشر أنكر معرفته بانتهاك حرمة القانون ، ذلك بأنه فيما لو اعترف بذلك ، لاعتبر عمله خرقاً للقانون الدولي .

زمن الثورة الفرنسية ، قال امرؤ يبلغ التاسعة والسبعين من العمر ، ويُدعى سوشون ، ان والده كان مستودع أسرار سان - مارس ، وقد أخبر الأب ابنه ان ذا القناع كان وزيراً في الامبراطورية ، في بلاط تورينو . وكان دوق مونتوى أميراً في الامبراطورية . ولطالما كان الملك لويس الخامس عشر يُسأل بالحاج لاعطاء معلومات عن هوية ذي القناع ، فكان يتملص دوماً من كشف الحقيقة . غير أنه ، في مناسبة وحيدة ، أسرَّ الى دوق شوازول ، صديقه المفضل ، الذي كان يدير السياسة الفرنسية خلال حرب السنوات السبع ، ان السجين كان وزير احد الأمراء في ايطاليا . وكان فولتير يعرف ، بلا ريب ، إلا أن اهتمامه بسلامته الشخصية ، وبقاءه في قيد الحياة ، حالا دون اعطاء جواب مباشر .

عندما هوجمت قلعة الباستيل السنة ١٧٨٩ ، أُجري تفتيش دقيق في الغرفة الثالثة من برج بروديير ، حيث أقام ذو القناع . إلا أنه بسبب الاحتياطات التي اُتخذت إثر وفاته - وقد سبق وصفها - لم يكتشف اي شيء يمكن ان يشكّل أي دليل . وقضى على السرأن يبقى بلا حلّ الى الأبد ، وحتى أن الاقتراح القائل بأن ذا القناع كان ماتيولي لم يُبرهن عليه برهاناً «لا يكتنفه اي شك» .

إذا عدنا الى ما ذكره دوق ريشيليو لواضع سيرة حياته ، نرى ان مقالاً لفولتير يمكن أن يقدم الجواب . وبعد التخلص من النظريات التي سادت طويلاً وكثيراً ، مع أنها لا تقوم على أي أساس ثابت ، وهي أن ذا القناع كان إما دوق بوفور ، أو دوق مونغوث ، او فرماندو ، او شقيق الملك لويس الرابع عشر التوأم ، او اي شخص آخر مما كانت ترجحه التخمينات السخيفية ، يكتب هذا الأديب الفرنسي فولتير ، قائلاً :

«بعد ان تبدّلت كل هذه الأوهام ، لم يبق إلا أن نعرف من كان هذا السجين ، وفي أي سن توفي . . . هو قال شخصياً لصيادي الباستيل قبيل وفاته انه يعتقد انه في حوالي الستين من العمر . وكان يرد على ذلك ، غالباً ، السيد مارسيان ، الذي كان صهر الصيدلي ، والجراح الخاص للماريشال دوق ريشيليو ، ثم للوصي على العرش دوق اورليان . لماذا أطلق عليه اسم ايطالي؟ كانوا دائماً يسمونه مارشالي . وكانت هذا المقال يعرف أكثر مما يعرف الأب غريفه (المؤول عن نشر يوميات دو جونكا) ، ولكنه لا يرغب في قول شيء» .

إذاً ، فإن كل القرائن تشير إلى أن ماتيولي هو ذو القناع الحديدي ؛ وثمة دليل واحد آخر يعزّز ذلك . فقد كان دوجه ، زميل ذي القناع في السجن . وقد ذكرناه من قبل - كان ، بلا ريب ، يقوم على خدمة سجين آخر يُدعى فوكيه . ومن هنا يبدو مستحيلاً أن يعامل رجل من هذه الطبقة باحترام كبير من قبل سان-مارس ، ويُخدم على المائدة من قبله ومن مساعدته في القيادة روزارج . وهذا يدع جانب السجين الآخر ، ذا القناع ، وينبغي ان يكون ماتيولي ، والى هذا الخدّسنصل في عملية حل هذا السرّ . سرّ الرجل ذي القناع الحديدي !

\* \* \*

### مارسيل بانيول يرفع واقية الوجه في القناع الحديدي ...

بعد الكثرين ، وأحدثهم هم المؤرخون جورج مونغريديان ، وموريس دوفيفيه ، وفرانس فونك برنتانو ، انكبّ مارسيل بانيول ، المسرحي الفرنسي ، على لغز «ذى

القناع الحديدي» . لماذا؟ إنه لا يفصح عن السبب ، ولكن كل شيء يحمل على الاعتقاد أن قسماً من أسر السجين الغامض انقضى في جزيرة سانت - مرغريت ، التي تُتخذ إطاراً كل سنة ، للمأدبة - الرحلة البحرية التي تُقام للمدعىين إلى مهرجان كان السينمائي . ومن هنا تحدث بانيول بصفته كاتباً سينمائياً ، ويصفه جنوب المزاج . . . وهو يدافع عن نفسه لكونه قام بعمل مؤرخ ، مع أنه أهدى كتابه إلى صديقه أندريل شامسون الروائي ، وكان في الوقت نفسه مديرًا للمحفوظات الوطنية . ولكن إذا ما كان صاحب مسرحية «ماريوس» يدفع بعدم اختصاصه كمؤرخ ، فذلك لا يعني أن عمله هو سلسلة مزحات أو دعابات . . .

كان رفائيل ، السجين السابق في قلعة الباستيل ، من نشر للمرة الأولى الرواية الأولى المطبوعة لقصة «ذى القناع الحديدي» . بالنسبة إليه ، كان ذلك شخصاً محكوماً عليه بالسجن المؤبد «لنظامه» ، وهو تلميذ ، في الثانية أو الثالثة عشرة ، بيتهن من الشعر في حق اليهوديين» .

بالطبع ، هذا كلام مختلف لا يقوم على أي أساس من الواقع . والمؤلف الثاني المطبوع هو رواية بعنوان «مذكرات سرية لخدمة تاريخ فارس» ، يفترض أن ذا القناع الحديدي كان فرماندو ، ابن لا فالبيير والملك لويس الرابع عشر ، الذي اتهم بأنه صفعولي العهد . وهذه فرضية غير مقبولة أيضاً ، ذلك بأن لدينا البراهين على موت ابن السفاح (في السنة ١٦٨٣) ، في حين أن ذا القناع ألقى القبض عليه السنة ١٦٦٩) ، وعلى جنازته ، والقداديس السنوية التي أمر بإقامتها والده الملك الذي كان يحبه حتى العادة .

وبحسب رأي الأميرة بالاتين ، دوقة أورليان ، وشقيقة زوجة الملك ، كان ذو القناع انكليزياً ، هو دوق مونغوث ، ابن الملك تشارلز الثاني ولوسي ولترز ، المدبر البائس لمؤامرة ضد وليام الثاني الانكليزي ، بهدف استعادة عرش والده . غير أن وجهه غير المعروف في فرنساليم يكن بحاجة إلى قناع لإخفائه .

في جملة الذين حُشروا في عداد من زعم انهم كانوا «ذا القناع الحديدي» ينبغي ذكر انكليزي آخر هو ابن كرومويل ، الذي عاش ، بالفعل ، في فرنسا ، ولكنه ظهر

مجدداً فيما بعد في إنكلترا حيث قضى في تيشيشانت السنة ١٧١٢ . وتحدثوا كذلك عن البطريركالأرمني آفیداك ، الذي اختطفه اليهوديون . ولكن لم يُسجن في سانت-مارغريت ، بل في جبل سان-ميشيل . وفضلاً عن ذلك ، أطلق سراحه . ويصبح ترشيح (بعد الوفاة) دوق بوفور أكثر قبولاً ، أحد زعماء ثورة الفروند ، والشخصية البعيدة الشعيبة الملقب «ملك الهال» (سوق الخضر) ، الذي أعلن اختفاؤه رسمياً في معركة كاندي . ولكن سان-مارس حاكم الجزيرة ، ذكر في رسالة الى لوفوي انه تنتشر شائعة في سانت - مارغريت أنذا القناع هو دوق بوفور ، فإن المؤرخين يقدرون انه لا يمكن ان يقدم هكذا ، وبهذه السهولة ، مفتاح السرّ ، إذا ما كان ذلك المفتاح الصحيح ، وخصوصاً في رسالة موجهة الى رئيس الوزراء ، الذي لا بد أنه يعرف ذلك حتماً !

تبقى أخيراً النظرية التي يقول بها المؤرخ ميشل ، وال المتعلقة بابن سفاح للملكة آن دو تريش . وكذلك النظرية القائلة بأن ذا القناع الحديدي كان مولير - ولكن بانيول لا يشير الى ذلك - لأن شخصية الكاتب الكلاسيكي الكبير ، وحياته تبيّنان ، من وجوه عدة غامضة (فنحن لا نملك أى مخطوطه منه) .

ولكن ، من هو في رأي بانيول ذو القناع الحديدي ؟  
 قبل ان يعيّن ذا القناع الحديدي ، يحرص بانيول على تحطيم الفرضية التي تحظى ، عموماً ، بقبول المؤرخين : فرضية الكونت ماتيولي .  
 كان اركولي انطونان ماتيولي رجل قانون من حيث المهنة ، ومتآمراً في طبيعته .

وكان أثيراً لدى شارل الرابع دو غونزاغ ، دوق مانتوى ، في إيطاليا . ويسرب حاجته الدائمة إلى المال ، علم هذا الدوق أن في نية الملك لويس الرابع عشر شراء موقع كازاله الحصن ، فكلف ماتيولي التفاوض في هذه الصفقة لقاء ١٠٠ ألف ريال فرنسي .

وهبط ماتيولي مرسيليا ، فاستقبله الملك الذي قدم إليه المائة مكافأة له على مساعديه الحميدة . ولم يدر لويس الرابع عشر ان ماتيولي قد وفى بذلك لكل الذين يخشون رؤية فرنسا تستقر في مدينة تُعتبر المفتاح لإيطاليا . فلما علم الملك الشمس أن البندقين (أهل فينيسيا أو البندقية في إيطاليا) ، والاسبان على علم بذلك ، اخطف الخائن وارسله إلى سجن بنيرول .

بالنسبة إلى مارسيل بانيول ، سُجن ماتيولي ، فعلاً ، مع ذي القناع الحديدي ، ولكنه لم يكن هو إياه : كان أخاً توأمًّا للملك لويس الرابع عشر ، أوقف سُجن حتى موته ، طوال ٣٤ سنة باسم اوستاش دوجه .

دوجه هذا ليس فكرة بالنسبة إلى الذين اهتموا بقصة ذي القناع . ولكن هل كان حقاً الأخ التوأم للملك ، الذي أُبقي مولده سراً لتفادي أخطار قسمة الناج ، وقد قُبض عليه لدى عودته من انكلترا في اللحظة التي كان فيها على أبهة إظهار حقوقه ؟  
ويؤكد مارسيل بانيول ذلك بحرارة جنوبية ، حتى أنه يجد تبريراً لإقامته في انكلترا لأنه كان من الخطير تريته في فرنسا بسبب شبهه الشديد للملك .

بالطبع ، المؤرخون ليسوا متفقين ، وقد ردّ جورج منغريديان بحيوية في جريدة «له نوفيل ليتيرير» : «من هو اوستاش دوجه ، وماذا فعل؟ ماذا نعرف عنه؟ فنحن لا نعرف ، فضلاً عن مكان القبض عليه وتاريخه ، والقصة المعروفة جيداً عن أسره ، سوى اشارة واحدة وحسب . ففي الرسالة التي أعلن فيها لوفوي انه يرسل هذا السجين إلى السيد سان - مارس لكي يشدد الحراسة عليه في زنزانة بنيرول ، مكلفاً إياه شخصياً بحمل الطعام إلى «هذا البائس» ، فضلاً عن أنه ليس من المناسب تزيين زنزانته بأي رياش «كثير» لأنه «ليس إلا خادماً». هذا كل شيء !

ويُنوي بانيول أن يثبت أن دوجه لم يكن خادماً ، بل «كان على ، التقىض ، شخصية كبيرة الأهمية» .

من هو المصيب؟ لا أحد يسعه تعين ذلك ، ولكن كل واحد يكتبه أن يجد من الغريب حقاً ان يكلف لوفوى حاكم سجن بنىبرول ، وهو من النبلاء ، أن يخدم بنفسه هذا «الخادم» دوجه بتقديم الطعام اليه . . .

علاوة على ذلك ، يكتشف بانيول في إحدى رسائل سان - مارس الى لوفوى عبارة فريدة في نوعها . فهو يكتب متحدثاً عن ماتيولي : «ولكي يتحقق جنونه ، يردد أن له الشرف بأن يكون من أنسباء الملك القريبين وأنه يود الكتابة اليه والشكوى من معاملتي له . . .».

ويسأل بانيول : «هل من الأكيد أن ماتيولي هو من قال «من أنسباء الملك القريبين»؟ وقد أعلمنا أنه جنّ ، ذلك ممكن . ولكن اذا كان ذو القناع الحديدي قال ذلك في سورة يأس ، فمن المؤكد أن سان - مارس لم يعزُ اليه هذا القول خشية ان تُفقد الرسالة في الطريق ، أو أن يقرأها أحد موظفي الوزارة . واذا كان ذو القناع حقاً نسبياً قريباً للملك ، فإنه يعلم ان لوفوى سيتعرف من فوره الى المذنب .»

بالاختصار ، كان هناك ظل من الشك يحيط بحياة الملك الشمس . والجدال ، كما نرى ، لم يُحسم ، ولن يُحسم في وقت قريب !

## لقاء مع القدر: ٢٠ حزيران ١٨١٠ الكونت دو فرسن يقضي اغتيالاً!

ان القدر الذي يلذّ له الحدس والتخيّل الغريبيان واللقاءات السرية ، احتفظ لنفسه بمنع الكونت دو فرسن الموت البطولي الذي كان يطلبه بكل قواه . ففي الواقع ، لم يغفر الكونت قط لنفسه أنه أطاع أوامر الملك لويس السادس عشر الذي عارض في أن يرافق الضابط الشاب الأسرة المالكة في ذلك الهرب الذي كانت نتيجته علىأسوء ما يمكن في فارين ، في ٢٢ حزيران ١٧٩١ .

غالباً ما رويت قصة «مَيْل» ماري - انطوانيت إلى «السويدى» ، الوسيم كالملاك ، ذي الروح المشتعلة تحت قشرة من الجليد» ، وحللت ، وفحضت ، بحيث أصبح من الصعب جداً على المرء أن يمارس حدة الذهن في محاولته إلقاء ضوء كاشف على القضية الحساسة التي تتطلب الإعلان عما إذا كان «مع او ضد» ! وليس من الممكن لنا أن نعرض ، مع ذلك ، الخطوط الكبيرة لهذه المأساة التي بدأت ، طائشة وخفيفة ، في الحفلة الراقصة في دار الأوبرا . كانت الدوفينية - زوجة ولی العهد الفرنسي - تعيش الرقص الذي كان ينسجم تماماً مع قدّها اللین الدقيق ، المتنكرة بلباس دومينو وقناع للعينين - وهو قناع نصفی من مخمل . وقد هرعت إلى الحفلة الراقصة التنكرية في ذلك الأحد ٣٠ كانون الثاني ١٧٧٤ . ولعلها تعرّفت بين الحشد الذي أحاط بها إلى هذا الغريب الذي سبق أن قدم إلى البلاط . ولعل استفهامها به اجتذب إليها اهتمامه . كان طويلاً القامة ، مشوّقاً رهيفاً ، وشديد الأنفة ، دون أن يتمتع ، مع ذلك ، بشيء مما يميّز «السيد الصغير» . وجهه عادي الامارات ، هادئ ، ورزين ، ونظراته عميقه وكثيبة ، تحت أهداب كثيفة قاتمة . ولقد أبصر اكسيل دو فرسن النور في ٤ أيلول

١٧٥٥ ، في أسرة عريقة من أسر المقاطعات البلطيقية ، وهو يقوم ، برعاية معلمه ، بجولته في أوروبا تبعاً للعادة الرسمية السائدة آنذاك ، وتقضى بأن يصبح الشاب مؤهلاً لشغل كل المناصب التي يمكن أن يقوده إليها مقامه ويسعه المطالبة بها . وتمت بين الاثنين - زوجة ولد العهد دو فرسن ، محاذية رشيقه ، حاذقة ، بشوش ، إلى اللحظة التي فوجئ فيها ، وشعر ، بلا ريب ، بالخيبة ، إذ شاهد عدداً من السيدات يُحيطن بالمجهولة الفاتنة ، ويقدنها بعيداً عنه . وسرعان ما عرفها الجمهور ، وتمت بذهول : «زوجة ولد العهد ! ... إنها البدوفينة ! ... » واختفت .

بعد إقامة في لندن عاد دو فرسن إلى السويد ، ولم يعد إلى فرنسا إلا بعد ذلك بأربعة أعوام ، بعد أن فاض قلبه حبوراً وجذلاً . ولما قدّمه الوزير دو كروتز إلى العاهلين ، هتفت الملكة : «آه ! إنه صديق قديم !» ذلك بأنها لم تحرض على نسيان هذا النبيل الوسيم الذي افتن بتلك التي كانت أجمل النساء في بلاطها ، والتي سمحت بكل طيب خاطر أن تستمع إليه يقول لها ذلك . أكان ذلك هو عاشقة ؟! القدر جلت أكسييل دو فرسن أن يأتي ليشاهدتها مرتدية زي الخيالة الخفيفة لدى ملك السويد . واستسلم برضاء إلى هذا الطلب ، وللمناسبة فُتحت له الاجنحة الصغيرة الخاصة للمرة الأولى . بالطبع ، إنها لا تحبه حقاً ، بعد . أما قدره هو ، المسكين ، فقد تحدّد . كان متيناً ، ويجنون ، بحيث فضل الهرب . وسارع إلى التوقيع على الاتصال بإحدى العملات العسكرية التي كانت تجهّز بالتجاه أميركا . فلما عرفت بذلك الدوقة فيتر - دجيمس ، قالت له : «ماذا ، يا سيدي ؟ أتخلى عنّي أسرها قلبك ؟» فأجابها السويدي الوسيم برازانة : «أنا لو كنت أسرت قلباً ، لما تخليت عنه ، إنني أذهب حراً ، ومع الأسف دون أن أخالف أي ندم .» ومع ذلك ، لما أقبل يستأذن للسفر ، أمكن كل واحد أن يرى أن الملكة «لم تستطع تحويل عينيها عنه ، وإنهما ، لدى تأمله ، أغروا رقتا بالدموع» ، الأمر الذي أثار ألف تعليق ، وألف تأويل ، وألف افتراء ! وعقب هذا السفر الذي لم يتم ، عُين دو فرسن عقيداً بناء على طلب فوج روایال - دو - بون . وخشيـتـتـ الزـمـرةـ المـحـيـطـةـ بـالـمـلـكـةـ منـ نـفـوذـ الضـابـطـ الـذـيـ كـتـبـ إلىـ والـدـهـ يـقـولـ : «إنـ الإـيـنـاسـ الـذـيـ تـبـدـيـهـ نـحـويـ ، وـهـذـهـ الرـتـبـةـ الـعـسـكـرـيـةـ ، وـمـنـصـبـيـ - كلـ ذـلـكـ قدـ جـرـ عـلـيـ

الحسد من جانب كل الشبان في البلاط» ، في حين كانت ماري- انطوانيت ، في قصر تريانون ، تنشد ، بالمشاعر التي لا تخفي على أحد ، هذين البيتين من اوبرا «ديدون» :  
آه ! لكم ألمت جيداً  
عندما استقبلته في بلاطي . . .

في الحقيقة ، ينبغي أن يكون المرء أعمى لكي لا يرى ، والله وحده يعلم ، ما إذا كانت نظرات «الجوار» تعطش لاكتشاف أحاسيس الملكة وميول قلبها السرية لو إذا كان لنا أن نصدق الكونت دو سان - برييه ، «فإن السيدة دو بولينياك لم تعارض قط ذوق صديقتها .».

غير أن دو فرسن ، لم يصرف النظر كلياً عن مشروعه القاضي بابتعاده . ففي آذار ١٧٨٠ ، وبدعم من بروتوبي وفرغين ، عُين مرافقاً للجنرال روشاumbo . ولم يعد إلى فرنسا إلا السنة ١٧٨٣ ، عقب انتهاء الحرب الاميركية - البريطانية ، وبعد أن اكتسب الشهرة بأنه «أحد الضباط من كان يرتاح الجزرا إلى مواهبه أكثر من سواه». إذًا ، وسط كل نضارة شبابها ، دننت ماري- انطوانيت ، بمصاحبة قيثارها الذهبي ، بعد ظهر أحد أيام حزيران ، ربما هذا البيت التنبؤي :  
آه ! إذا ما انتزعت مني الحرية . . .

وครع أحد الحجاب بباب الصالون ، فإذا دو فرسن أمامها ، وقد تغير ، «كبر عشر سنين» ، وقد اضنته متاعب حياة الخيمات والمعارك . وإذا كانت ماري- انطوانيت قد انزعجت لدى رؤيتها مجددًا «العزيز رينيون» ، فهو ، شخصياً قد أسر : فعلى الرغم من الجبين العريض جداً ، والأنف الضخم نوعاً ما ، والعيينين القصيرتي النظر ، والذقن الثقيل ، والشفة النمساوية الشهيرة ، لم ير سوى عنق يوناني لم يفتأ يحرك شورنا عندما تتأمل رسمًا للملكة ، ذات القدّ المشيق ، والمشية «المداعبة» ، والجلالة المفعمة بالنبل ، والنظر اللطيفة والرقيقة ، والبشرة الشقراء ، ولون الوجه المشرق الذي كانت تشكو منه السيدة فيجه - لوبران التي لم تستطع إبرازه .

إن طموحه اقتصر مذاك على البقاء في فرنسا . فطلب إلى والده أن يساعدته في تسديد المائة ألف ليرة التي كان يطلبها الكونت ألكسندر دو سبار لكي يتنازل له عن

قيادة «الفوج الملكي السويدي» ، متوسلاً إليه أن يوافق على «الشيء الوحيد الذي يمكن أن يجعله سعيداً إلى الأبد» ، مضيفاً أن ثمة بعد «ألف سبب آخر لا يجرؤ أن يسجّله على الورق». وأخيراً ، تدخل الملك غوستاف الثالث شخصياً ، راجياً الملك لويس السادس عشر أن يمنح الكونت دو فرسن شهادة «بأنه خدم تحت لواء جلالتك في أميركا بموافقة عامة ، وأثبت بذلك أنه جدير بحسن التفاتك». وقد تم كل شيء على خير ما يرام . وبتأثير من زوجته ، تلطّف ملك فرنسا بمنح موافقته على هذا الطلب ، وكتبت ماري - انطوانيت التي «شاءت الاهتمام بذلك» بخطّ يدها على الرغم من كل العادات أنها لن تنسى شيئاً «من أجل مساعدة شقيقها وابن عمها في آرائه».

وواجه دو فرسن البؤس بطيب خاطر ، وألفى نفسه مضطراً إلى مرافقة مليكه ، تحت اسم الكونت دو هاغا ، في تجواله عبر أوروبا . وأخيراً ، ها هو ذا يعود إلى فرساي . إنه ليوم سعيد . وتقول السيدة دو بواني «لم يعد ثمة أي ريب ، بالنسبة إلى الأصدقاء الحميمين ، أنها استسلمت إلى حب دو فرسن . وقد تبرّر هذه التضخيّة بإخلاص لا حدود له ، وحب صادق بقدر ما هو محترم ومحذر . فهو لم يكن يتتنّس إلا من أجلها».

وجعلت قضية العقد (عقد الملكة الشهير) الملكة جديرة بقدرها . فقد افترى عليها ، وسوّدت صفحتها ، وأهينت ، وشُتمت ، ولكن دو فرسن ازداد لها حباً : «إنها باسّة كثيراً ، كذلك ، وشجاعتها هي فوق كل شيء ، وتجعلها مهمّة أكثر فأكثر . . .». ويعرف بأن حزنه الوحيد هو في عدم استطاعته تعزيتها كلياً عن كل مصائبها .

وكانت الثورة قد بدأت تبدو سراً . وخلال أيام تشرين الأول ، لازم دو فرسن الأسرة المالكة . ويؤكدون أنه أمضى ليلة في جناح الملكة . ماذا ينبغي أن نصدق من ذلك ، وفضلاً عن ذلك ، ماذا يمكن أن نستنتج من ذلك؟ على أي حال ، كتب دو فرسن ، وهو يفيض سعادة ، في ٢٧ كانون الأول ١٧٨٩: «أخيراً ، قضيت يوماً كاماً معها : كان ذلك الأول . . .».

## الوداع ، ايها المحبوب ، والمحب الاول بين الرجال . . .

رأى دو فرسن ، وهو صلة الوصل بين ملك السويد والملكيين الفرنسيين السيني

الطالع ، نفسه مكلّفاً ، بالتعاون مع الكونت دو بوبيه ، تدبّير أمر هرب العاهلين .

وكان التنظيم طويلاً ودقيقاً . وأخيراً ، تمّ الذهاب في الظروف التي نعرفها جمِيعاً .

ولكن في ٢٣ حزيران ، ولدى بلوغ آرلون ، عرف الشاب ان الكثيرون من الجهدود كانت

بلا اي طائل . وكتب الى والده يقول : «كل شيء فقد ، لقد فقدت الأمل !» وفور

العودة الرهيبة الى قصر التويليري ، كتبت ماري - انطوانيت الى «الصديق» هذه

الرسالة المرموزة : «أعلمك الى من استطيع توجيه الانباء التي يمكنني ان اكتب بها

الىك ، ذلك بأنه لا يسعني أن أحيا دون ذلك . الوداع ، ايها المحبوب اكثُر من سواه ،

والمحب الأول بين الرجال . إني أعانك من كل قلبي .» وأرسلت الى الجنرال دو

جارجيس ، أحد الأصدقاء المشتركين ، خاتمين «لكم يمَّاع من خواتم بكثرة هنا» ؛ وقد

حُفرت على أحد الوجهين ثلاثة زهارات زنبق ، وعلى الوجه الآخر يُقرأ هذا النّقش :

«جبان من يتخلّى عنهم». وقد أضافت : «الخاتم الملفوف بورقة هو له ؛ يجعله

يحمله من قبلـي ، إنه على قياس إصبعه تماماً . لقد حملته طوال يومين قبل أن ألقـه .

أعلمه أنه من قبلـي . لست أدرـي أين هو . إنه لعذاب فظيع عدم وجود أي نـبا عنه ،

وحتى عدم معرفة أين يقيم أولـئـك الذين نحبـهم ». وفي هذه الانباء ، كان دو فرسن

يضاعف الأمل ، الذي سرعان ما اختفى ، في إنشاء تكتـل قادر على التدخل لتحرير

الأسيـرين . ولما تبيـن انه لن يتوصـل الى تحقيق غـايـاته ، درـس ، اذ ذاك ، محاولة جديدة

للـهـرب . وعلى الرغم من أنه غـريب ، ومن صدور مذكرة بالقبض عليه ، تسلـل إلى

باريس ، متـنـكرـاً بـزي نـاقـلـ بـريـد . مـغـامـرة بـطـولـية ، ولـكـنـها مـجنـونـة ايـضاً ! واستـطـاع

دخول القـصـر «من طـرـيقـه المـعتـاد» ، ولـبـثـ يومـاً بـكـاملـه في جـنـاحـ المـلـكة . وـرـفـضـ

المـلـكـ سمـاعـ شيءـ عن اـقتـراحـه «بعدـ أنـ وـعـ غالـباً جـداًـ بـالـبقاءـ» ، ولاـحظـ أـكسـيلـ ، وـهوـ

يـتـنـهـدـ ، أنهـ «كانـ اـمـراًـ شـرـيفـاًـ» . وـمـكـنـ الكـوـنـتـ منـ الفـارـ بلاـ أيـ حـادـثـ منـ قـصـرـ

التـوـيلـيريـ .

## لولا دروویه ، لتغیر تاریخ فرنسا!

تعرّف إلى شخصيّة الملك لويس السادس عشر فقاده إلى المصيبة

كُشف النقاب في ماسون (فرنسا) سنة ١٨٢٤ عن ان الراهب مرجييه الذي توفي في ١١ نisan هو الاسم المستعار لجان - باتيست دروویه ، الذي لولاه لتغيير تاريخ فرنسا ، باعتباره الشاهد الذي كشف هوية الملك لويس السادس عشر الفارّ مع اسرته ، الذي قُدِّمَ الى محكمة الثورة وحُكم عليه بالاعدام .

وبعد هذه الحادثة التي غيرت مجرى التاريخ الفرنسي ، اضطر دروویه الى مغادرتها بعد عودة الملكية اليها .

وفي التفاصيل ان دروویه (٦١ سنة) كان من ابرز الثوار الفرنسيين ، وكان والده مديرًا لمحطة لتزويد المسافرين بجیاد البرید . وقد توقفت العربات التي كانت تنقل الملك لويس السادس عشر وأفراد اسرته في رحلة الهرب الى الحدود الفرنسية بعد الثورة لدى بابه ليلة ٢ حزيران ١٧٩١ ، فتعرّف دروویه الى الرکاب ، وعمد من فوره الى اتخاذ الخطوات الكفيلة باعتقالهم ، وفضح هويتهم لدى بلوغهم بلدة فارين .

وهكذا كان ، ورفض دروویه تسليم اي مكافأة على عمله هذا . وفي ايلول ١٧٩٢ ، انتُخب نائباً في الجمعية الثورية التي حلّت المجلس التشريعي السابق ، وحكمت فرنسا حتى ٢٦ تشرين الاول ١٧٩٥ . واقترن على اعدام الملك دونما استثناف ، وأظهر عداوة شديدة للجيرونديين الذين ناهضوا مذابح ايلول ، واقتصر القضاء على كل الانكليز المقيمين في فرنسا . وقد قُبض عليه في حصار جوبوج ، وسُجن في سیلبرغ حتى نهاية ١٧٩٥ . وبعد الافراج عنه اصبح عضواً في مجلس الخمسمائة وعُيِّن أميناً فيه .

ومن المعروف ان دروویه قد تورّط في مؤامرة بابوف - أول من اقترح الاشتراكية - كسياسة عملية - وسُجن ، ولكنه تمكّن من الفرار الى سويسرا ، ثم الى تينيريف ، حيث اشترك في المقاومة الناجحة ضد الاميرال نلسون الانكليزي ، الذي حاول الاستيلاء على هذه الجزيرة سنة ١٧٩٧ . وزار في ما بعد الهند . ولكنه اضطر على اثر عودة الملكية الى مغادرة فرنسا ، الى ان عاد اليها سراً ، متنكراً ليقضي فيها ايامه الاخيرة .

## اعدام الملك لويس السادس عشر

في الحادي والعشرين من كانون الثاني من سنة ١٧٩٣ ، جرى في فرنسا حدث على جانب كبير من الخطورة سناحول تصويره في ما يأتي بحيث ترقباته امامكم الآن كما لو كانت شريطاً سينمائياً ، فتعيشونها لحظة لحظة كما لو كنتم شهوداً عياناً لها . وصحيح أنها ليست دعوة مستحبة الدعوة الى حضور عملية اعدام ، ولكنها مناسبة تاريخية جديرة بالتسجيل .

في الليلة السابقة نام الملك لويس السادس عشر نوماً عميقاً واستيقظ قبل طلوع النهار ، فاستمع الى القدس ، ولكنه رفض رؤية زوجته الملكة ماري - انطوانيت ، خشية ان يرقق ذاك قلبه ، مع انه كان قد وعدها ، في العشية بأن يودعها الوداع الاخير . . .

وفي الثامنة صباحاً دخل الملك القاعة التي كان يتنتظره فيها الجنود المكلفين نقله الى «ساحة الثورة» حيث سيتم اعدامه . فلما وقع نظره على الحضور ، وعلى رؤوسهم القبعات ، طلب قبعته ، فتناوله ايها خادمه الخاص كليري ، فوضعها على رأسه .

وقال الملك لخادمه كليري :

- هوذا خاتم الزواج ، سلمه الى زوجتي ، وقل لها اني افارقها والالم يعصرني عصراً . وأعطيك طابعاً معدنياً محفورة عليه شعارات الشرف الفرنسية لكي يسلمها الى ابنه ، وبعدها اقترب من قائد الجند ، وكان يدعى جاك رو ، وسئل :  
- اتريد ان تتلقى وصيتي ؟

فتراجع القائد قائلاً :

- انا هنا لكي اقودك الى المقصلة فحسب !

وعندما قال احد الحراس :

- هاتِ وصيتك فأنا اتكفل بها .

وحانت الساعة المحتممة ، فاخترق الموكب بصمت عميق رهيب ، مرات سجن «التامبل» المظلمة وكان يسير الى جانب الملك المحكوم بالاعدام معرفة الخاص الأب

إدجورث الأيرلندي .

وكانت هناك عربة بانتظاره ، فصعد إليها الملك لويس السادس عشر وجلس بقربه معرفه . وجلس قبالتهم جنديان . وكان بيد الملك كتاب القدس فراح يقرأ فيه الصلوات .

وكان الشوارع خالية ، والابواب والنواذن مغلقة : لا احد على الطرقات ، ولا احد وراء الابواب والنواذن . . . على نقیض ساحة الثورة (وهي ساحة الملك لويس الخامس عشر سابقاً ، وساحة الكونكورد اليوم) التي كانت تغض بالناس . ووصلت العربية في تمام الساعة العاشرة والدقيقة العاشرة .

وحول خشبة الاعدام التي أقيمت على بعد خطوتين من قاعدة تمثال الملك لويس الخامس عشر الخالية ، لم تكن العين ترى غير الجنود ، ذلك انه كان يخشى من مؤامرة لاختطاف الملك الاسير .

وقبل المقصلة بخطوات ، ترجل لويس السادس عشر من العربة بكل جرأة وشجاعة . وتقدم مساعدو الجلاad منه لكي يحضرّوه ، ولكنه تراجع خطوة ونزع بنفسه سترته ، وربطه عنقه والقاهما ارضًا . ولما رأى الجلاad سامسون ، وهو الخادم الملكي القديم ، ان الملك يرفض تكبيل يديه بالحبال ، سحب من جيده منديلاً من النسيج الناعم .

ووافق لويس السادس عشر على ربط يديه بالمنديل بعد ان رجاه الجلاad قائلاً له :

- بهذا المنديل ، يا صاحب الحاللة !

وقد تأثر كثيراً بعبارة «يا صاحب الحاللة» التي لم يكن قد سمعها من زمن غير قصير . وارتقي درجات المقصلة بمساعدة الكاهن الأيرلندي الذي كان يردد على مسامعه الاقوال المشجعة . وقفز الملك ، اذ ذاك ، الى وسط خشبة الاعدام ، وصاح مخاطباً الجماهير الغفيرة :

- ايها الفرنسيون ، إنني اموت بريئاً من الجرائم التي أُصفت بي . واني اغفر لأعدائي . . .

في تلك اللحظة غطى صوت عشرين طبلأ صوت الملك فاحمر وجهه ، وصاح

بصوت رهيب وهو يضرب الارض بقدمه :

آخر سوا !

ولكن بلا جدوى . وعندها تتم :

- لقد انتهيت ، لقد انتهيت ! . . . . واستسلم الى الجلاد ! . . .

\* \* \*

من بروكسيل ، وبقلب محطم ، تابع دو فرسن بقراءة الصحف ممحنة «صديقته» ، «أخذنا على نفسه حتى الهواء الذي يتنفسه» . وعلى الرغم من أنه لم يهنى نفسه قط على أن الداعوى كان يمكن ان تعرف نهاية أفضل ، فان نبا الإعدام ألقاه في هذه اليأس . وبعد موت ماري- انطوانيت بأربعة أشهر ، تلقى علامه طابع يحمل شعار أكسيل ، وهو حمامه محلقة ، تعلوها هذه العبارة «كل شيء يقودني نحوك» . ومررت سبع عشرة سنة . . . وكتب دو فرسن «لن تغيب صورتها المعبودة مطلقاً عن ذاكرتي» . وكانت تلك الحقيقة . فقد قسم دو فرسن حياته - وقد بات مدير جامعة اويسالا ، وعضوًا في سلك الملائكة ، والمارشال الاكبر في المملكة ، وثيراً جداً - بين البلاط وواجبات منصبه الاداري ، ومتلكاته . وبقي العازب العيني ، وازدادت توئقًا العلاقات العاطفية التي كان تشده إلى شقيقته على مرّ الزمن . وفي ٦ حزيران ١٨٠٩ ، أصبح الدوق شارل دو سودرمانيا ملكاً باسم شارل الثالث عشر ، ورفع الأمير الدافركي شارل- اوغست إلى مرتبة امير وارث لعرش السويد . وفي ٢٨ أيار ١٨١٠ ، كان هذا الامير الشاب يعرض الجنود ، فسقط أرضاً جثة هامدة ، وقيل إنه ذهب ضحية سكتة دماغية . وسرعان ما انتشرت الشائعات الأشد وحشية وخطأ : فلقد أراد الرأي العام ان يلصق بدو فرسن تهمة دسّ السم للامير بمعاونة شقيقته فابيان ، وشقيقته ، والكونت اوغلاس ، وهم جميعاً من أنصار غوستاف الرابع أدولف ، الذي سبق أن اعتُقل في السنة السابقة وأبعد عن البلاد . وحدّر دو فرسن من المخطر الذي يحيق به ، ولكنه لم يتخلّ عن قراره بالاشتراك

في تشيع جنازة الامير الوارث ، لأن ذلك كان من واجبه . وفي صباح يوم ٢٠ حزيران ١٨١٠ ، خفَّ ماريشال الملكة الى ملقاء جثمان شارل - اوغست . وبينما كان الملك يرأس مجلس الوزراء في قصر هاغا ، تحرك الموكب الجنائزي . وكان الجنود يشكلون سياجاً . وحده جلس دو فرسن في عربته مرتدًا بزته العسكرية البيضاء ، المزينة بالاوسمة ، وهو يسترجع تلك الذكرى المشؤومة ، ذكرى ٢٠ حزيران ١٧٩١ ... وكان يسبق عربته ويتبعها جنود يسيرون ببطء على وقع الطبول والمارشات الجنائزية . وكانت الجماهير تلزم صمتاً مخيفاً . وبالقرب من هورنشتول ، راحت البصقات تنهال على نوافذ العربة ، وفدى القيت حجارة حطمت الزجاج الذي تعطى في كل مكان . وبالقرب من ريدردهوسترغ ، راح بحارة زائفون يتكلمون اللغة الفنلندية ، يحلون قيود الخيل التي تجرّ العربة . فصاح الماريشال بالضراوة الصابحين : «رياه ! لماذا تعاملوني هكذا ، ايها الاصدقاء؟ أنا لم أمسكم بأذى . . . » فكان جواب الشعب : «مت ، أيها الكلب ، مت ملعونا!»

وُجُرِّح دو فرسن في رأسه ، وُحُمِّل الى حجرة صغيرة في الطبقة الاولى من المسكن الأصفر في هولتغرين ، الذي ما يزال قائماً الى اليوم ، حسب قول فالوتون . وأقبل الجنرال سلفغر سبار الذي ظل دوره مهمماً في هذه القضية ، بسرعة ، فهلل له الجمهور . ودخل بعض العملاء القاعة التي كان دو فرسن يحاول ان يستعيد فيها قواه ، فتعالى صوت : «سيُصْفَى !» وعلى الرغم من آلامه ، حافظ الكونت على برودة أعصابه . وقرر ، على الرغم مما ناله من ضرب ، ومن جريان الدم من وجهه ويديه ، ومن صيحات الحقد التي كانت تبلغه حيث هو ، الخروج مردداً بكل بساطة : «أرى أن ساعتي الاخيرة حانت ». وهبط السلم وهو يُشَيَّع لكتماً بقبضات الايدي ، والرفسات ، وضرب العصبي ، وأُلقي لدى أسفل الدرجات ، ووطئه بالاقدام . وانتزعت أذناه ، ولكنه استطاع الوصول الى دار البلدية . ولم يكن الجمهور ليسمع بأن ثُقلت منه فريسته ، فراح البعض يركله على رأسه وصدره ، ويطنه ، حتى سُحق تماماً ، وبات كتلة مدممة . وقضى المسكين اكثر من ساعة ليلفظ النفس الأخير . «ان كل شيء يقودني نحوك . . . أجل ، «آخر فارس مغامر لآخر ملكة» ،

العاشق المبهم سيلتقي «صديقته» ، وسيلقى موتاً أشد فطاعة ما خبئه لابنة ماري -  
تيريز . . وشاء سحر التواريخ ، ان يسمح القدر الرحيم بأن يكون عذاب الواحد قد  
حدث في اليوم نفسه الذي بدأ فيه استشهاد الآخر - ١٠ حزيران ! . .

## «قضية زولا»: هل مات الكاتب الكبير مقتولاً؟! «إني أتهم» جديدة، في كتاب من ٤٠٠ صفحة...

بعد نصف قرن من وفاته ، وبعد ستين سنة من انفجار قضية دريفوس الشهيرة التي جعلت منه بطل «إني أتهم» ، يجد إميل زولا نفسه على حين غرة متهمًا بسبب «قضية» أخرى تحمل اسمه «قضية زولا» .

أبصرت النور ذات صباح بارد من شهر أيلول سنة ١٩٠٢ ، عندما فتح باب الطبقة الأولى من المنزل القائم في شارع بروكسل ، رقم ١ مكرر ، بعد الجهد الذي بذله قفال استدعاه الخدم القلقون . وهرع الجميع إلى داخل الحجرة .

بين النافذة المزخرفة الزجاج ، المعلقة ، والسرير الكبير من طراز عصر النهضة ، الذي يتبوأ دكة ، رقد جثمان امرئ ضخم ، في العقد السادس من العمر ، وقد انتزع نظارته (بلاماسكتين) عن عينيه القصيري النظر ، الثابتتين في الفراغ : إنه زولا! وعلى السرير ، كانت السيدة زولا - وكان يدعوها «كوكو» تحبياً - تختسرج . ووصل رجال الشرطة . وتفحّص أحدهم المدخنة ، فوجدها مسدودة بالخضي . وسرعان ما دوّت الشائعات في العاصمة : «زولا اتحرى .. اغتاله المكتب الثاني!» ولكن ، بعد أربعة أيام ، توصل قاضي التحقيق إلى الاستنتاج بأن ما حصل لم يكن بسبب أي سوء نية : «التسمم بأوكسيد الكربون المنبعث من نار الفحم» .

بعد أكثر من خمسين سنة ، وللمرة الأولى طُرِح لغز هذا الموت في كتاب بعبارات واضحة جلية . ويحمل هذا الكتاب عنوان «مرحباً ، يا سيد زولا» ، أما مؤلفه فهو أرمان لانو ، وهو شاعر وروائي ، في الأربعين من عمره ، اسمر اللون ، متدفع الحيوية ، له شاريان من طراز شاريبي كلارك غيبيل .. وقد استغرق وضعه الكتاب - السيرة ، ستين اثنين ، في مسكنه الصغير في شل ، فإذا به مؤلف من ٤٠٠ صفحة

تشوق قراءته كثيراً .

### في إيكسل ، قفز على عاتق سيزان

في فتحه ملفّ «قضية زولا» ، تعرض لأنو إلى السر المزدوج الذي يكتنف حياة الكاتب الكبير : موته ، وكذلك حياته ! زولا؟ أمرؤ غير محكم الصنع ، ومع ذلك جبان ، منحصر (من تستبد به فكرة على نحو غير سويّ) ، «عقدة من المركبات» - على حد قول المخلين الفسانيين اليوم .

لعل تناقضات سلوكه هي إرث من والده الذي توفي وهو بعد في السابعة من عمره : مغامر بندقي (من فينيسيا ، في إيطاليا) وملازم لدى الأمير أوجين - نابوليون ، ثم ضابط في الفرقة الاجنبية ، ومخترع ، وبناء ، ومهندس . وسيحتفظ أميل زولا طوال حياته بصورة هذا الأب المهووس بالمثلية ، والمصطرب أبداً . إن مأساة انسان هو فريسة لظلالة لم تحل بينه وبين أن يكون رجل الصداقة الواحدة ، والحب الواحد الكبير ، والطموح الواحد .

تعرف زولا إلى الرسام بول سيزان ، وهو شاب جريء قوي ، مفعم بالحياة ، في كلية بوربون (اصبحت في ما بعد الليسه مينيه) ، في إيكسل - أون - بروفانس . ولعل أروع ذكريات هذه الصداقة ما جرى على ملعب ميرابو ، وهو في الرابعة عشرة من عمره . فقد اعتلى منكبي سيزان ، وكان يكبره بستة واحدة ، وهو يسهل كالفرس ، لكي يحيي الجنود المدرعين في زيّاتهم الزرقاء والمعتمرين الخوذ الفولاذية ، وهم يُستعرضون قبل إبحارهم من مرسيليا إلى شبه جزيرة القرم للاشتراك في الحرب المستعرة هناك . وقد شمله سيزان بحمايته ، وجعل الحياة محتملة بالنسبة إليه في الكلية وسط ابناء الطبقة البورجوازية الذين كانوا يضطهدون ابن الأرملة زولا الفقير ، ذا اللهجة الجافة (إنه مولود في باريس) ، الذي كان يفوز بالجوائز المدرسية .

غير أن نوعاً من سوء الفهم لدى عبقرية سيزان التصويرية تغلب على صداقته التلميذين زمن الدراسة ، فكانت الفرقة بينهما .  
كان أميل قد «صعد» إلى باريس برفقة أمه . فاشتغل في إدارة الجمارك ، ثم أمضى

فترة من البطالة ، فكان في العشرين يذرع بلاط الشوارع جيئة وذهوباً ، مغتندياً بعضافير الدوري التي كان يلقطها بالفخاخ ، بعد أن يلوى أعناقها وهو دامع العينين .

وقد كتب يقول في هذا الصدد : «إن جوفي والمستقبل يقلقاني !»

ولكن ، مع ذلك ، فإن وجهي نجاحه يتخدان شكلاً من هذه السنوات الرهيبة : الرجل المغمور بالحب في الثامنة والأربعين ، المؤلف المغمور بالنجاح والشهرة بعد ذلك بعشرين سنة .

كان يكتب مقالات لجريدة «فيغارو» ، ويختلط بالكتاب ، والفنانين الذين يتربدون على البولفارات . وقد نشر وهو في السابعة والعشرين روايته ، بل رائعته الأولى «تيريز رakan» .

إلا أنه بعد عشر سنين ، ومع روايته «الصراعة» (أداة للصرع أو القتل كالدبوس ، مثلاً) ، تحققت أحالمه في الشهرة والمجد الأدبيين ، والثروة . فعقب نشرها في شباط ١٨٧٧ ، بيع منها ٣٠ ألف نسخة : وقد قبض زولا ما قيمته ٤٠ مليون فرنك ، بالنسبة إلى عملة اليوم . وفي خلال أربع سنوات ، من سن السادسة والثلاثين إلى الأربعين ، سيجمع ثروة تقدر بأكثر من ٦٠ مليوناً . بعد «الصراعة» ، كانت الصحف تدفع له لقاء رواياته المتسلسلة فيها ٣٠ ألف فرنك (ما قيمته ٦ ملايين اليوم) . وقد بيع من روايته «نانا» التي اطلقتها دعاية إعلانية مفرطة يوم صدورها ٥٥ ألف نسخة .

وكان زولا الذي ابتاع منزلًا فخماً في ميدان ، وراح يستقبل كل يوم خميس ، قد اعتاد على الحياة الميسورة ، والوجبات الشهية السخية . ويُذكر هنا زانا زولا ، يوم أصدر روايه «جرمينال» كان يزن ٩٥ كيلوغراماً . وكان طوله متراً و٧٠ سنتيمتراً ، واستداره وسطه ١١٤ سنتيمتراً . لقد جعله النجاح سمياناً ، وهو يهدد بالقضاء عليه . غير أن الحب سيعمل على جعله يولد مجددًا في هذه الحياة ، إذ يفقده ٣٠ رطلاً في مدى عشرة أشهر .

«كانت جذابة ، طويلة القامة ، رشيقه القدّ ، ساقاها طويتان مغزليتان ، وجيدها ورقبتها مستديران» . وكان أخرى به أن يضيف : «وكانت تصغرني بسبعين وعشرين سنة !»

كانت تدعى جان روزيرو ، وهي عاملة متواضعة ، كانت تتردد على منزل زولا

لكي تقوم بشؤون الغسيل . وكان صوتها الصافي يسحر اميل وقت القليلولة في قاعة مكتبه . وبعد ثمانية عشر شهراً ، بات زولا رجلاً غير ما كان ، إذ تحول كلّياً ، فراح يتزهّ مع جانَ على الدرجَة ، ومارس على هذا النموذج العشريني مهارته في التصوير الفوتوغرافي .

### ربما قضى نتيجة «مقلب» سبيءاً!

في أيلول ١٨٩١ ، قام زولا برحلة . فنشر أحد أصدقائه في جريدة «فيغارو» ، لأجله ، إعلاناً هذا نصه : «الدرج وصل على ما يرام .» (والدرج نوع طير) . أما ترجمة ذلك فهي «جان رُزقت منك بثاني مولود ، ذكر» ! بعد دنيز ، ولد جاك . فاستأجر لهؤلاء الأعزاء الثلاثة - منزلًا بالقرب من منزله في ميدان . ومن النافذة في غرفته ومن خلال نظارته بلا ماسكين ، كان يتابع من بعيد مرح الصغيرين ولهوهما . ولم تكن كوكو ، زوجته ، جاهلة المأساة . لم تستطع أن تُنجب له أولاداً . وكما لو كان ذلك في احدى روايات زولا الميلودرامية المنادية بالذهب الطبيعي ، فاجأت نظرات زوجها المتورطة ، وهو مسمّر أمام النافذة . فقالت له : «إحملها إلى هنا ، هيا !» وقد رضيت ، بعد وفاة الكاتب ، بأن يحملها اسم أبيهما .

كانت الهزة الكبيرة في حياة زولا تنتظره مع قضية دريفوس . إن مناخ الحقد الذي أثارته ، هو الذي سمع اليوم (في الخمسينات ، لدى وضع الكتاب) للانوأن يتحدث عن «قضية زولا» ، في ما يتعلّق بسرّ موته .

فقبل سنة - يقول الكاتب - كشفت حملة صحافية عن اعتراف متعدد سابق لصيانت المدخن لأحد أصدقائه : زولا تسمم اختناقًا طوعاً . فقد سُدّت المدخنة في ليلة ٢٨ أيلول ، ثم نُظفت مما سدّت به في اليوم التالي ، وسط الجيء والذهاب حول الجثمان .

انطلاقاً من هذه الشهادة يدلّي بها امرؤ ، هو ميت اليوم ، بنى أرنو فرضية جديدة يرغب في تطويرها في الطبعة الجديدة لكتابه المذكور «مرحباً ، يا سيد زولا» - وهي أن زولا أُغتيل ، ولكن نتيجة مقلب محزن . «لنسود بالدخان ، هذا الخنزير ، فيكون

ذلك درسًا له !» وَدَخْنُوهِ جِيدًا إِلَى درجة قضى معها من جراء ذلك . وَتُصْحِحُ هَذِهِ الفرضية ، وَسَتَسْمَعُ بِالقول : «مَاتَ زُولَا نَتْيَاهَةً مِزَاحَ سَيِّءٍ ». وَسَيَكُونُ ذَلِكَ مِنْ سُخْرِيَّاتِ الْقَدْرِ الَّذِي شَاءَ هَذِهِ النَّهَايَةُ لِأَحَدِ نَوَابِعِ الْقَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ ، الْأَقْلَ سُخْرِيَّةً مِنْ سُواهُ .

طَوَالِ حَيَاتِهِ ، لَمْ يَطْلُقْ زُولَا إِلَّا قَوْلًا ظَرِيقًا وَاحِدًا ، فِي نَهَايَةِ احْدِي الْمَآدِبِ ، السَّنَةِ ١٨٩٣ . فَقَدْ رَفَعَ جَنَرَالٌ مِنْ اشْتَرَكُوا فِي حَرْبِ السَّنَةِ ١٨٧٠ كَأْسَهُ وَهُوَ يَرْدُدُ : «أَرْجُو أَنْ يَمْنَحَنَا صَدِيقِي الشَّهِيرُ بَعْدَ «النَّكْبَةِ» ، «النَّصْرِ». فَأَجَابَ زُولَا بِپِرَوْدَةٍ : «هَذَا يَتَوَقَّفُ عَلَيْكَ ، أَيُّهَا الْجَنَرَالِ !»

وَ«النَّكْبَةِ» هِيَ احْدِي رَوَایَاتِ زُولَا الشَّهِيرَةِ . . . .

وَهَذِهِ الْآنَ تَفاصِيلُ قَضِيَّةِ دَرِيفُوسُ الَّتِي مَثَلَّ فِيهَا زُولَا دورًا كَبِيرًا ، وَأَدَى دَفَاعَهُ فِيهَا إِلَى اسْتِدَاعَهُ لِلْمَحاكِمَةِ . فَرَحِلَ إِلَى انْكَلَتْرَا وَلَمْ يَعُدْ مِنْهَا إِلَّا بَعْدَ صَدُورِ الْعَفْوِ عَنْ كُلِّ الَّذِينَ لَهُمْ عَلَاقَةٌ بِالْقَضِيَّةِ . وَتَتَلَخَّصُ هَذِهِ الْقَضِيَّةُ بِمَا يَلِي :

الْفَرْدُ دَرِيفُوسُ (١٨٥٩ - ١٩٣٥) جَنْدِي فَرَنْسِيٍّ اصْبَابُ شَهْرَةٍ لِأَنَّهُ ذَهَبَ ضَحْيَةً خَطَاً قَضَائِيًّا إِثْارَ صَدِيَّ عَمِيقًا فِي مُخْتَلِفِ ارْجَاءِ الْمَعْمُورَةِ . نَالَ رَتْبَةَ كَابِيَّتِينَ فِي الْجَيْشِ الْفَرَنْسِيِّ سَنَةَ ١٨٨٩ . وَفِي سَنَةِ ١٨٩٤ وَقَعَتْ بِيَدِ السُّلْطَاتِ رسَالَةٌ غَفَلَ مِنَ التَّوْقِيْعِ تَفِيدَ أَنَّ ضَبَاطَهُ فَرَنْسِيًّا يَخُونُ وَطَنَهُ . فَاثْبَثُهُمْ دَرِيفُوسُ لَأَنَّ الْحُكْمَ كَانَ شَدِيدًا شَبِيهً بِبَخْطَهُ . وَدَافَعَ عَنْ بِرَاءَتِهِ كَثِيرًا وَلَكِنَّهُ وُجُدَّ مَذْنَبًا ، وَنَفِيَ إِلَى جَزِيرَةِ الشَّيْطَانِ سَنَةَ ١٨٩٥ .

وَاتَّفَقَ أَنْ يَكْتُشِفَ أَحَدُ الْمَسْؤُولِيَّنِ فِي وزَارَةِ الْحَرْبِيَّةِ أَنَّ كَاتِبَ هَذِهِ الرَّسَالَةِ هُوَ ضَابِطٌ بِرَتْبَةِ مِيجُورٍ يَدْعُى اشْتَرَهَازِي ، كَانَ مُثَقِّلًا بِالدِّيُونِ . فَلَمْ تَتَحْمِسْ الْحُكْمُوَّةُ لِلْإِقْرَارِ بِخَطْئِهِ وَإِعادَةِ الْمَحاكِمَةِ . وَفِي هَذِهِ الْاِثْنَاءِ جَرَتْ مُحَاوَلَاتٌ عَدِيدَةٌ لِتَبْرِئَةِ سَاحَةِ دَرِيفُوسَ الْمُسْكِيَّنِ يَتَوَجَّهُ إِلَيْهَا جَمِيعًا كِتَابٌ مُفْتَوَحٌ ارْسَلَهُ الرَّوَائِيُّ امِيلُ زُولَا إِلَى رَئِيسِ الْجَمَهُورِيَّةِ بِعَنْوَانِ «إِنِّي أَتَهُمْ» . . . وَقَدْ أَطْلَقَ سَرَاحَ دَرِيفُوسَ سَنَةَ ١٨٩٩ وَلَكِنَّ شَرْفَهُ لَمْ يُرِدَ إِلَيْهِ إِلَّا سَنَةَ ١٩٠٦ . وَخَلَالِ الْحَرْبِ الْعَالَمِيَّةِ الْأَوَّلِيَّ عَادَ فَانْخَرَطَ فِي الْجَيْشِ الْفَرَنْسِيِّ ، وَحَازَ رَتْبَةَ لِيُوتُنَانَ كُولُونِيَّلٍ وَوَسَامَ جَوْقَةِ الشَّرْفِ . وَقَدْ تَوَفَّى فِي بَارِيسِ ١٢ تمُوزَ سَنَةَ ١٩٣٥ .

## **فييши: اخترع «قذائف ستالين» قبل قرن من ظهورها، لاغتيال الملك لويس فيليب!**

متآمر ، لص ، جاسوس ، مزور ، وفضلاً عن ذلك إرهابي : هذا كثير بالنسبة إلى رجل فرد ، ولكن تلك هي ، مع ذلك ، صفات المجد - المجد المشؤوم - بالنسبة إلى جوزف فييши .

دخل التاريخ بالجريدة ، وكذلك الكتب المدرسية الفرنسية ، على طريقة بطل من أبطال إيبينال المصورة ، وقد رُبط اسمه بطريقة لا فكاك منها باليوم المأساوي ، يوم ٢٨ تموز ١٨٣٥ ، ورُبط بالألة الجهنمية التي تصورها لاغتيال الملك لويس - فيليب . وقد جسدّ كلمة اغتيال بصورة حاسمة .

في الواقع ، كاد ملك الفرنسيين يُقتل في ذلك النهار لفطر الاهتمام الدقيق الذي أحاط به جوزف فييши استعداداته . وكانت آلة من البراعة وذات التأثير القاتل بحيث أنه بعد مائة وسبعين سنة ، عادت إلى الظهور في ساحات القتال في روسيا ، في شكل مختلف بعض الشيء ، وتحت اسم آخر هو «أرغن ستالين» - أي قذائف ستالين . . .

تلقى المهندس السوفيياتي كوتتشو جائزة قدرها ١٠٠ ألف روبل مكافأة له على مهاراته ، وقد اعترف بصراحة وزناها بأنه إنما وجد فكرة آلة الرهيبة في آلة ١٨٣٥ .  
واذا كانت هذه الآلة معروفة ، فإن الكثيرين لا يعرفون شيئاً عن شخصية مخترعها .

لم يكن جوزف فييши ، في نهاية المطاف ، إلا امراً مسكيناً ، وطامحاً فاشلاً ، دفع إلى الجريمة بسبب الكبرياء الخائبة والحقد الاجتماعي على حد سواء .

## مغامرات اولية

هذا المواطن المقيت لبونابرت ، ولد في ٣ كانون الأول ١٧٩٠ ، في موراتو ، بالقرب من باستيا ، في أسرة من الرعاعة ، وفي حقبة كانت المغامرة فيها تقدّم دراعيها إلى كل راغب في الارتماء بينهما ، وعندما كانت ريح المغامرات الثورية تعصف فوق جبال سيرنوس القديمة . انخرط في سنّ السادسة عشرة في الجيش النابولياني ، وفي الثامنة عشرة كان رقيباً في الحرس الملكي التابع لمورا ، صهر نابوليون ، وناول صليب الصقليتين (على الأقل هذا ما كان يؤكده) مكافأة له على بسالته في حملتي كالابريرا وروسيا . وهو يفخر بأنه أسر بمفرد ه ٥٢ أسيراً .

ولدى عودته إلى كورسيكا ، حُكم عليه بالسجن بتهمة السرقة ، وزُجَّ في سجن أومبران حيث كان سبقه والده بجرائم السرقة كذلك . وكان هذا السجن ، إجمالاً ، بمثابة منزل عائلي . فيه تعرّف إلى لورانس بوتي التي أصبحت عشيقته . ولم يكتفي بالأم ، فتعشّق الإبنة نينا الملقبة «نينا العوراء» ، التي أغواها عندما كانت في الخامسة عشرة ، لكان الحب الذي غالباً ما يكون أعمى ، ربما كان أحياناً أعمور .

وعقب خروجه من السجن ، عمل فييشي في مدن عدة من منطقة الميدي الفرنسية باسم لويس جيار ، قبل أن يهبط بباريس سنة ١٨٣٠ .

وكان زوراً أوراقه الرسمية ، واتخذ لنفسه دونما حياة هوية سمى "له يدعى انطوان مارتان فييشي ، سبق أن حارب في صفوف مورا ، وزعم أنه محكوم سياسي ، وعمل في دائرة الشرطة السرية ، وتولى منصب حارس مولان دو كرولبارب .

وكان يمكن أن يحيا حياة هادئة وبلا مشاكل ، لو لم تكتشف دوائر الشرطة أن هذا الجاسوس لم يكن إلا مزوراً ، ومحكوماً مبتدلاً من الحق العام . الوداع ، يا مولان دو كرولبارب ! ولكي يتهرب من مذكرة جلب ، غير اسمه ، ومسكنه ، وراح ينام تحت الجسور . وقد قادته هذه اللعبة من الاستغامية مع رجال الشرطة إلى سمكري يدعى بوارو . وكانت محنـه تجعلـه يغذـي حقدـاً شرسـاً ضدـ المجتمعـ والمـلكـيةـ ، وقد دفعـهـ كـبرـيـاـؤـهـ المـشارـاةـ بـسبـبـ مـغـامـرـاتـهـ المـزـعـجـةـ غـيرـ الـلامـعـةـ إـلـىـ مـشـارـيعـ جـنـوـنـيـةـ . وـكـانـ يـعلـنـ : «سـأـحـدـثـ مـصـيـبةـ ! سـأـقـومـ بـعـملـ ، وـسـيـتـحـدـثـونـ عـنـيـ أـ»

في البدء لم تكن هذه الأقوال سوى كلام طائش ، واجترارات غامضة تصدر عن شخص ساخط ، ولكن هذا الهذيان لم يلبث أن وجد الفرصة لكي يترجم أفعالاً . فقد ساقته أقدار التجول إلى العثور على ملجأ في حانوت قذر في شارع سان فكتور ، لدى الاسكافي وصانع السروج بيير موري ، اللا مسترول السابق (اللا مسترول هو لقب الثوار الفرنسيين عام ١٧٩٣) ، عضو جمعية حقوق الإنسان الذي يتغذى بالحنين إلى أيام عهد الإرهاب المشؤومة . وكان يتعطش إلى استعادة طعم الدم ، ويقلب على وجهه مشروع اغتيال الملك لوبي - فيليب .

مشروع ضخم وجهنمي : نبتاع منزلاً بالقرب من قصر البوربون ، (مقر مجلس النواب) ، ونحفر دهليزاً يصل إلى قصر البوربون ، ونملأه ببراميل البارود ، ويوم يُقبل الملك لحضور الجلسة ، يُنسف كل شيء .

أما التعasse بالنسبة إلى بيير موري فهي افتقاره إلى المال الضروري لنجاح خاتمة هذا المهرجان المرعب . وقد اغتنم إدّت تبّين له أن فرص تحقيق أهدافه قليلة ، لكن عندها أرسل إليه أبلليس رسولاً غير متوقع ، جوزف فيشي هذا المطارد دوماً ، والباحث أبداً عن مأوى آمن .

واستضافه موري الذي سره كثيراً أن يعلم ان الكورسيكي يشاطره الصياغتين والأحقاد ، وأنه تصور المشاريع نفسها لقتل الملك . والأفضل بعد : ان لديه مخططًا جاهزاً ، وأسهل تحقيقاً من تفجير قصر البوربون .

قال له فيشي برأزأة ونبرة ايطالية :  
- لقد اخترعت آلة ستكون رهيبة . . .

ما هي هذه الآلة؟

تركيب ٨٠ بندقية على قاعدة ، وحشوها بالبارود والشظايا ، ويفضل جهاز بسيط بقدر ما هو مبتكر ، يتم تفجير كل البنادق دفعة واحدة . وسيكون مفعول «الآلة» أقوى كثيراً من مفعول بطارية مدفعة . وسيكون الأمر هائلاً ! وأغرى بيير موري ، وذهل ، وأخذته الحماسة . وفي ظليل الحانوت الخمير كان الرجالان ينتشيان لدى ذكرهما المشهد الجهنمي الذي يستشفانه .

أجل ، ولكن من أين المال لصنع هذه الترسانة؟  
وتذكر بيير موري تاجر الأصباغ تيودور بيبان ، في شارع فوبور سانت أنطوان ،  
وكان هو الآخر يريد الموت للملك البورجوazi . ولطالماردد :  
- ألن نعثر على الشخص الذي يصوّب نار بندقيته إلى لوبي - فيليب؟ هناك  
كثيرون مستعدون لقاء ورقة نقدية بألف فرنك أن يذهبوا إلى السجن مع الأشغال  
الشاقة .  
قسمًا ، لقد وجد هذا الشخص . وقدّم موري إلى بيبان رسميًا فيشي يمثل الآلة .  
وطلب بيبان إلى موري أن يعرفه إلى المخترع . ويتحدّثون ، ويقلّبون المشاريع . وضع  
فيشي نموذجًا مصغرًا لاحترازه . وبعد التفكير ، قدرّوا أن ٢٥ بندقية وحسب تكفي  
للحصول على النتيجة الخامسة . ووضع فيشي كشهـة : ٥٠٠ فرنك .  
ولم يجد بيبان الشمن غالياً للتخلص من الملك . ففتح حقبيته ، وفتح حساباً باسم  
فيشي يتبع له تأمين لوازمه .

### بولفار التامبل ، بولفار الجريمة

لقد وُجد الشريك الذي قدّم المال ، ويقي الاهتمام بتفاصيل القضية : زمان  
الاغتيال ومكانه !

سيكون الزمان يوم ذكرى ثورة تموز ، حين يعرض لوبي - فيليب ، على متن  
جواده ، الحرس الوطني ، في بولفار التامبل . أما المكان فسيكون منزلًا تسمح نوافذه  
بتصويب البنادق بكل هدوء وكل تأكيد من حيث النجاح . وقد ذهب فيشي إلى هذا  
المنزل القائم في الرقم ٥٠ ، في بولفار التامبل للتعرف إليه ، ثم استأجره في ٨ آذار  
١٨٣٥ من صاحبه باسم لوبي جيرار لمدة سنة ، ودفع نصف قيمة الإيجار مقدماً .  
كان المسكن في الطبقة الثالثة ، ويتتألف من أربع غرف ، واحدة منها تطلُّ نافذتها  
ذات المشربية على البولفار . ومن ناحية البناء ، تضيء المطبخ نافذة يمكن أن تسمح  
مع استخدام حبل بالقفز على سطح قليل الارتفاع ، ومن هناك بلوغ مبناه في شارع  
فوسيه دو تامبل .

ولما استأجر فييشي المنزل ، ابْتَاع بستة فرنكات مخزوناً من الخشب ، وعكف على تركيب آلة ، تحت عين نينا العوراء المذهولة التي تسأله عمّا يصنع . فقال لها :  
ـ هذا نول لصناعة الحبال .

وغضبت نينا وقالت :

ـ لقد اعتدت أن تبتاع أنوالاً تعود وتبيعها بأرخص مما ابتعتها !

ـ أطمئني ، لن يكون الحال هكذا هذه المرة !

وابتاع قذائف البنادق من الخردة لدى مرترق في شارع الشجرة الجافة ، لقاء ستة فرنكات كل قذيفة ، ولكنه قدّم الفاتورة إلى بيان بسبعة فرنكات ونصف ، على سبيل تحقيق كسب صغير : إنه دفعه على الحساب مؤقتة . ونقل هذه الخردة الثقيلة في حقيقة من جلد الخنزير ، اشتراها لهذه الغاية ، وكاد حملها يسحق الوسيط .

بانتظار يوم الصفر - ٢٨ تموز ١٨٣٥ ، الذكرى الخامسة لـ «الأيام المعيدة الثلاثة» ، انجز فييشي وشريكه الاستعدادات في كروم شارون . فقد قاما بتجربة إشعال بشرهم على الأرض خطأً من البارود أشعلوه .

وعشية اليوم العظيم ، عمد بيير موري إلى حشو البنادق بالبارود والخردق الغليظ . ثم كُلف السبّاك بوارو مهمة تمثيل شخصية لوبي - فيليب . فمرّ على جواد ، فصوّبت البنادق إليه «على مستوى الصدر» . ثم تمّ تجهيز خط البارود الذي سيتولى فييشي ، في اللحظة المواتية ، إشعاله بواسطة جذوة يتناولها من الموقف . وأقبل يوم ٢٨ تموز ١٨٣٥ : استيقظ فييشي عند الفجر ، فعلق حبلًا بنافذة المطبخ لكي يهرب بواسطته . وعمد إلى إخفاء الحقيقة التي استخدمها في نقل البنادق . فأرسلها إلى شريك له في شارع بواسي هو صانع الرخام نولان .

وخرج إلى أحدى الحانات ، وراح يتنتظر .

ومرّ الوقت بطريقاً ؛ وكاد صبر فييشي ينفد . أما الملك ، فإذا كان يجهل تماماً ما يهدده ، فإنه لا يشك في ما يتنتظره .

**كان الملك يعرف أنه مقصود!**

لم تكن محاولة اغتيال أكثر أو أقل لتفاجئه ؛ كان يعلم أنه مستهدف وبقي على هذه الحال طوال حكمه .

كان صهره ملك بلجيكا يقول عن مثل هذه الاستعراضات التذكارية : «إنه من الجخون ان يستدعي المرء كل سفاحي العالم للمبارزة في يوم معين ». لقد عزم لوبي - فيليب أخيراً على ان يواجه الخطر الذي يتهدده ويتحقق به . حتى أنه استشار استاداً في فن الصيانة ليتعلم أفضل طريقة في التحية بالسلام في حال استهدافه لنار قاتل الملوك .

وقال لابنه البكر :

- اسمع ، لقد حانت لحظة التنبّه الى مقامنا . قد اسقط صریعاً في أثناء الاستعراض .

والى وزيره الاول تير قال :

- ربما استطعنا الخلاص هذه المرة ايضاً .

ذلك بأنه في صبيحة يوم ٢٨ تموز ، خفت تير الى قصر التويلري مذعوراً ، فانفرد بالامراء جانباً - دوقي اورليان وليمور ، وأمير جوانفيلي لاطلاعهم على ما يُدبر «من جهة الغامض» . فقد بلغ دوائر الشرطة أن ثمة مؤامرة تُدبر ، ويتحدثون عن آلة جهنمية . الحكمة تفرض نفسها ؛ وقد استحلفهم بالسهر على والدهم .

وسار الموكب الباهر ، الملك يواكب ابناه الثلاثة ، والماريشالان مورتييه وميزون .

وعلى جانبي الشوارع والبولفارات كان أفراد الحرس الوطني يقيمون سياجاً ، ويقدمون السلاح . وكانت الطبول تقرع ، والأبواق تُنفخ . وفي الساعة العاشرة والنصف وصل الموكب الى أمام المبني الجهنمي . وفجأة دوَّت طلقة ، وانبعث الدخان من نافذة الطبقة الثالثة . وللح الملك ذلك . فقال لأمير جوانفيلي لحظة قعقت رشقة الرصاص : هذه تخصّني !

## ريبورتاج مباشر

حول ما ححدث ، هناك ريبورتاج «مباشر» ، هو ريبورتاج أمير جوانفيل الماهر في معالجة القلم مهارته في معالجة ريشة الرسم . وهذا ما سجله : «لم أر إلأاً والذي وقد امسك بذراعه اليسرى وهو يقول لي من فوق كتفه : لقد أصبت . وكان ، في الواقع ، مصاباً ، فقد خدشت رصاصة بشرة جبينه ، وسبّبت له رصاصة باردة الرضة التي كان يشكو منها ؛ واختربت رصاصة أخرى عنق جواده .

«لم نعلم بذلك إلا بعد الحدث ، ولم نعلم كذلك بعد الحدث أن أداة الجريمة كانت آلة . كان اعتقادنا الأول أن إطلاق النار يستمر : لذا همّزت جانبي جوادي ، وأمسكت بلجام جواد أبي . بينما كان شقيقاي يضربانه من الخلف بسيفيهما ، وجررناه بسرعة عبر الفوضى العارمة التي حدثت : جياد بلا فرسان او حاملات جرحى متربحين ؛ صنوف مبعثرة ؛ أناس في قمصان يلقون انفسهم على أبي للمسه هو شخصياً او جواده هاتفين مسعورين : ليحبّي الملك !»

«وشاهدت ، بعد ، ونحن نبتعد الهجوم على المنزل الذي انطلقت منه النيران ؛ وقد ترجل الضباط الشبان المرافقون ، وتركوا الأعنة بجيادهم ، ومع أفراد الحرس البلديين ورقباء المدينة تسلقوا درجات السلالم في المنزل المقصود والمنزل المجاور له ، ومقهى «الألف عمود» ، وتسلقوا الشرفات ، وحطّموا النوافذ .»

تسببّت الآلة الجهنمية بمقتل اثنين واربعين شخصاً ، منهم تسعة عشر ، في جملتهم المارشال مورتييه ، توفوا على الفور أو جرحوا جراحًا مميتة .

## خادع الموت

وفيishi؟ آلت له لم توفره ، ولم تخطئه : جُروح جراحًا بليفة من جراء انفجار بضم بنادق ، فحاول الهرب كما تحسّب لذلك ، عبر النافذة الخلفية ، فانزلق على طول الحبل ، وهرب على أحد السطوح ، ودخل مطبخاً ، فقلب امرأة مذعورة مزق لها مثيرها ، وعبر راكضاً فناء مقهى «الألف عمود» ، ومن هناك بات في فناء آخر . غير أن الدم الذي كان ينزف منه أتاح تتبع أثره : وعندما قُبض عليه ، كان منظره مرعباً :

جمجمته مفتوحة ، دماغه ظاهر ، وجلدة جبينه تسقط فوق عينيه .

كان فيشي قد اعلن عن نيته في إلهاب دماغه بالرصاص إذا أخفق في محاولته اغتيال الملك . غير أن موري الخوون الذي كان يرتاب بهذا القرار ، عمد وهو يحشو البنادق إلى ترتيبها بطريقة تسمح لعدد منها غير قليل بالتصويب شطر قاتل الملك .

وكان موري شديد الخدر ، فأبعد نينا العوراء المذعورة التي لم تعرف إلا متأخرة نوعاً ما الغاية من آلة عشيقها الغربية . وأسكنها في المسكن الواقع في الرقم ١١ من شارع لون-بون ، حيث وضع الحقيقة المزعزة للشبهة . ولكن الجهد ذهب سدى ، إذ عقب استجواب حشد من الخوذين والعلماء ، تابع رجال الشرطة الآثار حتى مسكن نينا . واقتحموا المكان على حين غرة ، فروت العوراء ، وقد انهارت قواها ، واجهشت بالبكاء ، كل ما تعرف .

وألقي القبض على موري ، ثم على بيان الذي كان اختباً في أحدى المزارع ، بالقرب من لانبي .

أما فيشي فقد عانى عذاب الحياة . فقاوم آلام جراحه الرهيبة - انتزع من جرح ججمته ٤ قطعة من العظام ! - وكان رجلاً «مرئياً» تماماً عندما مثل مع شركائه في ٣٠ كانون الثاني ١٨٣٦ أمام محكمة النبلاء في قصر لو كسمبور .

وكانت محكمة أقلّ ابتدأها من محكمة الجنائيات ، ومسرحاً ممتازاً بالنسبة إليه لكي يتعرّج ، ويتكبرّ أمام مثل الجميع التبليل هذا ، وتمثيل دور الشخصية التاريخية ، معلناً : «سأكون في نظر العالم مجرماً كبيراً وليس سفاحاً !»

### تاليران مشمئز

وقد جعلت حقاره فيشي السياسي الداهية تاليران ، أحد أعضاء المحكمة ، والخبير بالنفوس الهالكة وهو أسقف أوتان سابقاً ، يشمئز عقب الجلسة الأولى ، ويعتبر أن العودة إلى الاجتماع أمر غير مناسب . واستخلص فيشي من هذا التغيّب نتيجة :

- لقد تأثر كثيراً بنبرة صوتي التي جعلته يخلط بينها وبين نبرة الامبراطور !

واتهم فيشي موري بأنه حشا الآلة بطريقة تفجيره هو شخصياً . وقال :

- لقد خدعني . لم أكن حكيمًا ، أعرف ذلك . وضعني قادني إلى أناس جعلوني أكذّ وأتعب لمنفعة غيري ، وأوكد أن موري قام بتلقييم الأسلحة للقضاء علىـ . إنه نذل ، ولذا ، بدوره لا أوفره !

وأصدرت محكمة النساء ثلاثة أحكام بالموت بحق فييشي ، وبيان ، وموري ، وحكمت على بوارو بالسجن عشرين سنة مع الاشغال الشاقة . وفي اللحظة الأخيرة ، مع ذلك ، حاول فييشي إنقاذ رأس موري . وببلاغته الدائمة ، أعلن :

- لا يسعني البقاء في هذا العالم بعد جرمتي . لقد تغذيت مع الموت : وإنني لأحبه كما لو كان عشيقه . ولكنني أطلب الحياة لهذا العجوز الموجود هناك . . .

واستقبل «العجز» الحكم بفلسفة :

- قبل الأول بقليل ، وبعد . . .

وكان ميل لوبي - فيليب إلى العفو عن الذين لم ينجحوا في قتلـ . ولكن كان هناك هذا العدد الكبير من الضحايا ، وداعي المصلحة العليا . . . ولدى موافقته على عقوبة الاعدام الصادرة بحق المجرمين ، كتب على هامش الوثيقة : «ليس الشعور بالواجب الكبير ما يجعلني أوفق على أحد الأعمال الأكثر ألماً في حياتي . ولكنني ، أرجو ، نظراً لصراحة فييشي في اعترافاته وتصرُّفه أثناء المحاكمة ، أن يُعفى من الجزء الملحق بالعقوبة ، وأسف أسفًا عميقاً لأن ضميري لا يسمح لي بأكثر من ذلك .»

كان ذلك يعني أن فييشي لن يُعدم مثل قاتلي الوالدين ، وقد فُتح بالسوداد .

وفي ١٩ شباط ١٨٣٦ ، عند الثالثة صباحاً ، قرع كاهن السجن باب زنزانة فييشي . فطلب هذا الأخير سيكارا ، ومثل دور السخي ، إرضاء لنفسه :

- ينبغي ألا أذهب إلى العالم الآخر وأنا على نزاع مع الآخرين . فعندما يستاء المرء ، ليس من المستحب كثيراً السفر معـ . أرجو أن تسرّني بابلاغهما أنني أسامحهما . خذ ، تكرّم بحمل هذا السيكار الذي بدأت بتدخيـ ، لكي يدخـنا معي ،

وينتهي كل شيء .

وقال موري :

- أنا لا أؤدّ أن أسمع شيئاً عن فييشي . إنه حقير جداً !

### إنها مأدبي الخاصة

- عندما أنهى الجلاد سامسون الاستعدادات التي تسبق الاعدام في ما يتعلق بزينة فييشي ، أعلن هذا الأخير بسخرية ، وقد ساعده رفض زميليه عرضه :
- آلان ، أنا مستعد . بالوسع المحيء بالآخرين : إنها مأدبي الخاصة !
- وعند أسفل منصة الإعدام المقامة عند حاجز سان - جاك ، تقدم أحد مفوضي الشرطة من المحكومين ، وقال :
- اكشفوا لنا الحقيقة ، الحقيقة دون تحفظ ، فيؤخر تنفيذ الحكم .
- لماذا هذه الخطوة في اللحظة الأخيرة ؟ لأن العدالة كانت تحرص على معرفة ما إذا كان ثمة متآمرون آخرون . إن شكوكها كانت تستند إلى واقع ، ذلك بأنها عرفت -منذ أعلم موري كلاً من الزعماء الجمهوريين بلانكي ، ويارييس ، وكافينياك - الذين كانوا ينتظرون اللحظة المؤاتية - أي موت الملك ، للتحرك - بكل ما يُخطط ويحاك . . .
- قطع رأس بيان أولاً ، وتبعه رأس موري ، وكان فييشي آخر من أُعدم . وقد عانق الصليب . وقال :
- أقسم على أنني قلت الحقيقة أمام الله الذي أقبله . أنا نادم على ضحاياي أكثر من ندمي على حياتي . وأرجو أن يكون الحكم بمثابة لسواي .
- وهمس في أذن الكاهن :
- أود ، بعد خمس دقائق من موتي ، أن يكون بالوسع إذاعة أنباء عنـي !
- منه لم يبق ، كدليل على أحد أرعب الاغتيالات التي أدمت بلاط باريس ، إلا آلة الجهنمية المحفوظة في دار المحفوظات الوطنية .

## الحب والنكبة

### أمزجة سان - مارس

في شهر توز من سنة ١٦٤٢ ، وفي قلعة مونبولييه ، كان سجين في الثانية والعشرين من عمره ، في غاية الوسامنة ، يصرخ بأعلى صوته ، ويرفض الاعتراف بأنخطائه .

- تعلمت أغنية «أفضل الموت على الكلام» . ليس ثمة اي دليل ضدي . يريدون مني أن أحكم على نفسي بنفسي !  
كان يقال له :

- أيها السيد ، يبغى الاعتراف بالحقيقة .  
- ألا تعلمونَ أنَّ المَرءَ يُشْتَقُ إِذَا مَا باحَ بِالْحَقْيَقَةِ؟ ليضمنوا لي العفو عنِي ، فأكشف عن أمور لا أُفصح عنها إلا على هذا الأساس .

كان هذا السجين هنري ديقيا ، المركيز دو سان - مارس ، السيد حامل السلاح الكبير ، الذي كان يعيش في زنزانة «قلما كان يرى فيها نور النهار» ، ساعاته الأخيرة ، وينتظر قطع رأسه لأنه كان محبوّاً من الملك لويس الثالث عشر . . .

لقد صورَ فيليب إرلنجه ، في مؤلفه المتفوق «سان مارس ، أو الحب والنكبة» ، بالمهارة المتأورة عنه ، هذه الصدقة الملكية . وإننا لنحس بالانزعاج عندما نطالع الرسائل التي كان يوجهها الملك إلى ريشليو ، وفيها يصف العاهل الإهانات التي كان يُنزلها به والألام التي كان يسببها له هذا الولد المدلل ، هذا الغرّ الأثيق الذي يُدهش غروره الشاذ . ويخيل إلى المرء أنه يقرأ ، لا رسالة من ملك فرنسا ذي السلطان المطلق ، ولكن شكاوى امرئ ناضج ، وضعيف ، وأعزل ، بخاصة ، أمام مكر امرئ

فتىّ ، وتغييرات مزاجه المفاجئة ، ونزواته . فقد كتب الملك الى وزيره الاول ، الكاردينال دوريشليو نجيه ، يقول :

«ارجوك أن تعذرني اذا لم تكن الرسالة مكتوبة بإدراك وعقل سليم ، لأنني استشطت غضباً أمس ، في الساعة الواحدة بعد الظهر ، إذ حلا للسيد حامل السلاح الكبير ، ان يخاصلني ، ويقطّب وجهه . الحمد لله ، إن لدّي شهوداً ، وهو لا يسعه أن ينكر شيئاً . بقدر ما نظره له المحبة وتنمّقه ، تراه يتسامى ويتحدى . أنا لم أنم طوال الليل لفرط الغضب ، وانفعلت قليلاً . لم يعد بوسعي أن أحتمل أطول عجرفته التي بلغت حداً كبيراً ». »

وكان المصالحات تلي ، وأحياناً في اليوم نفسه الذي يبدو فيه حامل السلاح الكبير على جانب من الوقاحة نادر :

«أكتب إليك هذه البطاقة لأنني أخشى ان تكون قلقاً عليّ بالنسبة إلى ما كتبته هذا الصباح . ما إن شاء السيد حامل السلاح الكبير أن يعود ، حتى استقبلته أحسن استقبال ، ونحن الآن معاً ». »

عندما لم تكن «أمزجة» او نزوات سان - مارس على ما يرام ، كان بالواسع مشاهدة الملك يتنازل الى حد الذهاب الى غرفة حظيه «لكي أرجوه - على ما يروي الملك البائس - أن يتكرم بنسيان أي شيء أكون قد قمت به أو قلته وتسّبب في غضبه ؛ وهو يقول إنني لم أعد أحبه لأنني أرفض أن أُنفّذ له اي مطلب ينافي العدالة أو الأصول ، . . . لم يعد بوسعي احتمال تكبره ، إنه يحسب كل شيء تحت مستواه ، وأنه لا يحتاج إلى أحد ». »

كان هنري ذا مزاج لا يُحتمل مطلقاً ، وكانت مطامحه تلقى معارضة من جانب الكاردينال دوريشليو . وكان ، في الواقع يحب الأميرة ماري دو غونزانغ ، التي تكبره بسبعين سنوات . ولكي يستطيع الاقتران بها ، وهو من أسرة متواضعة ، كان ينبغي الحصول على إقطاعية للنبلاء أو الاشراف أو دوقية .

رأى سان - مارس أن من اللباقه أن يكلّم الكاردينال في الأمر ، ما دام هو الذي كان في أساس حظوظه لدى الملك . ولكنه فوجئ لما غضب صاحب النيافة وهتف

قائلاً إنه «لا يعتقد أن الأميرة ماري قد نسيت أهلها إلى هذا الحد ، وأنها تودّ أن تنحط إلى مستوى رفيق وضعه مثله .»  
ثم إنه زاد قائلاً :

- ينبغي لك أن تتذكّر أنك نسيب رفع مقامه بالحظوظة ، وأن المركيز دو سوردي قد شرف أخاك مارتن كثيراً لما زوجه ابنته . أنا لا أدري كيف تحرّر على أن تطمع إلى هذا الزواج !

فغمغم هنري :

- إن والدتي توافق على هذا الزواج .

فصاح الكاردينال وقد خرج عن طوره :

- إذا كنت صادقاً في ما تقول ، فتكون والدتك مجونة ، وإذا كانت الأميرة ماري تفكّر في هذا الزواج ، ف تكون أكثر جنوناً من والدتك !  
كان السيد حامل السلاح في حالة لاحظ معها أصدقاؤه لدى عودته إلى مقره ، أن كل أزرار صديريته كانت مقطوعة .

ولما شاء الملك ، بعد بضعة أيام ، أن يؤنب حظيه العزيز ، اختار الوقت غير المناسب ، واستقبل بفتور . وينبغي قراءة تفاصيل المشهد كما رواه لويس الثالث عشر لصاحب النيافة .

قال الملك لسان - مارس :

- أعلمكني السيد الكاردينال أنك أبديت له رغبة كبيرة في أن ترضيني في كل الأمور ؛ ولكنك ، مع ذلك ، فأنت لا تفعل ذلك إلا في الموضوع الذي رجوته أن يكلّمك فيه : إنه كسلك !

عندها استشاط هنري غضباً ، وأجاب بحدّ الولد :

- لقد كلّمني نيافه في ذلك ، ولكنني من هذه الناحية لا يسعني أن أتغيّر ، ولن أتصرف أفضل من السابق .

وتقىم لويس بحياة ، وهو متذهل نوعاً ما :

- بالنسبة إلى رجل في مثل وضعك ينبغي له أن يفكّر في قيادة الجيوش ، وقد

سبق أن أبدى لي رغبته في ذلك ، فإن الكسل هو حتماً عائق .

فقال سان - مارس بغضب شديد ، وهو ما يزال متثبتاً برأيه :

- أنا لم تخطر بيالي قط هذه الفكرة ، ولم أرحب بها في يوم من الأيام .

ومضى الملك في رواية ما حدث للكاردินال : «على ذلك ، رددت بكلمة بل ، ولم أشا التعمق في الحديث . أنت تدري ما هي القضية . . . واستأنفت بعد ذلك الحديث عن الكسل ، قائلاً له إن هذا العيب يجعل المرأة عاجزاً عن القيام بكل شيء حسن ، فإنه مختص بصورة خاصة بجامعة «المارييه» حيث أرضع ، وهم أناس غارقون تماماً في الملذات .»

لذا ، إذا شئت ان تواصل مثل هذه الحياة ، ينبغي لك العودة الى هناك .

- إني على أتم استعداد لذلك !

فأجاب لويس الثالث عشر :

- لو لم أكن اكثراً حكمة منك ، لكنت عرفت بماذا ينبغي لي أن أردّ عليك . ونظرأ للمبروجات المترتبة عليك نحوـي ، ما كان يجدر بك ان تتكلمني على هذه الصورة .

فأجاب هنري وهو يرفع نبرة صوته :

- لا ادري ما أفعل بجميلك ، وأنا مستعد لإعادته إليك ، فأنا استغنى عنه تماماً ! على أي حال سأكون مسؤولاً جداً أيضاً لكوني سان - مارس بدلاً من السيد حامل السلاح الكبير ، وفي ما يتعلّق بتغيير نمط حياتي ، لا يسعني أن أحيا بطريقة أخرى ! هذه المرة ، نفذ صبر الملك ، وغادر جناحه . ولحق به سان - مارس ، وأكملت المشاحنة في حديقة القصر . وسمع كل رجال الحاشية - مذهولين - لويس يصارح صديقه بقوله :

- لما كنتَ بمثل هذا الزاج ، فأسعدني بعدم رؤيتك ايام بعد الآن !

واستدار ، اذ ذاك ، سان - مارس ، وردد :

- سأفعل ذلك بكل طيب خاطر !

وأنهى الملك التعس رسالته بهذه التنہُد : «ولم آره فقط مذ ذاك .»

ولكن الملك عاد فرآه . . . ذلك ، بأن المصالحة المحتومة ، بالطبع ، تلت ذلك بعد

بضعة أيام ، وكان الملك ، كما في السابق ، وكما هو دوماً ، من خطأ الخطوة الأولى .

\* \* \*

في تلك الحقبة حين كانت تولد كل يوم مؤامرة ضد الكاردينال وسلطانه - لم يكن من المستحيل ألا «يفاتح» سان - مارس من جانب أعداء ريشليو . ولم يكن أحد يجهل أن هنري الشاب كان يلقب «النار واللهب» ضد صاحب النيافة الكلي القدرة الذي قصّ جناحيه ، ومنعه من الاقتران بحبيبه ماري .

ويحسب ما يقوله بصواب فيليب إرننجه ، «في هذه الحالة النفسية ، لم يقاوم السيد حامل السلاح الكبير الإصغاء إلى أعداء مضطهداته . لقد كان ، مع ذلك معجباً بنفسه ، وبخاصة بعد الاتهانات التي تلقاها مؤخراً ، لكونه عومل كاما لو كان دولة . واي فتى في سنّه لا تسرّه المحادث الليلية ، وأسرار المؤامرة؟»

خصوصاً وأننا استطعنا أن نرى ، في سنة ١٦٤٠ ، دوق دو بويون الشهير يسعى إلى حماية سان - مارس له . غير أنه ، في البداية ، كان كل شيء يجري بطف ، ويرفع القبعات ذات الريشات ، والرسائل الروودة بين فرنسيين ؛ ولم يكن الأمر قد بلغ بعد استدعاء الأجنبي - والعدو - للمساعدة . وسرعان ما تبدل كل شيء ، لما دخل على الخط غاستون دورليان ، شقيق الملك ، إمّعة الخيانة الذي تلبد في الظل المتمامي لحظيّ الملك ، واستغلّه مع احتمال تركه يسقط عندما يفسد كل شيء ، حسب عادته . ولم تكن تلك المرة الأولى يتصرف فيها هذا النذل على هذه الصورة .

وقد انطلق شقيق لويس الثالث عشر بحماسة كبيرة في المؤامرة ، لاسيما وأن زوجة أخيه ، الملكة آن دو تريش ، كانت موافقة على نياته الشريرة ، ووجدت فكرة توريط هذا الحديث سان - مارس في القضية حلاً ممتازاً . كل شيء كان حسناً لهم الريشليوا حتى - ولا سيما - ضمّ إسبانيا إلى المؤامرة . ولم يتردد غاستون ثانية واحدة في دعوة العدو .

أما في ما يتعلق بالسيد حامل السلاح الكبير ، فلم يكن يرى إلا شيئاً واحداً :

امتلاك أميرته الفاتنة . وللحصول عليها ، كان هذا الفتى الطائش البالغ العشرين ، مستعداً لبيع روحه من الشيطان .

وقد تاه بحق ، إذ اعتقاد أنه سينفذ كل شيء ما دام لويس الثالث عشر كان يبدو غالباً ثائراً للأعصاب بسبب وصاية ريشليو . وقد أشهد الملك سان - مارس . كان «يتمرد تحت هذا النير الباهظ ، ويختبر شكاواه ». وحرصن هنري تماماً ، بكل مهارة ، في البدء ، على مشاركة الملك في الرأي ؛ وحاول الدفاع - بحجج سيئة - عن المحسن إليه السابق ، ولكنه لم يكن إلا لزيده توريطاً .

قال له الملك ذات يوم :

- لكم أود أن أتنازل عن نصف مملكتي مقابل انفصالك عن الكاردينال . لقد أضاع كل أصدقائي ، وحاول أن يطردك أنت شخصياً ! .. وفوق ذلك ، فهو يجعلني تحت ضغط لا يُحتمل . لكم أرغب في أن يكون ثمة حزب ضدك في فرنسا ، كما كان في وقت مضى حزب الماريشال دانكر ! .. وذهل هنري . هل كان يجب الأقدام على كل شيء؟ وكان يدرك ، مع ذلك ، أكثر من أي شخص آخر سلطة الكاردينال ، وتقلب الملك ، وضعفه ، ورخاوته ، وعزمها ، بخاصة ، على الانحناء أمام إرادة وزيره ، مهما تكون قاسية ، وذلك من أجل مصلحة المملكة الكبرى . ومع ذلك ، في اليوم التالي ، اعتقاد السيد حامل السلاح الكبير أن الملك إنما يفكّر في سكينته أكثر من تفكيره في فرنسا ، وتجراً على أن يقترح عليه :

- مولاي ، أنت السيد . لماذا لا تطرد الكاردينال؟

وهتف لويس :

- مهلاً ، لا تتسرع ! .. الكاردينال هو أكبر خادم عرفه فرنسا . لا يسعني الاستغناء عنه . ويوم يعلن صراحة أنه ضدك ، لن يسعني حتى الاحتفاظ بك .

وكما يقول بوضوح مترجمه الأخير «إن اي انسان غير العاشق ذي الواحد والعشرين عاماً ، الوسيم مثل ادونيس ، الواثق تماماً من سحره ، كان تعلم من الحادث درساً ملائماً . وما دامت متطلبات ماري لم تكن تسمح بأي تراجع ، فقد كانت الحكمة تقضي بتبدل عدة المؤامرة التي كان نفوذ الحظى يمثل فيها القطعة الرئيسية .

كان ينبغي انتظار حدث ملائم ، وعند الحاجة موت الملك . غير أن سان - مارس لم يكن يريد الانتظار ، فضلاً عن ان غروره الساذج منعه من الاعتقاد أنه على المدى الطويل ، لن يسيطر كلياً على رجل ما يزال يخضع لزيارة الصبيانية ».

ووجد سان - مارس نفسه غارقاً أكثر فأكثر في الخطأ ، بقدر ما كانت حظوظه تتحذ أحياناً مذهلة . وهكذا ، في يوم كان فيه الملك ، بحضور دو تريفي ، قائد الفرسان ، يجترب كثير من المرارة شكاواه ضد طغيان السيد الكلي السلطة ، والعبودية التي دفعه إليها ، هو ابن الملك هنري الرابع ، والملك ، هتف هنري بشوران يتلاءم مع سنّه :

- أطربه ، إذا !

هنا يكمن اعتذار سان - مارس الكبير . فبدلاً من أن يردّ لويس على حظيه بالنبرة السابقة نفسها ، اكتفى بالتحدث عن صعوبة العملية . وتجاسر هنري :

- إن أقصر طريق هي اغتيال ريشليو ، عندما يُقبل إلى جناح الملك ، ما دام حرسه لا يتبعونه حتى هذا المكان .

أخذت الدهشة ، أولاً ، لويس الثالث عشر ، ثم ، انه بعد صمت طويل ، همس :

- إنه كاردينال وكاهن ، وسأحرم كنسياً !

وهتف دو تريفي :

- شرط الحصول على إقرار جلالتك ، فمن أهتم ، وسأذهب إلى رومالكي أبداً ؛ وأنا واثق من أن أستقبل فيها استقبلاً حسناً .

ولم يجب الملك . . . فهل كان يمكن أن يفسّر سان - مارس هذا الصمت على أنه توقيع على بياض؟ إن القضية تبقى بلا جواب . مع ذلك - والحدث جوهرى - رضي الملك ، للمرة الأولى ، بأن يتصرف بالسر عن وزيره . وإذا كرر سان - مارس على الملك أن إرادة الكاردينال وحدها هي العائق في سبيل الصلح مع إسبانيا ، حاول لويس الدفاع بربخاوية عن « جلاده » .

ومضى هنري يقول :

- حسناً ! إن الوسيلة الوحيدة لاكتشاف الحقيقة في قضية بهذه الأهمية ، هي

تكليف شخص موثوق به الكتابة الى اسبانيا ، من دون علم الكاردينال والوزراء الآخرين ، والاستفسار عن حالة المفاوضات . ومن الردود التي سترد ،سيتبين لك بوضوح أن الكاردينال وحده يعارض في الصلح .

وسائل الملك ، وقد اقتنع نوعاً ما :

- ومن يمكّنا تكليفه بهذه المهمة دونما أي خطر؟

وأطلق سان - مارس اسم صديقه .

- فرنسوی دو تو . إنه لا يتنتظر إلا شيئاً واحداً للعمل : أمراً كتابياً من جلالتك . ويكشف لنا الأب غريفه «إن الملك أعطى أمرتين اثنين ، واحداً كان لحظيّه ، والأخر لدو تو ، بالسماح لهما بالكتابة الى روما ومدرיד للتوصيل الى عقد معاهدة صلح ». ولكن دو تو لم يستطع تحقيق مبتغاه .

\* \* \*

كانت المؤامرة التي ستتسبّب في ضياع سان - مارس ، قد انطلقت بعجلة ، عجلة عدو فرس فونتراي ، الأحدب ، والمشوه فونتراي ، الحرك الأساسي للتركيبة ، الذي نجح ، عقب مقابلة بويون في ليموج ، في دخول اسبانيا حيث كان على موعد مع الكونت أوليفارييس ، الريشليو الإسباني .

لقد ذهب ليقرأ له مذكرة ستبدي لنا بضعة أسطر منها مدى الخيانة وخطورتها ، هذه الخيانة التي تورّط فيها هذا المجنون حامل السلاح الكبير لحقده على الكاردينال : «إن صاحب السمو دوق اورليان او اولئك الذين هم في حزبه ، يتعهدون بتسلّم موقع محسّن أو موقع منيع بعدد تلك التي بواسعهم اختيارها لجيشهم أو لجيش صاحب الجلالـة الكاثوليـكـية ، بحيث أن الجيش الاجنبـي ، الذي سيـدخل الـارـاضـي الفـرـنسـية بموجب هذه المعاهـدة ، في حال التـقهـر ، يـسعـه أن يـلـجـأ إـلـيـها . . . انـ السـيد دـوق اـورـليـانـ يـتعـهـدـ بـأنـ يـشـرعـ فـيـ الحـرـكـةـ حـالـ اـجـتـيـازـ قـوـاتـ صـاحـبـ الجـلاـلةـ الكـاثـوليـكـيةـ وـصـاحـبـ الجـلاـلةـ الـامـبرـاطـورـيـةـ نـهـرـ الـراـيـنـ لـدـخـولـ فـرـنـساـ .»

وعندما ذكر فونتراي اسماء الضالعين في حزب دوق اورليان هذا و منهم اسم سان - مارس - دُهل او ليفاريس .

ثم إن الاحدب عاد الى فرنسا ، حاملاً تحت بطانية صديريه رسالة من ملك اسبانيا الى غاستون دورليان . وكان كل شيء يجري على غایة ما يرام بالنسبة الى المتأمرين . . . وبدا الكاردينال بالآخرى ، مرة جديدة ، ميتاً .

غير أن غبطة غاستون راحت تكمد عندما علم أن الصداقة بين الملك وحظيه لم يوضع لها حدّ ، ولكنها بدت هذه المرة تعنف بصورة جدية .

في أثناء ذلك ، مرض الملك الذي كان سقيناً واهن الصحة دوماً ، مرضًا على شكل أشد ، وزاد حالته سوءاً عدم إظهار سان - مارس اي شعور بالرأفة او الحنان .

وقد تجراً على القول لأحد هم وقد جاء يستفسر عن صحة الملك : إنه ينسحب بيد أن الاسرار أذيعت ، ويذعمون حتى أن نسخاً من المعاهدة الشهيرة كانت توَّزع سرّاً . وكتبت الاميرة ماري الى عاشقها تقول : «إن قضيتك عُرفت عامة في باريس مثلما يُعرف ان نهر السين يمر تحت البون نوف .»

من اي قناة عرف ريشليو بالحقيقة الرهيبة؟ لأندرى بالضبط . يقول احد الشهود في ذلك الزمان «يذعمون ان رسولًا لم يجد قط الكاردينال ريشليو في ناربون ، وصل حاملاً رزمة من الماريشال دوبريزه ، نائب الملك في كتالونيا ، يعلمه فيها ، في سطور أربعة ، ان مركباً غرق لدى الساحل ، ووجدت فيه معاهدة السيد حامل السلاح الكبير ، او بالآخرى معاهدة دوق اورليان مع اسبانيا ، وأنه ، إنما يرسلها اليه . هذه هي الشائعة التي روِّجت ، ولكنها ليست الحقيقة ، واولئك الذين صدقواها هم أناس سريعاً التصديق ». )

ويميل فيليب إرننجه الى هذا التفسير فيقول ان آن دوتريش ، ضحّت ، على الأرجح ، ظناً منها ان القضية فُضحت ، بشر كائناً ، وأوفدت رسولًا الى الكاردينال الذي كان طريح الفراش في آرل .

وطلب ريشليو عقب قراءاته نسخة المعاهدة :

- آتوني بحساء ، فأنا مضطرب جداً !

وشعر فونتراي بالخطر ، ودونما ان يضيع الوقت في تناول أي حساء ، صمم على الهرب شطر سيدان ، متنكراً بزي راهب كبوشي .

وقال لسان - مارس الذي لم يكن يرتات بالخطر المدحق :

- بالنسبة اليك ، ستبقى مدید القامة بعد أن يقطع رأسك من فوق كتفيك أنا ، في الحقيقة ، قصير جداً بالنسبة الى ذلك !

وما هي إلا بضعة أيام ، وبناء لأمر صادر عن الكاردينال ، حتى كشف امين سر الدولة شافيني للملك الذي كان في ناريون خيانة عزيزه هنري .

وبالواسع تصور شك لويس الثالث عشر ، ثم إنه بعد خضوعه للبراهين الدامغة التي قدمها ريشليو ، أصابه الحزن والاشمئزاز وهو يجاهه بهذا الافشاء المرعب . ولم يسعه سوى إصدار مرسوم بالقبض على عزيزه هنري ، ودوق دو بويون ، ودو تو ، وهذا الأخير كان متهمًا باطلاعه على خطط المتآمرين ولم يفضحها .

هل أن الملك هو الذي حذر حظيه السابق من «انهم يستهدفون شخصه؟» لا أحد يدرى . غير أنَّ هذا الضعف الأخير جعله في نظر التاريخ أكثر جاذبًا . . . ألم يُصنِّع إلى حظيه يحدّته عن اغتيال الكاردينال؟ يبدو محتملاً «أن يكون خادمًا لا يعرفه سان - مارس ، قد جاء إلى المنزل الذي كان فيه ، ليُخطره بالأمر الذي أصدره الملك .»

غير أن هنري لم يعرف كيف يفيد من النصيحة ، ورقد ثانية . واحتياً لدى امرأة تدعى السيدة سيوزاك قد يكون له أفضال عليها . ولكنها ، مع ذلك ، تناست هذه «الأفضال» ، ذلك بأنها أصيّبت بالخوف لدى سمعها صبيحة يوم ١٣ حزيران المنادين يتبعون بالموت كل الذين يؤتونه مجرم .

وأعلمت زوجها بالأمر ، وما هي إلا لحظات قليلة حتى ، استيقظ هنري مذعوراً على قعقة الشكّة (مجموع آلات الوقاية المعدنية كالدرع والخوذة الخ . . .) والسلاح ، فنهض من سريره ، واستسلم إلى الجنود . وسمح له بالاحتفاظ بسيفه ، وسمع يتمتم وهو يجتاز قلعة مونبولييه حيث اقتيد :

- آه ! هل ينبغي الموت في سن الثانية والعشرين؟ ! هل ينبغي التآمر على الوطن في هذه الساعة المبكرة؟ !

قدّم بوبون ، مقابل حياته ، سيدان ، ووافق على اتهام سان - مارس بحضوره .  
وأريك هنري وخارت عزيمته . وقال :

- أنا لم أتوقع قط مثل هذا العمل من جانبك ، أنت من كنت تقرّظ وتوصف  
بأنك جد شجاع وجد كريم ! بعد كل الوعود والأيمان ، كنت أفضل الموت وسط  
العذابات على خيانة صديق ، ولكن ، ما دمت قد أبديت القليل من الصلاة ، فلن  
أنزع عبئاً بالنسبة إلى حياتي .

أما في ما يتعلّق بموقف غاستون دورليان ، فإنه يبعث على التفّزّ . ففي ١٧  
حزيران ، وبعد إخطار الملك نفسه له بالقبض على سان - مارس ، كتب هذه الرسالة  
إلى الكاردينال :

«ابن عمّي - الملك سيدي ، شرّفني بالكتابة اليّ عما كان في نهاية المطاف ، تأثير  
سلوك هذا الناكر السيد حامل السلاح الكبير . إنه رجل المجتمع الأكثر اتهاماً الذي  
اسخطك بعد الكثير من الالتزامات . إن النعم التي كان يتلقاها من جلالته جعلتني  
احترب دوماً منه ومن حيله . . . لذا ، لك ، يا ابن عمّي ، احتفظ بتقديرني وصداقي  
الكلية .»

بعد بضعة أيام ، سمح ريشليو لنفسه بأن يوف شافيني إلى مولان ليحمل إلى  
غاستون دورليان البراهين على خيانته .

- ان خطأ سموك من الكبر بحيث أن صاحب النيافة لا يسعه أن يضمن شيئاً . إن  
حياتك نفسها مهددة لأنك اقترفت جريمة لا يمكن الحلم البشري غفرانها .

وجعل غاستون يرتعش من الخوف :

- شافيني ، ينبغي أن تخلّصني من الألم الذي أعاينه ! لقد قمت بذلك مرتين  
حتى الآن تجاه نيافته . أرجوك ، ستكون هذه المرة الأخيرة أكلفك فيها مثل هذه  
الاعمال .

- إن السبيل الوحيد لإنقاذ نفسك هو في تقديم اعتراف صادق بالنسبة إلى الخطأ  
الذي اقترفته .

إلا أن سان - مارس ودو تو ظلا يعandان وينكران ، ولم يكن بين يديّ ريشليو

سوى نسخة من المعاهدة . ولكي يسعه الحكم على محميّه السابق الذي غدا عدوه ، كان ينبغي له تصديق هذه الوثيقة بشهادة أحد أبناء الأسرة المالكة في فرنسا . . . ولكي يستعيد غاستون إقطاعته ، تسرب بالعار حتى الخزي . كشف كل شيء ، واتهم سان - مارس ، ولكنه أخفى دور الملكة ، ورفض كل مواجهة مع الحظي السابق . قبل غاستون كذلك باتهام دو تو ، الذي كان أعلم بالاتحاد في ما بينه وبين السيد حامل السلاح الكبير ، ويويون .

كان الصديقان اللذان نُقلَا إلى تاراسكون ، سياحًا كمان في ليون . ولم يذكر ريشليو أمر نقلهما إلى أحد . وكانت السفينة الصغيرة التي أفلت السجينين ، محاطتين بالحرس ، يجرّها المركب - السفينة الحقيقي لصاحب النيافة حيث كان الكاردينال يرقد فوق سرير من التفتا الارجواني موضوع في حجرة مغطاة بالمخمل المذهب أو القرمزى . وكانت فرقاطات تقلّ حاملي القريبتان تفتح الطريق وعلى متن عربة مكشوفة ، يُحيط بها ٦٠٠ من حرس الكاردينال و ٢٠٠ كتالوني ، دخل سان - مارس مرتدّاً معطفًا قرمزيًا ، مزيناً بالدانتيلا المذهبة ، ليون . واضططر إلى امتطاء حصان لتسلق الساحل المؤدي إلى قصر بير - أسيز . وقال :

- هذه هي ، إذا ، آخر نزهة أقوم بها !

\* \* \*

والملك ؟

في البدء ، انتقل من الحلم إلى «التأوهات» . وسمع ينتهد :

- يا له من مجنون السيد حامل السلاح الكبير !

ثم ، لما ردّوا على مسامع الملك عبارة حظيّ «إنه ينسحب» الشهيرة ، أعلن لكل غادِ :

- الخبيث ! كان يودّ أن أموت !

مع ذلك كانت الدعوى تسير ببطء ، وصبر ريشليو ينفذ «عندما - على ما يكتب

فيليب إرلنجه - وصلت رسالة غريبة ينحط فيها ملك فرنسا ، المنصف الاسمي ، باتخاده أمام مستشاره نيرة المتهم لكي يحمل حظيه السابق الوزر بطريقة أفضل . إننا نجهل كيف أقنع لويس الثالث عشر الفخور ، المتشكك باتخاذ هذه الخطوة التي لا مثيل لها . إن ضميره ينبغي أن يكتبه بقسوة ، و موقفه في ليون ، وبقايا حنان اضطر أن ينحهما ألوان الحقد . ولكن هل هذا نفسه كان كافياً؟ ألم يكن الملك يخشى كشف بعض الأسرار الحميمة التي لا تتعلق بالشأن العام؟ »

كتب لويس إلى رئيس القضاء سيفيه يقول : «السيد رئيس القضاء ، لما بلغني ان السيد دو سان - مارس تصنّع القول ، وألمع ، وحمل على الاعتقاد أن الأفكار والخطط الشيرية التي غذّها ضد ابن عمي الكاردينال دوريشليو ، كانت معلومة وموافق عليها مني ، شئت أن أرسل إليك هذا الكتاب لأعلمك أنني عرفت منذ أمد ، وليس الآن ، أن السيد دو سان - مارس هو مخادع كبير وثمام ، ولطالما سمعني المحيطون بي أشكوا من ذلك وأنذّر . ولقد رأيته مراراً يساند الكذب بمثل ما يساند به الحقيقة ، وغالباً ما كان يجاهر بأنه ينبغي التصرف هكذا . صحيح أن السيد دو سان - مارس لم ينس شيئاً مما استطاع أن يثيرني به ضد ابن عمي المذكور ، ولكم تأملت عندما كانت مساعيه السيئة باقية ضمن حدود الاعتدال .

«ولكنه عندما تجاوز هذا الحدّ وهو أن يقترح عليّ أنه ينبغي لي التخلص من ابن عمي المذكور ، وتقدّم للقيام بذلك ، تملّكني الرعب من أفكاره الشيرية ، وكرهتها ، بحيث أنتي اكتفي بترداد ذلك لكي تصدق ؛ وليس ثمة شخص لا يعتقد ان الأمر لا يمكن أن يكون غير ذلك إذا ما اعتبر أن السيد دو سان - مارس المذكور لو حصل مني على الموافقة على مشاريعه الشيرية ، لما كان اتصل بذلك اسبانيا ضد شخصي ودولتي ، كما فعل نتيجة اليأس من استطاعته انتزاع ما كان يرغب فيه . وأرغب أن تطلع كل أعضاء الجماعة التي ترأس على مضمون هذه الرسالة الآن ، لكي يطلعوا على الحقيقة .»

بعد ذلك ، استطاع سيفيه ، رئيس القضاء في فرنسا ، أن يهتف :  
- بالنسبة الى السيد حامل السلاح الكبير ، هذا أمر حسن . . . . ولكن بالنسبة

الى فرنسي دو تو ، لأدرى كيف ستتصرف .

عندما تسريلت العدالة بالعار في شخص سيفيه الذي جاء يقول لسان - مارس :

- إن حبّ الملك لكبير بحيث أنه لا يود أن يهلكك ، سيرأف بشبابك ، ولكن ينبغي ان تستحق العفو عنك باعترافك بكل ما حدث . إن الملك والكاردينال يرغبان في ذلك حتماً . إذا أنت أرضيتهما فلن تندم على ذلك مطلقاً .

وياسماله هكذا ثقة المحكوم عليه بالموت العتيد ، أوفد إليه قاضياً آخر هو المستشار

لوباردومون ، الذي أكد له :

- في الحالة التي وصلت إليها قضيتك ، لا يبقى أمامك اي وسيلة غير الحصول على العفو عنك بالاعتراف الصادق . فدو تو قد كشف كل ما يعرفه . وسيكون من المدهش أن ترحب في بقائك وفيما للرجل لم يكن وفيما تجاهلك على حساب حياتك . إن اعترافاتك امام السيد رئيس القضاء لا يعتد بها أمام العدالة . إن الملك والكاردينال يتطلبان منك إقراراً حسب الأصول . فإذا ما رفضت أيضاً ، فإنك لن تموت ، وحسب ، بل إنك ستتعذّب ؛ في حين أنك بقولك الحقيقة كاملة غير منقوصة ، ستكون واثقاً من تفادي العذابات والموت . . . وإنني أعدك بأنك اذا ما فعلت ذلك ، لن يصييك مكروره .

ولم يُخفِ هنري شيئاً عن المحققين ظناً منه أن صديقه دو تو خانه ، في حين ان هذا الأخير ، بالطبع ، لم يكشف شيئاً . فذكر أن دو تو كان على علم بالمؤامرة . وبهذا الإفشاء أرسله الى خشبة الإعدام .

ينبغي قراءة هذا المقتطف من «تقرير الدعوى» الذي كتبه ريشليو ووقعه

لوباردومون :

«في ما يتعلق بالسيد حامل السلاح الكبير ، إنه متهم ، ليس بضلوعه في هذه المؤامرة ، بل بعد ذلك بكونه مدبرها ورأسها . سَمَ السيد حامل السلاح الكبير غاستون دورليان ، بمخاوف خيالية يتوهّمها هو . هذه جريمة . ولكي يتّقي أهواه ، حمله على تأليف حزب في الدولة : هاتان جريمتان . وحمله على الاتحاد مع اسبانيا : هذه جريمة ثالثة . وحمله على إهلاك السيد الكاردينال ، وطرده من الشؤون : هذه

جريمة رابعة . وحمله على شن الحرب في فرنسا خلال حصار برينيان لوقف مجرى سعادة هذه الدولة : هذه جريمة خامسة . وصاغ شخصياً معاهدة إسبانيا : هذه جريمة سادسة . وقدم فونتراي إلى غاستون دورليان لكي يوقد من أجل المعاهدة ، ويوفد إلى السيد الكونت دوبيجو . هذه التتممات يمكن اعتبارها جريمة سابعة ، أو على الأقل إكمال كل الجرائم الأخرى . وكلها جرائم قبح في الذات الملكية . « وكان لوباردومون من عهد إليه بإبلاغ ضحيته الحكم بالموت . وعندما علم سان مارس خلال المداولات أنه كان السبب في ضياع صديقه ، تلاشى . وشجعه دو تو بقوله :

- حسناً ! يمكنني يا سيدي ، أن ألومنك ! .. لقد اتهمتني ، وحكمت عليّ بالموت ، ولكن الله عزّ وجلّ يعلمكم أنّي أحبك ! لنقض ، يا سيدي ، لنقض بشجاعة ونكسب الجنة !

وبعد الاستلة الصورية ، جمع ما بين المحكوم عليهما . فقال هنري والدموع تسيل من عينيه :

- يا صديقي يا صديقي الكلم أنا نادم على موتك !

فأجاب دو تو :

- إننا سعيدان لأننا نقضي على هذه الصورة .

شاء هنري أن يموت هو أولاً . ألم يكن المتهم الأول ، وقال :

- إنك تجعلني أقضي مرتين فيما لو مت بعده !

واضطر دو تو إلى التسليم بهذه الرغبة .

ولدى وصولهما إلى ساحة تIRO ، حيث نصبّت منصة الإعدام ، وكان دو تو فريسة تحميس مسحور ، قال :

- هو ذا فراق جسدينا ، واتحاد روحيتنا ! .. هيا ، يا سيدي ! .. لحظة واحدة ستفصل في ما بيننا ، إلا أننا سنلتقي قريباً في حضرة الله تعالى إلى الأبد .. كنتَ كبيراً على الأرض ، وستكون أكبر بعد في السماء ، ولن تزول عظمتك أبداً ! .. أظهر أنك تعرف كيف تموت .

وترجلّ سان-مارس . وبينما كانوا يجزّون شعره ، تمت :

- آه ارياه !

ورؤي يلتفت الى الجلاد . وكان حمّالاً متقدماً في السن لم يسبق له أن أعدم أحداً من قبل . فسألة هنري :

- ماذا تفعل هنا؟ ماذا تنتظر؟

«فأخرج الرجل من كيس ساطوراً شبيهاً بساطور الجزار ، ولكنه أضخم ومرربع أكثر .»

عندما تتم كذلك سان - مارس :

- هيا ! ينبغي ان أموت ! ارياه ، إرأف بي !

وروى احد الشهود العيان ، قال ان السيد حامل السلاح الكبير «وضع بشبات لا يُصدق عنقه بكل دقة على عمود الاعدام ، جاعلاً وجهه مستقيماً وباتجاه مقدمة المنصة . وعانت بقوة العمود ، وأغمض عينيه ، وأقفل فمه . وانتظر الضربة التي أنزلها به الجلاّد ببطء ويتشاقل نوعاً ما ، بعد أن وقف إلى يساره حاملاً الساطور بكلتا يديه . فلما أصابته الضربة صاح بصوت جهوري صيحة بدت مثل «آه !» خُنقت بالدم . ورفع ساقيه كما لو كان ينبغي النهوض ، وعاد فسقط في الوضع الذي كان فيه . ولما لم يكن الرأس قد فُصل تماماً عن الجسد بهذه الضربة ، انتقل الجلاّد إلى يمينه من الخلف ، وأمسك بيده اليمنى بالشعر ، وباليد اليسرى نشر بساطوره جزءاً من الرغاص (قصبة الرئة) وجلد الرقبة الذي لم يكن قد قُطع ». «

وتدحرج الرأس - هذا الوجه الذي أحبه الملك - على منصة الاعدام ، ويصوت مرعب ، سقط أرضاً . . .

\* \* \*

يزعمون ، دون دليل ، أن ليس الثالث عشر كان في تلك الساعة نفسها ، يلعب الشطرنج . ومن دون أن يقطع الشوط ، قيل إنه صرّح ، وعلى شفتيه ابتسامة شرسه : - أودّ كثيراً أن أرى التكشيرة التي ينبغي للسيد حامل السلاح الكبير أن يرسمها في هذه الساعة !

كان القتل صناعته!

ولكن، في النهاية، طالبت المقصولة بفوكييه. قانفيل لنفسها

قد لا ييدو أن ثمة شيئاً غريباً فيه . كان رجلاً في الثامنة والأربعين ، ذا ملامح بارزة ولكن غير مميزة ، وكان زوجاً وأباً طيباً ، موظفاً حيّاً الصغير ، جلوداً على العمل .  
لا ، لم يكن فيه اي شيء استثنائي اللهم إلا أنه في ذلك اليوم ، التاسع من تميدور من السنة الثانية (من التقويم الجمهوري الفرنسي) ، الموافق ٢٧ تموز ١٧٩٤ ، وقع على الحكم الألف بالموت في أربعة اسابيع . كان اسمه أنطوان كونستان فوكيه - تانفيل ، المدعى العام في الجمهورية الفرنسية .

لولا الثورة لكان ، ربما ، أنهى حياته العملية كما بدأها . محامياً ناجحاً نوعاً ما ، في ظروف ميسورة تقريباً ، مكتفياً بهذا الاعتدال . مع الثورة ، بات مشهوراً بأنه الوحش المذموم والمرذول الذي لطخ - حتى السنوات الحديثة - صفحات التاريخ .

ولكن ، من بعض النواحي ، ظل معتدلاً . ففي منصب منحه السلطة المطلقة على الحياة والموت بالنسبة إلى مواطنه وأبناء جلدته ، كان يمكن أن يغدو شخصية عامة كبيرة فيما لو فعل ما فعله ، محام مغمور آخر هو روبيسيير . غير أنه كان مجرداً من الطامع السياسية ، وفي الشؤون المالية كان غير قابل للرشوة مثل روبيسيير غير القابل للرشوة شخصياً . كل ما كان يتطلع إليه دخل مضمون ، يؤمن له ،مهما يكن متواضعاً ، الأمان المالي . باختصار ، كان يوكل الحفاظ على منصبه .

من أجل ذلك كان يعمل ليل نهار لارضاء رؤسائه ، أرهابي بلجنة السلامة العامة المرعوبة . ومن أجل هذه الغاية ، كان هذا الرجل العاثلي المخلص ، يفتک يومياً بالوالدين ، ويسمّ الاولاد ، وبصفته محامياً ، لم يكن ليرضى ، وحسب ، بقانون

بريريا (الشهر التاسع من الروزنامة الجمهورية من ٢٠ أيار الى ١٨ حزيران) الرهيب ، بل كان يرحب به ، حارماً المشبوهين من حق توكيل محامين للدفاع عنهم ، أو أن يدافعوا هم شخصياً عن أنفسهم ، او أن يستمع الى شهود ، أو أن تستأنف الاحكام الصادرة بحقهم .

ومكّنه سلاح القانون هذا بلا عدالة ، والحكم بلا محاكمة ، من القيام بعمله المرعب من دون اي معوقات في الاجراءات القانونية من أي نوع كان ، باستثناء الاتهام غير المعين ، والاعتراف من قبل المتهمين بهويتهم .

يومياً كان يزود المقصلة بالرؤوس بلا مبالاة مثلاً يزود المزارع السوق بالملفووف ، ويكون انفعاله الوحيد التوتر عندما يقصر في تسلیماته ، والرضا عندما يعوض ما هناك من متأخرات .

هكذا كان يُقاد بالسباق الذي لانهاية له بين العرض والطلب ، بحيث أنه لما دخل موعدون من الكونفونسيون في ٩ تميّدor (الشهر الحادي عشر من الروزنامة الجمهورية ، من ١٩ أو ٢٠ تموز الى ١٧ أو آب) محكمته حاملين مذكرة تقضي بتوقيف رئيسها رينيه - فنسو دوما ، أزعجته هذه المقاطعة .

كان اداة اللعنة ، ولا اهتمام له بالسياسة التي تنتهجها الكونفونسيون على الضفة الاخرى للنهر ، ولكن إذا شاءت أن تزوده برأس أضافي ، حتى لو كان رئيس نفسه ، فلا بأس في ذلك .

والكونفونسيون هي الجمعية الثورية التي خلفت الجمعية التشريعية في ٢١ ايلول ١٧٩٢ ، وانشأت اول جمهورية فرنسية ، وحكمت فرنسا حتى تشرين الاول ١٧٩٥ .

وعلى ذلك ، عيّن بسرعة أحد القضاة الثلاثة في المقعد الرئاسي الشاغر ، واستطاع أن يصل بعد الرؤوس التي أمر بفصلها عن أجسادها ، على المقصلة ، الى الألف رأس في عمل شهر واحد وحسب !

ألف رأس في أربعة أسابيع ١٣٦٧ رأساً خلال الاسابيع الستة من وضع قانون بريريا موضع التنفيذ ! فلا عجب ، إذا ، إن هو شعر بأنه يستحق أن يقتطع ساعة من

الوقت لتناول العشاء مع الأصدقاء ، هو من كان يمنح نفسه غالباً جداً ثلاثة ساعات وحسب من أجل راحته الليلية .

غير أن رئيس المحكمة لم يكن الوحيد الذي انهمكت الكونفونسيون في ذلك اليوم في توقيفه ، بل هناك رؤساؤه ومستخدموه روبيسيير وارهابيو اللجنة ، كذلك . ذلك بأن قانون بريريال - قانون الإرهاب - قد التفت حول صانعيه . في الكونفونسيون ، التهم الإرهاب الضعيف لـ ٧٥٠ شخصاً مهددين ، فجأة ، مع الإرهاب الجماعي المميت للقطيع المهدد ، فرمى بعنف كرة الاتهام الى ملعب روبيسيير نفسه . وجراً الى المحاكمة العلنية ، وهناك أعلن أن القانون لا يطاله ، حتى قانون بريريال .

وبلغ النهاية مسامع فوكيه ، وكان في حفلة عشاءه ، بشيء من القلق ، ولكنه لم يكرر له إلا قليلاً .

لم يكن ذلك ، في حال من الأحوال أمراً يهمه . فإذا ما قطع رأس الحكومة ، فإن رأساً جديداً سينتبد بدلاً منه ، ويظل هو ، فوكيه ، يتلقى أوامره ، ويظل يطيعها بحذافيرها ، ويظل محتفظاً بمنصبه .

في اليوم التالي أصدر أمراً جازماً الى جلاده المتردد «بوجوب المضي في عمله» ، في حين مضى ، هو من جهته ، في عمله . وهو إرسال رؤسائه بالامس الى المقصلة ، روبيسيير واحد وعشرين من زملائه الإرهابيين .

ثم إنه انげز في مدى نصف ساعة ارسال رأس الى المقصلة في أقل من دقيقة ونصف بالنسبة بين الرأس والرأس . إن كل من سيتولى زمام الحكم بعد روبيسيير سيجد مدعاه العام مجتهداً وغير متحيز ، ويستحق منصبه بحق وحقيقة .

وفي تلك الفترة ، تناهى اليه ، وهو في المقصف التابع للمحكمة يحتسي الشراب الذي كان يتناوله ، لا لتعزيز ضميره بل لتقوية جلده واحتماله الجسديين ، انه هو شخصياً ائتم في الكونفونسيون بأنه إرهابي . ولكنه ، مع ذلك ، وضع جانباً الخوف ، مجدداً . وقال بينه وبين نفسه : «ليس هناك ما يقلقني ، فأنا بريء ، وسأنتظر حتى يقبضوا عليّ» .

ولكنه لم ينتظر . خف الى منزله من احد أبراج قصر العدل ، وهو جزيرة غريبة

من الهدوء المنزلي لم تمسّ في بحر ارهاب هائج ، حيث يتحول الوحش الملطخ بالدم الى زوج وأب رقيق لطيف . وهناك أطلع زوجته على ما حدث ، وطمأنها الى انه ليس هناك ما يُخشى ، ثم هرع الى سجن الكونسييرجي حيث سلم نفسه للعدالة .

إن فأـل فوكـيـهـ سيـخـيـبـ فيما اذا كانـ يـتـوقـعـ الخـدـمـةـ السـرـيـعـةـ التيـ اـعـتـادـ هوـ عـلـيـهـ منـ حـيـثـ تـزوـيدـ المـقـصـلـةـ بـالـرـؤـوسـ .ـ ذـلـكـ بـأـنـ بـأـنـظـرـ سـبـعـةـ أـشـهـرـ قـبـلـ أـنـ يـمـثـلـ إـمامـ قـضـاتـهـ لـلـمـحاـكـمـةـ .ـ أـشـهـرـ رـاحـ فـيـهـ مـسـتـوـيـ فـعـلـيـةـ الـحـكـمـةـ يـنـخـفـضـ أـكـثـرـ فـأـكـثـرـ ،ـ حـتـىـ بـاتـ فـيـ الشـهـرـ السـابـعـ لـاـنـفـخـرـ إـلـاـ بـارـسـالـ رـأـسـ بـائـسـ وـاحـدـ إـلـىـ الـمـقـصـلـةـ .ـ وـهـيـ أـشـهـرـ كـذـلـكـ أـتـاحـتـ لـهـ انـ يـجـهـزـ دـفـاعـهـ الشـخـصـيـ بـنـفـسـهـ ،ـ عـنـ ضـعـفـ لـمـ يـكـنـ قـطـ فـيـ مـذـنـبـاـ .ـ

يـوـمـيـاـ كـانـ يـمـلـأـ الصـفـحةـ تـلـوـ الصـفـحةـ بـالـحـجـجـ التـيـ كـانـ بـالـوـسـعـ تـكـثـيـفـهـاـ بـعـبـارـتـيـنـ اـثـنـيـنـ ،ـ وـحـسـبـ :ـ لـمـ اـكـنـ سـوـىـ اـدـاـةـ الـقـانـوـنـ ،ـ أـنـ اـلـمـ أـقـمـ إـلـاـ بـتـنـفـيـذـ أـوـامـرـ رـؤـسـائـيـ .ـ وـكـتـبـ ،ـ كـذـلـكـ إـلـىـ زـوـجـتـهـ ،ـ الرـسـائـلـ التـيـ يـكـتـبـهـاـ ايـ زـوـجـ مـهـمـومـ قـلـقـ يـجـدـ نـفـسـهـ فـيـ مـثـلـ هـذـاـ الـوـضـعـ .ـ شـكـرـهـاـ عـلـىـ وـجـبـاتـ الطـعـامـ التـيـ كـانـتـ تـرـسـلـهـاـ إـلـيـهـ فـيـ السـجـنـ .ـ «ـالـسـبـانـخـ كـانـ شـهـيـاـ»ـ .ـ وـنـصـحـ لـهـاـ بـأـنـ تـضـعـ مـاـ تـمـلـكـهـ مـنـ أـشـيـاءـ ثـمـيـنـةـ فـيـ مـأـمـنـ .ـ «ـعـلـىـ الرـغـمـ مـنـ اـنـ الـقـانـوـنـ يـمـنـحـ الـآـنـيـةـ الـمـنـزـلـيـةـ ،ـ فـإـنـ الـاخـتـاتـمـ سـتـوـضـعـ .ـ تـأـكـدـيـ مـنـ بـيـاضـاتـكـ وـمـلـابـسـكـ ،ـ وـاحـرـصـيـ عـلـىـ أـلـاـ تـؤـخـذـيـ عـلـىـ حـيـنـ غـزـةـ وـأـنـتـ غـيرـ مـتـأـهـبـةـ»ـ وـأـكـدـ بـرـاءـتـهـ .ـ «ـإـذـاـ كـانـتـ هـيـثـةـ الـمـحـلـفـينـ نـزـيـهـةـ ،ـ فـإـنـ بـرـاءـتـيـ سـتـتـصـرـ»ـ .ـ سـوـىـ أـنـ تـكـهـنـ بـأـنـهـ سـيـحـكـمـ عـلـيـهـ «ـلـأـنـيـ خـدـمـتـ وـطـنـيـ بـالـزـيـدـ مـنـ الـحـمـاسـةـ وـالـطـاـقةـ ،ـ وـلـأـنـيـ عـمـلـتـ وـفـقـ اـرـادـةـ الـحـكـمـةـ ،ـ مـعـتـقـلـاـ بـنـظـافـةـ يـدـيـ وـقـلـبـيـ .ـ»

بـهـذـهـ القـنـاعـةـ بـالـطـهـارـةـ فـيـ الـعـمـلـ وـالـنـيـةـ ،ـ وـاجـهـ فـوـكـيـهـ فـيـ نـهـاـيـةـ الـمـطـافـ الـحـكـمـةـ فـيـ آـذـارـ ١٧٩٥ـ .ـ وـقـدـ مـثـلـ أـمـامـهـاـ ٤٥ـ مـرـةـ قـبـلـ النـهـاـيـةـ ،ـ هـوـ مـنـ أـرـسـلـ فـيـ مـثـلـ هـذـاـ العـدـدـ مـنـ الـأـيـامـ ١٢٨٥ـ ضـصـحـيـةـ إـلـىـ الـعـالـمـ الـأـخـرـ .ـ وـيـوـمـاـ بـعـدـ يـوـمـ ،ـ كـانـ الشـهـودـ يـمـرـونـ أـرـتـالـاـ بـلـاـ نـهـاـيـةـ عـبـرـ الـحـكـمـةـ :ـ السـجـانـوـنـ مـنـ سـجـونـهـ ،ـ وـالـكـتـابـ مـنـ مـكـتبـهـ ،ـ وـمـحـضـرـوـ لـوـائـحـهـ الـمـرـعـبـةـ ،ـ وـأـنـسـيـاءـ ضـصـحـيـاهـ الـمـسـاـكـينـ .ـ

وـذـهـلـ أـهـلـ بـارـيسـ الـذـينـ أـخـرـسـهـمـ هـولـ ماـ كـانـواـ يـسـمـعـونـ .ـ حـتـىـ اوـلـثـكـ الـذـينـ تـفـهـمـوـاـ قـانـوـنـ بـرـيـرـيـالـ ،ـ لـمـ يـتـصـورـواـ قـطـ أـنـ بـالـوـسـعـ اـسـاءـةـ اـسـتـعـمـالـ هـذـهـ الـقـوـةـ عـلـىـ هـذـهـ

الصورة . حسبيوا انه كان موجّهاً ، وحسب ، ضد الأستقراطيين والخونة الخاطرين ؛ إلا أنهم الآن تبيّنوا ان كل سبعة من كل عشرة من ضحاياه كانوا من عامة الشعب مثلهم ؛ كتاب ، وأصحاب حوانين ، وخياطون ، وعمال ؛ أناس بلغوا الثمانين من العمر ، وصبيان ، وبينات تحت العشرين ، حُكموا بالموت ليس لأي دليل غير التسليم بهويتهم .

وفي أحيان لم تكن الحال كذلك . فمثلاً احتاج أحدهم ان الاسم الذي نودي به ليس اسمه ، ولكنه حُكم عليه بالموت مع عبارة «حسناً ، ما دامت هنا . . .» . وآخر لم يرد بأي جواب على الاطلاق لأنه أصمّ ، مضى الى حتفه دون أن يدرى ما هي التهمة الموجهة اليه . وكان هناك أبكم تلقى صمته وحسب ، التوبيخ السافر القاسي : «نحن لا نريد لسانك ، بل رأسك» . وأنكر رابع التهمة الموجهة اليه ، أرسل إلى المقصولة لأنه «إن لم تكن أنت ، فقد كان أخوك أو أبوك» .

وهنالك أيضاً مثال مرعب اكثراً على أساليب فوكييه في تصريف أعماله . كان هناك تهم مجهزة سلفاً ، مع فسحات بيضاء للتها باسماء من اتفق من السجناء الذين يصادف وجودهم في متناول اليد .

وهكذا مضى العرض المرؤّع لمناث الصور الزائفة البشعة والشائنة ، التي لم يحرك المدعي العام ساكنأ للاحتجاج عليها ، بل انه كان يتلقى إلحاد المحكمة من اجل بذل جهود اكبر .

صاحب أحد المتهمين : «عشرون ، أربعون ، ستون شخصاً حُكموا في ساعة واحدة لم يكن ثمة متسع من الوقت لتلاوة أسمائهم !  
واحتاج فوكييه بقوله :

- تلوموني على الأحكام ، فقد كنت في منصبي لمعاقبة المذنبين وفقاً للقانون !  
ومع ذلك ، ويوماً بعد يوم ، ألحّ على الحجة نفسها : لقد أطاع رؤساه ، ونفذ قانوناً لم يشرك في سنه . «إذا كان جرماً تنفيذ مراسيم اللجنة ، فأنا ، إذا ، مذنب .  
وكنت مذنياً أكثر فيما لو لم أنفذها . ماذا كان عليّ أن أفعل؟»  
«ماذا تفعل؟ كان بوسرك ان تطلع الكونفونسيون عما كان يجري . ولو انك

أعدمت من أجل ذلك ، لكنت أعطيت مثلاً نبيلاً في العدالة والشجاعة ، ولكنك  
أنقذت وطنك من سيل الدماء والدموع !»

غير أن فوكيه لم يكن يتناول مرتباً لكي يكون نبيلاً، ولم يكن سيل الدماء والدموع من شأنه في شيءٍ . لقد أطاع أوامر اللجنة؛ ونفذ المهمة التي كان يقبض على أساسها . والمسؤولية عن النتائج ليست مسؤوليته .

لم يكن القضاة الذين دافع عن نفسه أمامهم من الدهماء أو الرعاع الذين عرفتهم محكمته شخصياً ، ولكنهم كانوا قضاة من المدرسة القديمة ، متضلين من كل أنواع اللطف في القانون . سوى أنهم مع ذلك ، لم يستطيعوا - أو أنهم لم يريدوا - ان يروا قوة حجته : ليس ثمة قضية تدينه . «لقد كنت اداة في يد القانون ، دونما أي مسؤولية .»

في الاول من أيار اوضح هذا الواقع الجلي لقضاته طوال اربع ساعات من دون توقف ، وفي الخامس منه طوال ساعتين ، كذلك .

ولكن ، على الرغم من أن أحداً لم يقاطع بالعبارة الساخرة «ليس لسانك ما ننشده ، بل رأسك» ، أيقن ان لا أمل هناك ، وأنه محكوم عليه بالموت من جانب «أناس متعطشين دوماً للعثور على ضحايا». وخلال تلاوة القاضي خلاصة ما تكون لدى من عناصر الادانة ، تظاهر فوكييه بالنوم ، لكنه لا يتنازل لسماع ما يعتبره طلباً للانتقام من كبش محرقه بريء . ولم يُبَدِّ ، كذلك ، افعلاً لـما سمع حكم هيئة المخلفين بأنه مذنب ، وإصدار الحكم بالموت . ولدى سؤاله عما اذا كان لديه ما يقول ، رد بيجاز :

- إني أطلب بأن أعدم على الفور ، وأن تُظهرروا من الشجاعة بقدر ما أظهرت .  
ولاني أوصي بزيوجتي وأولادي للذين هم وطنيون حقيقيون .

وقضى بطريقة بعيدة جداً عن الانفعالية مثلاً ما أرسل الآخرين إلى حتفهم ، وعلى ما يظهر ، بضمير صافٍ ، تاركاً قصاصة ورق كتب عليها : «ليس لدى ما أؤاخذ نفسي عليه . لقد أطعت القانون دوماً . إني أقضى في سبيل وطني منزهاً عن الملامة ، وأنا راضٌ . إن الخلف سيعرف بيءاتي ويقرّ بها ». .

لقد جرّمه الخلف بصورة كليلة ، ومن دون تمييز ، ليس من أجل ارتكابه القتل الجماعي ، بقدر ما هو من أجل قيامه بذلك لا خوفاً أو حقداً ، أو حتى وسط جنون السادية ، ولكن من أجل الاقتتال المنطقي بأن ذلك هو السبيل المبرر لكسب الرجل الشريف معاشه .

## من ذيول مؤامرة ماله شَعْرُ مدام سيلان المستعار

لو لم تنتهِ مؤامرة الجنرال ماله بمحزرة جنود اتهموا وحسب ، بالنسبة الى معظمهم ، بسذاجة سلبية ، وكانت اعتبرت اروع مسرحية هزلية خفيفة (فودفيلي) في التاريخ .

وهذه هي تفاصيل المؤامرة بایجاز كلي لنضع القراء في جو هذه القصة التاريخية التي سنسردها عليهم .

الجنرال ماله رجل مغمور ، وسجين ، ليس في جيشه لوريسيه (ليرة ذهبية فرنسية) . وقيل كان يحمل في حافظة نقوده ١٢ فرنكًا ساعة تمكن من الهرب من المنزل الذي سُجن فيه في ٢٢ تشرين الاول ١٨١٢ ، لكي يقوم بقلب النظام الامبراطوري ، بينما كان نابوليون بونابرت في روسيا خلال حملته العسكرية الشهيرة . وكل ما فعله لكي ينقد الفكرة التي ستقلب العالم - في نظره - هو أنه تلا على مسامع بعض العسكريين قراراً مشيخياً يعلن وفاة نابوليون ، واقامة حكومة جديدة سيكون هو ، المجهول ، رئيساً لها . إنه لأمر في متنه الجرأة والتحدي . ولكن أن يقع موظفون كبار في الفخ وفقاً لزاعم ، دون أن يخامرهم أي شك في صحة القرار المشيخي ، وأن يسمحوا بأن يلقى عليهم القبض ويُسجّنوا دون اي احتجاج ، ودون المطالبة بأي دليل ، وحتى دون أن يستفسروا عن تفاصيل الكارثة - هوذا ما يعطي فكرة مؤلمة عن سرعة عطب احدى أمن المؤسسات البشرية .

لم يحرّك أحد من هؤلاء ساكناً ، وقد سمحوا بأن يُلقى القبض عليهم لدى استيقاظهم ، ويقادوا الى السجن بانقياد مفاجئ ، ويُخضّبوا يحيّران : وزير الشرطة

سافاري ، وسكرتيره العام ديماري - الرجل الأكثر ذكاءً وحذرًا في الامبراطورية -، ومدير الشرطة باسكبيه . وياسكييه في مذكراته ، المكتوبة عموماً بطريقة رصينة يملاه السرور كثيراً لدى سرد الحوادث المزعجة التي تعرض لها زميله فروشو وزير الشرطة . وهو يروي مغامراته بأسلوب أقلّ مزاحاً وهزءاً . وإذا كان علينا أن نصدقه ، فهو لم يؤخذ لحظة واحدة بخداع المتأمرين وكذبهم . ومع أنه استسلم تجاه العنف ، دون أن يفقد شيئاً من كرامته ورباطة جأشه ، يؤكد أنه صرخ للضابط الذي كان يقوده إلى السجن بـ «أن الامبراطور لم يمت ، وأن القرار المشيخي مزور» ، ويزعم أنه فكر طويلاً ، في أن هذا «التضليل غير المتنقن لن يلبث أن يفضح عما قريب» .

ومع اعترافه بأن انفعاله كان شديداً ، وأنه قضى وقتاً حرجاً ، فإنه ينكر بعناد أنه وضع في زنزانة ، خلال الدقائق القليلة التي أقام فيها في سجن لا فورس ، ولم يغادر قلم الكتاب ، وقد أحبط بكل مراعاة من جانب حارس المبنى لوبيه . وعلى هذه الصورة ، فإن الملحمه الهزلية لا تبعث مطلقاً على الضحك . . . ولكن كم هم غير متحفظين بالحاثة والمنقبون ! فالاسهامات الأخيرة التي أضيفت إلى قصة قضية ماله ، قاسية بالنسبة إلى كرامة مدير الشرطة باسكبيه ، وهي تؤلف دون أي مراعاة أو مجاملة الموقف الحقيقى الأقل فخرًا وأبهةً مما زعم هو شخصياً بعد ما حدث !

في الواقع ، ما كاد يُطلق سراح باسكبيه ، حتى هرع من فوره إلى دائرة الشرطة ، رغبة منه في استعادة مركزه قبل أن يحتله شخص آخر . وكان المبنى ما يزال تحت حراسة الجنود . فلما عرفه الجنود الذين سبق أن اعتقلوه قبل ساعتين ، استقبل المسكين بضربات بأعقاب البنادق ، وعومن بشراسة وأهين . وقد كتب يقول : «وقد لقوا بي ، شاهرين حرابهم ، فلم أر بدأ من اللجوء إلى أحد الحوانيت» .

ومالم يقله هو أن هذا الحانوت كان صيدلية صاحبها يدعى سيلان ، وقد استقبله في حالة يرثى لها . فقد كان مدير الشرطة أقرب إلى الموت منه إلى الحياة . وقد احتاج إلى كل المنشطات لدى الصيدلي لكي يتتعش ، و«بقي نصف ساعة تقريباً قبل أن يستعيد رشه» .

ويروى بكل تحفظ : «هأنذا سجين مجددًا ، بقيت حوالي الساعة مجمدًا

هكذا . . . لم ينتبه الصحب إلا لما عُلم أن مفرزة من الحرس الامبراطوري في طريقها  
إلى مقر دائرة الشرطة . »

وعن العودة إلى مكتبه ، ليس هناك أي إشارة . ومن هنا يستأنف السرد ، مواصلاً  
بنبرة التاريخ الرزين .

ولكن يبدو أن السيدة سيلان ، زوجة الصيدلي المفضل كانت امرأة «قصيرة القامة  
وكبيرة البطن ، وعلى جانب كبير من الدلال والتألق» ، تحاول أن تخفي شعرها ،  
الأشقر طبيعياً ، بشعر مستعار أشقر مجعد وعلى طريقة تيتوس (قص الشعر قصيراً  
من أمام ومن خلف كما يبدو في بعض تماثيل الامبراطور تيتوس الروماني) . وقد ألهم  
هذا التفصيل الموظف المسكين فكرة حصينة . فقد توسل إلى الصيدلي قاتلاً بينما كان  
الجنود يحاصرؤن بباب الصيدلية : ارجوك ، اعطيي ما اتذكري به !

وسرّح الصيدلي نظره في أرجاء المكان ، وتناول شعر زوجته المستعار ، ووضعه  
على رأس مدير الشرطة ، ومسح وجهه بطبقة من الزعفران ، وألقى على كتفيه  
معطفاً نسائياً ذا ياقات عدة . وقال له ، وقد سرّ كثيراً من عمله المتقن هذا :  
ـ الآن ، يا سيدي مدير الشرطة ، غدوت إنساناً آخر !

في الواقع أن باسكبيه لم يعد من السهل التعرف إليه ، فتسلى إلى خارج الخبر  
حيث جرى التحول هذا ، ومرة من بين الجنود دون أن يلاحظوا شيئاً ، وتمكن من  
دخول منزله حيث احتشد على عجل مفهوض الشرطة وضباط الأمن . واضطر المدير  
إلى اجتياز صفوفهم ، متزعجاً كثيراً من شعره الأشقر ، ولون وجهه البرتقالي . وعلى  
الرغم من المظهر الوقور الذي تظاهر به ، كان ينبغي أن يكون الحاضرون من حجر  
لكي لا ينفجروا بالضحك ، ولم يحرموا أنفسهم ذلك . وحده باسكبيه احتفظ  
بالجدية الصارمة . وانتزع الشعر المستعار عن رأسه ، وألقاه في النار ، ثم هرع إلى  
حجرة الزيتة ، وتمكن بعد قليل من الظهور مجدداً في ملابس لائقه أمام مرؤوسه .

ولكن ، مع ذلك ، لم ينتبه كل شيء . فامرأة الصيدلي الجميلة طالبت مدير  
الشرطة بإعادة شعرها المستعار إليها شخصياً ، ليس لأنها تعرض عليه من دون سائز  
للمشعر المستعار ، ولكنها كانت تود أن تُبدي للسيد باسكبيه أنه إذا كان رأى شعرآ

مستعاراً ، فليس ذلك لأنها تفتقر إلى الشعر الطبيعي ، بل لأنه مختلف . ولما كانت قد زارت مدير الشرطة حوالي عشر مرات دون أن تتمكن من مقابلته ، فقد عوّلت على الكتابة إليه ، وهدّته باللجوء إلى العدالة .

ولم يدرِّ باسكييه كيف السبيل إلى التخلص من هذا الفصل السخيف - ولا سيما أن الباريسين شرعوا في التلهي على نطاق واسع بالرعب الذي استولى على الحكومة ، وفي الترّتم بأغنية «التغلب على العقبة» التي فرضها المتأمرون على السلطات . وكلّف باسكييه كاتب المسرحيات الهزلية الخفيفة بييس ، وكان آنذاك سكرتيراً عاماً لمديرية الشرطة ، أن يقنع السيدة سيلان ، زوجة الصيدلي . ولم يكن بييس شاباً ، ولكنه كان أنيق المظهر . وكان تردداته على المثلثات ينبع ، تجاه البورجوازيات اعتباراً كبيراً . فاهتم من فوره بالأمر ، وعرض عليها أولاً ثمن الشعر المستعار ، ثم جعل الثمن ثلاثة أضعاف ، ثم عشرة أضعاف ، دون أن ينجح في عقد الصفقة . وسرّ «الصيدلية» ان تُرى في لقاءات مستمرة مع موظف رفيع المستوى ، محبوب وحائز على وسام ! فلم تتظاهر بأنها ستقبل بسرعة أي عرض ، لكي تطيل المتعة . وتضاعفت الوجوه ، وعلم الصيدلي بالأمر ، و«كادت الأمور تصل إلى تقديم رفع دعوى زنا» . . . .

ولكن ذلك انتهى على غير هذا الوجه . . . لم يسع الحكومة أن تستمر تحت وطأة هذه الوزن من الضحك ، وهذا ما استوجب ، ولا ريب ، عقاباً لا يعرف الشفقة . وسقط لدى سور غرونيل متهم وأحد عشر بريطاً ، وجريمة هؤلاء الآخرين كانت أنهم يصدقون ان الامبراطور خالد لا يموت ! . . . وكان إعدامهم في ٢٩ تشرين الأول ١٨٨٢ ، رميأ بالرصاص . . .

والآن ما هي تفاصيل مؤامرة الجنرال ماله؟

بعيد ليل ٢٢ - ٢٣ تشرين الأول ١٨١٢ ، وفي الثالثة صباحاً ، تقدم ثلاثة رجال من الخفير الواقف لدى ثكنة بوبانكور ، وطلبوا إليه مقابلة الكولونييل سولييه . وقد هم الخفير إلى رئيسه دون إبداء أي اعتراض - وكان أحد الثلاثة يرتدي بزة لواء . وما أن مثل اللواء أمام الكولونييل سولييه حتى قدم نفسه إليه بقوله :

- أنا اللواء ماله . وهذان ، مرافقاي ، وأحد مفوضي الشرطة . أبلغك أن الامبراطور نابوليون قُتل تحت أسوار موسكو . وقد اسقط مجلس الشيوخ الأسرة الامبراطورية ، وعيّني حاكماً عسكرياً على باريس . أمرك باحتلال دار البلدية . وقدم اللواء ماله إلى الكولونييل رزمة أوراق رسمية ، في جملتها مرسوم بتعيين الكولونييل برتبة جنرال . ولم يذكر سوليه قط بمناقشة الأمر . فجمع رجاله ، وهرع إلى احتلال دار البلدية .

لقد نجحت المرحلة الأولى من الخطة التي أحكم وضعها القائد العسكري الجمهوري لقلب نظام نابوليون الذي كان آنذاك في موسكو !

الامبراطور لم يمت ! الأوصاف زائفة ! مجلس الشيوخ لم يقرر شيئاً ، ولم يعيّن ماله حاكماً على باريس . كل ما في الأمر أن ماله نجح في الهرب من السجن الذي ألقاه فيه نابوليون . فلقد كان جمهورياً متّحضاً ومتّعصباً ، ألقي القبض عليه قبل أربع سنوات لتأمره على الامبراطورية . ولكنه في سجنه كان يتخيّل باستمرار مؤامرات جديدة ، فوضع خطة جهنمية جديدة وجريئة مع كونها في غاية البساطة : فنابوليون موجود في روسيا ، والفرنسيون تبعوا من الحرب . يكفي نشر خبر موت الامبراطور ، وتزوير أوامر واعلانات غير صحيحة ، وتحويل كل أنصار نابوليون إلى شركاء بالإكراه ، ثم دعوة الجمهوريين إلى تأليف الحكومة المؤقتة . وقد رضي شبابن بما الكابورال راتو ، والطالب بوترو ، بمساعدة ماله الذي قرر أن يتحرك في تلك الليلة من تشرين الأول .

وفي حين ذهب الجنرال الجديد سوليه على رأس جنوده لاحتلال دار البلدية في العاصمة الفرنسية ، هرع ماله إلى سجن لا فورس ، وبفضل أوراق ووثائق مزورة ، أطلق سراح الجنرالين جمهوريين هما غيدال ولاهوري .

فعين أحدهما وزيراً للداخلية ، والأخر رئيساً للشرطة . وقاما من فورهما ، يساند هما بعض الجنود ، بالتوجه إلى مقر الوزارة ورئاسة الشرطة ، حيث ألقي القبض على أنصار نابوليون الذين لم يفكروا في الشك في موت امبراطورهم . وفي غضون ثلاث ساعات ، تطورت المؤامرة تطوراً مجنوناً وسريعاً .

فاحتل رجال الشرطة النابوليونيون مكان المتأمرين في السجون ، أو انضموا إلى الحكومة المؤقتة . وكان انعدام الإيمان بمصير الامبراطورية قد بلغ حدّاً لم يفكر فيه أي إنسان بالمقاومة . وهكذا ، فإن رجلاً واحداً ، بلا أصدقاء ، ولا شركاء في الجيش والادارة كنس في بضع ساعات الحكومة الامبراطورية او لم يبق أمامه سوى الاستيلاء على القيادة العسكرية لمدينة باريس لكي يصبح سيد العاصمة وفرنسا معاً !

وتوجه ماله وعدد من الجنود إلى ساحة فاندوم حيث مقر القائد العسكري الجنرال هولان . وقد دهش لعدم إعلامه بموت نابوليون ، وبجلسه مجلس الشيوخ . فطلب مراجعة الأوامر التي مع ماله . ولما كانت الدقائق ثمينة في حساب ماله فقد أفرغ مسدساً حطم به فك الجنرال هولان . وعلى الضجة التي تعلّلت هرع اثنان من مساعديه ، وهما شرطيان أحلقا بجيشه نابوليون . وتعرّفا من فورهما إلى ماله الذي كانا أوقعاه قبل سنوات . فأيقنا أن في الأمر مؤامرة . فانقضيا عليه ، وطوقاه وأنقذوا الجنود من خطأهم . وفي دقائق معدودة أحبطت المؤامرة . وأوفد الرسل إلى أربعة أركان باريس . وألقي القبض على الجنرالين غيدال ولاهوري ، مع حوالي عشرين شخصاً . وأخرج الوزير ورئيس الشرطة الحقيقيان من السجن .

وما هي إلا بضعة أيام حتى حُكم على ماله وثلاثة عشر من شركائه في المؤامرة بالموت . ولما سأله رئيس المحكمة ماله من كان شركاؤه ، أجاب :

- فرنسا بأسرها ، وأنت نفسك ، يا سيدي الرئيس ، فيما لو نجحت !  
وتناهى إلى سمع نابوليون خبر المؤامرة هذه وهو يتأنّب للعودة من روسيا .  
فُصِّعقَ أذْتَبِنَّ له أن الحكومة التي أوجدها كانت عاجزة عن الدفاع عن نفسها ضدَّ  
محاولات متأمر لم يكن له من سلاح سوى الجرأة والشجاعة !

## التاريخ لم يَجُلُّ هذا السر! هل أُعدم حَقًا أم ظُلْ حَيَاً؟

القصة التي نرويها هنا هي قصة معلم مدرسة ثيرد كرييك ، وامرأة كانت تعيش في شارع بابل ، في باريس . وثيرد كرييك هي بلدة في ولاية كارولاينا الشمالية (الولايات المتحدة الاميركية) ، وهناك توفي منذ أقل من ١٥٠ سنة معلم المدرسة . غير ان القصة تبدأ في باريس ، في صباح أحد أيام كانون الاول المكفرة من السنة ١٨١٥ ، الساعة التاسعة صباحاً ، في ذلك الجزء من شارع آساس الذي يحاذى حدائق لوكمببور ، بالقرب من مستشفى التوليد .

وصل الى شارع آساس متسلول وحيد الساق ، يطلع على عكاذه . إنه غارق في تأملاته ولا يلحظ ماذا يدور في الساحة المكشوفة ، الى اليسار . إلا أن صدور امر موجز ، بصوت جاف لفت انتباذه بغتة ، فترفَّق امام الحاجز المشبك الذي يفصل الحدائق عن الرصيف . وكان قد تسمّر امام هذا الحاجز ، وعلى طوله ، بعض المشاة ، وراحوا يتأمّلون المشهد الذي يجري على الجانب الآخر . وذهل المتسلول الوحيد الساق ممارأه . فتمتم :

- أشجع الشجعان ، المتصرّ في الموسكوفا !

غير أنه ، على ما يبدو ، كان يجد صعوبة في تصديق ما تراه عيناه . ليس الأمر ممكناً ، ولا يمكن ان يكون الواقع هناك مديرآ ظهره الى جدار حدائق لوكمببور ، مواجهها الجنود ، ميشيل ناي ، أشجع الشجعان . ومع ذلك ، إنه هو حقاً ، المارشال العظيم . ان صاحبنا لا يمكن ان يشك في ذلك . ألم يخدم ، في ما مضى ، تحت امرته؟ وهؤلاء الجنود ، إنهم من فرقـة الاعدام . وقد رکع الى اليسار كاهن ، وبقريه ،

نقالة غطيت بشرشف . وخلف الكاهن توقفت عربة مقللة .  
وتوقفت عربة بالكراء بالقرب من الحاجز ، وكانت من القرب بحيث تعرف  
المتسول الى من في داخلها . لقد تعرف اليها على الفور على الرغم من ارتدائها  
الملابس الرجالية . مرات عدة ، في الماضي ، شاهد هذا المرأة الشقراء برفقة أشجع  
الشجعان ، وكانت دائمًا ترتدي سترة زرقاء ، وساويل الشبان . وكان يتردد في  
الجيش أنها بزيتها النسائية ، كانت قادرة ، بحسنها وحدها وحسب ، أن توقع فارساً  
عن مطيته .

كانت هناك في ذلك اليوم ، الى الجانب الآخر من الحاجز ، وكان هناك الرجل  
المدير ظهره الى الجدار ، مواجهًا فرقة الإعدام . كانت النهاية قريبة ، نهاية أعظم فرسان  
نابوليون . سيقضي عليه هؤلاء «المليكيون القدرون» ، هنا في حدائق لوكسمبور ، في  
ساعة لم يتناول بعد فيها الكثيرون طعام الصباح ، وقبل أن يستطيع جنود الشجاع  
القдامي ، وقد بات معظمهم متسولين ، أن يمدوا اليه يد النجدة .

وقف أشجع الشجعان متتصبباً تماماً ، امام الجدار ، شامخ الرأس ، وكانت قبعته -  
وقد ارتدى الملابس المدنية - تبديه أكبر بعد . وكان معطفه الازرق الداكن مزرراً فوق  
جذعه القوي . وكشف عن رأسه ، وتقدم بضع خطوات ، وخطاب الجنود . غير ان  
الوحيد الساق لم يسعه سماع ما قال . وفجأة رفع أشجع الشجعان يده اليمنى ،  
وتلفظ بعض الكلمات ، ثم أشار الى صدره . كما لو كان في ذلك إشارة ، وانطلقت  
النار !

وتعالى الدخان ببطء . ومن خلاله رأى المتسول أربعة جنود يرفعون جثمان  
الماريشال ، ويضعونه فوق النقالة ، وينقلونه الى العربة المقللة التي انطلقت على  
الفور . واتجهت عربة الكراء التي تحمل المرأة الشقراء شطر بولفار سان - ميشيل .  
وتحول المتسول بنشاط عن الحاجز . على وجه الشجاع وصدره شاهد بقعاً كبيرة  
قرمزية .

## جامع الطرف

ولكن هؤلاً أحد المشاهدين من الحاضرين يقوم بمبادرة غريبة . إنه أمرؤ قصير القامة ، أحمر الوجه ، النموذج الحقيقي للتاجر الباريسي نوعاً ما . ويصوت مرتفع ، بحيث يسمعه الجميع ، قال كمن يود الاعتذار : « أيها الأصدقاء ، لا تخسروا ابني مجنون . إن لي هواية غير مؤذية : فأنا أجمع الطرف والغرائب ». قال ذلك ، وتسلى الحاجز ، ودخل حدائق لوكمببور .

وتوجه الجنود ، والكافن والعريبة المقلدة التي وضع فيها جثمان اشجع الشجعان صوب مستشفى التوليد . وتقدم الرجل الاحمر الوجه بسرعة نحو المكان الذي سقط فيه الجثمان ، وتأمل لحظة البقعة القرمزية على الارض ، وقرفص ، ثم عاد بخطى حثيثة نحو شارع آساس ، وهو يصرخ .

ان المفتش كلافو ، من الشرطة السرية ، الذي حرص على أن يكون في شارع آساس في ساعة مبكرة من ذلك الصباح ، يعرف جيداً عادات جامعي الطرف . لذا ما كان تصرف هذا الرجل أذهله لو لم يلفته تفصيل واحد : اللحن الذي كان يصفره لم يكن فرنسيّاً ، إنه لحن انكليزي قدّيم اسمه « دجولي غود إيل » ، وقد اتفق ان كلافو ، الحب للموسيقى ، كان يعرفه .

وقطب المفتش كلافو ما بين حاجبيه . انكليزي يزعم أنه تاجر فرنسي صغير ، وفي غمرة إثارته يصفر ، دون ان يتتبه ، لحن اغنية انكليزية ، انكليزي يكابد من أجل الحصول على بعض المخصى الصغير الملطخ بدم اشجع الشجعان . ان في ذلك ، ولا ريب ، أمراً غير عادي . وتحرك دماغ كلافو بسرعة . ودون أن يبدو عليه أنه يهتم للأمر اهتماماً غير عادي ، رأى المفتش الرجل الاحمر الوجه يتتجاوز الحاجز ، ويصعد في شارع آساس متوجهاً شطر بولفار سان - ميشيل . وغداً عدد المشاة الآن اكثر ، ويات في وسع كلافو اللحاق ببرجله دون ان يلتف اليه الانظار . على الأقلّ هذا ما اعتقاده . ولكن ، لدى المفترق ، انعطف الرجل الى بولفار سان - ميشيل ، وعندما بلغ المفتش كلافور كن الشارع ، بعد ذلك بدقة واحدة ، كان جامع الطرف القصير القامة قد تندّد ، دون أن يُرى ، فوق أرضية عربة يحتلها شاب وسيم أشقر .

في ما بعد ، في حجرة مرتفعة السقف ، وبحضور امرئ قاسي الوجه ، يُرِّزِّين صدره وسام ربطه الساق ، وقد جلس وراء مائدة كبيرة ، أخرج جامع الطرف القصير القامة ، من جيب ملابسه التي ما تزال مدعوكـة ، منديله . وأخرج منه ست حصـة حمراء صفقـها على المائدة . ثم تناول قنبيتين صغيرتين من أحد الأدراج ، وصبـ بعض قطرات من كل منها على الحصـى . ولم تفارق نظرـات الرجلـين المنحنـين فوق المائدة الحصـى الأـحـمـرـ . وما لبثـ الرجلـ ، حـاملـ وسامـ السـاقـ انـ انتـصبـ فيـ وـقـفـتـهـ ومـدـ يـدـهـ إلىـ الآخـرـ الذيـ اـرـيـكتـهـ هـذـهـ الحـرـكـةـ قـلـيلـاـ . وـقـالـ لـهـ :

- حـسـنـاـ ، لـقـدـتـمـ الإـثـيـاتـ !

- فيـ الـوقـتـ الـحـاضـرـ ، كـلـ شـيـءـ عـلـىـ ماـ يـارـامـ ، أـيـهـاـ الكـابـتنـ هـتـشـنـسـونـ !  
وـوـافـقـ الـآخـرـ .

- لقد قـامتـ بـعـملـ جـيدـ ، ياـ صـاحـبـ السـمـوـ . إـيـ أـحـيـيـ هـذـهـ السـيـدـةـ . أـمـاـ أـنـاـ ، فـقـدـ اـرـتكـبـتـ حـمـاـقـةـ ، فـيـ النـهـاـيـةـ تـامـاـ ، وـكـلـافـوـ هـذـاـ . وـقـدـ حـذـرـتـنـيـ منـ أـنـهـ خـبـيـثـ . تـبـعـنيـ عـلـىـ الـأـثـرـ . وـلـوـ لـمـ تـنـتـظـرـنـيـ عـرـبـةـ الـأـنـسـةـ فـيـ رـكـنـ الشـارـعـ . . . عـلـىـ أـيـ حـالـ ، مـاـ هـمـ ، لـقـدـ اـنـتـهـيـتـ ، ياـ صـاحـبـ السـمـوـ ، حـتـىـ هـذـاـ المـسـاءـ . إـيـلـيـسـتـ سـيـسـاعـدـ الـأـخـتـ تـيرـيزـ فـيـ الـمـسـتـشـىـ . وـكـروـفـرـدـ بـرـوسـ سـيـهـتـمـ بـالـدـفـنـ فـيـ مـقـبـرـةـ بـيرـ . لـاشـيـزـ .  
وـتـسـاءـلـ صـاحـبـ السـمـوـ دـوـقـ وـلـنـغـتـونـ ، الرـجـلـ الـحـدـيـديـ :

- مـاـذـاـ كـانـ رـجـالـهـ يـسـمـونـهـ ؟ آـهـ ، إـيـ أـتـذـكـرـ . . . أـشـجـعـ الشـجـعـانـ . . .  
أـمـاـ الكـابـتنـ هـتـشـنـسـونـ ، مـنـ فـرـقـةـ حـرـسـ انـكـلـتـراـ ، فـقـدـ كـانـ اـمـرـأـ حـذـرـاـ رـزـيـنـاـ ، وـيـقـرـأـ مـاـ يـجـولـ فـيـ خـاطـرـ الدـوـقـ الـحـدـيـديـ ، كـمـاـ يـقـرـأـ فـيـ كـتـابـ . فـابـتـسـمـ فـيـ سـرـهـ . وـكـمـاـ لوـ كـانـ تـذـكـرـ فـجـأـةـ شـيـئـاـ ماـ ، نـظـرـ فـيـ سـاعـتـهـ ، وـاقـتـرـبـ مـنـ النـافـذـةـ ، وـمـرـّ بـيـدـهـ بـالـشـعـرـاتـ الـقـلـيلـةـ الـمـتـبـقـيـةـ فـيـ رـأـسـهـ . وـمـنـ نـافـذـةـ عـرـبـةـ كـانـتـ تـمـرـّ بـيـطـاءـ فـيـ الشـارـعـ ، تـحـتـ ، اـمـتدـتـ يـدـ بـيـضـاءـ ، وـرـسـمـتـ إـشـارـةـ دـلـلـةـ الرـدـ .

الممثلة الحسناء رتبـتـ كـلـ شـيـءـ

ثيرـدـ كـرـيـكـ هـيـ نـاحـيـةـ فـيـ مـنـطـقـةـ روـوـانـ ، فـيـ وـلـاـيـةـ كـارـولـايـنـاـ الشـمـالـيـةـ . وـالتـلـالـ

الحمر في رووان بعيدة جداً عن باريس ، ولا أحد كان يعتقد أن ثمة صلة بين هذين الموضعين . ولكن في مقبرة الكنيسة الكلفانية في ثيرد كرييك ، ضريح نقش عليه اسم «بيتر ستيفارت ناي» .

بيتر ستيفارت ناي - هكذا كان يكتب اسمه شخصياً - هو معلم توفي في ١٥ تشرين الثاني ١٨٤٦ ، عن عمر ناهز السابعة والسبعين ، في منطقة رووان ، وحول ضريحه في مقبرة ثيرد كرييك ، يحوم أكثر الأسرار إغراء !

يزعمون أنه ، في الحقيقة ، ليس ، إلا ميشيل ناي العظيم ، ماريشال فرنسا ، دوق دانغيان ، وأمير الموسكوفا ، أحد أشهر قادة نابوليون ، والجندي الذي أثار الاعجاب أكثر من سواه في زمانه . الماريشال ناي ، أشجع الشجعان - كما كان يلقبه جنوده - أعدم رمياً بالرصاص على يد فرقه إعدام في حدائق لوكمبور (كان ذلك أحد اعمال الانتقام الذي مارسه آل بوربون عقب معركة وترلو) ، وقد دُفن جثمانه المثقب بالرصاص صبيحة اليوم التالي في مقبرة بير-لاشيز ، في باريس . هذا ، على الأقل ، ما تؤكدده كتب التاريخ .

ولكن ، هل تقول كتب التاريخ دائمًا الحقيقة؟ أو لا يمكن أن تكون عملية الاعدام في حدائق لوكمبور مسرحية ليس إلا؟ لماذا إذا ، لا يسع الماريشال ناي ، بمساعدة المرأة الصبية الشقراء المرتدية ملابس رجالية ، ومساعدة الضابط الانكليزي ، الرحيل إلى أميركا حيث يمكنهما الحياة طوال احدى وثلاثين سنة؟

هذه المرأة الغامضة التي شاهدت المشهد المنبئ من إحدى عربات الكراء ، كانت ليدا سانت-إلم . شخصية فذة في الحقيقة . ابنة الكونت ليوبولد فرديناند تولستوي ، ربة قصر فريبورن ، في المجر . هبطت باريس لغزوها ، ونجحت نجاحاً عظيماً بفضل جمالها الفتان . ولم يدخل تاليران رجل الدولة ، الداهية الملقب «الشيطان الاعرج» ياغداق المديح والثناء على هذه الغريبة التي توصلت إلى أن تصبح إحدى أشهر ممثلات المسرح الفرنسي . ولقد أخضعت الجنرال مورو لإرادتها فترة من الزمن طويلة ، كما كانت تلك حالها مع عدد كبير من أصحاب المقامات الرفيعة في الإمبراطورية . حتى أنها أثارت غيرة جوزفين ، زوجة نابوليون ، ثم إنها وقعت في غرام الماريشال ناي ،

ولكن ميشيل ناي الذي غالباً ما كان يتردد عليها في متزلاها في شارع بابل ، أبدى نحوها برودة رهيبة .

هل ستنجح إيدا ، بتدييرها عملية الهرب ، في استعادة قلب الشجاع؟ ذلك كان السؤال الذي شغل تفكيرها وهي تنتظر هتشنسون في عربتها ، في ركن بولفار سان - ميشيل ، حتى اللحظة التي أقبل فيها يلتتجئ إليها ، ويلاحقه كلافو .

طوال ساعة كاملة ، راح كروفورد بروس الذي ارتدى ملابس الحوذى ، يدور ويدور بالعربة لكي يضلل الجواسيس المحتملين . ونزل هتشنسون أخيراً أمام المقر العام لقيادة صاحب السمو دوق ولنغتون ، قائد القوات البريطانية في باريس .

كانت إيدا حسبت أن القيام بالاختبار الكيميائي على المرضى الذي التقطه هتشنسون من حدائق لوكسبور ، يستغرق ربع ساعة . وكان هذا الأخير أدعى أنه واثق تماماً من نتيجة هذا الاختبار ، ولكن المرأة الشابة كانت ترتعش خوفاً . فتلك اللطخات الكبيرة القرمزية على وجه ميشال وصدره كان مظهرها مخيفاً . ففي اللحظة الأخيرة يمكن أن تسوء الأمور . وبعد ربع ساعة من إنزالها هشنsson ، جعلت كروفورد بروس يمرّ مجدداً بالعربة أمام منزل الدوق . وندت منها تنيدة انفراج عندما شاهدت من خلال النافذة مرّ اليده في الشعر - العالمة المتقد عليها لإعلان ان كل شيء على خير ما يرام .

عندما عادت أفكار المرأة الشابة إلى ميشيل ، الذي نُقل إلى مستشفى التوليد . ولما كان هذا المكان لا يبعد إلا ٢٠٠ متر عن مكان الاعدام ، فقد قررت الحكومة لحسن الطالع ، أن يُنقل الجثمان إليه بانتظار دفنه في مقبرة بير - لاشيز ، في صبيحة اليوم التالي . وكان رجال شرطة باريس السرية من أدهى الدهاة في العالم ، غير أن الحكومة كانت ، إما حمقاء بصورة خاصة ، أو مهملة غایة الاهتمام .

لقد جهل هؤلاء الأشخاص ، ظاهرياً ، أن شقيق الأخت ماري - تيريز ، مدير المستشفى المذكور ، كان جندياً برتبة كابورال في جيش ميشال ناي . وكانت الأخت ماري - تيريز ، يعاونها إيليسستر ، هي التي ستسهر على ألا يحدث أي عرقلة في المستشفى .

## الدوق الحديدي يتراخي

ودّعت إيدا كروفورد بروس لدى باب منزلها ، في شارع بابل . وقد شاءت الاستسلام الى النوم وقتها ، لكي تبدو اجمل ماتكون في ذلك المساء . وكان الهدوء مسيطرًا على المنزل ، بعد ان أعطي الخدم الثلاثة عطلة في ذلك اليوم . غير ان النوم عصى المرأة الشابة . فبقيت في سريرها متوردة الأعصاب ، تصغي الى الضجيج المتعالي من الشارع ، وتخشى في كل لحظة ما يمكن أن تسمعه ، ولكن ، مع انقضاء النهار هدأت إيدا . فاسترخت ، وارتاحت تماماً . وكانت تتمتع بالقدر الكافي من المقاومة لكي تستطيع الاستغناء عن النوم ، كما كانت حالها أيام كانت تتبع ميشيل في حملاته العسكرية . وابتسمت ، فقد بدت لها سخرية الموقف على حين غرة : الاخت تيريز وإيدا سنت - إيلم ، «المغامرة» متحالفتان في العملية نفسها !

منذ ذلك لم تكلم ميشيل ناي ، ليس منذ اضحت ممثلة . ولكنها لم تتوقف قط عن الاعتقاد أن ميشيل ما يزال يحبها ، وأنه لم يقترب بأغلابه لويز ، وصيغة الشرف لدى الملكة جوزفين ، الا لأن نابوليون أجبره على ذلك . وتساءلت ما كان يمكن ان يفكّر فيه ميشيل فيما لو رأها مع ولنغتون؟ لقد كان هتشنسون من أقبل اليها ليقترح عليها عقد هذا اللقاء . فلقد حُكم على ناي بالموت رمياً بالرصاص ، عقب القاء القبض عليه من قبل آل بوريون إثر هزيمة وترلو . واعملت إيدا فكرها كثيراً لإيجاد وسيلة لإنقاذه . غير ان اصدقاءها لم يعودوا في السلطة ، ولم تكن تملك أي تأثير او نفوذ لدى اي كان من الملوك . وقد بدا انه قُضي على ميشيل .

سوى ان أمراً لم تفكّر فيه قط ظهر لنجدتها . فأشجع الشجعان كان بطلاً في عيون الضباط الانكليز الصغار في جيش ولنغتون الذي يحتل باريس . وعندما عرض الكابتن هتشنسون ، من فرقه حرس انكلترا ، أن يقدمها الى ولنغتون ، سارعت الى القبول . لقد كان الدوق سيد باريس الحقيقي . فاذا ما شاء أمكنه إنقاذ ميشيل . ولكن لم يطلق عليه لقب «الدوق الحديدي» اعتباطاً . لقد حذر هتشنسون إيدا : إنه امرؤ ، عادل ومنصف ، ولكنه أقسى من الصوان .

بين يدي إيدا لم يكن قط من حديد . لعل هذا القائد الانكليزي القاسي ،

الصلب ، الناري النظرة ، كان في قرارة نفسه يرغب رغبة لا تقلّ عن رغبة هتشنسون ، وكرو فرد بروس ، وايليسنر وضباطه الصغار ، في انقاد الشجاع .

يبقى انها حصلت منه على ما تبغى . ميشيل سينقذ ! سينترز من الملكيين ، ويوضع على متنه سفينة تقوده الى أميركا . ولكن ، من اجل ذلك ، ينبغي لها أن تمثل هي شخصياً دورها باتفاقان . لقد صارحها ولنعتون بأنه لا يسعه التحرك علينا . فذلك يعني التدخل في الشؤون الداخلية الفرنسية . سوى أنه سيمدّها بالعون السري من قبل بعض الشخصيات الرسمية الفرنسية ، بينما سيساعدوها الكابتن هتشنسون واصدقاؤه لكي تنجح في تنفيذ خطتها الانقاذية . فلو انهم اخفقوا وقبض عليهم ، وكانت وجدها نفسها ، ربما ، مع ناي أمام فرقه الإعدام .

في الوقت الحاضر ، على اي حال ، جرى كل شيء دون صعوبة ، وبات الأخطر شأنًا من شؤون الماضي . واللحظة الحرجة كانت عندما رفع ميشيل ، امام جدار حدائق لوسمبور ، يده ، ثم قربها الى صدره . لو ان غلطة واحدة في الترتيبات ارتكبت ، ل كانت حدثت إذ ذاك الكارثة . فجاء الاختبار الكيميائي على الحصى الاحمر يثبت ذلك . والآن ، وعندما يهبط الظلام ، سيغادر هتشنسون وميشيل ، متنكرين ويتوجهان الى منزل السيدة ناي ، من اجل الوداع المختصر ، ثم الى شارع بابل .

ونهضت إيدا قبل حلول الليل بكثير . وارتدى الملابس الرجالية التي كانت ترتديها في الحملات برفقة ميشيل : البنطلون ، والقميص الابيض ، والسترة القصيرة الزرقاء ، والقبعة العالية الطرف التي كانت تخفي بها خصلاتها الشقراء . ويلباسها هذا كانت إيدا سنت - إيلم التي عرفها ميشيل . كانت تلك التي ينبغي أن يراها هذا المساء ، عندما سيصل الى منزل المرأة التي يدين لها بالنجاة من الموت . وبهذا اللباس ، ستكون إيدا مستعدة للسفر . وعقب لقائهما بعشر دقائق ، يمكنهما أن يتخطيا جوادين ويتجها نحو الشاطئ ، نحو الحياة الجديدة التي سيبدأها معًا في أميركا .

## توقف قلبها عن النبض

طرق سمعها وقع خطى على السلم ، وقرع الباب قرعاً أصضاً . فتوقف قلبها عن الحفcan ، والتجهت نحو الباب وفتحته . فدخل هتشنسون ، وعلى ملامحه تعibir قلق . وسرّحت نظرها في المشي المعتم خلفه ، ولكنها كانت تعلم أن الكابتن كان وحده . وتشبت بكرسي لكي لا تسقط أرضاً . قال هتشنسون :

- جئنا من المستشفى الى منزل السيدة ناي . انتظرت في الخارج مع الخيل ، ودخل الماريشال . ويقي مع زوجته اكثر من ساعة ، واكثر من الوقت المتفق عليه بكثير . وحالما خرج ناي ، وصل كروفورد حاملاً أمراً من الدوق ، طواه على التوجه فوراً الى الشاطئ ، لأن الهرب قد اكتشف . فكلافو ، بعد أن فقد كل أثر لنا ، عاد الى حدائق لوكمبور ، حيث أخذ ، على ما يبدو ، الحصى الاحمر الذي فحصه .  
وتجنب هتشنسون النظر الى إيدا .

وقال لها :

- إني آسف ، يا آنستي ، ألا يستطيع الماريشال المحبء الى هنا ليشكرك على إنقاذه حياته . . . وقد عهد إلىّ بأن أقول لك . . .  
وملا الطنين أذنيها . . . ميشال ناي اتجه نحو الشاطئ ، تمهيداً للسفر الى أميركا ، وفي قلبه رسم زوجته . أما هي . . . فقد بدا بعيداً جداً الزمن الذي كانت فيه ، أشبه ما يكون بالمرأة الاشقر في سرتها الزرقاء وينظرونها ، تتبع ميشيل عبر اوروبا ، وتشاهده يخوض غمار معارك ملحمية ، ويصعد الى قمة المجد والشهرة . كان ينبغي لقلبها أن يعلمها أنها لن تستطيع ان تتبع ثانية ميشيل ، الى اميركا هذه المرة . كان يحب أغلايه ، زوجته ، وهي . . . لم تكن إلا المرأة من شارع بابل . لقد سمعت الآن جيداً الأقوال التي ردّها هتشنسون :

- ان صاحب السمو يهديك احترامه ، ويرجوك ان تسعديه بتناول العشاء معه !

\* \* \*

عندما بدأ جمالها يشحب ، تناولت إيدا سنت-إيلم الريشة ، وفي كتابها الأول - «مذكرات سيدة معاصرة» بقلم إيدا سنت - إيلم ، المغامرة ، باريس ١٨٢٨ - روت قصة الحب البائس الذي كانت تكتنه ميشيل ناي . فيه روت تفاصيل الزيارة الأولى التي قام بها أشجع الشجعان إلى منزلها في شارع بابل ، وكيف تبعته مرتدية ملابس الرجال عبر نصف أوروبا ، وكيف مدت شبакها ، بعد فتور الحب الذي كان يكتنن لها ، إلى أرفع المقامات ، وسحرت العديد من الشخصيات الكبيرة ، وفي جملتهم الأمير تاليران ، وحتى الإمبراطور نفسه ، دون أن تتوقف عن حب ميشيل ، وكيف دبرت المؤامرة التي أنقذت ميشيل ناي لما حُكم عليه بالموت ، وكيف شاهدت عملية التنفيذ في حدائق لوクسمبور .

غير أن إيدا ، في كتابها المنصور بعد ١٣ سنة من «الاعدام» ، لم تذكر أن المؤامرة نجحت . على العكس - ولكن لعلها أرادت تحويل الشكوك؟ - بكت غياب حبيها . ومع ذلك ، في الغداء ، شاع في باريس أن الماريشال قد هرب . والدم؟ بالطبع كان هناك دم . ولكنه ربما لم يكن دم أشجع الشجعان ! العله كان دم امرئ رُمي بالنار ، وكان ، في الواقع ، أحد المحكومين بالموت لكي يجعلوه يشبه ناي؟ وأطلق العنوان للألسنة ، وكانوا يؤكدون في الحالات ان النعش الذي ووري في اليوم التالي في مدفن أسرة ناي ، في مقبرة بير-لاشيز ، كان فارغاً ، أو على الأقل ، لم يكن يحتوي ألا على بعض الأجر العتيق .

وراحت قصص أخرى كذلك ، ولكن رويداً رويداً ، ولما لم يحدث ما يؤكّد هذه الشائعات ، فقد تبخرت ، ويداً مؤكداً أن ميشيل ناي قد مات بحق وحقيقة .

### الظهور من جديد في المحيط الاطلسي

بعد ٥٩ سنة ، قابل مخبر صحفي في دايتون ، في ولاية أوهايو الأمريكية على مسافة ٨ ألف كيلومتر من هناك ، امراً عجوزاً يدعى فيليب بتري ، روى له قصة غريبة .

بتري هذا ، وهو فرنسي سبق ان حارب في قوات نابوليون ، كان قد غادر بوردو

عقب معركة وترلو بستة أشهر ، بصفة بحّار على متن سفينة هجرة الى أميركا . وبعد بضعة أيام من الإبحار ، لمح بين الركاب الماريشال ناي . وكانت دهشته عظيمة لأن الماريشال كان قد أُعدم قبل ذلك بأيام ، وهو يذرع جسر السفينة جيئة وذهوباً ! كان بيتر واثقاً مما يقول ، ذلك بأنه ، في الجيش ، شاهد أشجع الشجعان عشرات المرات . ونزل بتري وهذا الميت الذي كان الماريشال ناي ، الى اليابسة معاً في تشارلزتون . ودخل الميت مخزنًا لبيع الادوات الموسيقية حيث اشتري فلوتاً ، الأمر الذي جعل شعر رأس بيتر يتصبّ ، الجميع يعلمون ان الماريشال ناي ، كان في الواقع ، يهوى العزف بالفلوت . ثم إنه اختفى كالشبح !

في هذا الخريف من السنة ١٨٧٤ ، عندما روى بتري قصته للصحفي ، كان رجلاً متقدماً في السن ، ولكنه كان يتذكر جيداً التاريخ الذي بلغت فيه السفينة الشاطئ الاميركي : كان ذلك ٢٩ كانون الثاني ١٨١٦ .

لاندرى أين أمضى الرجل الذي حسبه بتري الماريشال ناي (أوليمه ، أي الشخص المشابه له كل الشبه) ، السنوات القليلة التالية . هناك اشارة الى مروره في ولاية إنديانا حوالي تلك الفترة ، وفي ما بعد ، روى هو شخصياً أنه فور وصوله ، قضى عدة سنوات في العزلة ، يستعد لممارسة مهنة التدريس ، وذلك بدراسة الكلاسيكيات والرياضيات . وفي ذات يوم ، في خريف السنة ١٨١٩ ، توقف فجأة ثلاثة لاجئين فرنسيين - وكانت أميركا تعجّ بهم - في جورجتاون ، احدى قرى ولاية كارولاينا الجنوبية ، كما لو كانوا شاهدوا غائباً يعود بعد غياب طوبل .

كان ذلك ما حسبوه للحظة واحدة : ويقولوا حيث هم متسلرين في مكانهم ، وقد تعلقت عيونهم بالرجل الطويل القامة الذي كان يمرّ تحت أشجار السنديان ، على الجانب الآخر من الطريق الماريشال ناي ! دعك من ذلك ، هذا مستحيل ! وتذكروا إذاك ، فجأة ، الشائعات التي راجت في باريس عقب الاعدام مباشرة . وصحّيّح ان هذه الشائعات كذبت .

في هذه الأثناء كان الرجل القوي الذي لمحوه قبل قليل قد انعطف لدى ركن الشارع ، ولما هرع الفرنسيون الثلاثة للحقّ به ، كان قد اختفى .

قال أحدهم :

- لا ، يا موريس ، لا يمكن أن يكون هو . لقد تحدثت إلى رجل رأى الدم : يبدو أن الماريشال كان مغطى به من رأسه إلى حزامه ، وعلى الأرض كان هناك بقعة كبيرة . غير أن الباريسيين الآخرين ، عاداً بالذاكرة إلى سين خلت ، واسترجعوا على حين غرة بعض التفاصيل التي ترتدي الآن أهمية غريبة .

قال أحدهما :

- لا تذكر كيف أنحوا باللوم على السيدة ناي لأنها لم تشهد مراسيم الدفن في مقبرة بير - لا شيء؟ ولكن أسألك لماذا تذهب إذا كان النعش فارغاً أو يضم جثمان مجرم مجهول ، في حين أن زوجها كان في اللحظة نفسها يسلك الطريق نحو الشاطئ؟

وقال الثالث بنفاذ صبر :

- أيها السيدان ، لقد شاهدنا قبل قليل ميشيل ناي أو شبحه ، وأنا لا اعتقاد بالأشباح ، فضلاً عن أنني قوي الذاكرة . أنا واثق من أنه بعد أقل من شهر على اعدام ناي المزعوم ، حُكم على الجنرال لافاليت ، كذلك ، بالموت رمياً بالرصاص ، ولكنه هرب . وقد افتضح الأمر ، واتهمت الحكومة الفرنسية ، كما تذكرون ولا ريب ، ضباطاً من المحيطين بدوق ولنغتون . وإنني لأذكر حتى اسم أحدهم ، الكابتن هتشنسون ، وأعتقد أنه كان هناك أمرؤ آخر باسم برايس ، أو بالآخر بروس . وقد أحدثت القضية آنذاك ضجة كبيرة . ولكن ، إذا كان الانكليز هم الذين هربوا لا فاليت - ولقد اعترفوا بذلك - أحسب أن بوسي أن ادرك كيف تسنى لنا ان نشاهد اليوم الماريشال ناي !

### «أنا لاجئ فرنسي»

لم يكن قط شبحاً من أوقف نزاعاً ، ومنع حصول جريمة قتل في موكتافيلي افني هذه الضيعة ، في ولاية كارولاينا الشمالية ، الضائعة وسط الغابات ، كان يعيش ايرلندي شكس جداً يدعى سكولز ، هو طبيب القرية . وفي ذات يوم ، وبينما كان

جماعة من الناس يتناقشون في السياسة أمام إحدى الحانات ، شتم أحد المزارعين السكارى سكولز هذا . ولم يدُر الدم في جسد سكولز إلا دورة واحدة ، فإذا به يتضى سكينه ، وبهمّ بطعن شاته ، عندما أمسك أحدهم بذراعه . والفت سكولز فألفى نفسه وجهاً لوجه أمام رجل لم تسبق له رؤيته من قبل : طويل القامة ، قوي ، بارز الذقن ، أصحاب الشعر ، عيناه بزرقة الفولاذ .

قال له الغريب :

- إيه ، حسناً ، يا سيدي الن تقضي على أعزل دون أن تتيح له الفرصة للدفاع عن نفسه ؟ !

وتفرّس سكولز والغريب أحدهما في الآخر دون أن يتبدلا أي كلام ، ثم أعاد الطبيب السكين إلى غمده . لقد فته هذا الرجل ، الغريب ، ذلك بأنه لم يسبق له أن شاهد رجلاً مثل هذا الحال . قال القادم الغريب بلغة انكليزية صحيحة ، ولكن بنبرة خفيفة :

- أيها السادة ، إسمحوا لي أن أقدم نفسي . اسمي بيت ستิوارت ناي ، أنا لاجئ فرنسي ، وأرغب في تأسيس مدرسة في قريتكم .  
وهوتف سكولز :

- ولكن ، أيها السيد ، هوذا حقاً ما نحتاج إليه !

وعكف بيت ستิوارت ناي على العمل في موطن التلال الحمر في ثيرد كريك ، في كارولاينا الشمالية ، حيث ما عتمّ أن غداً شخصية أسطورية . وقد غادر جورجتاون فور لقائه الفرنسيين الثلاثة . وطوال ثلاث سنوات ، درس في مدرسة صغيرة في قرية براونزفيل ، في كارولاينا الجنوبية . ثم إنه غادرها على حين غرة . وما هي الإفتراض قصيرة ، حتى وصل إلى موكسفيل . وهناك استقرّ منذ ذلك الحين على الرغم من أنه قام بالتدريس خلال فترات قصيرة في فرجينيا ، وكارولاينا الجنوبية ، وإنديانا .

وأيّان ذهب ، - وقد درس ، في وقت من الأوقات ، في خمس مناطق دفعه واحدة . كان يحظى باحترام الجميع من فوره . وكانوا يدركون على الفور أنه لم يكن

معلّماً عادياً ، بل إنه رجل عظيم ، على الرغم من ضعف خطير نوعاً ما ، ما لبث أن ظهر جلياً عليه .

كان في قاعة التدريس في بروانزفيل عندما بلغه نبأ وفاة نابوليون في جزيرة القديسة هيلانة ، فوقع مغمىً عليه من فوره ، وفي مساء اليوم نفسه حاول الانتحار بسكين انكسرت شفرته ، لحسن الطالع . ولم يشف تماماً من هذه الصدمة . كان يمني النفس دوماً بأن يشهد عودة بونابرت التي تتبع له العودة إلى أسرته وأمرأته - ذلك بأنه كان يديم التفكير في زوجته ، وليس في الممثلة الحسناء القاطنة في شارع بابل . وكان أحياناً ، في غمرة يأسه ، يتكلم .

كان يقول إنه ميشيل ناي ، ماريشال الامبراطورية . ويروي أنه بعد الحكم عليه بالموت ، وُضعت خطة الإنقاذة ، وأن دوق ولنغتون جعل تحقيق ذلك ممكناً . وقد كان جنود فرقه الاعدام من الناقمين ، وقد تلقوا الأوامر باطلاق النار فوق رأسه . وأعطوه كيساً (= جراب صغير) ، فيه سائل يشبه الدم أخفاه تحت قميصه . وعند اصدار الأمر باطلاق النار ، قرع صدره ، مزقاً بالضرر نفسها الكيس ، بحيث انتشر فوراً السائل الأحمر . وعندها حملوه ، ونقلوه إلى مستشفى مجاور حيث تنكر . وفي تلك الليلة نفسها ، وبعد زيارة أخته وداعية لزوجته ، ارتحل إلى بوردو ، ومنها ابحر إلى أميركا . وخلال الرحلة - على ما روى - عرفه ذات يوم أحد البحارة ، وكان سبق له أن خدم في الجيش تحت إمرته .

لم يكن يتخيّل هذا الحديث إلا ماماً ، وعلى مسمع من عدد من الأشخاص من غدوا أصدقاء الذين كان يروي لهم ، ذكريات حملاته العسكرية .

كان جسمه مثخناً بالجراح الملثمة التي لا يمكن أن تكون إلا جراحآ تلقاها الماريشال ناي . وما لا يقبل الجدل أن بيتر ناي تشبه ملامحه كلها ملامح الماريشال . وكان ناي يشتهر بأنه من أفضل لاعبي السيف في أوروبا ، وكان المعلم في مدرسة ثيرد كريك سيافاً ماهراً واستنتاج خبراء في الخط قارنوها بين خط الماريشال وخط بيتر ستیوارت ناي ، انه خط الشخص الواحد نفسه .

## شهادات مفحمة

كان العالم الخارجي يجهل كل شيء عنه ، ولكن في موطن التلال الحمر ، في روان ، كانت اسطورة معلم المدرسة الغامض تكبر مع تقدمه في السن . فقد جُمعت طائفة من الشهادات المقنعة ، لا يتسع المجال هنا إلا لإيراد بعضها .

في ستيسفيل ، ذات يوم ، شاهد امرأة اسمه دجون سنایدر ، المولود في ضواحي براغ (تشيكوسلوفاكيا) ، وكان جندياً من جنود نابوليون ، بيت ستیوارت نای ، وهتف رافعاً ذراعيه الى العلاء : «يا للطيبة الإلهية ، الماريشال ناي !»

الكولونل ج. ج. لهمانوفسكي ، الضابط البولوني الذي تبع نابوليون ، وكان سيُعدم غداً إعدام الماريشال ناي ، نجح في الهرب ، وهبط أميركا . وكان يقيم في إنديانا عندما تلقى ذات يوم ، لفطر دهشته ، زياره رجل طويل القامة ، مشيته عسكرية ، رفض الكشف عن هويته أمام أفراد أسرته . وفُيل وفاته ، أسرى الى ابنته أن الرأزير الغامض كان الماريشال ناي .

عقب وفاة بيت ستیوارت نای ، في ١٥ تشرين الثاني ١٨٤٦ ، هبط ثيرد كريك ، من إنديانا ، امرأة يدعى الدكتور أ. م. س. نایمان ادعى انه ابن الماريشال ناي وقد أوفدته والدته أغلاييه الى أميركا السنة ١٨٢١ بنية حمل جثمان «والده» الى إنديانا . غير أن الحب الذي كان يكنه أهالي القرية للمعلم العجوز حمل نایمان على القبول بترك جثمان بيت ستیوارت نای في ثيرد كريك .

كان مئات التلاميذ الذين درسهم بيت ستیوارت نای ، وعشرات الرجال والنساء الذين عرفوه جيداً خلال السنوات الخمس والعشرين التي قضتها بين ظهرانيهم ، مقتنيين جميعاً بأنه كان حقاً الماريشال ناي ، ليس لأن البراهين بدت دامغة لا تقبل الجدل ، ولكن لأنهم لم يسمعوا يوماً ينطق بغير الحقيقة . وعلى سرير موته ، وكان في السابعة والسبعين من العمر ، حادثه في الموضوع صديقه القديم الدكتور لوك الذي صارحه بأن النهاية باتت وشيكه وسأله عن حقيقة هويته . فنظر اليه المحتضر محدقاً في عينيه ، وأجاب : «أنا ميشيل ناي ، ماريشال الامبراطورية .»

ومع ذلك ، فإن التاريخ يرفض الاعتراف بهذا الاعلان . والتاريخ يؤكّد ان هذا

الرجل ، الذي احترم بحق ، لم يكن سوى محتال ، وأن ميشيل ناي توفي برصاص فرقه إعدام في باريس ، في حدائق لو كسمبور . زد على ذلك ، ان معلم المدرسة في ثيرد كريك ، لو كان حقاً الماريشال الفرنسي العظيم ، فلماذا لم يعود الى فرنسا - حسب تساؤل المؤرخين - من المنفى مثل العدد الكبير من ضباط نابوليون الآخرين ، بعد أن سكن حقد الملكيين ؟ إنه ولا شك ، سؤال ملائم ووثيق الصلة بال الموضوع ، ولكنه لا يسمح ، مع ذلك ، بالوصول الى نتيجة . ذلك بأنه عندما تنتظر امرأتان ، من يسعه أن يقرأ ماذا يدور في قلب الفارس ؟ !

## ملك السكر وامبراطور الصحراء

### جاك لوبيودي وعرشه الشائك!

مالي بارز ، وملاح جوي ، وخليل عين نفسه امبراطوراً ،  
وغزالونغ آيلاند بجيشه الذي لا يُصدق .  
سوريا لي قبل الأوان ، عاش حلماً عظيماً وقضى بسيبه . . .

عيد الميلاد في السنة ١٨٨٠ يقترب . ينحني جول لوبيودي على ابنه جاك الحالس على السجادة غارقاً في التفكير ، ليسأله :  
- وأنت ، ماذا تأمل أن تجد في حذائك هذه السنة ؟  
فأجاب الصبي ذو الخمسة أعوام دون تردد :  
- عرشاً !

هذه الكلمة الصبيةانية تذوقتها كثيراً الأسرة التي عاشت ، ولا ريب في التفتح المبكر لهذا الذكاء الذي جمع بفضله جيلان من أسرة لوبيودي ، في أقل من نصف قرن ، إحدى أضخم الثروات المعروفة .

بدأ كل شيء عندما خطرت بجان - غوستاف لوبيودي السنة ١٨٥٠ ، فكرة إنشاء مصنفة متواضعة لتكريير السكر ، في شارع فلاندر ، في باريس . وكانت لحظة الاختيار ممتازة ، ذلك لأن سكر الشمندر كان على وشك الحلول محل سكر القصب ، وستعرف صناعة السكر انطلاقه هائلة .

إذًا ، ورث جول لوبيودي ، أحد ولدي غوستاف ، من والده ثروة محترمة عمل على زيادتها ببعض الصفقات في البورصة تركت في نفوس معاصريه ذكريات مؤلمة . فقد كان هكذا ، في السنة ١٨٨٢ ، في أصل انهيار الاتحاد العام المالي ، وكان

أحد أول المصارف التجارية الدولية الكبرى . كان جول لوبيودي قد اشتري سراً كمية كبيرة من أسهم قناة السويس ، طرحها ذات يوم بكثافة في السوق ، محدثاً بذلك هبوط الأسعار ، وواضعاً الاتحاد العام في وضع يستحيل معه مواجهة التزاماته . وبينما كان يُلقي القبض على المديرين بونتو وفيدير ، كان لوبيودي يتبع مجدداً وبهدوء بأسعار منخفضة أسهم قناة السويس . مع أسماء أخرى كثيرة . . .

الخلاصة ترك جول لوبيودي لدى وفاته سنة ١٨٩٠ ، ثروة وزعت بالتساوي بين زوجته وأولاده الأربعة بلغت قيمتها ١٧٦ مليون فرنك ذهباً - أو ما يعادل ٥٠ مليون دولار أمريكي . أما أولاده الأربعة فكانوا جاك ، وروبير ، وماكس (الذي سمي باسمه مطعم مكسيم الباريسي العالمي الشهير) ، وابنة هي الكونتيس دوفلس . ولم يرث جاك ، الابن البكر ، حصته من الثروة ، وحسب ، بل الكثير من فطنة والده وعصريته في التجارة بها . وكان هذا الفتى الذي أراد أن يصبح أمبراطوراً ، في السابعة عشرة من عمره ، لما آلت إليه مبلغ ٢٢ مليون فرنك ذهباً . وهذه ثروة تكفي لتدير رأساً أصلب من رأسه .

كان جاك يتميز بحدة ذهنه ، ويتكلّم بطلاقة الانكليزية ، والاسبانية ، والبرتغالية .  
وكان يهتم كثيراً بالجغرافيا ، ويعتبر مميزاً في هذا المجال .

كان قوياً ، ممتلئ الجسم ، مخلع المشية ، ذا ملامح غير قياسية ، شعره أسود مقصوص قصيراً ، وحاد النظر . وكانت قوته البدنية موضوع اعجاب المعطيين به .  
وكان مولعاً بالطيران ، ومن المتعصبين للرائد في هذا المجال سانتوس دومون ، ولم يتردد قط في قيادة أحدى الطائرات الشبيهة بالطائرات الورقية أكثر منها بالطائرات التي نعرفها . حتى أنه كسب في مباراة بالتحليق في المنطاد وكان المطلوب الاقتراب من برج إيفل المشيد حديثاً ، أكثر ما يمكن . ومن سلة المنطاد (الحجرة المقفلة في المنطاد المفردة للملاحين) نجح في إلقاء كرة مضرب إلى آخر منصات هذا البرج .

هذه التمرينات لم تمنعه من اصدار أوامره كل صباح إلى البورصة (دائماً في انخفاض ، وربما كان ذلك يوافق مزاجه) ، ومحاكمة النساء اللواتي كان يقترب منهن كما قائد المرتزقة ، ويعويهن . وكانت باريس بأسرها تعلم أن ثروته تزداد يوماً عن يوم

بطريقة ماكيافيلية . وفي كانون الثاني ١٩٠٣ ، عرفت كل باريس أنه التقى شريكة حياته بشخص ماري - أوغسطين ديلير ، الممثلة الصبية المتحدرة من اسرة حسنة ، شعرها احمر (اسمر محمر) ، وعيناها الواسعتان الرطبتان لم تكونا تشعنان وجهها الرائع .

ولكن ، مع الأسف ، كان جاك لوبيودي يحسّ دوماً ببعض شديد وعميق للزواج . فمجرد التفكير في وضعه كزوج كان يزعجه ، ونجح في اقناع الفتاة التي يتظرها مصير باهر ، قائلاً لها :

- ستكونين اكثراً من زوجتي ، ستكونين إمبراطورة !

### بداية حلم

واقتنت ماري بكل سهولة ولا سيما ان جاك لم يكن مازحاً ; حتى أنه كان شديد الاخلاص ، لأن مشروعه أضخمَا كان يختبر في فكره منذ بعض الوقت : لقد قرر أن يصبح إمبراطوراً . وعلى أي إمبراطورية ! الأرض الحارة أكثر من غيرها : الصحراء الكبرى في أفريقيا .

ومن الإنصاف القول ان هذه الفكرة لم تكن ، وحسب ، حلم مصاب بمرض العظمة كما قد يتadar إلى الذهن استناداً إلى سلسلة الأحداث التي نجمت عن ذلك . فقد تميّزت تلك الحقبة من الزمن بالأعمال الباهرة التي قام بها اشخاص من أمثال الرحالة سافورنيان دو برازا - الفرنسي المولود في روما (١٨٥٢ - ١٩٠٥) ، الذي كانت حملاته الاستكشافية في أصل الكونغو الفرنسي (١٨٧٥ - ١٨٩٧) ، والرحالة والمُرسِل هنري مورتون ستانلي الانكليزي (١٨٤١ - ١٩٠٤) ، والرحالة والمُرسِل الاسكتلندي ديفيد ليفنغستون (١٨١٣ - ١٨٧٣) ، وسيسييل رودز ، رجل الاعمال والأداري الاستعماري البريطاني (١٨٥٣ - ١٩٠٢) الذي جمع ثروة طائلة من التنقيب عن الالناس في أفريقيا الجنوبيّة . ولم يكن الحديث يدور إلا على الثروات الضخمة في مناجم أفريقيا ، وكان جاك لوبيودي ، مهتماً شخصياً بمشروع شركة استثمار نترات الصحراء . في بداية الأمر ، كان لوبيودي يود أن يستولي في الجزائر

على سكة الحديد بين وهران وايغلي لكي يحتكر التجارة في الجنوب الوهرياني بقصد تنقيباته الصحراوية العتيدة . وكان ينوي في ما بعد أن يمدّ الخط شطر الغرب من طريق الساحل الأفريقي للمحيط الأطلسي حتى مدينة سان لومي في السنغال . ولذا حاول أن يحصل على كمية كبيرة من أسهم شركة سكة الحديد الفرنسية - الجزائرية ، ثم إنّه في ذات يوم ، وقد تأكّد من حصوله على أغلبية الأسهم ، انتقل إلى وهران وعزل بالجملة موظفي الخط الحديدي .

ولدى عودته إلى باريس ، غزا مركز الشركة على رأس حوالي عشرة أشخاص ، وقد تطلّب طرده منه جهوداً كبيرة . وخلال الدعوى القضائية التي نجمت عن ذلك ، عرض ، برسالة عامة ، أن يواصل أعمال الشركة ، وبينني على نفسه الخط الحديدي عبر الصحراء في مدة ثلاثة أعوام ! وأخيراً ، ومنعاً للعدم وقوع خط سكة وهران الجنوبيّة بين يديه ، اضطررت الدولة إلى شرائها منه .

كانت خيبة أمل جاك لوبيودي عظيمة ، ووُجد بغضه البشر وكرهه المجتمع في ذلك أفضل مغذٍّ . لقد رفضت فرنسا عونه فليتصرّف وحده وحسب مشيئته . وكانت الأرض التي وقع عليها اختياره تقوم في ضواحي رأس جوبي ، وتخصّ المغرب ، من الناحية النظرية ، لا سيما وأن أحداً لم يفطن حتى ذلك الحين إلى تحديد تلخوم تلك البقعة من الأرض المحرقة التي تقطنها بعض القبائل المغربية .

ومذ ذلك ، كرس لوبيودي كل جهوده لتحقيق مشروعه الذي لم يطلع على تفاصيله إلا نفر ضئيل من المقربين الحميمين إليه ، لأنّ الإمبراطور العتيد كان يحاذر من التطفّل وإفشاء الأسرار . وكان الرسام الكاريكاتوري الشهير «سيم» بين الذين كان يسرّ إليهم بأمره ، وكان كلما دعاه إلى المسرح لكي يتحدّث إليه بحرية أكبر ، يعجز كل المقاعد المجاورة لمقعده !

وغدا القصر الفخم الذي كان يحتله صاحب المليارات في جادة جورج الخامس في باريس ، المقر العام للحملة ، ومركزًا للتعبئة ، ومستودعاً للذخيرة . وكان أشخاص غريبو الأشكال يتتابعون ، و شيئاً فشيئاً تشكّلت هيئة الاركان العامة للحملة ، المؤلفة ، والحق يقال ، من أشخاص مربيين ، يبعثون على القلق : مجرم

اميركي من فرجينيا محكوم عليه سابقاً ، ومزور عملة ، وجندي فارٌّ من الفرقا  
الاجنبية ، وعالم جيولوجي ، ونجار أناث ، ومحام هولندي ، ومؤجر ألبسة مسرحية ،  
وبائع أسلحة ، وجزّار ، وصانع شموع ، وبعض البحارة من منطقة بريطانيا ، في  
شمال فرنسا . وعندما كان عمله التنظيمي يمنحه بعض الراحة ، كان يهرع إلى  
فيكامب حيث كان يخته «فراسكتا» ، البالغة حمولته ١٥٠ طناً ، يصفق بحرارة .  
وفي شباط ، كان كل شيء جاهزاً ، وقد سرع الأمور حدث سخيف .

لم يكن جاك لوبيودي على وفاق مع حراسة المبني ؛ فألفت هذه أثناء نقاش  
بينهما ، ملء قدر ماء جافيل (مركب كيميائي يستعمل مطهراً ومزيلاً للألوان ويُعرف  
باسم موضع اكتشافه) على وجهه . ولم يُصب لوبيودي بأذى من هذه المغامرة .  
وكتب صحافيوا ذلك العصر معلقين على ما حدث بقولهم : «إن نقطة ماء جافيل هي  
التي جعلت الكيل يطفح» . ولكن في هذه المرة غداً الامبراطور العتيد كارهاً تماماً  
المجتمع بصورة حاسمة . وكانت المغامرة الكبرى على وشك أن تبدأ .

### الامبراطور جاك الأول

في ٣ آذار ١٩٠٣ ابحرت السفينة «فراسكتا» من فيكامب وعلى متنها جاك  
لوبيودي ، وماري ديليير وطاقم البحارة . وكان خط العوم ، أو خط الغاطس ، يصل  
إلى الحافة ، وهي نتيجة طبيعية لحتوى المستودع : خيمة سيرك ، آلة طابعة ، مقصلة ،  
صناديق أسلحة وذخيرة ، و٢٠ مدفعاً ثُبت في صفة ما . وكان أول اهتمامات  
لوبيودي أن يعطي بقطاء سرير العرش المصنوع من المعدن الصلب المنحوت والمذهب ،  
الموضوع على الجسر لحمايته من الرذاذ .

والأمر الثاني كان النزول في شريور بعد تحديد الموعد مع «فراسكتا» ، في أربنيل  
ماديرا ، ذلك بأنه ما كاد يصبح في عرض البحر ، حتى انتابه دوار البحر الفطيع ،  
فتوجه إلى ساوئمبتون ، في إنكلترا ، حيث أفلته سفينة سليماً معافي إلى فونشال ،  
قصبة محافظة ماديرا .

من ماديرا ، أقلع إلى جزر الكناري ، وألقى المرساة في لاس بالناس . ودخل

لوبودي نهائياً شخصيته والتاريخ معاً . فالواقع أنه خلال الرحلة طلب لوبودي إلى طاقمه ان يدعوه منذ ذلك الحين «القائد» ، ولدى المصادفة الثانية ، استبدل هذا اللقب بلقب «الجنرال» . وفي المساء نفسه ، حمل بروتوكول نهائي إلى الضباط والبحارة على متن «فراسكيتا» ان عليهم ألا يخاطبوا سيدهم إلا بعبارة صاحب الحاللة او مولاي !

ولما كانت جزر الكناري جاراته العتيقة ، قرر لوبودي إقامة علاقات دبلوماسية مع الحاكم الاسباني المقيم في ستا كروز ، في جزيرة تينيريف . وقد اتاحت له هذه الزيارة الفرصة لكي يرتدي أولى الزيارات العديدة المتوجهة التي تضمنها خزانة ملابسه : قبعة بحرية ، سترة من المخمل الأحمر ، كتيفيتين مذهبتين (الكتيفية نسيج مقصب على كتف الضباط) ، براندبوريات سوداء (البراندبورية هي زخارف العرى على طريقة برندبور في ألمانيا) ، بنطال لصوق احمر من الحرير يصل الى الركبتين ، جزمة سوداء لمماعة ذات أباذيم سوداء ، وسوط ، لأن السيف يجعله يدو بظهر المغارب .

في قصر الحاكم ، أعلن عن نفسه «الامبراطور جاك الأول» ، ولما قدمَ تساؤل الحاكم عما اذا كان ينبغي استدعاء الحرس ، او اختبار روح النكتة لديه . واختبر الحل الثاني ، وترك لوبودي يتحدّث على هواه . فاقتصر تبادل السفراء بين جزر الكناري وأمبراطوريته ، فضلاً عن إنشاء نظام للخدمات البريدية . ولكن ، مع ذلك ، رفض الكشف عن موقع الامبراطورية الذي ينبغي أن يبقى سراً رديحاً من الزمن ، بعد .

وسأل الحاكم :

- إذا قررت اسبانيا ان توقد اليك سفيراً ، فينبعي ان تعيّن له مكان بعثته .

فكان الجواب :

- ليس ثمة أي صعوبة ، فالمبعوثون من قبلني سيأتون لاصطحابه معصوب العينين !

- ويريد الامبراطورية ، إلى أين ينبغي توجيهه؟

- في الوقت الحاضر ، نحن لا نتوقع أي بريد !

وتبيّس الحاكم بتهذيب ، وطلب مهلة للتفكير في هذه المقدمات ، وودع زائره

البارز بانفراج جليّ .

### احتلال تروجا

لدى عودة لوبيودي الى متن «فراسكيتا» جمع حوله كل من عليها فوق الجسر ، وخطابهم بقوله :

- ايها الجنود ، ان رحلة قصيرة تفصلنا عن الهدف . قبالتنا ، على الساحل الافريقي ، بين رأس جوبي والطرف الجنوبي الاقصى للحدود المغربية ورأس بوجادور في الشمال الاقصى لنهر اورو الأسباني ، تندأرض تتصل من الشرق بأفريقيا الغربية الفرنسية . إنها متروكة وحدها ، وليس من بلاد تطالب بها . وحدهم الموظفون المغاربة او الاسبان يتذكرون عرضاً بعض البربر الذين يقطنونها ، فيُقبلون بجمع الضرائب والرسوم التي يفرضونها عليهم . وبحسب معلوماتي ، فان الجباة هؤلاء لم يظهروا هناك منذ زمن بعيد ، ويدوأن الوقت ملائم لكي تستقبل هناك ، ويعترف بنا .

في هذه اللحظة الحرجية من خطابه ، طلب لوبيودي أن تُنقل الى الجسر الحقائب التي تحتوي على الملابس العتيقة التي اشتريت من فرقه الكوميدي فرانسيز ، وصدر الأمر الى أفراد الطاقم بارتداء بزات المعركة . وسرعان ما امتلأت السفينة بجنود الصاعقة المنذهلين : القوزاق يجاورون الهووصار (جنود من الخيالة) ، وجنود الدragoun (الخيالة الفرنسية القديمة) مع الزواويين (الزواوي جندي فرنسي بلباس أهل مراكش والجزائر) ، ورماة البحارة مع الفرسان المرتزقة في الجيش البروسي .

خلال الليل ، ألقىت «فراسكيتا» المرساة امام رأس جوبي . وكان نهر صغير تصب مياهه بجوار دوار يعيش فيه حوالي ٥٠٠ من البربر . كانت تلك عاصمة المستقبل التي اختارها لوبيودي ، وسمّاها من فوره تروجا .

في ١٧ حزيران ١٩٠٣ ، عند الفجر ، وبينما كان هؤلاء السكان يسجدون للصلوة ، راح المدفع يهدّر من ناحية الغرب . فقد أراد لوبيودي بصفته فاتحاً شهماً ، تفادي سفك الدم ، فأحاط الفريدة بحاجز من القنابل لإخافة السكان الأصليين .

وبحسب هؤلاء أن ثمة جابي ضرائب جديدة قوياً بصورة خاصة ، فهربوا الى بنادقهم التي تطلق الحصى . ولكن لوبيودي كان بدلاً تكتيكيه ونصف المئنة ، معجراً

البرير على رفع خرقه بيضاء فوق حطام المئذنة . وتوقف اطلاق النار .  
وتقديم لوبيودي مرتدياً هذه المرأة بزة أكثر توهجاً من تلك التي ارتداها لدى زيارته  
جزر الكناري ، بارز الذقن ، قبضة يده على خصره ، الى الأمام صوب عاصمتها على  
متن زورق ، يرافقه ترجمانه ، الجندي السابق في الفرقة الأجنبية .

وانتظر رئيس القرية بملابس رثة ، ولكنها لائقه ، مع الوجه في قبيلته على  
الساحل . فحاولوا ، في البداية ، تهدئة لوبيودي بالقطع الذهبية المجموعة بالعرق  
والجهد في الأكواخ . فلما ثُمِّت الترجمة ، انفجر الفاتح ضاحكاً :

- انتم تعتقدون أننا إنما جئنا لفرض الجزية عليكم ! على النقيض ، نحن هنا  
لحمايتكم من أولئك الذين يستغلونكم .

وألقى بحّاران على الشاطئ رزماً وبالات ، ما إن فُتحت حتى تبيّن أنها تحتوي  
على تبغ ، وبن ، وشاي ، وملابس زاهية الألوان . وذهل البرير ، وحملوا ما استطاعوا  
نقله ، وعادوا مسرعين الى قريتهم .

وابتهج لوبيودي ، قائلاً :

- لم أكن لأدرك السعادة التي سيحملها اليّ أملاك إمبراطوريتي !  
وحمل العرش الثمين سليماً الى الشاطئ ، وقد كلح لونه قليلاً . وفوقه نشرت  
الخيمة الكبيرة المشتراء من السيرك المفلس . ومدّت سجادة قرمدية اللون بينه وبين  
مدخل الخيمة المحاطة بسبعة مدافع .

وارتدى الامبراطور البزة الملائمة للترويج ، في حين نزلت الى اليابسة الامبراطورة  
وخدمتها ، وسائر أفراد الطاقم .

وهرع البرير الذين دعوا لحضور الاحتلال جماعات جماعات ، بعضهم يحمل  
قردة في الأقفاص ، هدية الى الامبراطورة .

وعزفت موسيقى السفينة مارشاً عسكرياً ، و مدّ بحار راكع الى الملك وسادة من  
المحمل فوقها الناج . فوضعه لوبيودي على رأسه . وردّد :

- أنا ، جاك الأول ، أعلن نفسي امبراطوراً على الصحراء ، والسيد الكبير على  
الواحات وأفريقيا الغربية ، راوي الصحراء ، وحامي البرير .

ثم التفت الى الامبراطورة ، وقبلها .  
وتعالت من البهارة هتافات : يعيش . . . وحذا البرير حذوهم وقد استولت  
عليهم الدهشة .

وأنشئ على الفور مكتب للتجنس لكي يتمكن البرير من طلب الجنسية  
الصحراوية . ولكنهم لم يفهموا تماماً ماذا يعني ذلك . ولكن لم تمس الحاجة الى  
ترجمان فقد نصب المقصلة امام المكتب المذكور ، وأجري عرض لكيفية عملها على  
عنزة . ففعل هذا المثل مع جائزة قدرها خمسة فرنكات فعل السحر ، وتجنس البرير  
بالمجملة .

### الأمور تفسد

غير أن طوارئ هذا الاحتلال الصاعق لم تنس الامبراطور الاسباب الحقيقة  
لحملته : مشروعه الضخم لإنشاء طريق صحراوية تخللها محطات استبدال وأبار ،  
تفضي إلى ميناء كبير يقام في رأس جنبي ، فاتحاً هكذا لأفريقيا الشمالية منفذًا على  
هذا الساحل الأطلسي غير المضيف .

وكان يقول :

- أنا أنوي مهر الصحراء بطرقات رائعة تؤدي من تروجا الى الجزر ، وتبلغ  
الحبشة .

ويهدف اكتشاف الواقع المناسب لمحطات القوافل ، كانت دوريات من بعض  
البحار تقوم بانتظام بأعمال الاستكشاف .

وقرر لوبيودي استكشاف الساحل أبعد الى الجنوب ، فترك مؤونة ثمانية أيام  
ويعض العذّارات مع خمسة رجال كان عليهممواصلة العمل في تروجا . وبعد أن  
أبحر طوال مائة كيلومتر ، ألقى «فراسكتيا» مرساتها في عرض جون صغير رملي  
أطلق عليه جاك الاول اسم «خليج العدالة» ، وقرر أن يمehr في ما بعد بمنشآت  
مرفأية .

ورغبة منه في جعل مشاريعه رسمية ، واضطراره الى اتخاذ التدابير الضرورية

للأعمال الأولى ، صعد مباشرة إلى لاس بالماس دون أن يمر مجدداً بتروجا ، المحتلة من حملته العسكرية . وفي هذه المرة كانت «فراسكيتا» تضع على الصاري علمًا رائعاً أبيض فيه ثلات نحالت مذهبة ، يحيط بها تاج : علم الإمبراطورية الجديد !

ولكن لدى عودته إلى تروجا ، بعد ذلك ببضعة أيام ، كانت تنتظره مفاجأة غير سارة . فقد فاجأت عصابة من اللصوص البحارة الخمسة من فرقة الاحتلال واحتطفتهم . وقد أعلن الزعيم البربرى أنه يتظر فدية ليطلق سراح عبيده الجدد .

وكانت تلك اللحظة التي اختارها الإسبان لإظهار حقوقهم في أرض رأس جوبي . فارسلوا سفينة حربية ، وجاء وفد بحثاً عن لوبيودي . فاعتقد هذا أن ذلك هو ما آلت إليه زيارته الدبلوماسية إلى جزر الكناري ، فرافق الوفد . ووسط مجالى التكريم التي يفرضها مقامه ، غداً أسيراً هو والإمبراطورة ماري .

وهكذا أمرت الحامية الإسبانية الخامسة الجديدة في تروجا بأن تستسلم ، فسارعت إلى ذلك ، تحت نظر صاحب الجلالة الغاضبة . وسجن الأسرى على متن «فراسكيتا» وأبحرت السفيتان شطر لاس بالماس .

عند ذلك علمت الصحافة بالحدث ، وفجّرت الفضيحة . وحكم لوبيودي بقصوة بسبب تشوش سلوكه . وعلقت فرنسا التصريح بالإبحار المتعذر للسفينة «فراسكيتا» . وعاشت إمبراطورية الصحراء .

وقلق الرأي العام المستعد حتى ذلك الحين للضحى ، على مصير الأسرى الخمسة الباقيين بين أيدي البربر . فاضطربت الحكومة الفرنسية إلى ارسال الطراد «غاليله» الذي نجح بالخدعة في اصعاد الأسرى الخمسة إلى متنه ، مرعياً المغاربة باطلاق النيران الكثيفة .

واستطاع لوبيودي الفرار من لاس بالماس برفقة الإمبراطورة ماري ، والقردة في الأقفاص ، وبعض الرجال الضروريين للمناورة ، على متن السفينة «فراسكيتا» التي رفعت العلم الليبييري لتأمين سلامتها أكثر . ولم يغضب الإسبان قط لتخالصهم على هذه الصورة من هذا الاسير المزعج !

## ورغم ذلك امبراطوراً

إلا أن لا شيء يمكن أن يصرع لوبودي . لقد حُرم من امبراطوريته ، ولكنه رغم ذلك بقي أمبراطوراً . وتسلح بحقه ، وأقام في لندن وسط الفخامة والأبهة ، وتقىد بالشکوى الى المحكمة الدولية الدائمة للتحكيم التي كان ماضى على وجودها في لاهاي ، في هولندا اربع سنوات .

في هذه الأثناء ، وفي فرنسا ، كانت الدعاوى تترى ، مقدمة من مختلف الحكومات ، ومن الطاقم الذي ترك في لاس بالماس ، والبحارة الخمسة الاسرى ، وأسرهم .

ورفضت محكمة التحكيم الدائمة ادعاءات الامبراطور ، وردت الدعوى .

فأرغى لوبودي وأزبد ، وقال وقد أبلغ بالقرار :

- لا أهمية لذلك ، سأستولي مجدداً على امبراطوريتي ، يساعدني هذه المرة رجال جديرون بهذه التسمية .

وقرر لوبودي ، وقد أثبّط همه انعدام فهم مواطنه ، وانعدام الكفاءة الذي برهن عنه المسؤولون الفرنسيون ، الإقامة في بلجيكا . وفي ٣١ أيار ١٩٠٤ ، وصل الى بروكسل ، واستأجر مسكنأً أميرياً باسم المركيز دو راري ، وأسكن محظيته ماري في أفخم فنادق المدينة .

وبواسطة امرئ يدعى السيد محمد شامي ، الذي يزعم أنه ابن عم السلطان ، حاول البدء بمحاضرات مع المغرب . ولم يكن شامي هذا غير نصاب مبتذل ، وانتهى المشروع بدعوى قضائية تضاف الى الدعاوى السابقة .

في سن الثلاثين ، كان لوبودي ما يزال يحتفظ بحيويته الدافقة ، ولكن الكثير من خيبات الأمل المتّعاقبة زعزعته بصورة خطيرة . وقد اعاد اليه حماسته الاعلان عن انتظار الامبراطورة حدثاً سعيداً سيكون وارثه . فأحاط الأم العتيدة بالعناية الرقيقة ، ولم يعد يتحدث إلا عن الأمير الصغير الذي ابّناع من أجله سريراً بمبلغ ٨٠٠ الف فرنك !

وفي ٢١ أيار ١٩٠٥ ، انهار الحلم الجميل . فقد ابصرت النور طفلة سماها

جاكلين . وهناك خلف جاك لوبيودي الأم والابنة اللتين انسحبتا فاقدتي الحظوة الى لابالود ، بالقرب من مونتيليمار .

### نجددة الخلفاء

كان لوبيودي يُشاهد مرتدياً ردنغوت (سترة طويلة) أسود ، حاملاً بيده المظلة القطنية الدائمة ، حليق الرأس ، كثيب الملامح (كان الرسام الكاريكاتوري سِمْ يقول عنه : «كان له وجه النمس ، ومظهر حجاب القرى») هائماً على وجهه في بروكسل ، ولندن ، وجزر الكناري ، وعلى سواحل المحيط الاطلسي . وفي السنة ١٩٠٦ ، وباسم توفيق باشا ، وزير امبراطور الصحراء ، حضر مؤتمر الجزيرة ، واحتجَّ ضد غياب مليكه جاك الأول .

وكانت الضربات الأكثر قساوة تلك التي كالتها له الصحافة الاوروبية ، ولعلَّ السبب في ابحاره الى نيويورك السنة ١٩٠٨ ، كان جزئياً ، الهرب من وجه الصحفيين .

وأقام مع ماري وابنته ، والمرضة ، وبعض الخدم في فندق سافوي الشهير في الجادة الخامسة ، وانصرف الى الاهتمام بإعادة بناء مملكته في عالم المال ، متخلياً ، مؤقتاً ، عن امبراطورية الصحراء .

واستأجر مكتباً في حي برودواي ، في مبنى «برودويوس اكتشينج بلدنغ» ، وعين سكرتيراً ، وشرع في المضاربة بأسمهم المواد الاولية . فكان في كل صباح ، ولدى وصوله الى مكتبه ، يلقي نظرة على الصحف المالية ، ويقضي ما تبقى من النهار في قراءة المجالات الفكاهية المصورة ، معلقاً عليها بشغف . وأتمت بضع سنوات من هذا العمل والجهد ملايين الدولارات . . . وبين رسمين هزليين ، تكهن ، قبل الجميع بالحركة بين مورغان وهارمان ، وبتصاعد قيمة أسهم قناة السويس بسرعة ، وكذلك أسهم مناجم الفضة في بوليفيا ، واشتري على هذا الاساس .

ولكن ، هيئات ! مع نشوب الحرب السنة ١٩١٤ ، شعر لوبيودي من جديد بضرورة الاشتراك في العمل .

وفي كانون الثاني ١٩١٥ ، فوجئت ضيعة وستيري الهادئة ، في ولاية لونغ آيلاند ، ببرؤية نصف ذرينة من السيارات العمومية النيويوركية ، تتوقف أمام الوكالة العقارية الوحيدة في البلاد .

ومن السيارة الأولى ترجل امرؤ يعتمر قبعة التشريفات ويرتدي عباءة مبطنة بالفرو (فرويّة) ، ونظرته صاعقة . ودخل المكان ، وعرض بلا مواربة الغاية من زيارته : - إنني أرغب في شراء عزبة مساحتها حوالي خمسين هكتاراً (الهكتار هو ١٠ ألف متر مربع) ، ووسطه دارة لا يقل عدد حجراتها عن الائتي عشرة . وارد الانتقال إليها اليوم بالذات !

ولكي يسهل على الشخص المندهل الذي خاطبه أمر فهم كلامه ، أو ما إلى الثين من سائقي السيارات العامة قائلاً :

- أحملوا كنز الحرب !

عندما حمل الرجلان صندوقاً كبيراً ، ما أن فتح حتى تبيّن أنه محسوّ بالقطع الذهبية من فضة ٢٠ دولاراً . وقد ساعدت هذه الرؤية المذهلة الموظف على أن يكتشف على الفور ، وفي وستيري نفسها عزبة مساحتها ١٠٠ هكتار ، تضم بحيرة ، وملعبى تنس وغolf ، فضلاً عن مسكن فخم ، مع اهراءاته (مستودع الحصيد) واسطبلاته . واسم العزبة هو «فينكس لودج» ، ومجاور لنادي ممتاز اسمه «ميدو بروك كلوب» ، مصيف أصحاب المليارات الأميركيين .

وأصبح «فينكس لودج» المقر العام للامبراطور جاك الأول . ولم يكن بعد إلا في المرحلة التحضيرية - التعبئة ، التسلح ، ولكن الامبراطور كان قد استعاد كل نشاطه . . .

وراح لوبيودي يمارس نظام المصادرات المحلية : فلا تبصر كان يجمع في لقاءاته الريفية الماشية ، والخيول ، ولكن بأثمان باهظة بحيث أن لا أحد من مالكي الحيوانات أبدى أي تذمر أو شكوى .

خلال صيف السنة ١٩١٥ ، غطت «فينكس لودج» كل أعلام الأمم الخليفة التي اشتراك في الحرب ضد ألمانيا . غير أن الطبقة الارستقراطية في وستيري ، التي عادت

الى مقرها في الصيف ، وقعت في حيرة من جنسية علم تبرز فيه ثلاث نحلات وتاج ذهبي يتمايز مع الاحمر الارجوانى الملكي - وهو لا يظهر على اي مدونة (مجموع اصطلاحات في علم او فن) - ولا عجب ما دام الشعار الامبراطوري الصحراوي ا ذات صباح في تموز ، ترجل من سيارة اوتوبيس تابعة لشركة تلغراف وسترن يونيون ذريتان من الشبان العاملين في الشركة ، سُلّموا على الفور بندقية خشبية وبنزة عسكرية خضراء مزركشة أطراها بزركشة قبطانية وردية اللون (الزركشة القبطانية هي محبّك من خيوط حريرية ومعدنية) لكي يرتدوها فوق ثياب ادارة التلغراف . ولم يعد الاعضاء الضجرون في نادي «ميدو بروك كلوب» يشعرون بالسلام ، فقد راحوا مذاكيراقبون ما يجري عند جارهم .

وجمع لوبيودي ثانية جنوده وقادهم نحو ملعب الغولف الذي جعل ساحة مناورات ، بعد أن اعتمد خوذة من الخوذ الاستعمارية ، وارتدى بزته المغطاة بالاوسمة البراقة ، واعتلى صهوة جواد ابيض .

في كل مساء كان عمال شركة التلغراف الذين كانوا يتلقّون اجرتهم منه قطعاً ذهبية ، ينتقلون بسيارة وسترن يونيون التي كانت تعود بهم في صباح اليوم التالي . وكان عددهم يزداد يوماً بعد يوم .

وكان التدريب شاقاً بحيث ضمّ المُشا بعد اسبوع واحد الى الخيالة ، ولم تكن الاسطبلات تكفي ، فكانت البقر تقوم أحياناً محل الجياد .

وسرعان ما تجاوزت فرقـة الخيالة هذه عزبة لوبيودي ، بعد أن باتت جاهزة لتعزيـز القوات الخليفة . وقطعت الطريق المارة من أمام فينكس لودج ، الأمر الذي ادهـش ربات البيوت اللواتي كن يضطـررن الى العودة من حيث أتـين . واضطـر «الـشـريف» الى التـدخل ، وحـول لوبيودي الى الفـحـص النفـسي ، فـقرـرـ الـاطـباءـ النفـسيـونـ ،ـ بالـاجـمـاعـ ،ـ انـ عـقـلهـ سـليمـ جـداـ ،ـ وـذـكـاءـ مـفـرـطـ ،ـ وـذـهـنـهـ مـنـ أـصـفـيـ الأـذـهـانـ ،ـ وـرـفـضـواـ الحـجـرـ عليهـ .

### نهاية ملحمة

و عملت رفيقته ماري ، التي لم تعد تحتمل تصرفاته ، على ادخاله مصحة لودن ، في أبيبيل ، فهرب منها ، مغضباً ، و قفل راجعاً الى فينكス لودج ، مقتناً تماماً هذه المرة بأنه بات مسيطرها .

ولكي يستقم من صديقه المسكينة ، جسدها مع ابنتها ، وهدد الخدم بأنه سيطلق عليهم النار عند الفجر اذا هم سهلوا سبيل الهرب لهم .

وتدخل «الشريف» من جديد ، ولكن الأطباء رفضوا بصورة نهائية احتجاز الامبراطور . . .

ولما دخلت الولايات المتحدة الحرب ، بدأ لوبيودي بالمرحلة البحرية من عمله . فكان يستقل بمفرده مرکباً كبيراً يسيره بالشراع ، ويروح يجوب به خليج اوسترا ، بحثاً عن الغواصات المعادية . واتصل السكان الذين راقبوا منذ البداية الأعمال والحركات التي كان يقوم بها هذا المسوس الذي حسبوه جاسوساً ألمانياً ، تلفونياً بالسلطات التي نصحت هذه المرة للوبيودي بالتزام الهدوء ، ففعل على مضض .

بعد ستين اثنين ، ويوم السبت في ١١ كانون الثاني ١٩١٩ ، وعند الساعة السابعة مساء وصل لوبيودي الى فينكス لودج آثياً من نيويورك .

كان كل شيء هادئاً في المسكن ، فماري مصابة بالزكام ورقدة في السرير فاتجه مباشرة الى الموقد في قاعة الاستقبال الكبرى ، ونشر ارضية المكان بالفحm المتأرجح ، وعاد الى الردهة فشاهد ماري واقفة في أعلى السلالم ، فلقد استيقظت لدى سمعها الضجة .

ومثل الرجل الآلي ، ارتقى بضع درجات ببطء ، وقال لها ناظراً اليها بحدة :  
- أنت لم تعودي صبية بالنسبة الى امبراطور . . . وفري لي خليلات !  
فاتجه نحو غرفة ابنته .

وكان «الشريف» قد اعطى ماري مسدساً صغيراً بعد أن اقلقته تصرفات لوبيودي ، لكي يتسمى لها الدفاع عن نفسها في حالة الخطر . وكانت تلك المرة الاولى تطلق فيها النار - خمس رصاصات اصابت الشخص الامبراطوري : واحدة في وجهه واثنتان في

صدره ، واثنتان اخريات اصاباته في ظهره وهو يستدير ويسقط من فوق درجات السلم ، وقد توفي قبل أن يتوقف جسده عن الهبوط .

وفجأة ظهرت الطاهية أليس روجيه ، والبستانى جول لاموب ، وجاكلين الصغيرة . وقد غدت الآن فتاة في الرابعة عشرة . وهرعت الطاهية نحو ماري التي انهارت ، بينما راح البستانى يطفئ السجادة المشتعلة في قاعة الاستقبال . وتقدمت جاكلين من التلفون وقالت بكل هدوء لعاملة المسترال : «أمي اطلقت النار على أبي !»

وواجهت ماري تهمة القتل بوجه الاحتمال . ولكن اعضاء هيئة المحلفين ، بعد سماعهم الواقع قرروا ان القتل مبرر ، ورفضوا إدانتها .

ولدى إطلاق سراحها ، صرحت ماري للصحفيين بلهج يقولها : «أشعر أن جاك قد ساعدني كثيراً من خلال هذه المخنة . أعتقد أنه تحرر روحياً ، وكان مسروراً جداً لمساعدتي . إن روح جاك الحقيقية قد أحببتها دوماً ، كما أحبها اليوم .»

وحدها ماري تستطيع أن تحدد أي عون روحي نقله إليها لويودي الميت . ولكن لم يكن من شك في عونه عندما يدور الحديث على الخطاب الدنبوبي . فلقد توفي دون أن يترك وصية : اعتبرت ماري بحسب حكم المحاكم الأميركيّة كزوجته المشروعة قانوناً ، وأصابها كل فلس من قيمة ممتلكاته الأميركيّة البالغة قيمتها ١٣ مليوناً و ٣٦٨ ألفاً و ٩٨٥ دولاراً . وفي فرنسا حيث لم يُعترف فقط ، بالزواج ، ذهبت ممتلكاته المقدرة بـ ٥ ملايين دولار إلى شقيقته الكوتنيس دو فلس ، على الرغم من الدعوى التي أقامتها ماري لكسر حكم المحكمة . وفي إنكلترا ، حيث بلغت قيمة ممتلكات لويودي ٨ ملايين دولار اقتسمت السيدتان هذا الارث .

وعادت ماري وابتها إلى فرنسا لتقيما ب بصورة نهائية ، في معزل عن الخوف من الضائقات المالية بفضل الحساب المصرفي الامبراطوري ، إن لم يكن امبراطورية جاك الأول .

وهذا الاختبار مع شخصيته الملوكية لم تقسّ قلبيهما من الناحية العاطفية . فتزوجت ماري هنري شارل سودرو ، التحري الفرنسي الخاص ، واقترنت جاكلين ، ابنته ، بعدها ببضعة أشهر بروجيه ، ابن هذا التحري .

ولا يذكر التاريخ ما اذا كان العرسان جمِيعاً قد امضوا شهري العسل فوق رمال الصحراء ، او في خيمة من خيام السيرك ترفع علماً يحمل ثلاث نحلات ذهبية وتابجاً ذهبياً فوق أرضية من اللون الارجوانى الملكي !

لقد خرج العالم وهو يئن من حرب عالمية دامت اربع سنوات ( ١٩١٤ - ١٩١٨ ) ، فمرة موت الرجل الذي عاش سوريالياً قبل ظهور السوريالية دون أن يشير اي اهتمام تقريباً .

وبعد ، ربما لم يكن الامبراطور جاك الاول مجنوناً بقدر ما كان يلوح عليه ! ..

## نابوليون على حقيقته حقير ، لجوح ، كان يكره فرنسا ، ويود أن يكون إمبراطور الشرق !

نحن نعرف إمبراطور الاسطورة ، المطابق للصورة التي أحب أن يختلفها هو شخصياً . ولكن الشخص الذي أمسك بيديه طوال خمس عشرة سنة بمقدرات فرنسا ، أي رجل كان ، في الحقيقة؟ مما لا جدال فيه أن بونابرت كان رجلاً فذاً ، ولكنه كان أبعد من أن يشبه الاسطورة التي صنعت منه نصف إله . . .

في كتابه «نابوليون كما هو أو الملهمة المضادة» يلقي البروفسور هنري غيلمان ضوءاً كاسحاً على الوجه الخفي لنابوليون ، ذاك الذي فضل مجموع المؤرخين تقريباً ، الذين يحترمون المحرمات ، ان يبقوه في الظل .

وفي ما يلي ننشر بعض المقتطفات مما له علاقة بإقامته في الشرق .

في سن السادسة عشرة ، عُيِّن بونابرت ملازمًا ثانياً في الفوج المسمي «فوج لا فير» ، الذي كان قسم منه يعسّر في فالانس . ولم يرُقَ إلى رتبة ملازم إلا بعد سبع سنوات ، اي في السنة ١٧٩١ . سبع سنوات لم يقض خلالها في الخدمة الفعلية العسكرية سوى ٣٢ شهراً ، ومع ذلك كافأته الدولة . وفي الوقت المتبقى كان يتمتع بالعطلة ، أو يتوارى . وتجدر الاشارة إلى أن العادة جرت ، في تلك الحقبة ، أن يضاعف هؤلاء الضباط الشبان من فترات غيابهم .

في ٢٠ نيسان ١٧٩٢ ، أعلنت النمسا الحرب على فرنسا ، وفي ٦ تموز ، زحف البروسيون إلى باريس . فكان الإعلان الشهير عن «الوطن في خطر». فذهب «بونابرته» إلى باريس ، لا لينقذ الوطن ، بل ليتنزع رتبة كابيتن . وما إن رقى إلى هذه الرتبة حتى حصل على الإذن بالتغيب ، وعلى سلفة على مرتبه ، وعاد إلى

كورسيكا .

ذلك بأن كورسيكا وحدها هي التي كانت تهمه . إنه يدرس منذ سنوات . «الوطن في خطر» هو آخر ما يفكر فيه ويشغل باله به ، لسبب وجيه ، وهو أن فرنسا ، بالنسبة إلى هذا الضابط الفرنسي - فرنسا التي تعيله وتنحه مرتبًا - ليست «وطنه» تماماً ، وهو يكرهها ويحتقرها . وقد كتب في تلك الحقبة يقول : «متوحشون وجبناء ، الفرنسيون يجمعون إلى عيوب الجرمانين ، عيوب الغاليين (أو الغوليين ، أي الفرنسيين القدماء سكان بلاد الغال التي هي فرنسا اليوم) . إنهم يشكلون الشعب الأكثر بشاعة الذي وُجد حتى اليوم .»

وكان سابقاً ، كتب إلى غوبيكو ، كاتب محكمة ولايات كورسيكا : «هل سنستمر في تقبيل اليد الوقحة التي تضطهدنا؟ هل سنستمر في رؤية كل الأعمال التي قدرتها لنا الطبيعة محظلة من الأغراب؟»

### الهرب إلى مصر

أخفق الكابيتون بونابرت إخفاقاً ذريعاً في مشاريعه الرامية إلى طرد واضعي اليد الغرباء المкроهين على موطنهم الأم كورسيكا ، التي سيحتفظ دوماً لها بالضغينة لأنها خبيت آماله . وعاد إلى العاصمة . ويسترسل البروفسور غيلمان طويلاً في صعوده الصامت . وهناك مقطع في ملفه يصوّره «المؤامرة والخداع مجسدين» . «كانوا يصطدمون به في كل حجرات الانتظار - على حدّ ما يقول بواسي دانغلا - وكان يقع كل الأبواب ؛ لطيفاً ، ليناً ، متواضعاً ، ملحاحاً ، مجاملاً بإفراط ، وعلى شفتيه ابتسامة نحيبة .» وتزوج جوزفين المنفذة كثيراً لدى التجاريين (التجارية هي نزعة للمتاجرة من غير اهتمام بأي اعتبار آخر) ، وجعل اسمه فرنسيماً ، وتتكلل بالمجد في إيطاليا ، ثم في النمسا .

وزعم بونابرت في ما بعد أن المديرين (أعضاء حكومة الديركتوار) ، «ابعدوه» في السنة ١٧٩٨ إلى مصر لأنه كان يزعجهم ، لإنقاذ فرنسا . وقد اخترع هذه الحكايةعشية الانقلاب الذي قام به ، برسم الأغيبياء . والحقيقة هي أنه كان يعلق آمالاً

شخصية وكبيرة على هذه الحملة العسكرية . ففرنسا لم تقدم آنذاك شيئاً بالنسبة الى أطماعه ، وهو على عجلة من أمره . ويفضل الجنود الذين سيوضعون تحت إمرته ، يمكنه تنفيذ خطته ، وهي التوغل في الشرق بغية أن يقطع لنفسه مرزّة (إقليم يحکمه مرزبان) عظيمة إما في بلاد فارس أو على ضفاف نهر الأندوس ، في الهند .

وفوق ذلك ، وعلى أي حال ، حتى لو لم يبتسם له الحظ هناك ، فمصر قطعة شهيرة شهية ، تارةً ومغذية ، حسب المني . على الأقل ، هذا ما كان يتصوره «الجنرال» في ٢٠ شباط ١٨١٩ . وفي ، منفاه في جزيرة القديسة هيلانة ، لم يكتُم برتران أنه إنما يعيش على ذلك ، على الاوهام : «ما كنت لأقوم بالحملة المصرية لو لم اكن مخدوعاً بالنسبة الى ثروة تلك البلاد . كنت أحسب أنني سأجد هناك ٣٠٠ مليون ، والجميع كانوا يعتقدون ذلك مثلي .»

### أكياس ملائى بالرؤوس المقطوعة

اذا كان الانكليز سمحوا بمرور الاسطول الفرنسي عائدًا من مصر بقوات الحملة العسكرية الفرنسية ، فلكي يوقعوا هؤلاء الجنود في الفخ . ففي اول آب ١٧٩٨ ، وأمام مرسى أبو قير ، قضى القائد البحري الانكليزي نلسون على أرمادا بونابرت المصغرة . ولم يزعج ذلك القائد الفرنسي فقط ، ذلك بأنه لم يكن ينوي العودة الى فرنسا . لقد طويت صفحة إقامته لدى الغولين . ان مطامعه الآن هدفها كنوز بلاد فارس والهند .

لقد غالب المصريين بالوسائل المستعملة : قصف جامع الأزهر ، في القاهرة ، والتصفيات المقمعة (احياناً بسبب سوء التحدث الى الفرنسيين) ، والقمع الصاعق لحركة قام بها الفلاحون . وقد أمر بونابرت بنقل أكياس من اللدна ملائى بالرؤوس المقطوعة ، أفرغت في القاهرة ، في الساحة العامة الكبرى ، لتكون عبرة للمشاهدين ، ولكي توحى اليهم بأن يُيدوا الانقياد والحب تجاه المحتل . وكان المالك المستثمرين المحليين ، ففضحهم الجنرال أمام السكان ، ووصفهم بعصابي الدماء ، ولكنه استبدلهم بجياته الشخصيين .

## على طريق الهند

في ١٠ شباط ١٧٩٩ ، كانت رحلة المغامرة الكبرى . الهدف الاول : بلاد ما بين النهرين . وجرت حادثة الطريق ، بالقرب من يافا (كانت هذه المدينة قد احتلت في ٧ آذار) - حادثة الألفي أسير الذين رأى بونابرت ، عوضاً عن تقديم الطعام اليهم - ولم يكن وارداً أمر إطلاقهم - أنه من المستحسن القضاء عليهم بالسلاح الآيسن بين كثبان الرمال ، توفيراً للذخائر .

ولدى العودة ، جرت ، كذلك ، في يافا الحادثة الأخرى : حادثة إفقاء جنوده المصاين بالطاعون .

إن انصار نابوليون بونابرت والشيعين له طالما أثاروا أسطورة «الجنرال الطيب القلب» ، الذي كان يلمس دواماً خوف ، الدمامل التي كانت تظهر على أجساد جنوده المصاين بالطاعون والمشرين على الموت . ولكم تعالت الصيحات احتجاجاً على عار الشائعة المفترية ، ولكن لا ، فبونابرت «لم يلمس الدمامل» ، بل قضى على مرضاه ! ومنذ نشر مذكرات برتران ، باتت هذه القضية أمراً مفروغاً منه .

ففي ٥ تموز ١٨١٧ ، وفي منفاه في الجزيرة ، قال نابوليون الحقيقة لبرتران ، بلى ، لقد صفاهم - صفتى هؤلاء الرجال ، لكي لا يقعوا - على حد قوله - بين ايدي الاتراك العثمانيين الذين كانوا سيعذبونهم . . . لقد قتلتهم بداعف إنساني !

وللمناسبة نشير الى حادثة السعال الذي كان بمثابة الأمر بإعدام ١٢٠٠ رجل ! فقد كان نابوليون بونابرت موجود في الشرق في السنة ١٧٩٩ ، على وشك أن يُطلق سراح ١٢٠٠ جندي تركي أسرهم في يافا ، في فلسطين . فانتابته نوبة سعال ، فهتف : «يا لسعالي اللعين !» (بالفرنسية تلفظ ما ساكريه تو) وتُكتب على هذه الصورة Ma sacrée toux وتحسب مساعدته في القيادة انه يعني «قتلوا الجميع» ، وتُكتب Massacrez tout ، وتُلفظ أيضاً «ما ساكريه تو». هكذا قضى على الأسرى الألف والمائتين ! . . .

## نشرة كاذبة عن انتصار

ينبغي القول إنه في تلك الحقبة كان مصير الجنود الفرنسيين المصابين بداء الطاعون يزعج نابوليون أقلّ ما روعته خيبة أمله في عكا . ذلك بأنه لم يكن ثمة طريقة لاحتلالها . فمن ١٩ آذار إلى ٢٨ أيار ١٧٩٩ ، عبّا حاول نابوليون بونابرت الهجوم على المدينة . وتكررت الهجمات ، وكبرت الخسائر ، وهلك الجنود بالمائات . ولكن بلا جدوى . لم يكن ثمة شيء يمكن فعله . فالقفيل لم يتحطم . ويدت طريق المملكة الهندية مسدودة ! لقد صمدت عكا بقيادة سدني سميث الذي قال عنه نابوليون : «هذا الرجل جعلني أخطئ قدرى !»

واضطر نابوليون ، الذي كان يرى نفسه خليفة أو مهراجا ، والتمرغ أبداً في المباح والدمار ، إلى الانكفاء والتراجع ، عل مضمض .

ولم يغفر للإنكليز تحطيمهم قدره . وقد قال ذلك بصراحة ، في السنة ١٨١٥ ، للقبطان الإنكليزي ميتلاند ، قائد السفينة «بيليروفون» : «الولاكم ، ايها الإنكليز ، لكنتم أصبحتم امبراطور الشرق !» وقد كرر القول نفسه لبورغو ، في ١٥ تشرين الأول من السنة نفسها : «لقد أسرت اللعب ، حتى بعد حصار عكا ، كان ينبغي لي أن أبقى في مصر ، ولكنكم الآن امبراطوراً على كل الشرق .»

و قبل العودة إلى القاهرة ، أوفد نابوليون ، سلفاً ، رسلاً ليقنع الهزيمة بثوب النصر ، ويعلن عن عودة السيد مكللاً بالمجد ، وتحضير الاحتفالات له . ووجهت برسم فرنسي نشرة كاذبة تعلن أن السلطان العثماني حاول إبراز براثنه ، ولكن الجنرال الذي لا يُقهَر اندفع شمالاً حتى عكا ، ودمر هذه القلعة الحصينة .

## مستحق المجلس العربي وأعواد المشنة

ينبغي الاهتمام بفرنسا مجدداً ، ما دام يتوجب عليه الانكفاء إلى هذه الجهة ، وهي السبيل الوحيد الباقي . وكانت الأنباء التي بلغت فرنسا سيئة . فلقد توصل أخوه جوزف بونابرت إلى إعلامه بأن سلوك جوزفين مثير ومقلق ؛ فهي لا تكتفي ، وحسب ، بخيانته ، وبصورة علنية ، بل إنما ابتعاثت بالدين - يا للسارقة ! - قسراً

رائعاً ، هو قصر مال Mizon ، حيث تقيم مع عشيقها على نفقة زوجها ، بونابرت ، الذي أسرَ إلى شقيقه ، بقلق : «ليس لدىَ بعد ما يتيح لي الحياة !» كلمة أخرى من كلماته العذبة التي يهملها التاريخ اللبق ، ولكنها ، بالنسبة إلى التاريخ الصحيح ، ذات ثمن . العودة إلى باريس ، حتماً ، وأسرع ما يمكن . وقد اعترف نابوليون بونابرت لبرتران ، في ١٣ آب ١٨١٦ بقوله في هذا الصدد : «كانت هذه العودة ، بالنسبة إلى ذات أهمية كبيرة .» بالطبع ، ولكنه قائد حملة عسكرية في مصر . فإذا ما أبقى الجنود الذين اثتمته عليهم فرنسا ، وإذا عاد بمبادرة شخصية منه ، فإنه يكون قد تخلَّ عن قيادته ، ويستحق على ذلك المشول أمام المجلس العسكري وأعواد المشنقة . ولكن ، هل هذا معقول؟ ومجلده؟ من يجرؤ على مدِّيه إليه؟ على أي حال ، إن لديه السيناريyo جاهزاً : يعود ، كما لو كان استدعى ، وطلب إليه الواجب ذلك . لقد علم ، وهو بعيد ، بالمخاطر المحدقة بالوطن «وبالنكبات التي منيت بها القوات الفرنسية» (بالطبع ، فهو لم يكن هناك !) إذًا ، فقد سارع ، وظهر مجدداً الإنقاذ كل شيء . إنه يعرف كيف يحارب ، وسيستعيد إيطاليا التي عادت فاكتسبت ، في الظروف السيئة الحالية ، قيمة في نظره . وما دامت الفوضى في باريس ، فإنه بطفرات شهور فروكتيدور ، وفلوريال ، وبريريا ، سيجعل الجميع موافقين ، وسيجسّد النظام . ولنوضح ما هي هذه الشهور ، وما حدث فيها استكمالاً للمعرفة - وهي التسميات التي طلت بها الروزنامة الثورية . . .

فروكتيدور هو الشهر الثاني عشر من الروزنامة الجمهورية التي تحضرت عنها الثورة الفرنسية ، وهو يبدأ في ١٨ أو ١٩ آب . وفلوريال هو الشهر الثامن ويبدأ من ٢٠ - ٢١ نيسان إلى ١٩ أيار . وبريريا هو الشهر التاسع في هذه الروزنامة ويبدأ من ٢١ أيار وينتهي في ١٨ حزيران . . .

والآن ماذا حدث في هذه الشهور ، وما هي الطفرات المذكورة؟ في ١٨ فروكتيدور ، من السنة الخامسة (٤ أيلول ١٧٩٧) قامت حكومة الديركتوار بانقلاب ضد الملكيين ، استهدف مجلس الشيوخ ومجلس الخمسين ، عقب انتخابات السنة الخامسة التي جاءَت نتائجها في مصلحة المعادين للثورة .

أما مجلس الشيوخ فهو أحد المجلسين اللذين أوجدهما دستور السنة الثالثة في الروزنامة الثورية (١٧٩٥) ، وكان عدد اعضائه ٢٥٠ ، مهمتهم ابداء الرأي في القوانين التي يسنها مجلس الخمسمائة . وقد ألغى من ١٨ - ١٩ برومير من السنة الثامنة (١٧٩٩) مع حكومة الديركتوار (٩ تشرين الثاني) ، كما سترى في ما بعد .

أما مجلس الخمسمائة ، فهو الجمعية السياسية التي اوجدها الدستور الصادر في السنة الثالثة (١٧٩٥) ، وكان يؤلف مع مجلس الشيوخ الجسم التشريعي في ظل حكم الديركتوار . وكان يتتألف من ٥٠٠ نائب منتخبين بالاقتراع العام على درجتين ، وقد حلّ كذلك نتيجة انقلاب ١٨ - ١٩ برومير (١٧٩٩) .

أما اليوم الأول من شهر بريبرياي في السنة الثالثة ، ففيه المحاولة التي قام بها اللامتسرولون الباريسيون بعد أن عضّتهم أزمة اقتصادية واجتماعية خانقة ، بهدف الاستيلاء على السلطة ، وقد قُتل خلالها النائب فيرو (٢٠ أيار ١٧٩٥) .

وحضر نابوليون بونابرت ، بالسرية التامة ، فراره وخيانته . وقد هرب ، وكلف الجنرال كليبير أن يتدبّر الأمر مع ماليكه ، وعلمائه الدينيين ، وال فلاحين . (وقد توفي كليبير في مصر) .

وفي ٩ تشرين الأول ١٧٩٩ ، نزل بونابرت إلى اليابسة في سان-رافاييل ، وما هو إلا شهر ، يوماً فيوماً ، حتى حدث انقلاب ١٨ برومير الشهير . وبرومير هو الشهر الثاني في روزنامة الثورة الفرنسية ، وفي ١٨ منه تلقى بونابرت ، وقد عاد من مصر ، استقالة حكومة المديرين وانتقال المجلسين إلى سان-كلو في ٩ تشرين الثاني ١٧٩٩ ، الموافق السنة الثامنة في التقويم الجمهوري . وفي اليوم التالي ، طرد الأعضاء بالقوة ، وهكذا انتهى عهد حكومة الديركتوار باعصابها الخمسة ، وبدأ عهد الفنصلية بأعصابها الثلاثة - وكان بونابرت رئيسها ، القنصل الأول !

## نفي امبراطوري

من ملاد مضطرب في سويسرا ، حلمت الملكة أورتانس ، ابنة الامبراطورة  
جوزفين ، بيقظة جديدة للمجد النابوليوني

في حديقة الملكة أورتانس ، في ذلك الصيف من السنة ١٨٣٧ ، كانت الأزهار تتفتح براعمها بلطف . وفي ما وراء المصطبات كانت أشجار الصنوبر تتدلى حتى ضفة البحيرة ، التي تتلاألأ في مياهها الجبال المكللة رؤوسها بالثلج . وكانت أورتانس تستلقى على أريكتها ، وسط عبير الورود الذي يكتنفها ، وهي تحلم بالماضي وبابنها لويس في أميركا . ومع أن الأمر بدا مستحيلاً ، فقد عرفت أنها ستراه مجدداً قبل أن تودع هذه الدنيا .

وقلما كانت تفكّر في زوجها لويس بونابرت ، ملك هولندا سابقاً . فقد كان رجلاً كثيّاً ونكد المزاج ، يحيا حياته المنعزلة الخاصة وسط الأسرة المنفية في روما ، وكان ذلك يرضي أورتانس . فلقد كان زواجهما تعيساً .

كان لويس - نابوليون الابن الوحيد الباقى في قيد الحياة ، وهو رجل في الثلاثين من عمره . صحيح أنه كان هناك ابن غير شرعى رزقه من الكونت دوفلاهو ، ولكن هذا الابن لم تره قط ، وقد أشربت لويس ، على الأقلّ ، التمجيل العاطفى الشخصى الذى كانت تكنّه لعمه نابوليون الكبير ، الذى كانت روحه ما تزال سائدة في فرنسا .

عبر سنوات المجد ، عندما كانت عين أوروبا تتركز بنظره منومة مغناطيسياً على الرجل القصير القامة في الرداء الأخضر والسيرك المتألق من الامبراطورية التى أنشأها ، مثلت أورتانس ، ابنة الامبراطورة جوزفين ، من زوجها الأول ، دورها المعتمد .

لم تكن شخصيتها مفعمة بالحيوية على نقىض شخصية أمها . كان شعرها

كستنائيًا فاتحًا ، وعيناها زرقاء . فتاة مثقفة ترقص ، وتعزف على البيانو الأغاني الجميلة ، وترسم بمهارة بالألوان المائية . ولو أتيح لها الاقتران بالرجل الذي أحبت الجنرال دوروك ، لكان اختفت بكتمان في خلفية الصورة ، بعيدًا عن الأضواء بدلاً من أن تصبح ملكة هولندا .

كانت السنوات الأربع من حكم لويس بونابرت ، وهو وضع فرض عليه من جانب أخيه الذي كاد يحكم العالم ، ثقيلة الوطأة على زوجته الشابة . وعندما تنزل أخيراً عن العرش ، عقب نزاعات عاصفة مع نابوليون وانسحب إلى النمسا ، تنفست أورتانس الصعداء ، وعرفت راحة لا توصف .

لم يكن قصر لاهي الملكي يحمل لها سوى الذكريات الحزينة ، إذ في هذا القصر توفي طفلهما البكر - وكان في الخامسة من عمره . ولم تلتف من حزنها ولادة ابن آخر . وكان الانفصال بينها وبين زوجها حاسماً ، ولم يُصنِّعَ إلى طلبات لويس بونابرت من أجل إعادة ابنيه الباقيين .

وفي السنة ١٨٠٩ كتبت « السيدة الأم » ، والدة الامبراطور العجوز الهائلة ، إلى ابن آخر ، لوسيان ، بنوع من المرح . كانت تكره جوزفين ، ولا تميل إلى أورتانس التي حملتها كل محن لويس . كتبت تقول :

« الامبراطور على وشك أن يطلق الامبراطورة . تم الاتفاق على هذا الأمر ، وسيُعلن عما قريب . . لويس كذلك ينفصل عن زوجته ، ولكن من دون طلاق . . . »

حزن كل الذين أحبوا جوزفين ، ولكن مهما تكون مشاعرها الشخصية ، فإن الملكة أورتانس كانت مضطرة لأن تصاحب الامبراطورة الجديدة ،Mari - Louisز ابنة امبراطور النمسا ، وترى ابنيها الاثنين يُدفعان خطوةً بعد أخرى إلى الوراء لدى مولد وارث نابوليون - ملك روما .

في ما عدا ذلك ، كرست أورتانس نفسها للأسرة ، ومن أبهة حياة القصر لم يسرّها العودة إلى حجرة نوم طفلتها حيث كانت المجموعة الصغيرة تتمحور حول جوزفين . إلى هنا كان الامبراطور ، الذي ما يزال على علاقة ودّ مع زوجته التي تخلي

عنها ، يأتي ومارس العاباً مرحة وصاخبة مع الصبيان الصغارين ، ويرجّحهما من رأسيهما لكي يصنع منها رجلين . ولم يلم أحد حقاً أورتانس التي هجرها زوجها ، عندما أقامت لها علاقة عاطفية مع الشاب الوسيم دو فلاهو . ولكن مهما تكن التسليمة ، فإن الامبراطور لم يعد يسمح بأي طلاق جديد في أسرته ، وتم تجاهل الوضع بكل لباقه .

في السنة ١٨١٤ ، حدث الإخفاق الهائل الذي لم يكن يبدو ممكناً . فقد حطم الحلفاء في أوروبا «الجيش العظيم» في معركة لايبزيغ ، واندفعوا غرباً ، ودخلوا باريس . وانهارت الامبراطورية ، وسُجن سلطانها في جزيرة إلبا .

كانت الملكة أورتانس وحدها في باريس ، ومستقبلها كان حقاً محفوفاً بالمخاطر . ومع أنها بونابرتية بالاسم ، وحسب ، فهي ما تزال «بونابرتية» بالتفكير والعاطفة . وكانت الامبراطورة ماري - لويس قد هربت ولجأت إلى حماية ذراعي أبيها الامبراطور النمساوي ، في مكان آخر .

وكان العدو شهماً تجاه جوزفين وابنتها . فقد زارهما في ماليزون قيسرو روسيا وكان وسيم الطلعة ، والملك لويس الثامن عشر البوريوني الذي أعيد إلى العرش ، وهو جتلمن عزيز ، وإن لم يكن فعلاً ، ولم يكن يحمل أي ضغينة نحوها .

من يسعه لوم أورتانس - ولكن الكثرين فعلوا . فقد وقفت وحيدة . وقد تحطم من حولها كل شيء ، الامر الذي جعلها قبل بحسن تفهم ، متجاوزة كل انفعال ، مرتبأ سنوياً ولقب دوقة سان - لو .

ولم يعد الأميران يحملان لقبهما الامبراطوريين ، ولكن بالنسبة إلى الامبراطوريين ، كانت أورتانس ما تزال ملكة هولندا ، وكانت تُعامل بكل مجالٍ التكريم التي تفرضها الملكية . كانت تُعامل بازدراء من جانب جماعة آل بوربون ، ويتوجهون إليها أولئك الذين كانوا يرون في حركة أو كلمة غاية سياسية . وعلى الرغم من محاولتها إبقاء صالونها مجرد صالون للفنون ، فإن العناصر الخطيرة تسللت إليها ، فعاشت في خوف من القيام بأي حركة خطأ . وغدت وحيدة عقب وفاة أمها جوزفين ، محطمة القلب ، وعلى شفتيها اسم نابوليون .

كتبت اورتانس الى أخيها أوجين دو بوهارنه تقول : «إن عزلتي ترعنبي .» كانا مخلصين احدهما للآخر ، ووثيقى الصلة ، ولكنـه كان هو ايضاً منعزلاً مثلـها ، في بافاريا ، ولا يسعه أن يـعـدـ إليها الآن يـدـ المسـاعـدةـ .

\* \* \*

وهكـذا انتهـتـ السـنةـ ، وـاقـبـلـ الـرـبـيعـ منـ جـديـدـ . وـكانـ ١٥ـ آذـارـ ١٨١٥ـ . كـانـ الـلـوـفـيـةـ الـمـلـصـصـةـ تـهـمـسـ : «عـنـدـمـاـ يـزـهـرـ الـبـنـسـجـ ، سـيـعـودـ منـ جـديـدـ !» وهـكـذاـ كانـ . كانتـ الـمـلـكـةـ أورـتـانـسـ فـيـ عـرـبـتهاـ فـيـ طـرـيقـهاـ إـلـىـ غـابـةـ بـولـونـياـ ، عـنـدـمـاـ حـيـاـهاـ رـجـلـ انـكـلـيزـيـ مـضـطـرـبـ ، وـيـادـرـهـ بـقـوـلـهـ :

- أـسـمـعـتـ بـالـنـبـأـ؟ لـقـدـ نـزـلـ الـإـمـپـاطـورـ إـلـىـ الـيـابـسـةـ آـتـيـاـ مـنـ جـزـيرـةـ إـلـباـ !  
قبلـ اـنـصـرـامـ النـهـارـ كـانـ بـارـيسـ فـيـ اـهـتـيـاجـ وـقـلـقـ - خـوفـ مـنـ جـهـةـ ، وـابـتـهـاجـ مـنـ الجـهـةـ الـأـخـرـيـ .

وـعـلـىـ الرـغـمـ مـنـ أـنـ جـنـرـالـاتـ آلـ بـورـبـونـ رـحـلـواـ - وـأـنـ المـارـيشـالـ نـايـ اـقـسـمـ عـلـىـ انـ يـحـمـلـ الـإـمـپـاطـورـ إـلـىـ بـارـيسـ فـيـ قـفـصـ - فـلـاـ شـيـءـ كـانـ يـمـكـنـ انـ يـصـدـ التـيـارـ الـهـادرـ الـزاـحـفـ مـنـ الـجـنـوبـ ، بـعـدـ أـنـ رـاحـتـ الـمـدـيـنـةـ بـعـدـ الـأـخـرـىـ تـنـضـمـ إـلـىـ النـسـورـ الـإـمـپـاطـورـيـةـ . وـهـرـبـ الـمـلـكـ لوـيسـ الثـامـنـ عـشـرـ وـحـكـومـتـهـ ، وـفـيـ الـيـوـمـ الـعـشـرـينـ مـنـ شـهـرـ آـذـارـ ، اـنـظـرـتـ الـمـلـكـةـ أورـتـانـسـ بـلـابـسـ الـحـدـادـ السـوـدـاءـ ، فـيـ قـصـرـ التـوـيلـيـريـ دـخـولـ الـإـمـپـاطـورـ الـمـظـفـرـ .

كـانـ مـنـ الصـعـبـ عـلـيـهـ الـأـجـابـةـ عـنـ اـسـئـلـةـ الـحـادـةـ عـنـدـمـاـ وـجـدـاـ نـفـسـيـهـماـ وـحـيدـينـ .  
قالـ لـهـاـ بـنـبـرـةـ مـهـاجـمـةـ :

- هلـ أـسـأـتـ فـهـمـ وـضـعـكـ لـكـيـ تـتـمـكـنـيـ مـنـ التـخـلـيـ عـنـ اـسـمـكـ ، وـعـنـ الـمـقـامـ الـذـيـ  
تـمـتـعـتـ بـهـ بـفـضـلـيـ ، وـتـقـبـلـيـ بـلـقـبـ مـنـحـكـ إـلـيـاهـ آلـ بـورـبـونـ؟ هلـ كـانـ ذـلـكـ وـاجـبـ؟  
وـاضـطـرـبـتـ أورـتـانـسـ ، وـأـجـابـتـ :

- كـانـ وـاجـبـيـ ، مـوـلـايـ ، أـنـ أـفـكـرـ فـيـ مـسـتـقـلـ ولـدـيـ ، مـاـ دـامـتـ جـلـالـتـكـ تـنـازـلتـ

عن العرش ، وتركني غير قادرة على عمل أي شيء آخر .  
وكان احتقاره حازماً :

- ولداك ! ألم يكونا ابني أخي قبل أن يكونا ابنيك ؟ هل تصورت أن لك الحق  
بأن تسمحي بأن تنزل رتبهما التي تخصلهما ؟  
ومع أن أورتанс تذرّعت بأنها «استشارت قلبها وحده» فإن ذلك لم يثر مشاعر  
الامبراطور .

ورديرودة :

- إذا ، كان على قلبك أن يعلمك أن المرء عندما يشاطر أسرة ما ازدهارها ، ينبغي  
له أن يعلم كيف يشاطرها محنها !

قال ذلك ، وخرج إلى الشرفة ليحيي الجماهير المصطحبة في الخارج . «ال أيام  
المائة ! » - النصر لن يدوم أطول من ذلك . وبينما اتخدت أورتанс محل الامبراطورة  
في قصر التويلري ، كان نابوليون يخطط صموده التالي ضد الحلفاء . وفي حزيران  
١٨١٥ ، واجه قدره النهائي في ساحة القتال في وترلو . وعند وداع أسرته وأصدقائه ،  
جذب إليه الأمير لويس الصغير ، وقال لأمه أورتанс :

- قبلية ، يا أورتанс ، سيكون صاحب قلب طيب ، وروح ممتازة . قد يكون أمل  
سلامتي !

ولم تستطع الأم ، ولا ابن ، نسيان هذه الكلمات مطلقاً .  
انتهى كل شيء في غضون أسبوعين . ففي هزيمته ، وفي الأيام الممزة القليلة التي  
تبقت له ، ذهب الامبراطور وأورتанс إلى منزل جوزفين في مالزيون ، وكانت  
جوزفين من تذكرها في غمرة يأسه وقنوطه . قال :

- يبدو كأنني أشاهدها آتية من ممشى الحديقة ، وهي تجمع بعض الزهورات التي  
احببتها كثيراً . كانت تجمع من الجمالات أكثر مما تجمع أي امرأة عرفتها .

ومن مالزيون بدأ أمبراطور الفرنسيين المخلوع رحلته إلى جزيرة القديسة هيلانة .  
وعاد الحلفاء إلى باريس من جديد . ولم تُمنع أورتанс أي نوع من الرحمة أو  
الرأفة ، وهكذا بدأت أشهر التعب الكثيرة والرحلات عبر أوروبا مع ولديها . وكانت

تضطر إلى مغادرة البلدان التي تلجم إليها بعد فترة من إقامتها فيها . ذلك بأن سمعتها كبونابرتية متعصبة ، حرمتها الراحة . ولكن بعد أكثر من ستين ألف نصفها مستقرة في منزل في آرينبرغ ، على ضفاف بحيرة كونستانس السويسرية ، وتحدت السلطة أن تنقلها من مكانها . وقد ظل ذلك ملاذها طوال عشرين سنة وحتى وفاتها !

في ذلك المنزل الصغير ، أعادت أورتанс خلق جو الإمبراطورية . كانت الغرف تزدان بالستائر الحريرية حسب النمط السائد ، وكان هناك الرياش من مالميزون ، وسريرها كان ذلك الذي كان سابقاً للملكة ماري - انطوانيت ، زوجة الملك لويس السادس عشر . وقد حملت معها كتبها ، ومسند قماشة الرسم ، والبيانو ، والأشياء الثمينة التي سُمح لها بالمطالبة بها .

وزرعت حديقتها بالزهور من فرنسا في الصيف ، وفي الشتاء كانت تكتب مذكراتها ، وتؤلف المارشات العسكرية . وكان الذي السائد في أوساط المجتمع المتححر فكريًا أن يزور أفراد الملكة أورتанс في معزلها الجبلي ؛ ومن دون أصدقائها كان يمكن أن تكون حياتها رتيبة حقاً .

ونجح أخيراً زوجها ، لويس بونابرت ، في المطالبة بابنهما البكر ، فأوفد الأمير نابوليون إلى روما . وخشيته أورتанс أن يستدعى كذلك لوبي - نابوليون ، فكرست حياتها لتنشئته . وتحت إشرافها ومجموعة من المعلمين والمربيين نشأ الصبي شاباً ذكياً ، تقلقه خرائطه ، ورسومه البيانية ، ودروسه العسكرية . وكانت دراسته الأشد صرامة في ميونيخ سبباً في منحه نبرة ألمانية ، ونظرة فاغنرية رومانافية . وكان يتوق إلى الخدمة في الجيش الروسي ، فرفض طلبه ، فاكتفى بالتدريب في المدفعية السويسرية . كانت الملكة أورتанс تتمتع بجاذبية لطيفة راحت تنموا أكثر دفءاً مع ذبول الصبا . حولها كان يفوح عبير البنفسج ، وترسم هالة من الجلد الصبور . ومع مرور الأيام استطاعت أن تبني المهارات التي جعلتها رفيقة ساحرة ومثقفة بالنسبة إلى سيدات من مثل مدام دو ستال ومدام ريكامييه . . .

التقاها الكسندر دوما ، الأب ، وكان بعد شباباً لم يبلغ ذرى مجده الأدبي العظيم للمرة الأولى في آرينبرغ ، فوقعت من نفسه موقعاً حسناً . وقد كتب يقول : «كنت

على وشك اختبار فكرة ، وربما إضاعة وهم ، إن كل المشاعر السخية التي تعمق قلب الانسان - العاطفة ، الاحترام ، الشفقة ، طالبت بالتعبير . كدت آخر راكعاً على ركبتي « أمامها ! »

ومع أن انفعالاً عاطفياً ومض بينهما - عقرية الدم الملون جزئياً (كان دوماً ، من جهة جدته ، يجري في عروقه دم زنجي) والملكة المتوسطة السن ، الذابلة - فإن دوماً بتعاطفه الجمهوري لم يكن قادرًا على التلاقي معها سياسياً .

سألت اورتانس صديقها الشاب :

- ما هي نصيحتك لواحد من أفراد الأسرة ما زال يحمل بانبعاث القوة والجد النابوليونيين ، وهو يتأمل في ذلك ؟

فكان الجواب الذي لا يقبل الجدل :

- نصيحتي له بأن يستيقظ !

ومع انقضاء عقد من الزمن ، وبداية عقد آخر ، كانت الحكومات المتبدلة في فرنسا تنظر شزاراً إلى الملكة اورتانس عبر الحدود . كانت تقدر جيداً التهديد الكامن في لوبي - نابوليون . وقد نقل الجوايس معلومات عن اجتماعات سرية تُعقد في آرينبرغ ، وعن جمعيات سرية مخلصة للقضية النابوليونية .

وتهدد الخطير بوفاة ملك روما الفتى ، في فيينا . وكان الملك لويس الثامن عشر قد توفي أيضاً - وخلفه شارل العاشر قد غادر التويلري في عربة - ولم يكن بوسع لوبي - فيليب أن يسيطر على وزرائه ، وألفت فرنسا نفسها في ورطة سياسية محذنة .

غير أن لوبي - نابوليون لم يكن بعد مستعداً لفرنسا . وقد أحزرناها ، على الرغم من تحذيراتها المتكررة ، أن يتهور ويتحالف مع الثوار الإيطاليين المتورطين في أحدى ثوراتهم الموسمية . وكلا الآخرين ، هو والأمير نابوليون كان موضوع إرباك لها إلى أقصى الحدود . كانوا يعرضان بتباين العلم المثلث الألوان ، ويصادقان اعمامهما الطاعنين في السن في روما ، ويندفعان بتهور إلى خطوط القتال غير آبهين بقنبلة الشظايا .

كانت اورتانس شخصياً من استرجعت لوبي - نابوليون بينما كان والده بعصبية واضطراب ، يقوم بتحركات دبلوماسية لا جدوى منها . وجده في الجيش على شفا الموت من جراء الحمى ، فحملته ، متنكراً بلباس خادم لها . أما شقيقه الأمير نابوليون

فقضى بسبب الديزنطاريا قبل أن تتمكن من الوصول إليه .

\* \* \*

كانت «قضية ستراسبور» ، في السنة ١٨٣٦ ، الحدث الذي جعل صبر الفرنسيين ، في نهاية المطاف ، ينفذ ، فأبعد لويس - نابوليون إلى ما وراء المحيط الأطلسي . وقد كتب العم جيروم بونابرت ، ملك وستفاليا سابقاً ، إلى العم جوزف بونابرت ، ملك إسبانيا السابق ، يقول «إن كل ما تذكره عن سلوك ابن أخينا لويس المتطرف المتهور صحيح تماماً . نحن لا نعرف العمل السخيف ».

كان ينبغي للويس - نابوليون أن يكون أذكي من ذلك . فلقد استطاع أن يرفع مع جماعة من المتأمرين المتحمسين راية النسر الإمبراطورية فوق التكتنات العسكرية في ستراسبور ، ويرفعوا حتى بعض صيحات من «يحيا الإمبراطور!». غير أن الشعلة ما لبست أن أومضت وتلاشت . وانتهت المؤامرة غير المدروسة جيداً ، بزجاجة في السجن بصورة مذلة .

ومع أن أورتانس كانت جدّ مريضة ومرهقة ، فلم تتردد في المغامرة بصحتها ، وربما بحياتها واجتازت الحدود إلى فرنسا المحرمة عليها . فلما بلغت باريس ، جلأت إلى صديقتها مدام ريكامييه ، ومن هناك وجّهت رسائل إلى الملك لويس - فيليب مسترحة إياه لابنها . وكان مستعداً لمنحه الرحمة جزئياً . لم يكن بالوسع التغاضي عن الأمير الخطير ، ولا يرغب في أن يخاطر بإجراء محاكمة علنية .

كان لديه من المشاكل ما يكفيه ، ولذا تم التوصل إلى تسوية عادلة - النفي إلى أميركا مدة عشر سنين ، شرط أن تسهر السيدة أورتانس على تنفيذ الشروط .

ولغط الناس بأن والدته ستتحقق به - عصفوران بحجر واحد . ، ولكن لويس لم يحصل على ذلك . كانت صحتها سيئة ، وهو لا يمكن أن يُكرهها على تحمل مخاطر مجاهولة . وقد كتب إليها من سجنه : «لا تبكي ، يا أماه أنا ضحية قضية نبيلة ... الحياة ليست إلا أمراً ضئيلاً . الشرف وفرنسا هما بالنسبة إليَّ الكل في الكل!»

وعادت اورتانس حزينة الى فرنسا ، وكان «الشيء الضئيل» بالنسبة اليها آيلاً الى النهاية ، ولم يكن مضى على لويس غير سنة في أميركا ، حتى كتب اليه طبيبه عبر واحدة من رسائلها المرحة اليه «تعال ! تعال !»

وأطاع الأمير ، وتنوسي كل شيء آخر باستثناء حاجة أمه اليه غير المعلنة . ووصل بعد رحلة محفوفة بالمخاطر - وذروة المخاطر القبض عليه - الى آرينبرغ ، عندما كانت الورود في عز ازدهارها . وأنعش حضوره اورتانس التي ظلت تختلف (تبقى على قيد الحياة) حتى نثرت رياح تشرين الأول اوراق الشجر الصفراء عبر ارجاء الحديقة .

كانت تسأله ماذا سيحدث للويس بعد أن ترحل عن هذا العالم؟ هل سيظل يتذكر اسمه الكبير ، وواجباته ، وكل ما علمته إياه؟ هل سيبرهن على أنه جدير بنابوليون الكبير الذي قضى في جزيرة القديسة هيلانة الموحشة؟ وأخيراً وضعت يدها بيده ، وتمت «الوداع ، يا لويس ، الوداع !» واستسلمت الملكة اورتانس الى الرقاد .

ماتت ابنة الامبراطورة جوزفين في ١٠ تشرين الاول ١٨٣٧ . وقد حملت الى فرنسا التي أحبتها دوماً ، لترقد بالقرب من ضريح أمها في مالزيون . ماذا سيكون مصير لويس؟ هكذا كانت تسأله . وبعد سنوات عدة ، كشف مصيره بنفسه في النقش على ضريحها :

«إلى الملكة اورتانس

ابنها

نابوليون الثالث»

## فولتير الممثل

نادرًا ما نصادف لدى امرئ حبًا جنوبياً لخشبة المسرح مثل حب فولتير لها ، هذا الكاتب والمفكر الذي يعذبه الف ألم ، ويعضه الف قلق وهم ، ويُسحقه الف عمل ، ومع ذلك كان يغادر سريره او يهجر طاولة كتابته وقد تجاوز السبعين ، لكي يرتدي ملابس الابطال المأساويين مانحاً ايامهم الحياة ، وحارقاً في الوقت نفسه حياته ! ويصوره لنا احد المعاصرین ، وهو يتأهب منذ صباح عرض المسرحية للقيام بدور لوزينيان ، فينزل الى الحديقة مرتدياً ملابسه لكي يصدر الاوامر الى بستانيه .

في السنة ١٧٧٨ ، وقبيل وفاته ببضعة اشهر عن ٨٥ عاماً ، كان ما يزال يدرّب الممثلين على الالقاء ميّنًا لهم النبرة ، مقطعاً الشعر ، معيناً النغم بعصاه ، ثائراً من شدة الغضب على الممثلين الذين «يأكلون» نصف الابيات الشعرية في بحوره الشعرية الاسكندرانية (بحر شعري من اثنى عشر مقطعاً صوتياً) ، وقد وزنها بالكثير من الحب والعناء .

لقد شغل حب التمثيل (وكتابة المسرحيات) فولتير منذ كان في الكلية . وعندما استقر في سيراي ، في إقليم شمبانيا ، عند السيدة شاتيليه ، تكشف فولتير عن مهندس معماري ، وملتزوم او مقاول ، وعامل ، لإصلاح القصر القديم ، وكان من اول اهتماماته ان ينشئ مسرحًا في اقصى الرواق : الواح خشبية فوق براميل ، مع كواليس مغطاة بالسجاجيد العتيقة في إطار من كومات اغصان . وكان المدعون وضيوفهم يمثلون امثالاً وهرجات (تمثيليات مضحكه يغلب فيها التهريج والمرح ) ، من تأليف سيدى القصر .

وكان فولتير يقدم على مسرحه هذا الدمى التي تُحرك بالخيطان ، ويقدم الفانوس

السحري بحيوية ومهارة تثيران اعجاب الجميع .

وعقب وفاة السيدة دو شاتليه (أميلى السماوية ) ، عاد فولتير الى باريس ليقيم في مسكنه القديم في شارع لا ترافيرسيير . وقد استدعاى اليه نسيبته مدام دنيس ، كاترين اللطيفة لتدبر شؤون منزله . وكانت هذه النسبة تعشق التمثيل ، فأيقتظت لدى عمّها حباً قديماً يتفق ، فوق ذلك ، مع الرأي الرائع آنذاك . ففي كل مكان في باريس ، وفي المناطق ، كان التمثيل على قدم وساق في المجتمع .

ومن أجل الممثل الشاب الناشئ لوكان ، الذي كان فولتير يتوقع له الموهبة والمستقبل الباهر والنجاح في عالم التمثيل ، حول هذا الأديب الكبير مخزن الغلال في منزل شارع لا ترافرسير الى صالة مسرح ، يمكن أن تتسع لحوالي مائة شخص . وكان فولتير ولوكان والسيدة دنيس يمثلون معاً . وفي هذا المكان قدم فولتير روايته المأساوية «روما المُنقذة» التي لم يشأ ان يعهد بها الى مثلي «مسرح الفرنسي» الذي كان يسميه على سبيل الاحتقار : «هؤلاء السادة في البيت المشبوه» !

من برلين في السنة ١٧٥١ ، كتب فولتير الى السيدة دنيس ، يوصيها بأن تُعنى كثيراً بهذا المسرح الصغير الذي كانت تعيده مجاناً إلى جمعيات الهواة .

وقد تكشف فولتير «عن باعث حركة» مذهل في هذا المجال . وبقي كذلك حتى وفاته .

ولم يكن الممثلون المحترفون - وسواء منهم الممثلتان لا دومينيل او لا كليرون - ليغروا له إخفاء تفضيله لمثلية الهواة ، وخاصة السيدة دنيس ، عليهم . وكانوا يخشون سورة غضبه ، ومتطلباته ككاتب ، ويتهمونه بأنه يود القضاء عليهم .

قالت له ذات مرة الممثلة لا دومينيل :

- ينبغي ان يكون المرء مضطرباً لكي يبلغ النبرة التي تود مني ان اؤديها !  
فكان ردّه :

- اه ! حقاً ، ايتها الآنسة ، ان الاضطراب والاحتياج هما المطلوبان من المرء لكي يبرع في كل الفنون . اجل ، بلا اضطراب لا يسع المرء ان يكون لا شاعراً جيداً ، ولا مثلاً جيداً .

لم تكن العروض التي قدمت على مسرح شارع لا ترافرسير الا فاتحة العروض التي قدمت في قصر صولدى الدوقة دو مين التي كان مسرحها الخاص من افخم المسارح وشهرها بين مسارح المجتمع الكثيرة التي انتشرت بصورة واسعة في القرن الثامن عشر . وفي قصر صو عرضت مسرحية «سميراميس» لفولتير حيث جاءت باريس بأسرها للتصدق للممثل كما لو كان خارجاً من ضريح نينوس ، نصف عارٍ ، مشعر الشعر ، والدم يقطر منه ، على ضوء البروق وقرقعت الصاعقة . . .

كان فولتير في آن المؤلف ، والخرج ، والممثل ، يحتفى به في كل حفلات العرض الاول التي كانت تقدم . واعاد تقديم «روما المنقدة» ومثل دور شيشرون الذي اضطلع به من قبل . ولم يكن ممكناً ان يسمع المرء شيئاً اصدق ، واشد تأثيراً في العواطف ، واكثر حماسة من فولتير في هذا الدور . ففي الحقيقة ، كان فولتير شيشرون شخصياً يهدى بخطب من فوق المنبر ضد تدمير الوطن ، والقانون ، والعادات ، والدين .

واخيراً استقر الشاعر نهائياً في املاكه الواسعة في فيريني ، بالقرب من جينيف ، وفي المسكن الصيفي المعروف باسم «ديليس» . وبالطبع ، كان هناك مسرح في فيزني ، وقد بناه فولتير حسب مشتهاه . لم يكن ثمة ابسط منه ولا حتى اجمل منه . وكم وجد فيه من المسرّات ! يشهد على ذلك عدد كبير من رسائله . ففي رسالته المؤرخة في ٢٤ تشرين الاول ١٧٥٩ مثلاً يعبر عن افتاته باللباس الجميل الذي كان يرتديه ، والموهبة التمثيلية التي كانت تتمتع بها السيدة دنيس . وقد هتف وهو ي يكنى من شدة الفرح «انها الممثلة دو مينيل !»

وكان فولتير سواء اقام بتمثيل دور ما ام لا ، يشهد هذه العروض المسرحية التي كان يطمح مجتمع الشخصيات البارزة الى دعوته اليها . وهو في كل مكان في آن معًا : على خشبة المسرح ، وفي الكواليس ، وفي القاعة ، معلقاً على الرواية المعروضة بصوت مرتفع ، هادراً بالمدح والتقدير ، واللوم والتعنيف ، هاتفاً ، مصفعاً ، ضارباً الارض برجليه ، مقهقاً من شدة الضحك ، وياكيأ بين حين وآخر .

اجل هذا المسرح هو الاجمل في الكون ، والمسرحيات التي تُعرض عليه هي الاروع ، ما دام مسرحه وما دامت المسرحيات من تأليفه ، وما دام الممثلون هم السيدة

دنيس ولو كان واصدقاءه . «ولكن ما هذا ؟ ما هذه الضجة ؟ فهناك من يشخر في مقاعد الصف الاول من القاعة . من يشخر ؟ من يجرؤ على الشخير ؟ انه الرئيس شارل دو بروس القاضي والكاتب المعروف». فرمى فولتير قبته على رأسه قائلاً : «او تحسب نفسك في جلسة المحكمة ؟»

وانتهى العرض التمثيلي ، فهتفوا وهلّوا لسيد فيرني . واختلط الفلاحون والفالحات بالاسياد الكبار ، والمتظرفين . فلقد جاؤوا يحملون الى الشاعر سلال الزهور ، والثمار ، والحضر . وارتجلت حفلة راقصة على الروضة ، واحس العجوز المتشي بالبعد وبالسرور ، بساقيه كأنهما ساقا فتى في العشرين ، فافتتح الحفلة الراقصة . . .

واذا كان فولتير تمتع بمعزایا التمثيل ، فإنه كانت له عيوبه ايضاً . فقد كان تقريباً من نوع «هل شاهدتنی ؟» فالتواضع لم يكن من شيمته . لقد كان يعتزّ بانتصاراته كممثل اكثر منه ككاتب . وكان يتتجّج بأنه ابكي كل اعضاء مجلس جينيف بتتمثيله مسرحية «الزاير» ولا احد سواه يستطيع افضل منه ان «يتنزع الروح» في الفصل الرابع من مسرحيته «محمد» . وكتب الى صديقه دارجنتال يقول انه لما كان يمثل مع نسيبته السيدة دنис ، كان الجمهور يؤسر ويؤخذ تماماً ؛ مؤكداً «انه كان يستحيل على هذا الجمّهور المقاومة»

في السنة ١٧٦٠ ، كانت ابنة أخي الكاتب الكبير بيير كورناري تعاني العسر والفقر ، فكتب الشيخ الجليل : «لتأتي الى فيرني . ستكون السيدة دنис معلمتها . وسأكون أنا بمثابة الأب لها ، وستجعلها تمثل دور شيمين». وهكذا كان . ومثلت «رودوغون اللطيفة» - كما كان يسميها فولتير ، كهاوية ، «ولكن بياحساس غريب» مسرحيات عمها الكبير التراجيدية ، على المسرح الصغير في فيرني .

## عندما كان هناك وقت للحب!

كانت الساعة تدق الحادية عشرة قبل ظهر يوم ١٣ كانون الثاني من السنة ١٨٥٣ ، عندما أدارت اوجيني دو مونتيجو مقبض باب مخدع امها في مسكنهما القائم في الرقم ١٢ ، من ساحة فاندوم ، في باريس .

كانت اوجيني تبدو مشرقة في مبادلها الحريرية البيضاء ، وهي تتحرك نحو الموقف حيث تخترق قطعة من الخطب .

وضعت احدى قدميها الدقيقتين على حاجز المقد النحاسي ، وألقت نظرة عجلی على الساعة ، وبحركة ضعيفة من نفاذ الصبر راحت تنقر بأصابعها رف المقد الرخامي .

ورفعت عينيها ، وتطلعت في المرأة ، ولكن فكرها كان مليئاً بخلط من المشاعر المتضاربة بحيث أنها بالكاد رأت انعكاس ملامحها .

فبعد لحظات قليلة سيقرر مصيرها . فلقد انتصرت نصيحة أمها ، ومكائدتها الشخصية .

إنه انتصار ، ولكنها تسأك عما اذا كان تاج فرنسا متلائماً بما فيه الكفاية لكي يعمي عينيها عن الشخصية الغامضة للرجل الذي ينبغي لها ان تقبل به زوجاً؟

ففي الليلة السابقة ، وفي أثناء الحفلة الراقصة الرسمية التي أقيمت في قصر التوليري ، جابهت مع امها الإهانة ، الإهانة العامة .

فعندما تقدمتا من المقاعد الى يسار العرش ، قالت السيدة درووين دو لويس ، زوجة وزير الخارجية الفرنسية ، بصوت مرتفع : « هذه المقاعد مخصصة لكتاب الرسميين .»

وتردّدت ، وكادتا تنسحبان ، عندما نهض الامبراطور - نابوليون الثالث ، ابن أخي نابوليون الكبير ، وكان أصبح امبراطور الفرنسيين في السنة ١٨٥٢ - ونزل عن المنصة ، وأخذ بيده أوجيني ، وقادهما معاً إلى المقاعد المذهبة وسط الأسرة الامبراطورية .

حتى بعد ذلك ، لم تكن الأمور سهلة .

لقد عقدت أوجيني العزم على حمل نابوليون على اتخاذ قراره في تلك الليلة بالذات . وهمست في أذنه وهما يرقصان : «مولاي ، أود أن أحدث إليك سراً ». فأجابها على الفور : «تعالي غداً ». فقالت : «لا ، يا مولاي ، ينبغي أن يكون حديثنا الليلة . أود أن أقول الوداع ».

ونظر إليها نابوليون نظرة دهشة وفزع . وجذبها من رحمة الراقصين ، وقادها إلى مكتبه الخاص ، وقال لها بصوت يكاد يرتعش بالتأثير : «لماذا الوداع؟» وتذكرت أوجيني كم غدت هادئة عندما غامر بقدرها بعبارة يائسة واحدة . قالت : «مولاي أنا لن أبقى لكي أهان من قبل حاشيتك ».

وفهم نابوليون للحال . حتى الآن شعرت بالارتياح الذي تبدلت فيه شكوكها بجوابه الفوري : «لن تهاني أبداً بعد اليوم . غداً سأطلب يدك من الكونتيس دو مونتيجو ». فقالت أوجيني : «غداً بعيد جداً ؛ وقد يكون ثمة احتجاجات غداً . أقترح ، يا مولاي ، أن تكتب الليلة رسالة إلى والدتي ».

وأحسّت أوجيني بوخزة من ذنب إذ ألحّت على الأمر ، ولكنها كانت تعلم أن وعداً مكتوباً يصعب النكث به .

ومن دون أي تردد ، جلس الامبراطور إلى طاولة مكتبه ، وكتب الرسالة المصيرية ، واستدعى السيد موكار ، رئيس غرفته . وتأملت أوجيني وجه هذا الأخير ، وتبينت ملامح الدهشة التي اعتبرته إذ تلقى الأمر : «احمل هذه بنفسك صباح غد إلى الكونتيس دو مونتيجو ».

وتذكرت كل ما حدث في تلك الأمسية الخطيرة ، ممتنعة بمشاعرها مع استعراض كل تفصيل . وفجأة فتح الباب ، ودخلت السيدة دو مونتيجو تتبعها وصيفتها

الاسبانية ببها . و خاطبت ابنتها بقولها :

- ليس ثمة بعد اي رسالة ! كيف استطعت النوم ، يا اوجيني ؟ بالنسبة اليّ ، أنا لم  
يغمض لي جفن !

ووضعت ببها صينية فوقها كوبان من شراب الشوكولا على مائدة صغيرة ،  
حملتها قريباً من النار .

في هذه اللحظة قُرع جرس الباب الامامي بقوة ، فنظرت السيدتان احداهما الى  
الاخري بصمت ، ثم طرق باب المخدع ، ودخل مدبر المنزل ؛ قائلاً :

- بالباب السيد موکار ، حاملاً رسالة من صاحب الجلالة الامبراطور ، يود  
تسليمها الى السيدة الكونتيس شخصياً .

وإذ انسحب الخادم مغلقاً الباب وراءه ، احتضنت السيدة دو مونتيجو ابنتها  
مرددة : «أخيراً ، يا بنتي ! اوجيني امبراطورة الفرنسيين !»

\* \* \*

كان يوم عقد الزواج المدني في قصر التوليري ، ووقفت اوجيني أمام مرأة عريضة  
في الجناح الأثيق من الغرف التي جهزها نابوليون لإقامتها في قصر الايليزه .

حولها ، كانت ترکع وتزحف الخياطات والفتيات العاملات لديهن ، ليضعن  
اللمسات الأخيرة على ثوب الزفاف الرائع الذي سترديه اوجيني في الحفلة الرسمية  
في كاتدرائية نوتردام في اليوم التالي . وعلى منصة وقفت الخياطة الشهيرة فينيال ،  
مرشدة ووجهة بنبرات عالية هذه المجموعة من النساء .

واعترى اوجيني شعور بالتعب . فلقد اضطررت الى التعجل في التحضيرات ،  
لأن نابوليون قرر أن يتم الزفاف على الفور تقريباً .

بالكاد مضى أسبوعان على تلك الليلة المصيرية في قصر التوليري عندما طلبت  
الزواج - أو هل هي طلبت الزواج ؟ لقد شعرت أنها تحتاج الى بضع ساعات تلك  
الامسية لتفكير ملياً ، ولتعيد هدوءها ورباطة جأشها قبل الحفلة في قصر التوليري .

وهكذا ، عندما انسحبت فينيال وجيشها ، حاملات ثوب الزفاف كما لو كان ذخيرة مقدسة ، شكرت أوجيني الله تعالى ، وطلبت الى وصيفتها الوفية بببا أن تجهز لها حمامها ، وان تحرض على عدم اقتراب احد منها حتى يحين موعد ارتداء ملابسها استعداداً لحفلة الليلة .

وسألتها بببا :

- واذا أقبل السيد ميريمه ؟

فكان جوابها :

- آه ، إنه يختلف عن الباقين ، ففي وسعه أن يدخل ساعة يشاء ، ودوماً !  
osasفت أفكارها بعيداً في الماضي ، وهي مستلقية في حمامها المعطر . رأت نفسها واحتها الصغيرة باكا ، فتائين صغيرتين ، تلعبان في حديقة منزلهما الأبوى في ساحة الملائكة ، في مدريد ، في إسبانيا .

وتذكرت أنه كان هناك دوماً شعور بال الحاجة للقيام بأمور كثيرة ، ولكن العين بصيرة واليد قصيرة - كما يقولون . فقد كان المال هو العقبة .

سوى أن ذلك لم يكن بهم كثيراً ، نظراً لوفرة الأصدقاء ؛ من هؤلاء كان اثنان في الطليعة ، هما ستندال ، والكونت بروسيبر ميريمه ، وكلاهما كاتب شهير .

في السنة ١٨٣٤ عرف ميريمه ستندال على آل مونتيجو ، وكان هو من كان يجلس كلّاً من الفتائين على ركبتيه ، ويروح يروي لهما القصص عن نابوليون الأول العظيم ، والمجد الذي جرّه على فرنسا ، مضيئاً في قلبيهما حماسة لم تخُبُّ قط .

وتوقفت أوجيني عن الحلم في حمامها ، وارتدى دثاراً دافئاً ، واستلقت على مقعد مستطيل لدى طرف سريرها . وأضفت نور القنديل قليلاً ، وراح تحدق بالنار حيث قطع الخطب تحرق مرسلة سيلولاً من الشرارات عبر المدفأة السوداء .

ومن جديد استرخت ، وسبحت أفكارها بحرية . . .

إنها تعقد زواجاً رائعاً ؛ وغداً في كاتدرائية نوتردام ستصبح أمبراطورة الفرنسيين - ولكن ، في نهاية المطاف ، من كان آل بونابرت ؟ هي ابنة نبيل إسباني ، كونت دو مونتيجو ، ودوق بستاندا . وكانت أمها من ذرية أسرة كركباتريك في كلوسبرن ، في

انكلترا - وربما كان نابوليون من يعقد زواجاً موقتاً؟

ويبينما هي مستغرقة في التفكير ، سمع قرع على الباب ، ودخل بروسبيرو ميريه . ومن جديد ، شاهد هذا الأديب البارز ، الذي عين نفسه مرشدًا لها في صباها ، ومعلمًا تقريرًا ، جمال التي شملتها بحمايته ، المرأة التي قدر لها أن يخدمها ، ويرعاها ، ويحرسها حتى نهاية حياته . وكالعادة فتنه حسنها الساحر ، هذا الحسن الذي صمد طوال كل السنين التي امتدت أمامها .

وجلس بالقرب من المضجع ، وتناولَ<sup>١</sup> من حقيبته اليدوية وثيقة عريضة مربوطة بشرطة حمراء رسمية ، ومزينة بعدد من الأختام ، ثم أخذ يدها بشكل أبي ، وقال لها :

- لقد جئت ، يا عزيزتي ، لأنّلو عليك العقد الذي أنجز قبل قليل ، والذي ينبغي لك التوقيع عليه الليلة .

فمددت أوجيني ذراعيها البضئتين الجميلتين فوق رأسها ، وقالت بثبات :

- لا ! أنا لست في وارد الأصاغاء إلى كل هذه التفاصيل والإجراءات المعقّدة . أنا شديدة الثقة بك ، وهذا كافٍ . هناك أمر واحد أحب أن أعرفه . هل أن كل القابي ، السلفية والمعلنة ، قد ذُكرت بطريقة صحيحة .

فأكّد لها ميريه أنه أمضى الساعات الطوال في الاهتمام بذلك . فلما اقتنعت ، غرقت بتکاسل بين النطافس ، وغادرها ميريه .

ويبينما استرخي جسد أوجيني تماماً ، راح فكرها يعمل . ومن جديد أفلقت هدوءها أشياء كثيرة ، ولكن الشيء الوحيد الذي أقصى كل مaudاه كان - أي ثوب سترتدية في تلك الأمسيّة؟

على سريرها ، وضعت الخياطة بالمير ، منافسة فينيال اللدو ، ثوبين من اختيارها .

بالطبع ، الثوب الحريري القرنفلي (الاحمر الوردي) المرصع بخطوط من التطريز الايرلندي كان تحفة فنية رائعة ، ولكن ، لعل الثوب الحريري الأبيض ، مع شاله المخمر والمرركش بالأлас يجعلها تبدو أصغر سنًا - ذلك بأنها غدت في السابعة والعشرين .

ودقت الساعة السابعة ! ودخلت بببا ، وهي تغمغم كعادتها .

قالت :

- ينبغي للأنسة أن تبدأ بارتداء ملابسها - ليس لي إلا يدان ، اثنتان ، وهناك عمل كثير . وهناك حشود غفيرة تتضرر في الشوارع خارجاً ، وتتدفق منهم سيول من مختلف أرجاء المدينة . . .

\* \* \*

قبيل الساعة الثامنة والنصف مساء ، تكدرست جموع كثيرة أمام قصر الإليزيه ، في شارع فوبر سانت أونوريه : فقد وقفوا هناك بنفذ صبر طوال ساعات غير مبالين بالبرد القارس .

ولما دقت الساعة معلنة انتصاف الساعة ، اندفع من بوابات الحديقة موكب من الفرسان حاملي القريينة (البنديقية القصيرة) ، يسبقون عربة الاحتفال ويتبعونها ، وقد جلست فيها أوجيني وأمها .

في الضوء الخافت المنبعث من مصابيح الشوارع ، رأت الجموع لمحه سريعة من الجمال المتألق والسعادة اللتين تتمتع بهما امبراطورتهم العتيدة ؛ وكما لو ان هذه السعادة قد أشرقت عليهم هم كذلك ، صفقوا بجنون ، وهتفوا بحماسة الاولاد ، مرددين آيات التبريك والتنمينيات الطيبة .

على درجات بافيون دوفلور ، كان يتضطر كبير الأمناء مع موظفيه الرسميين . وجرت مراسم التعارف ، ثم سار الموكب يتقدمه مسؤولون حكوميون رفيعو المقام ، الى قاعة العرش حيث وقف الامبراطور .

أمام العرش وقف نابوليون يراقب وصول الموكب المتقدم ببطء ، وعيناه فوق الرؤوس لتسقّر على المرأة المرتدية الابيض ، وكانت تسير في المؤخرة .  
وكاد قلبه يتوقف عن النبض . فالمنظر كان بالنسبة إليه ، غامراً جداً .  
ومع ذلك ، تمالك نفسه بسرعة ، ونزل عن المنصة لاستقبال أوجيني . وكانت

هادئة ، بل رابطة الجأش .

وأمسك نابوليون بيدها ، وصعدا معاً الدرجات ، وجلسا فوق العرش وهتف مدير التشريفات الواقف عند الجزء الأدنى من العرش : «الامبراطور» . فانتصب الجميع واقفين ، بينما أحكم الرسميون وضع طاولة مذهبة صغيرة ، فوقها سجل الأسرة الامبراطورية .

ووقع الامبراطور والامبراطورة على السجل ، وتبعهما الكونتيس دو مونتيجو ، ثم أفراد الأسرة الامبراطورية ، وأخيراً وزير الدولة .

وانتهى الاحتفال ، وقفلت اوجيني ، بعد أن غدت امبراطورة الفرنسيين ، عائدة إلى قصر الايليزه برقة والدتها ، يحيط بهما موكب متلائمة من الفرسان .

وفي صبيحة اليوم التالي ، وقبل ان تشرع في ارتداء ملابسها لحضور الاحتفال الديني في كاتدرائية نوتردام ، جلست اوجيني تكتب إلى شقيقها الحبيب :

«قصر الايليزه ، في ٣٠ كانون الثاني ١٨٥٣ .

إلى دوقة أليا ،

مساء أمس ، تزوجت زواجاً مدنياً ، وفي غضون ساعتين اثنتين ، سأغادر القصر إلى كاتدرائية نوتردام . أنا على عجلة من أمري ، ولكنني لا أريد أن تخسيبي ابني أنساك ، حتى في هذه اللحظة .

كان الاحتفال رائعًا ، ولكن كاد يُغمى عليّ قبل دخولي القاعة الكبرى حيث وقينا على السجل .

لا استطيع ، يا شقيقتي العزيزة ، أن أعبر لك عن كل ما عانيته خلال الثلاثة أرباع الساعة التي جلست فيها فوق العرش ، المرتفع قليلاً عن المنصة ، مواجهة جمهور الناس .

كنت أشدّ صفة من الياسمين الذي كنت أضعه فوق قلبي ، وكان ثوبني ذاك الجميل ذو الأهداب الشبيه بثوبك القرنفلي . وقد فكرت في ارسال القفازين اللذين استعملتهما إليك . وقد احتفظت بقفازيك بكل عناء ، وأحسب أنك ما زلت تحتفظين بالاحترام الديني تقريرياً بالنسبة إلى الذكريات .

عندما يخاطبني بـ «صاحب الجلاله» ، أشعر كأننا نمثل رواية .  
خوان سيلفا وصل من بروكسل لحضور الزفاف . وقد ذكرني بالتمثيلية  
التحزيرية التي مثّلناها في منزلك ، وقمت أنا فيها بدور الامبراطورة .  
ولم يخطر بيالي قط أنني في يوم من الأيام سأمثل هذا الدور في الحقيقة .  
الوداع ، يا شقيقتي العزيزة ، وإن الذكرى الأخيرة كفتاة صغيرة ما تزال لك - أنا  
أحبك !

المخلصه أبداً ، أو جيني .»

عند الظهر استخدمت العربية الرسمية المذهبة نفسها التي استقلّها نابوليون الأول  
وجوزفين يوم تتويجهما ، لنقل نابوليون الثالث وأوجيني إلى الكاتدرائية ليُعقد  
قرانهما .

وكان تجربة ثمانية جياد على سرجها أغطيه مزرفة بأناقة وترف ، فراحت  
تشق طريقها بين الجموع المحتشدة في شوارع باريس على هدير المدافع ورنين  
الاجراس .

وأخيراً وصلت العربية إلى كاتدرائية نوتردام الفسيحة ، فترجل العاهلان منها .  
كانت أوجيني بشوبها الحريري المكسو كلياً بالخرمات التي لا تقدر بثمن ، وقد لقت  
خصرها الدقيق بحزام من حجارة الصفير الكريمة كان نابوليون الأول قد أهداه إلى  
ماري - لويس .

وكان الامبراطور يرتدي بزة فريق ، وينطلوناً أبيض ، ويتعلّل جزمة لسّامعة ،  
ويضع طوقَي وسام الجزء الذهبية ووسام جوقة الشرف اللذين وضعهما من قبل  
نابوليون العظيم .

ويبينما تحرّك العاهلان نحو العرشين المذهبين القائمين تحت ظلة محمليّة مزينة  
بفرو القاقيم ، ويعلوها نسر ذهبي ضخم ، قبالة المذبح المرتفع ، خفّ للقائهما الكرادلة  
والأساقفة بملابسهما البهية الرائعة .

وبدأت المراسم الرسمية بكل جلال الكنيسة والدولة ، وتتابعت إلى نهايتها  
باللحان القصيرة المعزوفة بالأبواق الفضية ورنين الاجراس .

عندما دخلت أوجيني الكاتدرائية ، بدت مغمورة بجلال المناسبة . فكانت تنتقل منحنية الرأس ، حية ، وعلى مضمض تقريباً . ولكنها لما عادت من على الجناح السفلي على ذراع الرجل الذي سيحكم فرنسا كإمبراطور طوال عقددين من السنين ، كان تحولها مدهشاً ! تقدمت برأس شامخ ، وبجلال وفخامة ، شاكراً آيات الاحترام التي يديها رعاياها - امبراطورة واثقة من سلطانها .

امبراطورة ! من حمل خلال قرون طويلة من التاريخ هذا اللقب بصورة اجمل من أوجيني ؟

كانت شجاعة لا تعرف الخوف ، ولكنها مع ذلك ، انتى كلّياً ؛ جميلة ومحبة ، ولكن دون أن تسمح أبداً لهمسة افتراء بأن تلطف سمعتها . وكانت حساسة ، ولكنها قادرة تماماً على السيطرة على عواطفها ، وقدرة على الاحساس بالألم الشديد ، ولكنها من الاعتزاز بحيث لم تكن لتسمح للأخرين بأن يلحظوا الإهانات التي عانتها . نبيلة بل متواضعة ، متغطرسة ولكن لطيفة مع المتواضعين - تلك كانت امبراطورة الفرنسيين .

ماذا عن السلطان الذي شاطرته عرشه ؟ عنه ، كل ما نعرفه هو ما تركه لنا معاصره . جواز سفره يطلعنا أنه في الرابعة والأربعين ، وطوله ٥ أقدام و٧ بوصات ، لون شعره و حاجبيه كستنائي ، عيناه صغيرتان ، رماديتان ، أنفه عريض ، وفمه صغير ، وشفتاه غليظتان . لحيته كثيفة سوداء ، وشارييه شقراوان ، ذقنه مستدق ، وجهه بيضوي ، وملامحه شاحبة .

هذا من الناحية الرسمية ؛ ولكننا نعلم أيضاً أنه كان يبتعد عن ريعان الحياة . كان قصير القامة ، ولكن يبدو حسناً على صهوة الحصان . عاش حياته على هوا وتمتع كثيراً ، ولكن ، مع ذلك ، كانت تبدو في عينيه نصف المغمضتين نظرة رقيقة ، مداعبة تقريراً عندما تكون هناك امرأة بقربه . ولكن بالنسبة إلى الرجال ، كان يبدو في أحياناً «مستغلقاً» ، لا سبيل إلى فهمه ، وبالنسبة إلى آخرين «كالسائل في نومه» ! إميل أوليفييه أكثر حكماماً إذ يقول : «الإمبراطور هو أمرؤ يعذبه الجسد ..»

\* \* \*

عندما سلكت العربية الامبراطورية المكشوفة جادةً الامبراطورية وعلى متنها اوجيني يرافقها نابوليون ، يواكبهما الفرسان المتألقون ، لا بدّ أن اوجيني شعرت أنها تسير نحو موطن ساحر .

ولكنها الآن ، أحاطت نفسها بجماعة من الأصدقاء يختلفون تماماً عن حاشيتها الرسمية . ولم تكن بعد تشكو من خيانة زوجها ، ويدا العالم كلّه لدى قدميها .

لم تهتم بالسياسة ؛ والواقع أنه لم يكن ثمة ما يثير القلق . فقد كانت أوروبا قد استقرت بفضل سياسة «توازن القوى» ، وسيحافظ على هذا التوازن المتعادل . صحيح ان الحرب كانت مستعرة النيران في شبه جزيرة القرم ، سوى ان شعب فرنسا ، على العموم ، لم يكن متأثراً بها .

كانت باريس هادئة ، ولم يكن احد يفكّر أدنى تفكير في الحرب ، ويدا اقتراب موعد زيارة الملكة فكتوريا الانكليزية الى فرنسا ، أنه يشكل اعترافاً رسمياً بالسلالة الامبراطورية .

كانت الامبراطورة صبية ، وحسناً ، ومولودة في اسبانيا ، موطن الحب حيث تعتبر الفتيات من كل الطبقات ، وهنَّ في سن المراهقة ، انه من العار الا يكون لهن معجبون . وهكذا شعرت اوجيني التي ترعرعت في جو متحرر ، يحيط بها الإعجاب منذ الطفولة ، بالسأم قليلاً من صرامة آداب السلوك في قصر التويلري .

من المثير أن ينحني الناس أمامها ، وتحس بأنها فوق كل واحد مسافة أميال ؛ ولكن عندما كانت تجدها نفسها وحدها في جناحها الجميل المتعدد الغرف ، كانت تشوق الى السير في الجادات التي تكتنفها الاشجار ، كما كانت تفعل في السابق . كانت تودّ ان يكون باستطاعتها استدعاء عربة وزيارة أصدقائها . سوى أن هذا بات مستحيلاً بعد أن غدت امبراطورة . لذا قررت ان تجتمع حولها بعض الأصدقاء الحميمين .

كان اعزّ أصدقائها في هذا الوسط البارون هوينر ، السفير النمساوي .

كان يعرف كل شخص في باريس ، فاستشارته في من يقترح أن يصبح من أصدقائها الشخصيين .

عندما أقامت اوجيني للمرة الاولى في قصر التويلري ، ألغفت الحجرات على ما

تركها الملك لوبي - فيليب عندما هرب الى انكلترا السنة ١٨٤٨ ، عدية الذوق وباهته . كانت قاعة الاستقبال التي تحملها وصيفاتها (كانت وصيفتان دوماً في الخدمة) غير جذابة ، فأمرت الامبراطورة بحبها لللون والشمس باعادة طلائهما وفرشها . وبجانب قاعة الاستقبال هذه ، الذي كان بابها يُترك مفتوحاً دائماً ، كان هناك حجرة مزينة كلياً باللون الاحمر الوردي الفاتح ، تؤدي بدورها الى قاعة استقبال الامبراطورة الزرقاء اللون . هذه الحجرة كانت متحفأً بالغاً حدّ الكمال : فالنقوش الشديدة الدقة كانت تزيّن الألواح والسلف . وقد جمعت اوجيني على الجدران رسوماً مُبروّزة في أنواع لأجمل نساء بلاطها ، كل واحدة منها بالزي القومي للبلدان الأوروبية التي تناسب اكثر نوع جمالها .

\* \* \*

إن إحاطة اوجيني نفسها بمثل هذه الملامح المثالية لأبرز دليل على أنها لا تخشى أي منافسة ، ذلك بأنها كانت شديدة الثقة بجمالها .

اليوم هو ١٦ آذار ١٨٥٦ ، وقد رنَّ الحدث الرائع عبر باريس ، وردَّدت صداته أسوارها القديعة . وما يزال يبدو ان الجن نفسه يهتز بهدير المائة طلقة مطلقة من المدافع التي أعلنت الى العالم أنه في قصر التوليري ، أبصر النور لوبي اوجين نابوليون ، الامير الامبراطوري .

كان الامبراطور هناك طوال الوقت ، خلال ساعات الوضع ؛ وطوال خمس عشرة ساعة لم يتوقف عن البكاء .

ولما وُلد ابنه ، في النهاية ، اندفع الى الخارج ، وقبل اول خمسة أشخاص صادفهم في طريقه ، غير مكترث بمقامهم . ثم انه على حين غرة تبيّن ان عمله هذا غير لائق ، فتمالك نفسه سريعاً ، «أنا جد سعيد ، ولكنني لا استطيع تقبيلكم جميعاً» في هذه الاثناء كانت الامبراطورة التي عانت آلام الوضع طوال ٢٤ ساعة ، راقدة في السرير ، منهكة تماماً . فلما دخل الامبراطور الحجرة ، قررت : «أهي فتاة؟»

فأجاب : «لا» «أهو صبي؟» وخشى ان تكون البشري السعيدة صدمة كبيرة لها ،  
قال : «لا» . وسألت الأم المذعورة لاهثة : «إذاً ماذا ، رُزقت؟» وكان اضطرابها شديداً  
بحيث اضطروا الى حمل طفلها اليها لتهديتها .

## هل كان شارل ناوندورف الملك لويس السابع عشر؟

كارل فيرغ ، مولود في ٣ أيار ١٧٧٧

متوفٍ في ١٠ آب ١٨٤٥

لو كان نص شاهدة قبر شارل ناوندورف ، الذي كان يدعى أنه لويس السابع عشر ، كما ورد أعلاه في مقبرة ديلفت ، موطن الخزف الهولندي ، لما كان لفت ذلك الاهتمام . ذلك بأن شاهدة القبر ، التي تدغدغ أحلام عشاق الأسرار التاريخية وهواتها ، تحمل نصاً مختلفاً تماماً .

«ه هنا يرقد لويس السابع عشر

دوغ نورماندي ، ملك فرنسا

مولود في فرساي في ٢٧ آذار ١٧٨٥

متوفٍ في ديلفت في ١٠ آب ١٨٤٥

لويس السابع عشر أو ، بكل بساطة ، شارل ناندورف ، المعروف بكارل فيرغ؟  
أدخل أم حقيقة؟ أم تاريخ؟ أم رواية؟ فمنذ قرنين من الزمن ، والمخيلات طاب لها أن تشرد ، وطاب للنفوس الطيبة ان ترقّ ، وللمؤرخين أن يتناقشوا . ومراراً اضطرت المحاكم الى التعرّف إلى هذه الشخصية الغامضة . وكانت آخر مرّة في السنة ١٩٥٤ ، خلال دعوى ردّت ادعاءات ذريته - دعوى اشتراك فيها أحد اسياد نقابة المحامين ، والمؤرخ في اوقات الفراغ ، المشتزع الكبير موريس غارسون .

بالنسبة اليه ، ليس ثمة اي شك في أن ناوندورف ليس ولد العهد ، لويس السابع عشر ، ابن الملك لويس السادس عشر الذي اعدمه ، مع زوجته ماري - انطوانيت ، على المقصلة ، الثورة الفرنسية . وفي كتابه القيم «لويس السابع عشر أو اللغز

الرائف»، أقام الداعوى على ناوندورف، دون أن يتوصّل، مع ذلك، إلى تبديد كل الغطاء المتعلقة بهذا «الشبيه» بالأسير الصغير المثير للشفقة في سجن التاميل، .

كان ضد شارل ناوندورف ، بالطبع ، هذا : كان هناك لا أقلّ من ٤٧ زعموا أنهم

ولي العهد الفرنسي ، منهم الماريشال زابلكوفسكي ، وحتى مولد من ايركوي ، مروراً

بهايرفاغو ، وبالبارون ريشمون ، الذي كان من ذريته البابا بيوس الثاني عشر .

في خلال الدعوى التي أقامتها على البارون ريشمون عدالة الملك لوسي - فيليب ،

بالضبط ، ظهر ناوندورف للمرة الاولى امام محكمة فرنسية . فقد زعم ريشمون أنَّه

هرب من سجن التاميل بحيلة مجددة من حرب طروادة : فقد اختبأ في داخل بطون

حسان زائف مبطن . وفي الجلسة الثانية ، طالب مثل لناوندورف بأن يسمح له بأن

يتلو على مسامع هيئة المحكمة رسالة تعلن أن ريشمون لا يمكن أن يكون لويس السابع

عشر ، لسبب بسيط وهو أن لويس السابع هو ناوندروف نفسه .

وقد كشفت مزاعمه في ١٦ آب ١٨٣١، في جريدة «لابزيغ تسايتونغ». وبعد

مفاهيم اجتماعية

كُتِبَتْ هَذِهِ الْقَصْةُ بِرَوَايَتِيْنِ مُتَعَاقِبَيْنِ ، الْأَوَّلِمُ ، السَّنَةُ ١٨٣٤ ، تَحْتَ عَنْهُ اَنْ

«مذكرات شارل - لوی ، دوق نورماندی ، من السنة ۱۷۹۲ الم . بهمنا هذَا» . و کا

شيء فيها يعتمد على هرب ولئه العهد من سجين التامما .

يُزعم ناوندورف أن حارسه سيمون استُبدل بأمرأة «طيبة وفاضلة»، كانت شديدة

العنایة به (وهذا يعارض تماماً الواقع المثبتة) ، ويتابع مغامرات الهرب .

«رأى السجين الصغير ، الذي أضعفه كثيراً إضراب عن الطعام ، رجلاً غريباً

يدخل زنزانته ، برفقة خفير بلدي راح يتحدث الى حارسته . وأُسقى شراباً غريباً ،

كان منوماً يتأخر في احداث تأثير ، بحيث أن السجين كان بوعيه رؤية كل ما يجري

حوله .

وُسُحب من تحت سريره قفة كبيرة من القصب . كانت قد أخفيت خلسة .  
وكان بداخلها ولد لا حراك به . فوضعوه في السرير ، ووضعوا السجين الصغير بدلاً منه في القفة . ومن هذه النقطة بدأ مفعول المنوم ، فقد رشدَه ، ولم يستعدَه إلا وهو «راقد في سرير حسن» .

ويروي ناوندورف أنه وضع في عهدة امرأة ألمانية علمته لغتها . ولكن ذات ليلة ، هاجمت عصابة مسلحة المنزل ، واختطفته ، وحملته ، وهو في قميصه إلى مكان يقع تحت الأرض . وسُجن في زنزانة . وقد انقذه امرؤ يرتدي معطفاً واسعاً ، ويحمل مصباحاً مخنوقاً . ويُحمل إلى مishi ، ثم إلى منزل حيث تُعنى به فتاة صبية تدعى ماري .

ثم كان رحيل عبر «سهول فسيحة ، وغابات هائلة» ، إلى أن وصلوا إلى إيطاليا .  
ثم انتقل إلى بلاد - ربما كانت أميركا - حيث وجد مرينته الألمانية . وكانت في هذه الأثناء قد تزوجت ساعاتها علم ناوندورف مهنته .

وتوفي أبوه بالتبنّي ، وخطب ناوندورف ماري . فهل كان ذلك خاتمة أحزانه؟ لا :  
فقد عاد فظاهر الحامي الغامض كما لو كانت العناية الإلهية قد ارسلته ، فحمله بعيداً عن المنزل الذي كانت أيدٍ مجرمة قد لغنته .

وبلغوا إلى كهف ، وركبوا من البحر . وقد أقيمت ماري والحامى الغريب من فوق حافة المركب . وتطأ قدما ناوندورف مجدداً أرض فرنسا ، حيث يُسلم مجدداً إلى مضطهديه . وإثر مغامرات جديدة ، أكره على توقيع تنازل عن العرش . ونقله بعض الرجال المقنعين ، ولكنه ، من حسن طالعه ، اكتشف بينهم حامياً اغتنم فرصة حادثة جرت للعربي لكي يختطفه . ويصلان إلى ستراسبور ، ويوضع اليتيم في كهوف النبيذ في أحد الحصون ، بحراسة رجل عجوز .

وينقذه الحامي الجديد ، وقد تنكر ملابس الخدم ، مرة أخرى ، ويحمله إلى دوق برونزفيك الذي يوفر له حراسة .

ومن مغامرة إلى مغامرة ، يصادف الولد الملكي رجلاً غريباً يقدم إليه أوراقاً رسمية باسم ناوندورف . ويستقر في برلين . أما أوراقه الحقيقية ، فقد ادعى أنه سلمها إلى

لوكوك ، مدير الشرطة الذي أخفاها «لأن من شأنها أن تعكر صفو الأمن والنظام العام». وهكذا ، إذا ، يستحيل إثبات نسبة الملكي قانونياً .

### أمرؤ يدعى كارل فيرغ

في رواية ناوندورف الضبابية ، لا يظهر أي اسم يتبع ايجاد شهود لغامراته الغربية . ولم يكتمه أحد أنه يلام على غموضه وعدم دقته .

يبدو من بعض البحوث ، ان بالإمكان إثبات ما يلي : كارل فيرغ ، المعروف باسم ناوندورف ، أبصر النور في بوتسدام . كان جندياً في حامية هاله ، في التمسا ، وقد أقام بين السنة ١٧٩٥ و ١٨٠٠ علاقة عاطفية مع السيدة زونتفيلد ، المولودة كريستيان هاسرت ، ورُزق منها بولدين .

وفي السنة ١٨١٠ كان في برلين ، حيث عمل باائع ساعات خشبية متوجلاً ، ثم استقرّ ساعاتياً السنة ١٨١٢ في شبانداو . وفي السنة ١٨٣٢ نقل تجارتة إلى براندنبورغ ، حيث لم ترج أعماله . وأثنـهم السنة ١٨٢٤ بجريمة حرق ، ولكنه بـرئ لأنعدام الأدلة . وفي السنة التالية ، حُكم عليه بالسجن مع الاشغال الشاقة ثلاثة سنوات لإصداره نقوداً زائفة .

لقد وجدت رواية مغامراته الغربية أرضاً خصبة في فرنسا لدى عدد من الناس الذين لم يستطيعوا أن يصدّقوا أن لويس السابع عشر قضى في سجن التامبل . وقد وجد سندًا لدى كثرين ، لعلّ أبرزهم الملكي المتحمس أبوي ، القاضي السابق في كاهور . وقد اتخذه ناوندورف كقائم بالأعمال ، بعد أن طلب منه ، قبلًا ، إعانت مالية .

إلا أن أبوي ، أبدي ، مع ذلك ، بعض الشكوك ، واستشار كتابة ، شاتوبريان ، الذي نصحه بأن «يحفظ بماله ، ويحذر من المحتالين ». وطلب أبوي إلى أخيه المقيم في باريس ، أن يزور ناوندورف الذي هبط العاصمة الفرنسية في ٢٨ أيار ١٨٣٣ . فإذا بكارولين أبوي ، زوجة شقيق القاضي ، هي التي قامت بالزيارة ، وقد صرّحت بأنها ذهلت بمشيته التي تدلّ على العظمة ، مع استغرابها ان يتكلم ناوندورف اللغة

الفرنسية بلهجـة المـانـة شـنـعة .

ووصل ألبوي بدوره الى باريس ، فافتئن بالمطالب بالعرش : لقد عرف فيه ملامح آل بوربون . وتألف حول ناوندورف بلاط ملكي صغير ، كان في جملة أفراده اثنان من ظلّ حياً من الحاشية السابقة هما السيدتان ماركو دو سانت - ايلير ، ومدام دو رامبو ، التي كانت وصيفةولي العهد . ولم تتردد في التعرف الى الولد الملكي بعد مرور أربعين سنة .

واراح الأنصار ، في هذه الأثناء ، يبحثون عن الإثباتات المتعلقة بالنسب الملكي .  
فأعلن ناوندورف أنه ترك هذه الوثائق في ألمانيا . فذهبت السيدة كارولين أليوي ،  
ولكنها لم تجد سوى فواتير غير مسددة .

ولم يكتفي المؤمنون بذلك بهذا الاحتفاق ، بل ظلوا متشبثين باعتقادهم وقرروا اللجوء الى شهادة كانوا يحسبونها حاسمة ، وهي شهادة الدوقة دانغوليما ، شقيقة لويس السابع عشر . فطاردوها باللحاج في براغ ، ولكنها رفضت كل مقابلة .

اعتداء غامض

وتجري مغامرة درامية كثيرة . في ٢٨ كانون الثاني ١٨٣٤ ، وفي ضواحي الكاروسيل ، اعتدي ذات ليلة على ناوندوف بطعنة خنجر من رجلين مجهولين صاحبا به : «مت ، يا كابيه ! ولكن مdalية تحمل رسم السيدة العذراء حولت الطعنة القاتلة ، فنجا ، لأن العناية الآلهية كانت تسهر عليه .

واغتنم الملكيون من أنصار آل بوربون المناسبة هذه لكي يتهموا الملك لويس - فيليب بأنه يرغب في إزاحة لويس السابع عشر . وحاولوا مرة أخرى تدبير مقابلة بين ناوندورف والدوقة دانغوليما . ولكن ذهبت كل الجهود عبثاً ، فقد بقيت الدوقة على عنادها ، وأصمت أذنها .

عندما قرر ناوندورف أن يطلب من العدالة تصحيح وضعه المدني - يعني آخر التصديق على صفتة كابن الملك لويس السادس عشر . وإذا كانت العدالة لم تُبدِ اي عجلة في التورط بهذه القضية ، فإنها بدت أكثر سرعة في حسم دعوى أخرى :

فضحيفة «العدالة» التي تأسست للدفاع عن قضية المطالب بالعرش ، لوحقت بشخص مديرها أوغست توما من قبل دائنين لم تُسدّد ديونهم . فانتقض توما على ناوندورف ، واتهمه بأنه خدعه ، وبأنه ليس سوى أمرىء محتال . ورد ناوندورف بإقامة الدعوى على توما مطالباً إياه بتقديم الحسابات ، وبإعادة وثائق سبق له أن قدمها إليه .

وأبرز ناوندورف نسخة عن ثلاث رسائل تميل إلى إثبات اختطافه من سجن التامبل . ومن سوء طالعه أنه لم يستطع أن يبرز النسخ الأصلية من هذه الرسائل (التي أثبتت تزييفها الأخطاء التي تضمنتها) . وحسب نفسه مع ذلك من القوة بحيث يضرب ضربته : فأرسل دعوة إلى الدولة دانغوليم بالحضور إلى المحكمة . هذه المرة اعتبر الملك لويس - فيليب ان المطالب المزعوم بالعرش قد بات مزعجاً جداً ، فسُجن ، ثم طُرد .

### نعش وأوراق عتيقة

وهبط ناوندورف لندن ، حيث أذكر الرواية الأولى لحنته ، واعتمد رواية أخرى ، سطرها أنصاره ، هي : «مختصر قصة نكباتولي العهد ، ابن الملك لويس السادس عشر» . وفيها نجد رواية جديدة حول الهرب من سجن التامبل . أخفوه رداً من الزمن في سقيفة ، في السجن ، بعد أن استبدلواه بفتى آخر ، مقعد لم يلبث أن مات . وكانت هذه الوفاة مناسبة لاستبدال جديد : أخفي الولد الميت في الطبقة الرابعة ، ووضع الولد الحي في النعش . وخلال المسيرة إلى المقبرة ، أخرجوه من النعش الذي حشوه بالأوراق العتيقة لكي يبقوا على الثقل . والى غموض محنته ، أضاف ناوندورف عنصراً خارقاً للطبيعة : أدعى أن السيد المسيح ظهر له ، وكلله مهمة كشف الحقيقة . وأوفد كاهن من أنصار ناوندورف إلى روما مبعوثاً لدى البابا غريغوار السادس عشر ، لإبلاغه بالرؤيا . وقد تكهن ناوندورف باغتيال الملك «في ٢٧ تموز على أبعد تتعديل» .

ومرّ يوم ٢٧ تموز دون أن يصاب لويس - فيليب بأذى . ثم إنّه أصدر منشوراً موجهاً

إلى الفرنسيين ، قرر فيه إسقاط الملك عن العرش . وقد جرت هذه المحاولة إلى المباشرة بلاحقة بتهمة التآمر على أمن الدولة . وجرت أعمال التفتيش لدى أنصاره .

### حرب على البابا

لم يكتفي ناوندورف بتوزيع ألقاب النبلاء على أنصاره ومؤيديه ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك : أوفد الأب أبير لكي يطلب إلى البابا عقد مجمع كنسي ، ودعا الأساقفة الالمان إلى الانفصال عن الكنيسة الرومانية ، والانضمام إلى الكنيسة الأنجيلية الكاثوليكية الذي ادعى أنه حاميها . وبغية تأزيم الأحداث زعم أنه كان ضحية محاولة اغتيال - إذ أصابته رصاصة في ذراعه - ولكن رؤيا سماوية حذّرته من ذلك . واشتبه البعض بأنه إنما جرح هو نفسه بنفسه .

كانت نتيجة هذه التبيّنات أن أنصاره في فرنسا انفصلوا عنه ، وفي روما دان البابا غريغوار السادس عشر محاولته أحداث الانشقاق في الكنيسة .

من إنكلترا ، انتقل ناوندورف إلى هولندا حيث اصرف إلى إجراء تجارب خاصة بالألعاب النارية والصاروخية . وعيّن مديرًا للمصانع النارية في ديلفت ، حيث توفي في ١٠ آب ١٨٤٥ .

وأجري كشف طبي على جسده : ظهرت ، فضلاً عن الندوب العديدة ، بعض الآثار ومنها علامة كان قد أشار إليها في باريس على أنها علامة خاصة - «علامة الروح القدس» - التي تميّز أفراد أسرة بوريون المالكة .

وقد خلف من زواجه بجان إنير السنة ١٨١٨ ، خمسة أبناء عُرِفوا بأسماء ملكية أو أميرية ، وهم : شارل العاشر ، وشارل الحادي عشر ، ودوق دانجو ، وكوونت دو بروفانس ، وكوونت دوبوتييه . وقد استمرت هذه الذرية حتى يومنا هذا ، وانقسمت فرعين طالما تنازعوا في شأن الحق بعرش فرنسا .

### ميت ذو مفاجآت

أُمِّن ميت ديلفت خلوداً غامضاً بفضل الجدل الذي أثاره أنصاره والمشنعين ، أكثر منه بفضل نسله .

وقد فازت قضية ناوندوف إلى واجهة الأحداث مجدداً السنة ١٩٤٣ عندما استقبل الكاتب والمؤرخ الفرنسي المعاصر أندريل كاستيلو ، مثل ابن حميد المطالب بالعرش في فرنسا ، البارون نوفو دو جينيير . وقد اقترح عليه هذا الأخير أن يقوم بإجراء اختبار على خصلة من شعر ناوندوف بهدف مقارنتها بخصلة من شعرولي العهد لويس السابع عشر . وأسندت مهمة الاختبار هذا إلى اختصاصي شهير في العلم الجنائي هو الدكتور لوكار ، من لyon . فلاحظ هذا ان لشعر ناوندوف الخصائص نفسها التي يتميز بها شعرولي العهد : تحول في القناة النخاعية .

وبدا ذلك برهاناً على أن ناوندوف هو حقاً لويس السابع عشر . . .  
وهل كانت تلك النقطة الحاسمة في الموضوع؟ لا .

فبعد ذلك بسبعين سنة ، وفي ٢٧ أيلول ١٩٥٠ ، وبحضور عدد من العلماء والشهود ، فتح الدكتور هولست ، الخبير لدى المحاكم الهولندية ، نعش ناوندوف في ديلفت ، لكي يحاول تحديد سنه .

فإذا كان ناوندوف - كما يدعى بعض المؤرخين - المدعو كارل فيرغ ، فإن عمره لدى وفاته ينبغي أن يكون أكثر قليلاً من ٦٨ سنة . وإذا كان ناوندوف لويس السابع عشر ، فإنه لا يمكن أن يكون تجاوز الستين . وكان استنتاج الدكتور هولست : لم يتتجاوز الميت الستين ! إذا ، فذلك هو تأكيد لنظرية ناوندوف .

وحصل أندريل كاستيلو على الإذن من دائرة المحفوظات (الأرشيف) ، في ديلفت ، لكي تُعرض خصلة الشعر التي عرف أنها محفوظة في تلك الدائرة ، على الدكتور لوكار .

وكانت مفاجأة : لم يُعثر على التحول في المجرى النخاعي على شعرولي العهد الحقيقي . إذا ، فاندوف ليس لويس السابع عشر !

ولكن ، ماذا عن الفحص الأول؟ لقد استنتج كاستيلو من هذه النتائج المتناقضة أن خصلة الشعر المعزوة السنة ١٩٤٣ إلى ناوندوف ينبغي أن تكون حتماً خصلة من شعرولي العهد : إذا ، فقد تم مقارنة خصلتي شعر من الشخص نفسه . وفي كتابه «سرّ لويس السابع عشر» ، يعترف كاستيلو بخطأه ، معتبراً مع ذلك ، عن الرأي القائل

بأن ناوندورف كان لديه أسرار ، ولا ريب ، لم يكشفها ، وأنه في لحظة ما ، لا بد أن تكون تقاطعت حياته وحياة لويس السابع عشر . ومن هنا السؤال : هل كان في متناول ناوندورف وثائق مجهولة؟ هل اشتراك ، مباشرة ، أم بطريقة غير مباشرة ، بالهرب من سجن التاميل؟

وهنا يبرز سرّ آخر : سرّ الملف «الاحمر» ، في دائرة المحفوظات التابعة للكيه دوريسيه (مقر وزارة الخارجية الفرنسية) ، الذي حمله الالمان السنة ١٩٤٤ ، وهو موجود اليوم في موسكو .

ويُعتقد أن هذا الملف يضمّ وثائق جمعتها الدوائر السرية لدى الملك لويس - فيليب ، وتثبت أن أتوال ناوندورف هي صحيحة ! ومن هنا كان القرار المتخذ بوجوب دفن القضية في دوائر الكيه دوريسيه حيث يزعمون ان كل من تسلّم وزارة الخارجية ، بعد الوزير الشهير دو فرغين على زمن الملك لويس السادس عشر ، لا بدّ أنه اطلع على هذا الملف الشهير . فإذا كان ذلك صحيحاً ، فكيف حدث أن أحداً لم يكشف عما اطلع عليه من سرّ لم يعد له اليوم أي قيمة تاريخية؟ !

## هل قضت الممثلة آدرلين لوکوفور بالسم على يد الدوقة دو بويون؟

في ذات يوم من شهر آب ١٧٦١ ، كانت ممثلة التراجيديات المعروفة آدرلين لوکوفور تقوم بدورها في مسرحية فيدر للروائي جان راسين ، عندما وقع نظرها على الدوقة دو بويون ، وقد جلست في المقصورة الأولى . وكانت هذه السيدة الشهيرة تكرهها لأن موريس دوساكس كان يفضل عيني الممثلة الجميلتين على اسمها الكبير .

وتورّدت وجنتا آدرلين بحمرة الغضب ، فالتفتت باللحاج شطر الدوقة ، وبدت كأنها توجه إليها الآيات المحرّقة التي يتطلّب منها دورها أن ترددتها ، وهي :

«أنا لست قط من تلك النساء الواقعات ،  
اللواتي ، اذا ما تذوقن في الجريمة سلاماً هادئاً ،  
استطعن الظهور بوجه لا يحمر أبداً».

وصفق الجمهور ، الذي كان على علم بالمنافسة بينهما ، تصفيقاً حاداً . وشجّبت ملامح الدوقة . وقد جعلتها هذه الإهانة المباشرة تصمم على الانتقام . وكان ذلك بالنسبة إلى آدرلين لوکوفور تحذيراً سبقياً : فالدوقة ستُرتكب جريمة ، وستكون آدرلين ضحيتها . بعد ربع من الزمن ، استقبلت الممثلة أحد رجال الدين ، وهو الأب بورييه ، وقد جاء يحدثها سراً :

- إني أحمل شرابةً بشكل أقراص ، كلفتني الدوقة دو بويون أن أسلّمك إياه ، دون أن أعلمك أنه منها ، بحيث يبدو أنه ملبّس عادي . في البدء حسبت أنه شراب الحب القادر على احداث الانفصال بينك وبين الكونت دوساكس . ثم مالبثت أن عرفت أنه

سمّ !

وشكلت آدرین لوكوفور الكاهن ، ثم حملت الأقراص إلى دائرة الشرطة . فكلف المسؤولون كيميائياً تحليلها ، فأكّد أنها ليست سامة البتة . وما لم يقله الكيميائي هو أنه جعل كلباً يأكل منها ، فصعق في الحال . لقد كان للدوقة أصدقاء في كل مكان !

وتقديمت الآنسة لوكوفور بشكوى . ووصلت القضية إلى الوزير الأول ، الكاردينال دو فلوري الذي أصرّ على توضيح القضية . وقد كان . . . وكانت النتيجة أن أُلقي القبض على الكاهن بتهمة الافتراء ، وزُجَ في سجن سان - لازار . وتدخلت آدرین لمصلحته . وقد حفظت الرسالة السمعة التي كتبتها في ذلك الشأن :

«طالما تحدث طويلاً إلى الاب بوريه . وإنني لأجد من الأسباب التي تجعلني أتمنى أن يكون معجناً أكثر من مائة سبب ؛ ولكن فكرروا فيما إذا كان بريثاً ، يا سيدي ، لكم ينبغي لي أن اهتم بحياته ، ولكم هو قاس على هذا الشك .» في الوقت الذي كان يُتهم فيه الكاهن ، كانوا يزعمون أنه لا يتمتع بكل قواه العقلية .

ويعد بسبعين شعرت آدرین لوكوفور بانحراف وهي فوق خشبة المسرح . وكانت في أحد عروضها ، قبلًا ، قد احست بنوبة مغص حادة ، مما اضطررها إلى مغادرة المسرح حوالي عشرين مرة إلى الكواليس . وكان برازها مخضبًا بالدم . في ذلك اليوم لم تستطعمواصلة تأدية دورها . فحملت إلى منزلها ، حيث أسلمت الروح . وكانت آخر كلماتها :  
- لقد سمتني !

وكان صديقها فولتير ، وموريس دوساكس ، لدى سريرها وهي تلفظ أنفاسها . الأول لم يشأ أن يعتقد أن هناك قضية تسميم ، فقال :  
- لقد ماتت بين ذراعي بسبب التهاب في الأحشاء ، وأنا من أمر بتشريحها . وقد أظهر التشريح أن أمعاءها كانت في حالة مرعبة ، وأنها بدت مصابة بالفنغرينا

أو بالأكال .

ما هي الحقيقة التي تخفيها هذه النهاية السريعة؟ لن يعرفها أحد أبداً ، بلا أدنى شك !

على سرير النزع الأخير ، استدعت الدوقة دو بويون كل أصدقائها والمحبظين بها ، وشاءت أن تعرف علينا بخطايتها . وقد فعلت ، ثم إنها أقسمت الأيمان المغلظة بأنها لم ترتكب قط الجريمة التي اتهمتها بها باريس بأسرها .  
ومن جهة ، أطلق أحد كبار القضاة الفرنسيين ، هو الرئيس بوهبيه ، إثر انكاباه على دراسة الملف ، هذا القول الغامض :  
ـ ان موت آدرلين لو كوفورر ليبعث على الارتجاف !

### صديقة فولتير

كانت آدرلين لو كوفورر قد ابصرت النور قبل ذلك بخمس وثلاثين سنة ، في أسرة فقيرة في إقليم شامبانيا ، في بلدة دامر ، بالقرب من اييرني . وكان والدها صانع قبّعات ، ويدعى كوفورر ، فجعلته هي لو كوفورر . وقد أصيب بمس في ما بعد ، الأمر الذي أدى إلى احتجازه .

ولكن مع ذلك تسبّي الوقت لكي يسيء معاملة الطفلة ، فكان يضرّها بعنف ودونها شفقة . وفي ذات يوم ، أضرم النار في الحجرة التي يقيم فيها ، وصعد فوق كرسي وسط الحريق . وبالكاد أنقذ من الموت المحتّم .

تعلّمت آدرلين القراءة لدى فتيات التعليم المسيحي . وقد رعتها احدى عماتها ، وكانت تعمل غسّالة ، واسكتتها معها . وكان في جملة زبائن العمّة مثل يدعى لوغران ، اهتم بالصبّية ، وراح يعلمها فن الإلقاء . وأتاحت لها مهنة التمثيل كسب بعض المال . واشتركت في جولة تمثيلية في كل من لونيفيل ، وستراسبور ، وفردان ، وليل ، حيث كان الجنرال مارلبورو يحاصر المدينة . وتعرّفت آدرلين إلى أحد الضباط ، فكان حبها الأول ، وخيبة أملها الأولى . وتوضّح هذه الاختبارات البائسة ، فلسفتها : «أنا أعرف ، بالخبرة ، أن المرء لا يموت من الحزن . إنني متبعة من الحب ، وتسوّل

لي نفسي قطع كل علاقة معه ، ذلك بأنني ، في النهاية ، لا أود أن أموت ، ولا أن أصبح مجنونة .»

وهكذا ، بعد أن أسلكت قلبها ، باتت المرأة اللامبالية ، والمعبودة التي يحب الرجال ، أكثر مما تحبّ هي ، أن تجعلهم يقظتون . وهام بها فولتير وجداً . ماذا كان بالنسبة إليها؟ هل ينبغيأخذ هذا التكريم الذي قدمه عقب وفاتها ، على محمل الجد ، والمعنى الحرفي له :

«أنا من كان المعجب بها ، وصديقتها ، وعشيقها .»

في ٤ أيار ١٧١٧ ، التحقت بفرقة الكوميدي فرانسيز ، ومثلت رواية «أنجيل» لجورج داندان . كان صوتها موسيقياً ، ولكنه أبجّ قليلاً . وقد أحدثت ثورة إذ أدخلت البساطة والعفوية إلى التمثيل ، مبدية في ذلك أناقة كبيرة . وقال المشاهدون في هذا الصدد : «كنا نحسب أننا نشاهد أميرة تقوم بالتمثيل إرضاء لرغبتها .» ومثلت كذلك «بيرينيس» لجان راسين ، وحققت من الشهرة ما جعلها تمثلها ١٣٩ مرة خلال عشرة أشهر ، وحمل الأب دالانفال على عدد آدرلين لو كوفورو بين عجائب باريس الأربع ، علمًا بأن العجيبة الأولى هي قصر التوليري .

### حب مؤثر

وهام بحب آدرلين فتى في السابعة عشرة من سنه ، يتمنى إلى أفضل عائلات فرنسا ، هو الكونت دارجنتال . وقد بلغ جنونه بحبها أنه أراد الاقتران بها ، في عصر لم يكن بسع اي فتى من أسرة معروفة ، الزواج بممثلة .

وأرادت أم الكونت التي تزوجت ثانية ، وتعرف بالسيدة فيرييو ، أن توفده إلى الطرف الآخر من العالم ، إلى سان - دومنغو .

عندما قامت آدرلين بعمل حسن . زارت السيدة فيرييو لكي توضح لها أنها لا تحب ابنها ، وأنها لا تسعى وراء ثروته ، وأنها ستتصرف بطريقة تجعله ينفصل عنها . ولما كانت السيدة العجوز تصغي إليها بالكاد ، فقد كتبت اليه رسالة ضمتها عزمها ، وخطّتها ، وتخليها عنه . وفي ما بعد ، وبعد ان قضت ، وكان الكونت قد بلغ الثمانين

من عمره ، وجدت احدى سكرياته الرسالة التي كان يجهل وجودها دوماً . وكان قد فقد نعمة النظر . ومن عينيه المنطفئين سالت دموع غزيرة : لقد عاد فرائى منذ اكثرا من ستين سنة هذا الحب الجميل الذي عرفه في صباح ، وعرف ، أخيراً ، التضحية السخية التي أقدمت عليها آرددين لو كوففور .

### تعزيز الممثلة

وأحدثت آرددين لو كوففور ثورة اجتماعية صغيرة . رفعت الممثلة التي كانت ما تزال محترقة ، إلى مرتبة السيدة المحترمة . كانت تستقبل علية القوم في دارها ، وكانت تنعم باحترام الكثيرين واعتبارهم ، بحيث أن سادة كباراً مثل الدوق دو ريشليو ، والدوق دو لا روشفوكو ، وفونتنيل ، وفولتير كانوا يتناولون العشاء إلى مائدتها . ولم يقتصر ذلك على الرجال ، بل إن النساء دعين إلى مأدبتها . وبذلك أدخلت الممثلة طبقة المجتمع الراقى . وكانت تُقبل إلى حفلات الاستقبال التي تقييمها كل من الدوقة دو مين ، والمركيزة دون سيميان ، ومدام دوبومبون ، والرئيسة برتبيه . وكانت غنية ، بلغت ثروتها ٣٠٠ ألف ليرة فرنسية ، وكانت خزانة ثيابها رائعة .

وُعرفت بحسن كتابتها ، وُعتبرت الرسائل التي كتبتها رواحة أدبية حقاً .

وكانت مكرورة من نساء كثيرات ، حتى أنه كانت تُقدم مسرحية هزلية يُسعّر فيها منها بعنوان «الممثلة على الموضة» . وفي يوم كانت ستقوم بدور عازفة على الغيتار ، في حين كان الموسيقي يعزف في الكواليس ، فإذا بالختباء يقطعون أوتار غيتار العازف الحقيقي . ولكنها تخلّصت من هذا «القلب» على أفضل وجه ممكن ، إذ استغرقت بالضحك .

دخلت المأساة حياتها تحت ملامح موريس دو ساكس ، ابن فريدرريك - اوغست ، منتخب ساكس ، وملك بولونيا ، وزوجته اورور دو كونغسمارك . فقد شاهدها في مسرحية «فيدير» ، فكان حبّ من أول نظرة . ولم يكن يتجاوز الرابعة والعشرين . من أجله ارتكبت آرددين حماقات كثيرة : باعت مجهراتها ، وعرباتها ، لكي يتمكن من دعم ترشيحه لعرش بولونيا . وقد انتخب دوق دو كورلاند ، ولكنه

طرد من البلاد بعد شهرين اثنين . واستمرت علاقتهما تسع سنوات ، ولكنه لم يكن وفياً لها مطلقاً .

ومع ذلك ، كان - حسب ما ذُكر في أحد التوارييخ الاخبارية - الشخص الوحيد الذي رافق جثمانها إلى مثواه الأخير في المقبرة العمومية .

ذلك بأن نهاية آدرلين لو كوفور كانت جدّ بائسة وكئيبة : بقدر ما كانت شهرتها عظيمة وغريبة . وبالرغم من الهبات الكثيرة التي قدّمتها إلى الفقراء ، فقد رفض كبير أساقفة باريس دفنتها في تربة مسيحية . فلقد كانت مثلاً ، وهي وبالتالي ، مرمية بالحرم .

وتحمل جثمانها ليلاً حرس المراقبة ، وألقوه في الحفرة غير بعيد من نهر السين ، وذلك في المكان الذي يتقاطع فيه اليوم شارع لا غرونيل وبورغونيا .

وقد ثأر فولتير لذكرها ، بعبارة بسيطة ، مملوءة سخرية وتهكمًا : «المضحك في الأمر أن الجنادل يُدفنون بمراسيم دينية ، ويلقى جثمان الآنسة لو كوفور في مقلب نفايات !»

# ملحق مصوّر

## ١ - من التاريخ الفرنسي



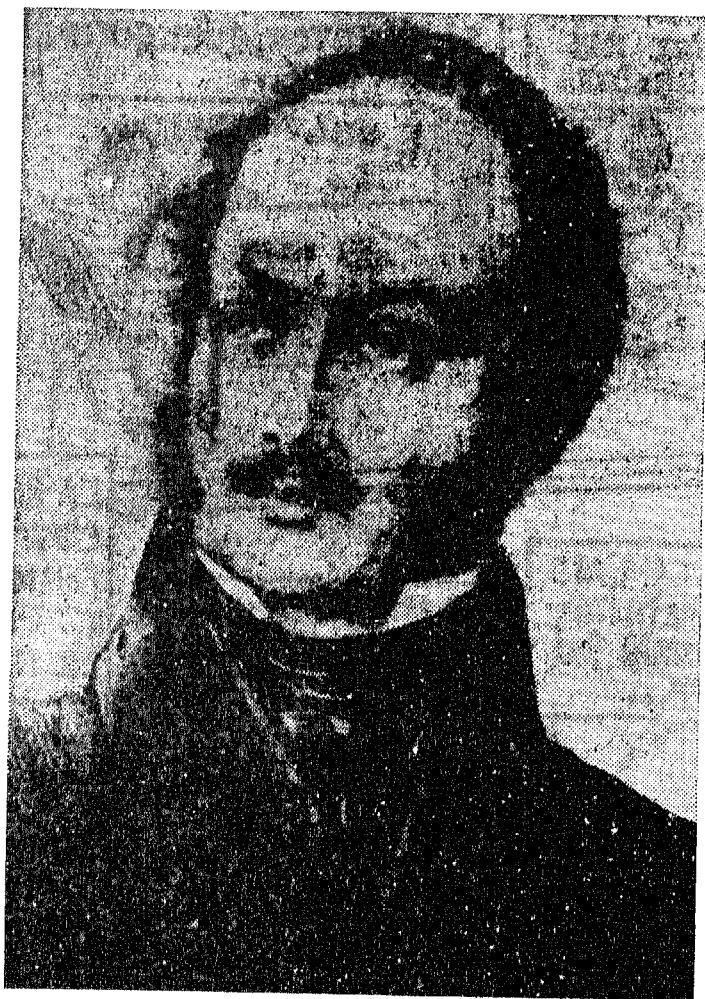
مدام روایال وشقيقها ولی العهد .



لويس السادس عشر شاباً .



لويس السابع عشر ،  
ولي العهد الصغير .



شارل ناوندورف ،

السنة ١٨٣٦ .



لويس السابع عشر .



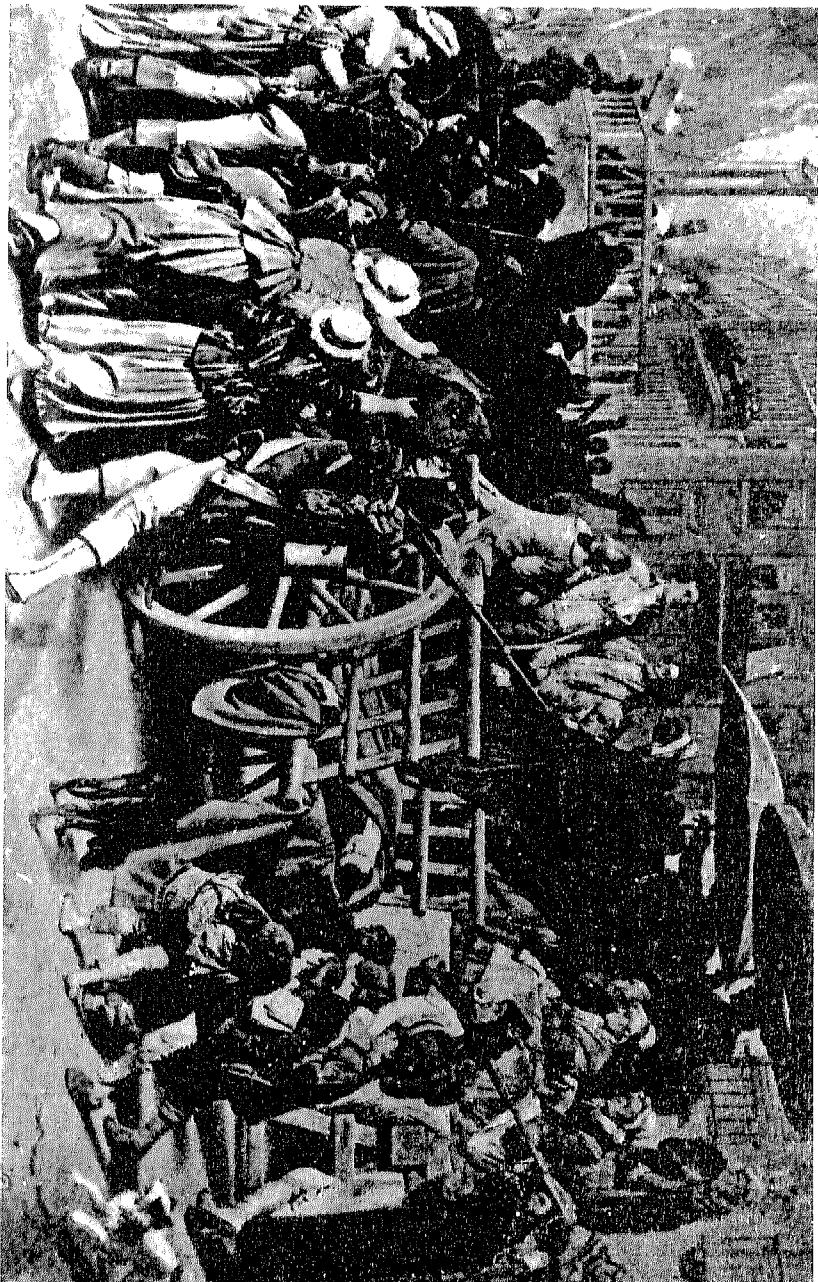
هذه البلاطة وضعت السنة ١٨٤٥ فوق ضريح  
ناوندروف

هنا يرقد  
لويس السابع عشر  
شارل لوبي ، دوق دونورماندي  
ملك فرنسا ونافار  
مولود في فرساي في ٢٧ آذار ١٧٨٥  
متوفٍ في ديلفت في ١٠ آب ١٨٤٥

انتظر فوكـهـ - تأثـيل ، الدـاعـي العام في الجـمـهـورـة الفـرـنـسـية ، سـبـعـة شـهـرـ قـتـلـ أـنـ يـعـلـى لـامـ المحـكـمة . وـفي السـجـن حـضـرـ دـاعـهـ بـنـفـسـهـ .



نتيجة أعمال فوكيه - تأهيل لحساب بجنة السلام العامة الرئيسية . هؤلاء الجنرالون كانوا يستمرون إلى حزب في الجمعية الوطنية ، لم يكن جمهورياً فانياً .  
وقالوا ، وهم يطالعوا بإعدام الملك لويس السادس عشر .





استفت مصودة أستيل في المحمدية النابولي ، من أوسترليز إلى تول ، مصادره وحي علية . وهذا هو الكلام الذي يرافق هذه الوثيقة ، وهو يمثل الكارثة النهاية في ١٨ حزيران ١٨١٥ : «حاول نابوليون لم شمعت المنهرمين ، ولكن الأواني قد فاتت ؛ وكان ضده الفوضي ، الفعلمة ، والهلع ، وكل الذين كانت خيانة يومون وسائر الجبناء قد حضرته له منذ عودته . وعندما ، وبعد أن بات غضبه الشديد الناصح الوارد له ، قام بتشكيل رمأة الرمانات على صورة مرتبع ، وتأهب للوقوف في وسطهم انتظاراً للمدمرات ، عندما أوقفه المارشال سولت ، قائلاً : «مولاي ، إن الاعداء ليس لهم ذلك كثيراً ، ولقد فاعلى صهوة جنودهم صوب شارلوبي ، منتحين من أكثر أنواع الفوضي المرعية التي عرفوها في جيش» .



أكسل دو فرسن



ماري - أنطوانيت



الملك لويس السادس عشر

لماذا لم أقض إلى جانبهم ، من أجلهم ، ومن أجلها ، في ٢٠ حزيران؟ . . . » ردّ أكسل دو فرسن في يومياته . لم نفتاً نتأثر بقصة السويدي الوسيم « ذي الروح المشتعلة تحت قشرة من الجليد » ، وأجمل ملكات فرنسا ، ماري - أنطوانيت . هاهم ، كما تعارفا ، عندما لم تكن إلا زرجة ولبي العهد ، وقد زوجت زواجاً سيناً إلى ولبي عهد آخر ، لويس السادس عشر في ما بعد . وكانت وفاة دو فرسن في حزيران ١٨١٠ .



«لم تعارض السيدة دو بولينياك قط ذوق صديقتها . . .  
وحبدت اللقاءات النادرة بين «المقامر الأخير» و «الملكة  
الأخيرة» .

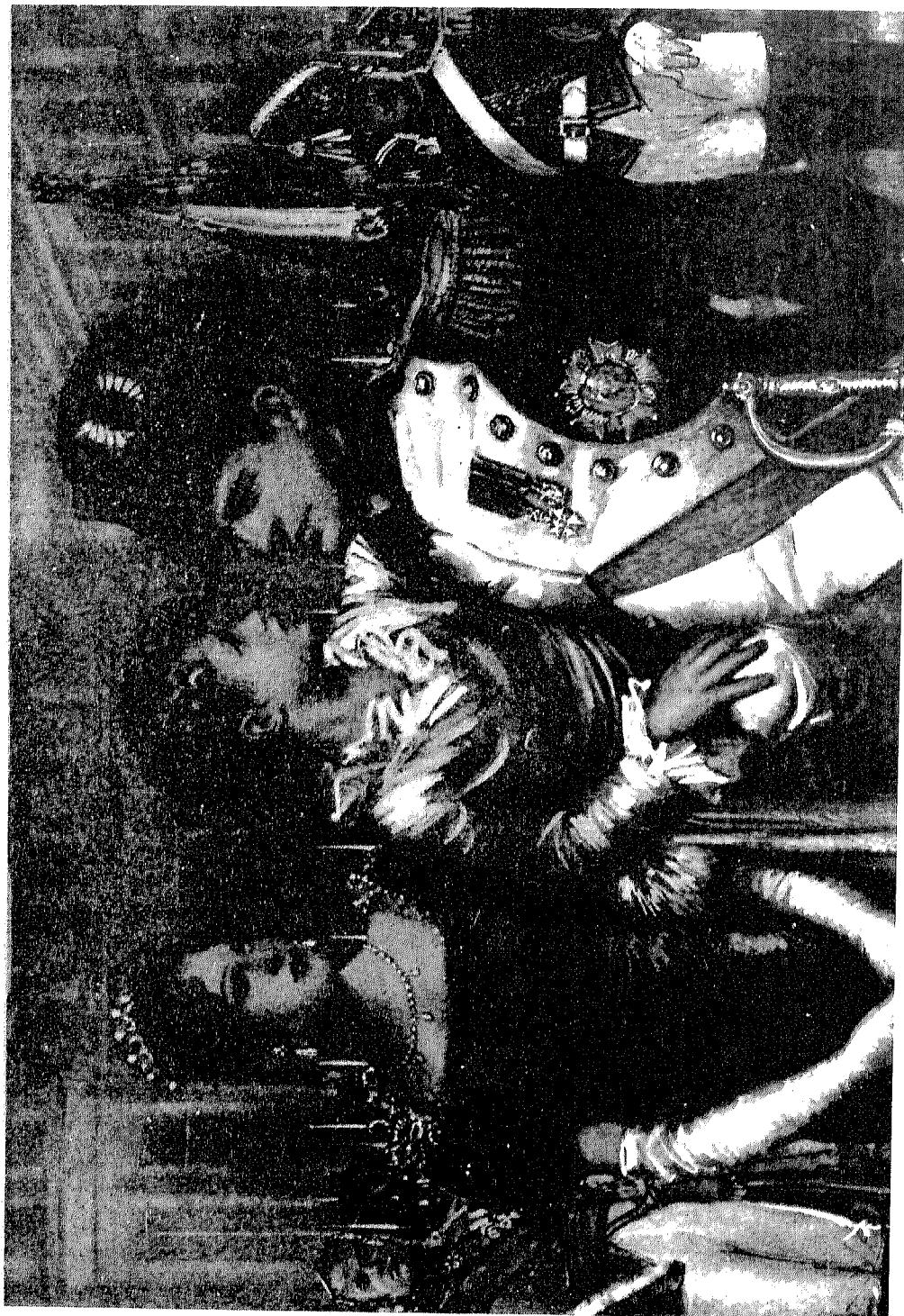


كانت الدوفينية تعشق الرقص الذي كان ينسجم مع  
قدّها اللين الدقيق ، وتأهّب لكي ترى ، مجدداً ، في  
حفلة دار الأوبرا الراقصة ، الغريب «الوسيم مثل  
الملك» الذي سبق أن قدّمه إليها .



الملكة أورتنس ، ابنة زوجة نابوليون . . .  
كان الحزن قدرها !

قال نابوليون ، مودعاً لأورناس والامير الصغير لويس ، قبل معركة وترلو : (فيليه ، يا أورناس ... ربما كان أمل أسرني ! ) .





زولا بين ولديه من جان : إلى  
اليمين دنيز ، والى اليسار جاك .



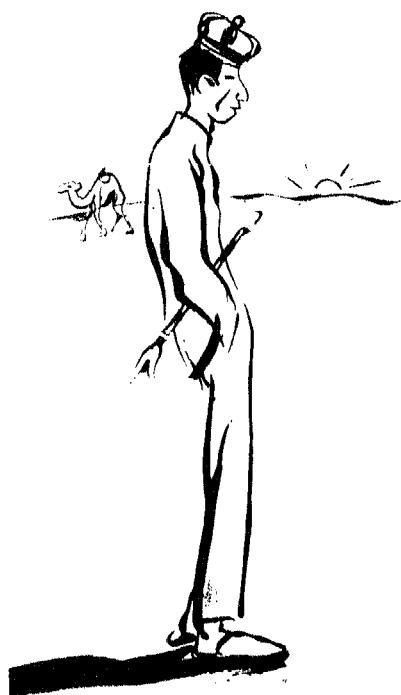
الإمبراطورة أو جيني .



جيء الوحيد : جان روزيبو .



كان للوبودي ، طوال ملحمة الصحراء ،  
الموهبة لإلهام رسامي الكاريكاتور في عصره .  
(الصورة : عنكبوت من تركيا هدية صاحب  
الجلالة ) .



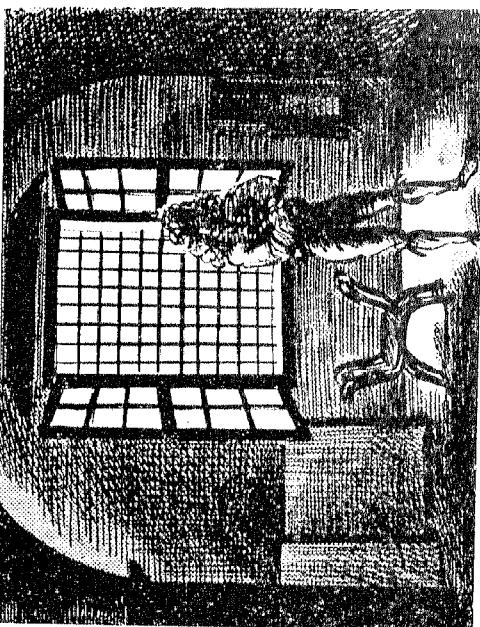
لوبودي ، «امبراطور الصحراء» . رسم  
كاريكاتوري بريشة سيم ، في السنة ١٩٠٣ .

احدى الصور النادرة لماري ، الامبراطورة  
الجميلة .

ذو القناع الحديدي

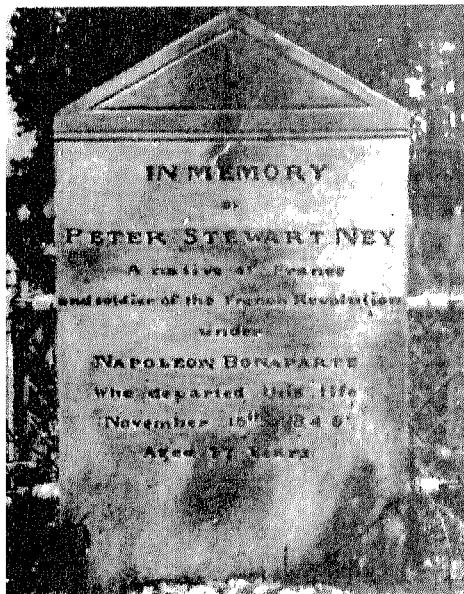


الصورة فوق قلعة جزيرة مورغريت حيث سجن ذو الشاع الحديدي





قلعة جزيرة سانت  
مرغريت حيث سُجن  
ذو القناع الحديدي .



من يرقد تحت هذا الضريح؟ أهو حقاً «أشبّح  
الشجعان» ، المارشال المفضل لدى نابوليون ، أم أنه  
دجال ، ليس إلا؟! إن السر يبقى بلا جلاء! وهذا ما  
نُقش على بلاطة الضريح بالإنكليزية :

إحياء لذكرى

بيتر ستيفارت ناي

من مواليد فرنسا

وجندي من جنود الثورة الفرنسية

تحت حكم

نابوليون بونابرت

الذي ودع حياته

في ١٥ تشرين الثاني ١٨٤٦

عن عمر ٧٧ سنة .



ميشيل ناي : أشجع الشجعان .



في هذا المنزل في ولاية كارولاينا الشمالية ،  
استقرت مدرسة هذا الرجل الغامض بيتر ناي الذي زعم أنه ماريشال نابوليون .



إيدا سنت إيلم ، إحدى أشهر ممثلات المسرح الفرنسي ،  
هل ساعدت الماريشال ناي على الفرار؟ هذا الرسم بريشة  
ديفييريا ، صُنِع بعد ٢٠ سنة من عملية الاعدام .

من ذيول مؤاهرة مالية:



شعر دادام سيلان المستشار



لدى عودته من مصر ، نزل بونابرت الى اليابسة في فريجوس . وحتى باريس ،  
استُقبل استقبال الفاخرين . كان ١٨ برومیر فريباً ...



اذا نحن صدّقنا الانكليز الذين نشروا هذه «الاسكتشات المصرية» في السنة ١٧٩٩ ، فإن هذه الوثيقة المنشورة هي من صنع فنان فرنسي ملحق بمعهد مصر . والافتراض أنه يصور سلوك جنود بونابرت - هؤلاء الوحشى المرعيبين ! - في بلاد محظلة . ويلحظ التعليق الانكليزي - بكل صراحة - ان «تصرّف الفرنسيين في فرنسا يشبه تقريباً تصرّفهم هم ».

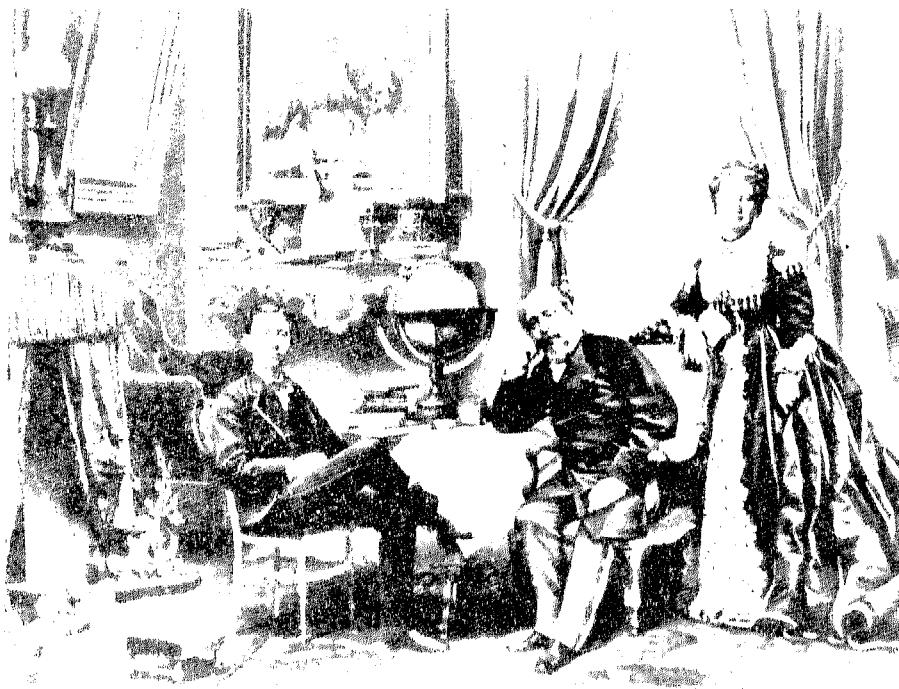
## فولتير الممثل



كان ، في الحقيقة ، شيشرون .



تحسب نفسك في جلسة محكمة .



الاسرة الاسبراطورية في المنفى ، في انكلترا .



الامبراطورة او جيني

## ٢- من التاريخ الانكليزي

- مأساة قلعة بونتفراكت .
- هل كان دجيمس ، دوق مون茅ث ، ابن الملك تشارلز الثاني الشرعي ؟
- روبن هود .
- قصة مدفأة السرر .
- الملك آرثر ، هل وجد حقاً ؟
- ماذا حدث لإدموند آيرنسايد ؟
- ماكbeth الحقيقي ، أي نوع من الرجال كان ؟
- هل قُتل الأمير آرثر ، دوق بريطانيا ؟
- من قُتل الأميرين في برج لندن ؟
- شكسبير : سرّ عمره ثلاثة قرون !
- هجوم فرقة الخيالة الخفيفة وانتحارها في «وادي الموت» .
- مخاوف بالنسبة إلى الأميرة .
- الحقيقة عن الكابتن بلاي والتمرد على السفينة باونتي .
- ملحق مصور

## الى القارئ

تسهيلاً لمتابعة وقائع الأسرار المتعلقة بالتاريخ الانكليزي ، ننشر في ما يلي لائحة بأسماء الملوك الذين تتناولهم هذه الأسرار ، تبياناً للصلات التي تربط بينهم ، مع إثبات السلالات التي ينتمون إليها ، ليكون كل شيء واضحاً بقدر الامكان . . .

من ملوك انكلترا  
سلالة بلاتدجينيت

هنري الثاني - ابن دجيفري بلاتدجينيت (من آنجو) من زوجته ماتيلدا ، ابنة هنري الأول .

رتشارد الأول - قلب الأسد ، ابن هنري الثاني .

دجون - لاكلاند ، ابن هنري الثاني ، وقع الوثيقة الكبرى (ماغنا كارتا) السنة ١٢١٥ .

هنري الثالث - ابن دجون ، اعتلى العرش في التاسعة ، تحت الوصاية حتى السنة ١٢٢٧ .

إدوارد الأول - لونغشانكس ، ابن هنري الثالث .

إدوارد الثاني - ابن إدوارد الأول ، خلعه البرلمان ، السنة ١٣٢٧

إدوارد الثالث - اوفر وندسور ، ابن إدوارد الثاني .

رتشارد الثاني - حفيد إدوارد الثالث ، ظل قاصراً حتى السنة ١٣٨٩ ، خُلع السنة ١٣٩٩ .

### سلالة لانكستر

هنري الرابع - ابن دجون غونت ، دوق لانكستر ، ابن إدوارد الثالث .

هنري الخامس - ابن هنري الرابع ، المنتصر في آجنكور .

هنري السادس - ابن هنري الخامس ، خلع السنة ١٤٦١ ، وتوفي في برج لندن السنة ١٤٧١ .

### سلالة يورك

إدوارد الرابع - ابن حفيد إدوارد الثالث ، ابن دوق يورك .

إدوارد الخامس - ابن إدوارد الرابع ، قُتل في برج لندن ، السنة ١٤٨٣ .

رشارد الثالث - كروكيك ، شقيق إدوارد الرابع ، قُتل في معركة بوزويرث ، السنة ١٤٨٥ .

\* \* \*

في ما يتعلّق بالأمير آرثر ، دوق بريطانيا ، ينبغي أن نشير إلى أن بريطانيا هذه هي المنطقة الغربية من فرنسا ، وعاصمتها رين .

في القرن الخامس هاجر бритانيون من جزيرة بريطانيا هجرة جماعية الى آرموريك ، التي اصبحت في ما بعد بريطانيا . وفي السنة ٨٤٥ ، جعل نومينوي بريطانيا مستقلة عقب انتصاره على الملك شارل الأقرع . وفي السنة ٩٣٨ هُزم النورمانديون ، وولدت بالفعل ، دوقية بريطانيا .

اما الأمير آرثر ، أو آرثر الاول ، فهو مولود في نانت ، (فرنسا) (١١٨٧ - ١٢٠٣) ، دوق بريطانيا ١١٩٦ الى ١٢٠٣ . ولد بعد وفاة أبيه الكونت دجيفرى الثاني (ابن الملك هنري الثاني الانكليزي والكونت كونستانس) . طالب بعرش انكلترا الذي وفاة عمه رشارد الاول ، قلب الاسد .

واما الملك فيليب الثاني الفرنسي ، فقد اُعرف بلقب فيليب الجليل أو المهيّب الفاتح

(١١٦٥ - ١٢٢٣) ، ابن الملك لويس السابع وأديل دو شامبانى . تولى الملك السنة ١١٨٠ . انتصر على كل من الملك هنرى الثانى ، ثم الملك رتشارد ، قلب الأسد - الانكليزيين - وقد اشترك مع هذا الأخير في الحملة الصليبية الثالثة . وما اختطف الملك دجون ، خليفة رتشارد الأول ، خطيبة هوغ العاشر دو لوزينيان ، ايزايل دانغوليم ، أصدر بلاط الملك فيليب المهيوب مصادرة النورماندى ، ومين ، وأنجور ، وتورين ، ويواتو (١٢٠٥) .

وانقضّ إذ ذاك فيليب على الفلاندر وكان سبق للأمير فردينان أن أعلن صراحة تأييده للملك دجون ، وقد انتصر على هذا الأخير الذي ناصره الانكليز والأمبراطور أوتون الرابع ، ملك برونزفيك ، في معركة بوفين السنة ١٢١٤ .

\* \* \*

## مأساة قلعة بونتفراكت

توفي الملك رتشارد الثاني في وقت مبكر من السنة ١٤٠٠ بعد أن خُلع ، واغتصب عرشه ابن عمه هنري بولنغبروك ، ابن دجون غونت ، الابن الرابع للملك ادوارد الثالث . وازاحة رتشارد الذي لم يعقب وارثاً ، كانت بداية انقسام سلالة بلانتجينيت المالكة ، والمنافسة التي اعقبت ذلك بين أسرتي يورك ولانكستر ، وجرّت إلى الحرب الأهلية المعروفة باسم «حروب الورديين» .

ليس ثمة كبيرة في إنكار أن اغتصاب هنري العرش كان غير شرعى نوعاً ما ، مهما يكن ذلك ضرورياً لسلامة البلاد آنذاك . فقد أجبر هنري الملك رتشارد على التنازل عن العرش ، وذلك بالتهديد بالموت بالنسبة إليه وإلى أصدقائه ، ودبّر أمر قبول البرلمان بحقه في العرش ، بحشده اتباعه وأنصاره المسلمين في مجلس العموم . وقد سمح البرلمان لهنري بعد ذلك ، بأن يسجن رتشارد مدى الحياة ، وسُجن ابن الامير الاسود السيني الحظ في قلعة بونتفراكت . وقد توفي هنا ، ولم تُعرف فقط الظروف الحقيقة لموته . وأدى ذلك إلى تعاقب سلسلة من الأساطير الغريبة ، شبيهة بالأساطير حول آثر ، ابن أخي الملك دجون . البعض يقول إنه إما امتنع عن تناول الطعام حتى مات أو انتحر بطريقة أعنف ، والبعض الآخر أكد أن هنري نفسه قتله ، إما بالتجويع الاكراهي ، أو بواسطة سلاح ما . حتى أنه زُعم أنه لم يمت ، بل هرب ، وعاش في المنفى في اسكتلندا طوال سنين عدة . ومهما يكن الجواب الصحيح ، فإنه لن يُفهم على حقيقته وكلياً ، دون موجز للاحاديث التي أدت إلى اغتصاب العرش من قبل هنري الرابع .

بعد ثورة الفلاحين السنة ١٣٨١ بأربع سنوات ، تسلم رتشارد الذي ابدى بسالة

فائقة خلال الثورة ، مقاليد الحكم ، وهو بعد في الثامنة عشرة . ولم يحاول عمه ، دجون غونت ، الوصي على العرش منذ السنة ١٣٧٧ أن يمنعه ، لأنه عرف أنه ، شخصياً ، لم يكن يتمتع بشعبية في البلاد لأسباب عديدة . وذهب غونت إلى إسبانيا للمطالبة بتاج قشتالة ، بموجب حق زوجته الثانية ، كونستانس القشتالية . وعندما ملا رتشارد الشاب المناصب الشاغرة في الحكومة بأصدقائه ، وكان رئيس وزرائه مايكيل دو لا بول ، ابن أحد التجار الاغنياء الذي منحه لقب ايرل سافوك ، فكان ذلك عملاً أشمازاً منه الكثيرون من النبلاء الاستقراطيين . وقد انعم كذلك بلقب نبالة على أمرئ يدعى روبرت دو فير ، فجعله مركيز دبلن وأوفده إلى ايرلندا برتبة نائب - لورد . واستخدم كذلك أخويه غير الشقيقين توماس وجون هولاند .

كان رتشارد شاباً ذكياً وقديراً ، وكان يتوقع منه أن يظهر كفاءة كبيرة في إدارة شؤون بلاده . غير أنه كان هناك أمرؤٌ وقف في سبيله بظموحة وحسده . كان هذا الرجل عمه الأصغر ، توماس وودستوك ، دوق غلوستر ، وهو عنيف ، مجرّد من المبادئ الخلقية ، وقد خاب أمله لما لم يتم اختياره خلفاً للجون غونت كوصي على العرش . وكان رتشارد يكره غلوستر ، وأقصاه عن الاشتراك في أي من شؤون الحكومة . سوى أن ذلك أثار عمه ، فجمع حوله عصبة من النبلاء الأقواء التفواز ، الذين تبنوا الشعار القائل بأن الملك يقع تحت تأثير المحسوبيين ومحدثي النعمة ، وأن دو لا بول ليس أفضل من بايرز غيفستون ، المحسوب الوسيع على رتشارد الثاني . وقد اجتذب بهذا النوع من الحجج عدداً لا يأس به من البارونات إلى صفة ، ذلك بأنه في تلك الأيام كانت المنافسة شديدة بين النبالة الحقيقة والنبلاء الوصوليين من المحسوبيين . الواقع أن ذلك ظل على حاله حتى نهاية حروب الورديين السنة ١٤٨٥ ، عندما حطمت الاستقرطية القديمة في إنكلترا نفسها بنفسها . وكان بين البارونات الأقواء كل من ايرل آرندل ، ونوتنهام ، وورويك ، وابن عم رتشارد هنري بولنغبروك . ولم يكن صعباً عليهم أن يثيروا الشعب بالشكوك المستمرة من سوء حكم المحسوبيين على الملك . وقد حاولوا أن يوصلوا ظلامتهم إليه عبر السبل القانونية ، أي بواسطة البرلمان ، حيث نجحوا في اتهام دو لا بول بالقصیر وسجنه ، ولكنهم قوبلوا

بعناد رتشارد الذي أطلق بدوره المحسوب عليه ، متحدياً صراحة إرادة مجلس النواب .

ولم يكن ثمة من بدليل غير القوة . وزحف غلوستر وشركاؤه مع حشد كبير من اتباعهم الى لندن معلنين أنهم إنما يودون صرف محدثي النعمة الفاسدين من يحيطون بالملك . وسموا أنفسهم «اللوردات المستأنفين» لأنهم إنما يتهمون الوزراء بالخيانة . وفوجئ رتشارد بالثورة ، وعجز عن المقاومة . وهرب دو لا بول ودو فير الى الخارج ، وقد توفيا بعد روح من الزمن قصير . ووقع رتشارد وسائر المتحدين معه بين ايدي «اللوردات المستأنفين» .

ودعي مجلس برمان رديء السمعة الى الانعقاد ، عُرف باسم «البركان العديم الرحمة» وكان يعج بالمسلحين من رجال غلوستر وأنصاره ، فحرّم دو لا بول ودو فير من حماية القانون ، وحكم بالموت على كل من لورد بوشان ، وقهرمان رتشارد (أي المسؤول عن تدبير شؤون القصر) ، ورئيس المحكمة العليا تريزيليان ، والسر ساميون برلي ، مربي الملك ، والكثيرين سواهم ، وأعدموا . وقد ختم هذا البرمان الفاضح أعماله بالاقتراع على مبلغ ٢٠ ألف ليرة استرلينية ، تدفع الى «اللوردات المستأنفين» مكافأة لهم على إزعاجهم ، ثم انصرف الاعضاء الى منازلهم .

بقي غلوستر في السلطة حوالي العام الواحد ، اي المدة الكافية ليظهر للبلاد أنه يهتم بنفسه أكثر من اهتمامه بالشعب . ولكن ينبغي الاعتراف بأن هذه الحكومة عقدت الصلح مع كل من اسكتلندا وفرنسا ، بعد أن احدثت فرنسا ركوداً في حرب المائة سنة .

في السنة ١٣٨٩ بلغ رتشارد سن الرشد ، ويُقال إنه سُأله في أحد اجتماعات المجلس ، عن سنه ، فلما أجاب غلوستر انه في الثانية والعشرين ، قال رتشارد «إذا فأنا في سن تسمح لي بادارة شؤوني الخاصة ». وصرف من فوره غلوستر ومؤيديه من مناصبهم . وكان بإمكانه إذ ذاك أن يعاقب «اللوردات المستأنفين» لممارستهم غير المشروعة ، بلا أدنى ريب ، ولكن من الغريب أنه لم يقم بشيء من ذلك . فقد تصرف بكثير من الاعتدال جعل الجميع يتذمرون عليه .

طوال السنوات الثمانية التي تلت ، حكم رتشارد بدرأية وحكمة . وقد ثبتت قوة حركة وكليف ونفوذها - وكانت بقيادة تلاميذ هذا المصلح الديني المعروف - بحيث أن ممثليها في مجلس العموم شعروا السنة ١٣٩٤ أنهم من القوة بحيث يستطيعون الحثّ على التخلّي عن بعض أهم العقائد في الكنيسة . ولكن ، بدلاً من أن يضطهد هؤلاء الهرطقة المدعين ، كما فعل خلفه ، اكتفى بتعنيفهم ، وطلب اليهم الكفّ عن موالصة سياستهم الثورية . ونفذ رتشارد الكثير من الاصلاحات في الحكومة والقانون ، وجهز أمر اعادة بناء قاعة وستمنستر . ويداً كان البلاد قادمة على عهد طويل من السلام والازدهار ، في ظل حكم واع ومنتظر .

وما إن أقبلت السنة ١٣٩٧ حتى كان رتشارد قد ثبّت نفسه على العرش ، وشرع في السيطرة سيطرة مطلقة . وهنا ، أكدت نفسها سمة غريبة من سمات سلوكه المعقّد . ويبدو أنه غذى انتقاماً وحشياً من اللوردات المستأنفين منذ السنة ١٣٨٩ . فقد كانوا ما يزالون معارضين له ، ولكن نوتنهام وبولنبروك كانوا قد انضمما إليه . وعلى حين غرة أمر باعتقال كل من غلوستر ، وأرندل ، ووروويك ، بتهمة التخطيط للثورة ، وزجّهم في السجن . وقد منح آرندل الشرف المشكوك فيه بالمحاكمة ، ثم أُعدم غلوستر سراً ، بينما نفي ووروويك على مدى الحياة . ويبدو أنه عُفي عن نوتنهام وبولنبروك ، وذلك بأنهما سُمياً دوق نورفوك ودوق هيرفورد . ولكن بعد سنة ، انتقم منها كذلك . ويعتقد أنه دبر نزاعاً بين الدوقين ، بعد أن اقنع هيرفورد باتهام نورفوك بالخيانة . وأقتنع الدوكان بعد إلحاح المبارزة في لقاء واحد في الميدان . ولكن قبل شهر الرمادين ، أوقف رتشارد النزال ، ونفي الاثنين خارج المملكة - هيرفورد لمدة عشر سنين ، ونورفوك مدى الحياة . ومنع الأول حق وراثة لقب والده وممتلكاته عندما يتوفى دجون غونت .

ويعد أن حطم رتشارد في الوقت الحاضر قوة اللوردات المستأنفين ، شرع في الحكم بحركة ثورية أشد من ذي قبل . فضاعف دخله بفرض إجبارية من الاغنياء (طريقة رائعة في ذلك الوقت) ، واستولى على كل ممتلكات دجون غونت عقب وفاة هذا الأمير السنة ١٣٩٩ ، على الرغم من أنه سبق له ان قال لهنري إنه سيرث دونماً أي

تدخل . وقد أكسب هذا العمل الاحمق هنري قدرأً كبيراً من العطف ، وكان عملاً ما  
لبث أن جعل رتشارد يندم على ارتكابه .

وسافر رتشارد عندئذ الى ايرلندا لوضع حد للفرضى التي دمرت البلاد طوال  
السنوات التسعين الماضية . فلما اخترى في مستنقعات ايرلندا ، رأى اعداؤه في ذلك  
فرصتهم للثورة . فانضم البارونات الى هنري ، متسلحين ، إذ ذاك ، بأسباب مشروعة  
للثورة - اي بالفروض الإجبارية ، والتساهل مع الويكلفيين ، وحكمه الاستبدادي -  
وكان هنري قد نزل على حين غرة في يوركشير ، وزحف الجميع غرباً .

وما ان علم رتشارد بنزول ابن عمه في يوركشير ، حتى غادر ايرلندا بحراً . غير أن  
الطقس العاصف أبقى سفنه قرية من دبلن طوال شهر ، وكانت النتيجة أنه لما وصل  
في نهاية المطاف ، الى ويلز ، كان الوقت قد فات لتعبيته جيش من القوة بحيث يتمنى  
له مقابلة هنري في ساحة القتال . وفضلاً عن ذلك ، كان هناك نوع من الاستياء في  
صفوف جنده ، وما إن بلغ قلعة كونواي حتى لم يبقَ معه إلا عدد ضئيل من  
المساندين . فاضطر عندئذ الى الاستسلام إما في كونواي ، او ، كما اقترح ، في قلعة  
فلينت التالية ، بطريقة الخداع ، وقد أرسله هنري الى برج لندن .

من الصعب القول ما إذا كان لدى هنري النية على انتزاع التاج عندما نزل في  
رافنسبير ، في يوركشير . وقد أعلن بالطبع ، أنه إنما عاد من أجل هدف واحد ، هو  
استعادة الممتلكات التي كانت من حقه . ولكن ما إن بات رتشارد في البرج حتى لم  
يعد لديه أي شك في أن هنري كان يخطط لاغتصاب العرش .

هنا يبرز السؤال حول المصير الذي كان يخبئه هنري لابن عمه . كان من  
الضروري ان يذهب رتشارد . ولكن هل كانت النية تتجه الى قتلها . إن دراسة مدققة  
للواقع والأساطير ، ستكشف لنا عن الجواب . وثمة قصة اكتسبت اعتقاداً واسعاً  
الانتشار مؤداها أن رتشارد عاش حتى أمضى بعض الوقت في اسكتلندا . وفي السنة  
١٤٠٣ ، تبنى آل برسyi قضيته في ثورتهم ، وبعد ثلاث سنوات ادعى إيرل  
نورثمبرلاند أن رتشارد ما زال حياً ، وقد اتهم قبل ست سنوات هنري بقتله .

عقب أسره في قلعة فلينت ، ونقله الى برج لندن ، أجبر رتشارد في ٢٩ أيلول

١٣٩٩ ، على التوقيع أمام عدد من الشهود ، على التنازل الرسمي عن عرشه . وبموجب هذه الوثيقة حلّ كل رعاياه من الولاء له . وتخلّى عن الناج وحكومة ملكته وبidan الدومينيون ، وصرّح بأنه ينبغي أن «يُخلع بحقّ» . وأضاف أنه لن يسحب مطلقاً إعلانه هذا . وفي اليوم التالي ، اجتمع البرلمان في قاعة وستمنستر الكبرى ، وعرضت القضية (قبول التنازل) على الأعضاء . وقد أتيع ذلك بتقديم لائحة بالاتهامات المسافة ضد الملك المخلوع ، وقد تضمنت ثلاثة تهمة .

لا مجال هنا لتعداد مواد الانهيار ، باستثناء القول إنها ، عموماً ، تشمل حكمه الاستبدادي ، وسوء معاملة الجنود المواطنين ، وخرق عدد من القوانين والعادات . وما أصاب رتشارد ، في الواقع ، هو تماماً ، تكرار ما فعله هو بالأخترين . سمع لنفسه بأن يصبح أداة بين أيدي المتآمرين القدرين ، فإذا به الآن ضحية مثل هؤلاء الرجال . وأعطى مثالاً على سوء الحكم تحت ستار القانون ، ويساندة البرلمان العشور فيه أتباعه الشخصيون ، واليوم ، انتزع مجلس يعجّ بما عجّ به برلائه من قبل ، عرشه بمحنة التظاهر بالعدالة .

أبقي رتشارد في السجن في البرج ، طوال الشهر التالي ، ولكن على الرغم من أنه لم تظهر أي دلائل على أي تحرك شعبي في مصلحته ، فقد اتضحت ، مع ذلك ، أن وجوده سيظل يشكل خطراً ، فوضعت الترتيبات بسرعة لإبعاده عن العاصمة . وفي ٢١ تشرين الأول ، التمس مجلس العموم أن يجبر رتشارد على المثلول أمام المحاكمة ، ولكن الملك الجديد رفض .

وبحسب ما ورد في عرض للأحداث وفقاً لسلسلتها الزمنية بعنوان «خيانة رتشارد الثاني وموته» وضعه بالفرنسية أحد الكهنة الذي رافق هنري في غزوه ، أرسل اللندنيون قبل شهرين ولدى علمهم بوجود رتشارد في السجن ، طلباً إلى هنري لكي يعدهم في الحال . فرفض هنري ذلك ، ولعل هذا يفسر رفض محكمته . وفي هذه المرحلة ليس ثمة تشكيك في أن هنري لم ينوي أن ينال ابن عمه أي أذى جسدي ، يتجاوز السجن .

وبعد أيام قلائل عقدت لجنة خاصة من اللوردات اجتماعاً ، وجرت المداولات

بسريّة تامة . وقدّم ايرل نورثمبرلاند القضية الى زملائه اللوردات - ماذا سيكون مصير الملك المخلوع ؟ فأجاب هنري الرابع من فوره أنه لن يوافق على اي اقتراح يهدد حياة رتشارد ، ولكنه يعتبر ان مصلحة أمن البلاد تقضي بابقائه في السجن ، وعندها وافق اللوردات على ان يُنقل الى مكان تنتفي فيها إمكانية محاولة إنقاذه ، وأن يبقى تحت الحراسة الكاملة ، دون ان يُسمح له بمقابلة أي أصدقاء . وفي اليوم التالي بالذات ، تحدّث الملك الى اللوردات والنواب في قاعة وستمنستر ، وأخبرهم أن رتشارد سيظل سجينًا مدى الحياة . وسيتم اختيار حراسه من بين أناس لا يعرفهم ، وسيبقى مكان الاحتجاز سراً . ولن يُسمح له بالكتابة ، ولا بتلقي المراسلات . ووافق الحضور على كل ذلك ، وبعد اثنى عشرة ساعة - عند منتصف الليل تماماً - نُقل رتشارد من البرج . ويدرك عرض الأحداث «خيانة رتشارد الثاني وموته» أنه أخرج متذكرة بزي مراقب أحراج ومعه رمح للصيد ، ونُقل الى قلعة ليدز ، في كنت ، حيث سُيُنقل من هناك الى مكان مجهول . وكانت هذه الوجهة المجهولة ، في الواقع ، قلعة بونتفراكت ، في يوركشير ، وهي احدى قلاع الملك هنري .

وعُهد به الى القهرمان روبرت ووترتون ، والسر توماس سوينفورد ، ابن كاثرين سوينفورد من زوجها الأول . ومنذ ذلك الحين لم يُسمع قط أي شيء عن الملك السابق .

في مطلع السنة ١٤٠٠ ، بدأت تنتشر شائعات حول موت رتشارد ، ولم تُعرف طريقة موته أو طبيعته . وكانت النتيجة أن مجموعة من الأساطير ظهرت ، مثيرة ومساوية ، ولكنها مع ذلك ، وبعد ما تكون عن الحقيقة .

ويسجل عرضان للأحداث وفقاً للتسلسل الزمني أقلّ القصص خيالاً ، سنرى ، في ما بعد ، أنها ترتدى طابعاً من الحقيقة . الاول هو «حاليات رتشارد الثاني وهنري الرابع» التي تغطي الحقبة من ١٣٩٢ - ١٤٠٦ ، وربما كتبه راهب في سنت اولبانز . أما الآخر فلعله من تصنيف أحد الرهبان في كانتربري ، وقد سُميَ «يولوجيوم هستورياروم» . وهو ما يقدمان هاتين الروايتين .

علم رتشارد أن أصدقائه أخفقوا تماماً في تحقيق إطلاق سراحه ، ودفعوا حياتهم

ثمناً لهذا الجهد . ثم إنه أصبح كثيراً فرفض تناول الطعام والشراب ، حتى هزل ومرض مرضًا شديداً ، إلى أن قضى في النهاية من الجوع الذي فرضه على نفسه ، وسني ، بعد قليل ، ان هذا الاقتراح ليس بمستبعد مطلقاً .

اما الرواية الثانية ، فإنها تقرُّ بأن الموت كان بسبب التجويع ، ولكنها تُضفي ان ذلك حدث من خلال سوء معاملة رتشارد المتعمدة بناءً على أمر الملك هنري . ويقدم كتاب «خيانة الملك رتشارد الثاني وموته» وصفًا قدرًا للألامه . فقد منعت عنه التغذية المناسبة حتى بلغ حالة يرثى لها ، فراح يقطن أجزاء من لحم ذراعيه ليقتات بها ويشبع جوعه . وهذا أمر مستبعد !

بعد سنتين من وفاة رتشارد ، اتهم هنري بأنه جوع ابن عمه حتى الموت ، ولكنه انكر ذلك بعناد ، وربما ، كان صادقاً في إنكاره . وكذلك بعد ثلاثة سنوات ، قدم الاتهام نفسه كبير الاساقفة سكرروب ، الذي أقرَّ بأن دليلاً يعتمد كلياً على أحاديث تردد على السنة اشخاص عاديين . وقد تقبل هذه الشهادة الهزلية أولئك الذين يكرهون هنري ، ويعتبرونه مفترضاً للعرش - وقد كان كذلك ، بالطبع .

وهناك رواية أخرى لا تصمد أمام اي امتحان جدّي ، ولكن ينبغي ايرادها هنا ، ذلك بإنها أساس قصة وليم شكسبير عن نهاية رتشارد . ولعلَّ أبرز ما في هذه القصة أنه على الرغم مما يبيدو ذلك مستحيلاً ، فإنها كانت الاعتقاد السائد طوال قرون ، وقد تقدّمت على سائر المترحات المزعجة والمحتملة . ويعتقد أن هنري أوفد السر بايرز إيكستون إلى بونتفراكٍ للقضاء على رتشارد . فدخل إيكستون الزنزانة القدرة ، يرافقه ستة من الأشخاص الغلاظ المسلمين . وقد رتشارد الغاية من زيارتهم ، فدفع المائدة التي كان يتناول إليها الطعام ، إلى الخلف ، وهرع إلى وسط الجماعة ، وانتزع سلاحاً ، وقتل أربعة أشخاص . وكان بإمكانه القضاء على جميع الموجودين لو لم يقفز إيكستون فوق كرسيه ، ويعاجله بضربيتين من فأسه على أم رأسه .

من السهل دحض هذه الرواية : او لا أنها كُتبت بعد فترة من الأحداث المزعومة ، وكان كاتبها فرنسيًا ، وكتبت للمصلحة الفرنسية . ولا يمكن أن يكون لها إلا هدف واحد - إثارة الكره والحقن على هنري في وقت كان ثمة شعور مrir بين إنكلترا

وفرنسا . وثانياً ، لم يكن كاتب هذه القصة في انكلترا حين توفي رتشارد . وثالثاً ، حدد مكان المسرع في برج لندن ، ونحن نعلم أن رتشارد توفي في بونتفراكت . ورابعاً ، يبدو أنه ليس هناك أي دليل معزّز لوجود أمرٍ يدعى بايرز إكستون في تلك الحقبة . وإذا كان قد وُجدَ فإنه لم يكن حتماً في بونتفراكت ، ولم يكن حتى معروفاً من الملك هنري . وأخيراً فتح دين ستانلي نعش رتشارد السنة ١٨٧١ في كاتدرائية وستمنستر فكشف فحص جمجمته عن عدم وجود أي آثار يمكن أن تؤيد القصة التي تلمع إلى ضربتي فأس على الرأس ، لأن حالة الجمجمة كانت سليمة تقريباً .

وهناك حكاية رومanticية أخرى توحّي بأن رتشارد لم يقضِ قط في قلعة بونتفراكت ، ولكنه هرب ، ووصل في نهاية المطاف إلى اسكتلندا ، حيث استُقبل بحرارة في البلاط الاسكتلندي . كل هذا حسن جداً ، ولكن بعد سنتين من وفاته كان هناك عدد من الأشخاص المدعىون رتشارد ، استخدمهم البارونات المرتدون ذريعة لثورتهم .

وثورة برسبي تثبت ، نظرياً ، من أجل إعادة رتشارد إلى العرش ، وعملياً من أجل ابتزاز المال بالقوة ، بعد أن رفض هنري التنازل عن شيء منه بطريق خاطر - ما دام هو بحاجة إليه شخصياً !

إن نظرية سريعة إلى تطور هذه النظرة عن هرب رتشارد ، والاستعمالات التي جأ إليها أعداء هنري بفضلها ، يمكن أن تساعده نوعاً ما .

في السنة ١٤٠٢ ، رُؤي غريب فقير يتسلّك على جزيرة في عرض الساحل الغربي لاسكتلندا . كيف وصل إلى هناك ، لا أحد يدري ، ولكن زوجة أحد الزعماء أبصرته . وكانت قد شاهدت الملك رتشارد ذات مرة في ايرلندا ، قبل ذلك بسنوات ، وصعقها الشبه الشديد بين ذلك الغريب والملك . وأخبرت زوجها الذي سأله الرجل الغريب عما إذا كان الملك رتشارد ، عامل انكلترا . فأجاب هذا الأخير أنه ليس الملك . ومع ذلك ، بقي محتجزاً ، وأبلغ البلاط الاسكتلندي بالأمر . وبعد فترة قصيرة ، انتقل الغريب إلى أيدي أخرى ، وطوال السنوات القليلة التالية ، راح يتنقل من سجن إلى آخر ، حتى أنه قضى رهقاً من الزمن قصيراً مع الملك رويرت الثالث . ويبدو أنه

عوْمَل بِطُرِيقَةٍ شَبِيهَةٍ بِتَلْكَ التِّي عَوْمَل بِهَا ذُو الْقَنَاعِ الْحَدِيدِيِّ - حُجِّبَ مِلاَمَحَهُ عَنِ الْإِنْظَارِ تَامًاً ، وَلَكِنَّهُ مُنْعَنٌ كُلَّ اسْبَابِ الرَّاحَةِ التِّي تَطْلُبُهَا .

لَا حَاوَلَ مَلِكُ فَرْنَسَا وَايْرُلَانْدَ (برسي) اكتشاف هُوَيَّةِ الْأَسِيرِ مُنْعًا مِنْ ذَلِكَ . وَهَذَا يَعْنِي حَتَّمًا امْرًا وَاحِدَةً - لَمْ يَكُنِ السُّجَنُونَ الْمَلِكُ رَتْشَارِدُ . وَلَمْ تَكُنْ تَلْكَ أَوْلَ حَالَة انتِحَال لِشَخْصِيَّةِ الْمَلِكِ الْمِيَتِ ، وَذَلِكَ بِأَنَّهُ قَبْلَ بَضْعَةِ أَشْهُرٍ ، ادْعَى كَاهِنُ يَسْمِي مُودِيلِينَ ، وَكَانَ يَشْبَهُ رَتْشَارِدَ كَثِيرًا ، أَنَّهُ الْمَلِكُ الْهَارِبُ . وَلَمْ يَسْتَمِرْ طَوِيلًا ادْعَاؤُهُ ، وَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَى مَحْمَلِ الْجَدَّ ، فَقَبَضَ عَلَيْهِ وَشَنَقَ لَا عَتْرَافَهُ بِأَنَّهُ زَائِفُ . وَلَمْ يَكُنْ انتِحَالُ الشَّخْصِيَّةِ أَمْرًا غَيْرَ مَأْلُوفٍ خَلَالِ تَلْكَ الْحَقَّةِ . فَقَدْ سَنَحَتِ الْفَرَصَةُ لِمَرْغِرِيتَ ، الْوَصِيَّةُ عَلَى عَرْشِ الدَّافِرِكَ ، لَكِي تَأْمِرَ بِإِعدَامِ امْرَيْ زَعْمَ أَنَّهُ ابْنَاهَا أَوْلَافَ ، الَّذِي كَانَ مَعْرُوفًا أَنَّهُ تَوَفَّى قَبْلَ اثْنَيْ عَشَرَةِ سَنَةٍ .

لَمْ يَكُنْ هَنْرِي مِنْزِعَجًا مِنْ هُؤُلَاءِ الْمَدْعَينَ عَلَى نَحْوِ غَيْرِ مَلَائِمٍ ، إِلَّا لِكَوْنِهِمُ النَّاطِقُونَ بِلِسَانِ الْقَوْارِ ، إِلَّا أَنَّهُ مِنَ الْوَاضِعِ اَنَّ الْوَقْتَ قَدْ حَانَ لَكِي يَبْثُتَ مَوْتُ رَتْشَارِدَ بِطَرِيقَةٍ لَا تَقْبِلُ الشُّكُّ .

أَعْلَمُ أَنْصَارِ رَتْشَارِدِ فِي انْكَلِتِرَا بِأَمْرِ رَتْشَارِدِ الْمُزَعُومِ مِنْ خَلَالِ رَسَائِلِ سَرِيَّةِ (مَعَ أَنَّهُ قَيْلَ ، بِالْطَّبِيعِ ، إِنَّهُ رَتْشَارِدُ الْحَقِيقِيِّ) . وَقَدْ أَشَارَتْ هَذِهِ الرَّسَائِلُ أَنَّ الْمَلِكَ سَيُظْهَرُ نَفْسَهُ فِي مَتَصِّفٍ حَزِيرَانَ مِنَ السَّنَةِ التَّالِيَّةِ (٤٠٣) . وَقَدْ طَلَبَ إِلَيْهِمْ أَنْ يَكُونُوا عَلَى أَهْبَةِ الْاسْتِعْدَادِ لِوَصْوَلِهِ ، وَلَكِنَّ ، كَمَا كَانَ مَتَوْقِعًا ، لَمْ يَظْهُرْ لَا الْمَلِكُ رَتْشَارِدُ وَلَا رَتْشَارِدُ الْزَّائِفُ ، لَا فِي ذَلِكَ التَّارِيخِ ، وَلَا فِي سَوَاهِ .

إِنَّ احَدَ الْأَسْبَابِ الرَّئِيسِيَّةِ لِظَهُورِ هَذِهِ الْأَسْاطِيرِ يَكُونُ فِي أَنَّ سَجْنَ رَتْشَارِدِ فِي قَلْعَةِ بُونِتِفِرَاكِتَ لَمْ يَكُنْ مَعْرُوفًا إِلَّا مِنَ الْقَلْةِ .

هُنَّا يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَعْرِفَ مَاذَا حَدَثَ لِأَرْمَلَةِ رَتْشَارِدِ ، إِيزَابِيلَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ ، لَأَنَّ الْوَقَائِعَ ثُبِّتَ أَنَّ زَوْجَهَا تَوَفَّى . فَقَدْ عَادَتِ إِلَيْهِ وَطْنَهَا الْأَصْلِيِّ السَّنَةِ ٤٠١ ، عَلَى أَسَاسِ أَنَّ الْبِلَاطَ الْفَرَنْسِيَّ لِدِيهِ الْمَعْلُومَاتِ الْكَامِلَةِ حَوْلَ وَفَاتَةِ زَوْجِهَا قَبْلَ سَنَةِ مِنْ ذَلِكَ . وَكَانَتِ امْرَأَةٌ يَكُونُ أَنَّهَا مَرْشِحَةٌ لِلزَّوْاجِ وَكَثِيرُونَ طَلَبُوا يَدِهَا . وَلَكِنَّ ، مِنْ أَجْلِ جَلَاءِ سَرِّ اخْتِفَاءِ رَتْشَارِدِ بِصُورَةِ نَهَائِيَّةٍ ، حَسْبَ رَغْبَةِ الْبِلَاطِ الْفَرَنْسِيِّ ، أَوْفَدَ امْرُؤُهُ إِلَى

اسكتلندا ، يُدعى جان كريتون ، عرف رتشارد شخصياً ، وكانت تربطه به علاقة حميمة . وكشفت زيارته اسكتلندا ، كما كان متوقعاً ، الحقيقة . فقد عاد كريتون بثأراً موت رتشارد ، وأبلغ ذلك بعبارات مبالغ فيها ، وادعى ان الملك توفي غيلة بطريقة فظيعة يُرثى لها .

عندما اتهم دوق اورليان ، شقيق ملك فرنسا شارل السادس ، صراحة الملك هنري الرابع بأنه قتل ابن عمه ، على الرغم من أنه زمن اغتصاب هنري العرش ، كان الدوق من أكثر المؤيدين له حماسة . وأنكر هنري التهمة في رسالة ، وأضاف أن دوق اورليان كان غادراً بالنسبة إلى شقيقه شارل أكثر منه (هنري) بالنسبة إلى ابن عمه رتشارد . ولم يمض طويلاً وقت حتى تزوج ابن الدوق هذا ، كونت أنغوليم ، ايزابيلا ، أرملة رتشارد ، مؤكداً بذلك أن البلاط الفرنسي تقبل موت رتشارد .

آن الآن الاران لإظهار عدم مسؤولية هنري في مقتل ابن عمه . ففي «وثيقة عائدات الخزينة» المؤرخة في ٢٠ آذار ١٤٠٠ ، نجد قيداً مهماً . فقد دفع مبلغ ستة شلنات وثمانية بنسات عمل تُقدّر قبل ذلك التاريخ . وهذا مؤدّاه : «دفع مبلغ ستة شلنات وثمانية بنسات بواسطة خادم ، أوّل من لندن ، لصلحة مجلس الشورى ، إلى قلعة بونتفراكت ، لحراس جثمان رتشارد ، ملك انكلترا الراحل ، والقيمين عليه ». وهناك ، أيضاً ، نسخ عن ثلاث رسائل من شارل السادس الفرنسي إلى سفراه في مدينة بولونيا ، الإيطالية ، تشير إلى موت رتشارد .

في كانون الثاني ١٤٠٠ ، سرت في لندن شائعة تقول إن الملك المخلوع قد توفي ، وخشى مجلس الشورى أن يُثير الشك المظاهرات ، فاتّأم في وقت مبكر من شباط ، وأشار على الملك إما أن يؤكّد الشائعة ، أو ينفيها ، إذا استطاع . وطلب الأعضاء ان يُعرض جثمانه على الجمهور ، إذا أمكن ذلك . فأمر هنري عندئذ بحمل الجثمان إلى لندن ، وكانت تتم وقفات مرحلية طوال الطريق لعرض الجثمان . وفي وثيقة العائدات ، في ١٧ شباط ، دفع مبلغ مئة مارك (الماركوحدة نقد انكليزية قديمة تعادل ٣ شلنًا و ٤ بنسات) للقيّم على خزانة الملابس لنقل جثمان رتشارد من بونتفراكت إلى لندن . وكان ثمة محطة في سنت أوليانز ، حيث عاين أحد المؤرخين الإنجليزيين

النعش وتعرَّف إلى رأس الملك الراحل . ولدى بلوغ لندن ، وضع التابوت مدة يومين في كنيسة القديس بولس ، حيث حضر الملك هنري إذ ذاك ، قداساً وجنازاً عن راحة الميت . وكان الكثيرون من سكان لندن حاضرين ، واستغلت كل فرصة ومناسبة للدعاوة من أجل عرض النعش . ثم أمر هنري بنقله إلى قصر الملك المعروف بقصر لانغلي ، في هرفوردشير ، وهو أحد قصور رتشارد المفضلة وووري الشري هناك بحضور أسُّف لتشفيلد .

وصودرت موجودات رتشارد ، وُوزعت في ما بين أصدقاء هنري وانسبائه . إلا إنه من المهم أن نشير إلى أن قسماً من ثروته آل إلى أولئك الذين جُرِدوا من حقوقهم ، والثوار الذين أُعدموا وأولادهم جميعاً ، كما منحت أمّ المحتال موديلين مبلغًا كبيراً من المال .

إذاً ، فإن رتشارد قد توفي في فترة ما بين نهاية كانون الثاني وأوائل أيام شباط من السنة ١٤٠٠ . ولن نعرف ، ربما ، التاريخ الصحيح أبداً ، لأن المؤرخين الإخباريين أنفسهم غير متفقين على ذلك بسبب جهلهم ، على الأرجح . ولن تُعرف ، أيضاً ، الطريقة التي قضى بها ، بصورة أكيدة ، ولكن بالواسع تقديم اقتراح يبرئ هنري من المسؤلية ، ويجعل العنف مستبعداً .

أولاً ، أكَّد هنري ، تكراراً ، لرتشارد ول مجلس الشورى ، أنه لا ينوي إنزال أي أذى بابن عمه . وفي التاريخ الشهير الذي كتبه المؤرخ الإخباري الفرنسي فرواسار عن ذلك العصر ، نقرأ حديثاً بين هنري وبعض المؤيدين . سألاه ماذا سيحدث للملك المخلوع ، فأجاب هنري : «في ما يتعلق بي شخصياً ، أنا لا أحكم عليه بالموت . لقد وعدت بذلك ، وأنوي المحافظة على وعدِي» . فلما أخوا عليه أكثر ، أجاب بشدة أكثر بالمعنى نفسه ، وتحول فجأة إلى التحدُّث في أمور أخرى .

لدى نزوله في يوركشير ، صرَّح هنري أنه إنما جاء من أجل غاية واحدة هي المطالبة بممتلكات أبيه ، دجون غونت (الذي كان توفي قبل قليل) ، وهي من حقه . وليس ثمة سبب للاعتقاد أنه كان ينوي أي شيء آخر . أما قضية أن الاحداث جرت إلى اغتصاب العرش ، فربما كان مردها إلى ضغط مؤيديه وأنصاره ، مقرونة بحرون

رتشارد .

من الحماقة محاولة تبرئة هنري الرابع ، ذلك بأنه كان ، ولا ريب ، مذنبًا ببعض التجاوزات المروعة . فانكلترا لم تغفر له فقط إعدام سكرروب ، كبير أساقفة يورك (مع أن هذا الأخير كان يستحق ، ذلك المصير ، ومثله في ذلك مثل بيكت ، الذي نال نصيبه من قبل ) ، وذلك السنة ١٤٠٥ ، وكذلك اضطهاده الوكيليين الذي كان عملاً سياسياً ودينياً لا مبرر له ، كما كان مثلاً مروعاً على القسوة التي كانت سائدة في القرون الوسطى .

ويُعرف عن هنري أنه كان قبل أي شيء صادقاً في العهد والوعد . فضلاً ، عن أنه كان دوماً لا يألو جهداً في إنكار أي تهمة توجه إليه حول قتله ابن عمه . ونظراً لأنعدام الدليل ، ليس بالوسع إيجاد أي سبب لنقضه وعده في هذا الشأن ، في حين أنه كان صادقاً في وعده في شؤون أخرى .

أن يكون رتشارد قضى جوعاً تفسير حسن ، ومعظم المؤرخين الإنجاريين في ذلك العصر ، وبعد ، يتمسكون بهذه الرواية . وترابهم لا يختلفون إلاّ حول قضية ما إذا كان التجويع ذاتياً أم لا .

إن التبصّر في سلوك رتشارد يمكن أن يقودنا إلى الاستنتاج أنه كان ذاتياً وطوعياً . فقد كان مزاجياً ، ومتهوراً ، ويستسلم إلى سورات قسوة ووحشية ، وجرعات مفرطة من الرثاء الذاتي ، وأحياناً ما كان يميل إلى حالات السوبيداء والاتهيار الحادة . وتتضمن حياته الكثير من الأمثلة على هذه السمات ، وليس من الصعب نسيان الانتقام الرهيب الذي أنزله باللوردات المستأنفين . وقد ضرب صفحٌ عن أنه فكر في الانتحار عندما تسلّم عمه غلوستر في البدء زمام الحكومة السنة ١٣٨٨ .

في نهاية السنة ١٣٩٩ ، اندلعت نيران ثورة في مصلحته الغاية منها إعادةه إلى العرش . وقد نظمها أخوه غير الشقيقين ، (توماس ودجون هولاند) ، وكانت خططهما تقضي باعتقال هنري في قصر وندسور . وافتضح أمر المؤامرة ، وانهارت الثورة ، ودفع الزعيمان حياتهما ثمناً لذلك . ولدى سماعه لهذا النبأ المفجع ، غرق رتشارد في أحدي نوبات القنوط والكآبة ، وقرر أن كل شيء قد انتهى . وكانت فكرة

قضائه السنوات الطوال في السجن بعيداً عن كل اتصال مع أصدقائه ، مرعبة جداً ، فراح يسعى وراء الفرج . ولما لم يكن بوسعه وضع يده على أي سلاح فعال - فأداة من أدوات الطعام كانت أمراً غير مستحب مطلقاً - عزم على تجربة نفسه حتى الموت . وواضح تماماً أنها اسطورة تلك التي زعمت أنه كان يقتطع بعضاً من لحمه ليأكل ، ذلك بأن غايته كانت الموت ، وليس الأكل !

هذا كل ما يسعنا أن نحصل عليه من معلومات حول الحل الحقيقي ، إلا أنه قبل استبعاد هذا الاقتراح ، وقبل إلقاء المسؤولية على الملك هنري ، ثمة أسئلة ينبغي الإجابة عنها . هل كان هنري رجلاً صادق العهد؟ هل كان بالامكان أن يستخدم مثل هذه الوسيلة الكريهة للقتل؟ لماذا سمع بdeathbed confession في أرضه المفضلة؟ لماذا انكر باستمرار أي ذنب له يتعلق بالقضية؟ إن هذا الحل هو مقنع كأي حل آخر وأفضل من معظم الحلول !

## هل كان دجيمس، دوق مونموث، ابن الملك تشارلز الثاني الشرعي؟

هل تزوج تشارلز الثاني حقاً لوسي ولتر؟ وإذا كان الأمر كذلك ، هل كان ابنهما دجيمس ، دوق مونموث ، الوراث الشرعي للعرش؟ لماذا أغدق عليه تشارلز الكثير من النعم والحظوة؟ ومع ذلك أنكر بشدة وعناد شرعية في سنوات حكمه الأخيرة؟ من الممكن أن يكون دجيمس الثاني ، بعد معركة سد جمور ، رفض الصفع عن ابن أخيه لأنّه عرف أن لموث حقاً أفضل بالعرش؟ ما مدى التصديق الذي قوبل به تأكيد لوسي ولتر الجريء بأنها كانت متزوجة من تشارلز؟ ماذا يمكن قراءته بين السطور في يوميات صمويل بيسس الذي يشير باستمرار إلى السر؟ هل كانت لوسي بغيّاً مبتدلة ، كما اجتهد التاريخ في تصويرها؟ أم أنها كانت امرأة فاضلة وضحية قرون من الافتراء وتشويه السمعة يستندان إلى دليل لا يصمد أمام الامتحان؟

ينبغي الإجابة عن هذه الأسئلة اذا كنا نحاول إثبات شرعية موغوث . . ومع الأسف ، فإن معظم الأدلة من توارييخ معاصرة ، لا يفيدنا كثيراً ، لأن الكثير منها لا يعتمد عليه ، ومعظمها كذلك متحيز ضد لوسي ولتر . ولكن ، على الرغم من انعدام الاعتماد هذا ، فإن الافتراضات والوشایات ضد لوسي ولتر ما تزال تُصدق بوجه العموم . فقد وُصفت بأنها مومن ، وبنت هوى ، وغانية وضيعة الأصل ، وما شابه ذلك من الأوصاف المتبدلة . ولكن ليس ثمة أي تأييد مثل هذا التحلل ، وسنرى بعد ، دليلاً لا يقبل الشك على ما اذا كانت غير عفيفة قبل اتحادها بتشارلز الثاني ، أم أنها أصبحت خائنة بعد ذلك . إذاً ، فإن الكثير من الحقيقة حول هذا السر يكمن في الاعترافات غير المقررة لأناس بارزين في ذلك الزمن ، لأنهم كانوا يخشون أن تخبر شعبية موغوث في أوساط عامة الشعب ، على الاعتراف بشرعنته ، وذلك ما لم

يكونوا يرغبون فيه . فبُذل إذ ذاك كل جهد لتشويه سمعة مومنوٌث ، وذم أمّه والخطّ من قدرها ، بعد وفاتها . وما لبث أن راح تشارلز يتصرّف بطريقة تعود على الخصم بالفائدة وتعود عليه بالضرر . وبدت تلك سياسة غريبة من جانب الملك ، إذا اعتبرنا مبلغ شغفه بابنه في السنوات الأولى من حكمه . وقد حُملت الاجيال العتيدة على الاعتقاد بأن السبب الرئيسي للتبدل في سياسة الملك «الابوية» ، هو انغماس مومنوٌث المتواصل في ما طاب للمؤرخين أن يسموه «الفساد الدائم» ، أو «التهتك غير الحمد» . ومن الصعب أن نتصور تشارلز يرمي الحجارة شطر مومنوٌث ، عندها نتذكر أن سمعة الملك نفسه في العلاقات الجنسية غير الشرعية معروفة جداً . وكان ذلك سائداً في تلك الأيام ، ولذا لا يمكن أن يكون ثمة مبرر للعلاقات الغرامية السرية المفعمة بالخيالية والنشاط . وربما كان سبب تبدل موقف الملك تشارلز تجاه ابنه والخلافة أنه كان قد بدأ ينظر بجدية إلى العقيدة الكاثوليكية ، أكثر من أي شيء آخر . وتُبرّز ذلك بوضوح أحداث لاحقة ، من فشل معاهدة دوفر السرية المعقودة السنة ١٦٧٠ ، وصداقة تشارلز المستمرة مع الملك لويس الرابع عشر الفرنسي ، واستقباله في الكنيسة الكاثوليكية .

ولكي يجعل المؤرخون عدم اقدام تشارلز على الزواج من لوسي ولتر ، امراً مستبعداً ، او حتى مستحيلاً ، فقد دأبوا على تكديس الافتراضات ضدها . ولعله لم يحدث قط أن كان هناك مثال صارخ على تكرار المؤرخين بعضهم بعضاً ، في تشويههم سمعة لوسي - في البدء لأسباب سياسة - ثم إما بسبب الاحطاء في الحكم عليها ، أو لعدم الاستعداد للاعتراف بما هو الحقيقة ، على الأرجح . وقليلون هم الذين اهتموا بقضية تبرئة لوسي ، ولعل المحاولة المعاصرة الوحيدة كانت من جانب البارونة دولنوي ، في كتابها «مذكرات بلاط انكلترا» ، السنة ١٦٧٥ ، الذي يتضمن ملحاً مخصصاً لتبرئتها .

كان مشوهـ هو سمعتها الرئيسون إدوارد هايد (ايرل اوفر كلارندون) ، ودجـون إفـلين ، وجـيمس ماـكـفـرسـون . وكان كلارندون من اهم الشخصيات السياسية في يومـه ، وترك مجموعـة كبيرة من الاوراق الرسمـية والخـاصـة الىـ الخـلف . ومن السهل

فهم موقفه تجاه قضية ما إذا كان تشارلز اقترب بلوسي أم لا ، ذلك بأنه خلال حقبة الكومونوبلث ، كان همه الرئيسي إعادة الملكية . وعندما نجد السنة ١٦٤٦ انه كان ثمة «شائعة ملحاح» تفيد أن أمير ويلز (تشارلز الثاني في ما بعد) قد تزوج قبل مغادرته البلاد الى المنفى ، نقرأ أن كلارندون انزعج كثيراً . ذلك بأنه اذا اعتُقد ان تشارلز قد تزوج امرأة من عامة الشعب ، عندها لن يعود ممكنا تحقيق عودة الملكية . وينبغي أن نعلم أن إمكانية القبول بتشارلز الاول ملكاً من جديد ، لم تكن موجودة ، لأن الحرب الأهلية كانت قد بلغت ، السنة ١٦٤٧ ، مرحلة لم تعد فيها نزاعاً بين الملكيين والبرلمانيين ، بل نزاع بين البلاد و«ذلك الرجل تشارلز ستيفوارت». ولكن كرومويل كان قد اكتسب القدرة الكلية السنة ١٦٤٧ ، وكان يمكن البلاد أن تقبل بأمير ويلز ملكاً عليها . وذلك ما كان كلارندون يتшوق الى رؤيته ، وقد كان في السابق من جماعة البرلمانيين . ومهما تكن رغباته السياسية ، فمن الواضح أنه كان حقاً يعتقد بزواج تشارلز . ولم يكن لدى دجون إفلين الذي كان يكتب يوميات تشبه يوميات صمويل بيسيس ، بالحجم وحسب ، شيء حسن في لوسبي ولتر . غير أن معظم الاتهامات الموجهة اليها كانت تستند الى «مذكرات الملك دجيمس الثاني» التي نشرها دجيمس ماكفرسون ، وهو ملتقى حكايات اسكتلندي ، في القرن الثامن عشر ، عاش بين السنة ١٧٣٦ و ١٧٩٦ .

وصف نفسه بأنه ناشر ، ومتجم ، وحتى مؤرخ أحياناً ، ولكنه في هذه الحرف الثلاث كان مزيقاً وكاذباً تماماً . وكانت آراء معاصريه ، وفي جملتهم هيوم ، وجونسون ، وتشارلز دجيمس فوكس ، وهوراس وولبول ،أسوأ ما يمكن ان تكون . وقد اعتبر دجونسون معظم عمله من نتاج الخيال ، وبعض ترجماته تزويراً فاضحاً . وفي الواقع ، لما اتهم أنه إنما يزور دليله او ترجماته ، لم يُبرّز ماكفرسون قط المخطوطات الأصلية ، ولم يدفع بالبيئة تهمة التزوير . وقد ذهب وولبول إلى حد إبراد هذه الملاحظة عنه : «إني أرى للخلاف الذي لن يسعه أن يتبيّن جزءاً من ألف من أكاذيب ماكفرسون ». وفي هذا القرن العشرين ، ذكر السر ونستون تشرشل ، في كتابه «حياة دوق مالبورو» ، أن سلوك ماكفرسون أظهر له كيف يمكن أن يكون قادراً على

التزوير المعتمد ، والمنفذ جيداً . إذا ، فإن شهادته حول لوسي ولتر ، وسواها من الأشخاص ، عديمة القيمة ، بالطبع .

ليس أمراً غير عادي أن يقوم أمرؤ ما بنشر مذكرات ملك ، كما أنه ليس غريباً على مثل هذا الرجل أن يشهو الحقائق أو يخترع الواقع . فلقد حدث ذلك في التاريخ ، وسيظل يحدث بعد . إنما الغريب في الأمر هو أن كثيرين من المؤرخين الذين جاؤوا بعده اعتمدوا على أدلة ملفق عريقة وأرائه ، وقد سبق لمعاصريه أن اعتبروه مزوراً . والمؤرخون معدورون إذ يكررون بعضهم بعضاً بالنسبة إلى الواقع الأصلي التي تثبت إيجابيتها وصحتها ، في حين أنه ليس ثمة أي مبرر لنسخ تفاصيل خاطئة ، أو تفاصيل غير محتملة وليس لها أي إثبات .

لا يمكننا التهرب من حقيقة أن تشويه سمعة لوسي ولتر كان في مصلحة الملك دجيمس الثاني ، وأن كل واحد ينبغي أن يتقبل الأساطير الجارية حول فسادها وفسوتها . ويكتفي أن ننظر قليلاً في حياة دجيمس العملية لنعلم أنه كان عارفاً بأن تسلمه العرش كان مشكوكاً فيه ما دام موغوث حياً يرزق . إلا أن ذلك لا يعني أن الاشارات في القرن العشرين إلى الاتهامات المزعومة حول سلوك لوسي ولتر الشائن ينبغي أن تصدق ، لأنه ليس ثمة أي دليل على مثل هذا الفساد .

إن أول دفاع جدي عن لوسي ولتر ظهر السنة ١٩٤٧ وقد وضعه أحد المتحدرين من أسرتها لورد جورج سكوت . لم يدع انه مؤرخ ، ولكنه شعر ان الكثير من الافتراء بحق جدته العليا ، المكرر جيلاً بعد جيل ، مع التكديس المعتاد للأساطير والهراء ، مردة في معظمها ، الى أن احداً من ذريتها لم يكلف نفسه عناء إنصافها . فإذا كان عمله هذا محاولة لتصحيح هذا الخطأ ، فقد كان ناجحاً ، بالطبع . ومع أن لورد جورج سكوت يكترس حيزاً كبيراً لتقديم الدليل على أن لوسي ولتر كانت زوجة تشارلز الثاني ، فإن ذلك لم يكن الهدف الرئيسي من كتابه . إلا أنه الهدف الرئيسي لهذا الفصل .

إن أفضل الأدلة لإثبات حدوث هذا الزواج هو الشهادة الرسمية أو نسخة حقيقية عنها . ولكن مع الأسف ، ليس ثمة أي وثيقة مائلة - وعلى أي حال لم يكشف عنها قط . سوى أننا سنرى أن هناك اشارات عده في رسائل ومحفوظات إلى أن مثل هذه

الوثيقة كانت موجودة في وقت من الاوقات . وإذا لم يشا المشككون الراغبون في القبول بهذه الاشارات ، فان هناك مصادر لتعزيز صحة هذا الزواج . وقبل رفض شرعية مومنوٌث على أنها هراء ، بكل ما في الكلمة من معنى ، ينبغي الأخذ بعين الاعتبار بعض الواقع ، من مثل تاريخ اعتناق تشارلز الثاني العقيدة الكاثوليكية للمرة الاولى ، وما ينجم عن ذلك من سياسة الاعتراف بمومنوٌث وارثاً للعرش ، والمعاملة السيئة التي تلقّاها مومنوٌث على يد عمه دجيمس بعد معركة سدجمور ، والاعتقاد السائد على نطاق واسع بأن الزواج قد تم بالفعل .

فما هو الدليل ، إذا ، الذي يوصي بأن الزواج قد جرى؟ أولاً ، ليس ثمة إنكار بأنه كان ثمة اعتقاد سائد في هذا الصدد ، وفي أغلب الأحيان طالما استمر وثبت طويلاً بسبب أن فيه بعض الجوهر ، او له أساس . وفي هذه الحالة بالذات لم يصدر اي تكذيب رسمي طوال سنتين عده ، وحتى في ذلك الحين ، كما سيتبين لنا ، إلا لأسباب دينية ، وللخلافة على العرش . ولكي نقرر واقعاً ما كان يعتبر اعتقاداً ، ينبغي تقديم المزيد من الأدلة قبل تأكيد هذه القصة . ومن حسن الحظ أن لدينا مثل هذا التأكيد . والأمر الذي يدعوه إلى الدهشة أن كل الأقوال المقتبسة من الرسائل ، واليوميات ، والأوراق الرسمية التي تلي ، والتي كانت موجودة منذ زمن طويل - وفضلاً عن ذلك كانت دوماً في متناول المؤرخين - أسيئت قراءتها ، او تم تجاهلها ، وهذا الاهتمام ليس أمراً مجهولاً في أوساط المؤرخين .

في المجلد الثاني من «أوراق كلارندون الرسمية» نجد أن كلارندون في السنة ١٦٤٦ (أصبح في ما بعد السر إدوارد هايد) ، كتب إلى السر إدوارد نيكولاس ، أمين سر الملك تشارلز الأول ، حوالي نهاية الحرب الأهلية ، يقول إنه ليس متأكداً تماماً من أن الشائعة القائلة ان أمير ويلز تزوج ، خاطئة ، لأنه كان سمع بعرس كبير جرى في باريس .

وقد ورد هذا المقطع في تاريخ محلبي لهوفرفور دوبيست ، كُتب السنة ١٨٨٢ ، بقلم دجون براون (باسم مستعار هو كريستوفر كوب - وب) : «إنها قضية تاريخية مثل الكثير من الشك ، قضية ما إذا كانت لوسي ولتر قد اقترنـت شرعاً وقانوناً بـتشارلز

الثاني . وهناك ظروف غريبة جداً تتعلق بمؤامرات البلاط تعزّز هذا الافتراض . »  
 لا يسعنا أن ننكر أن لدى أسرة ستيفارت المالكة شكوكاً حول هذه القضية ، في حين يبدو أن كاثرين أوف براغنزا ، زوجة تشارلز الثانية ، كانت مقتنة بشرعية ابن زوجها . وكان من سوء طالع تشارلز أن كانت كاثرين عاقراً ، وقد اتهم - على ما يزعمون - كلارندون بأنه دبر عمداً هذا الزواج ، لكي لا يرزق منها بوارث . فهل فعل كلاندرون ذلك أم لا ، وإذا كان الأمر كذلك ، فلأنه كان يرجو خلافة مومنوث . هذا ما لا سبيل إلى معرفته مطلقاً . إلا أن ثمة إشارات إلى أن ذلك يمكن أن يكون هدف كلارندون ، وسننشر إلى أحدها في ما يلي . فقد كتب صمويل بيبيس في يومياته ، في ٣١ كانون الأول ١٦٦٢ ، يقول : «دوق مومنوث يرفل بالعظمة الفائقة في البلاط ، وهو مدلل كثيراً من الملك ، بحيث لا يبقى مجال للشك ، فيما لو لم يرزق الملك طفلاً من الملكة (وهذا أمر لا دليل عليه بعد) في أنه سيعرف به إبنا شرعياً ، وسيكون هناك خلاف بينه وبين دوق يورك ، لا سمح الله بذلك .»  
 في ذلك الوقت لم يكن قد ثبت بعد أن كاثرين عاقر ، ومن الغريب أن نلاحظ أن مومنوث كان معتبراً خليفة على العرش ، وأن دجيمس ، دوق يورك ، كان يعارض بعزم هذا المشروع .

في جملة الأعمال غير القانونية التي قام بها الملك المرح ، هل يُستبعد أن يكون شمل جعل ابن سفاح شرعاً لغایات الخلافة؟ كان يمكن أن تكون تلك الخطوة خطيرة جداً ، بل أشد خطراً من انكار شرعية ابن حقيقي . فالأمر الأخير لم يشكل اي صعوبة ، لأنه كان ينعم بالدعم الكامل من دجيمس وحزبه . وهو الأقوى والأكثر نفوذاً في البلاد . ولما كان قد اعتنق الكاثوليكية ، فلم يكن ليقوم بأي شيء لتشجيع خلافة بروتستانتي ، ومومنوث كان بروتستانتياً عنيداً .

لو ان كل الرسائل ، والمقطفات ، والشائعات التي تذكر أنه كان ثمة زواج حقيقي ، تجمعت ونشرت ، ملأات مجلداً من الحجم المتوسط . إذا ، فمن المستحيل تقديم أكثر من جزء من الكلام المعزّز في هذا الفصل ، ولا يمكننا ان نضمّنه إلا الاقتراحات الأكثر تحديداً وجدارة بالاعتماد .

هناك رسالتان ، في مجموعة لامبث ، كتبهما ميري ، أميرة اورانج (والدة الملك وليام الثالث) شقيقة تشارلز ، إلى أخيها ، تتضمن إشارات إلى «زوجتك» . ولما كانت ميري قد توفيت السنة ١٦٦٠ ، فإن الزوجة لا يمكن أن تكون كاثرين اوف براوغنزا ، لأنها لم تتزوج تشارلز إلا السنة ١٦٦٢ . وقد ذكرت عمة لوسي ولتر ، وتدعى السيدة مارغريت غوسفرايت ، بصورة مطلقة ، أنها رأت اعلان الزواج تحت يد الملك نفسه .

عندما شرع دوق مون茅ث في مغامرته المفجعة للمطالبة بحقه في العرش السنة ١٦٨٥ ، أطاع السر باتريك هيوم أنه يملك إثباتاً حول زواج أمه ، ونظرًا لجمعه ذلك العدد الكبير من الأتباع حوله ، يبدو أنه اعتُقد ان العصيان إنما هو غزو ، الغاية منه استعادة ما يعلم انه من حقه بفعل الخلافة . ومجرد أن تنتهي المغامرة بالهزيمة التكرياء في سدمور ، لا تُظهر ، في أي حال ، أن مون茅ث كان يحارب من أجل قضية خاسرة ، أو حق زائف ، ذلك أنه ينبغي لنا أن نتذكر أن السياسة الانكليزية في ذلك الوقت كانت تقدم مشهداً مخزيًا . كان على رئيس الادارة عصبة من السياسيين الاشد قذارة في تاريخ انكلترا ، جماعة من الشخصيات الكريهة ، الفاسدة ، من ترعرعوا وشُجعوا في عهد الملك تشارلز الثاني . هؤلاء المنافقون الاتهazioN ، تحقيقاً لصالحهم ، كانوا يدعمون الملك الذي يفدهم أكثر من سواه . فلما بات دجيمس الثاني مهدداً بفقدان التاج السنة ١٦٨٨ ، كانوا على أتم الاستعداد للتأمر مع وليام أوف اورانج . وبعد ذلك بسنوات ، وبسبب استيائهم من المكافآت التي نالوها من الملك الجديد ، وليام الثالث ، شرعوا في مراسلة الملك المنفي دجيمس . فهل يُستغرب ألا يكون لمون茅ث إلا حظ ضئيل منذ البداية ، مهما يكن ادعاؤه ، ومهما يكن عادلاً السبب في مغامرته؟ ففي زمن سدمور ، ساند هؤلاء المتآمرون الحقيقيون دجيمس على أنه الحصان الملكي الذي له أفضل حظ بالنجاح .

بغض النظر عن الإشارات المقنعة والتلميحات الموجودة في الكثير من مراسلات ذلك الزمان ، هناك أقوال صدرت في أجيال لاحقة تساعد كثيراً في متابعة قضيتنا ، والدفاع عنها .

وقبل تقديم هذا الدليل ، تقضي الضرورة بأن نعرف متى شرع تشارلز الثاني في

الاهتمام جدياً بالكاثوليكية ، وماذا كان الموقف الناجم عن ذلك بالنسبة الى موغوث . ولعل المرشد المعقول الى هذه القضية يمكن أن يكمن في يوميات صمويل بيبس ، الذي يتحدث غالباً عن موغوث ، والحظوظة التي نالها على يدي والده ، والشائعات حول زواج تشارلز بلوسي .

« ٣ - ٥ أيار ١٦٦٣ ... ليس الحال على ما يرام بين الملك والدوخ (دوق يورك) ولعل السبب في ذلك هو شغف الملك بالدوخ الصغير (موغوث) . ويمكن أن يكون ثمة بعض الخوف من جعله وارثاً للتأم : ولكن هذا مجرد تخمين شخصي . ٤ أيار . سيُغرى الملك بمحاولة تسليم التاج الى الدوخ الصغير ، الأمر الذي يمكن أن يتسبب في اضطرابات .»

« ١٥ أيار . من المشكوك فيه لا يكون الملك ينوي جعل دوق موغوث ابنًا شرعياً ، ولكن بالطبع لن يسمح دوق يورك بذلك . (جعله شرعياً هنا تعني بوضوح الاعتراف بالزواج .)

« ٩ تشرين الثاني . السيد بلاكبرن (وزير البحريّة) وأنا شرعننا في التحدث في أمور كثيرة . . . إنه يخبرني إن الحديث يدور بكثرة حول نية الملك في جعل دوق موغوث ابنًا شرعياً .»

« ٢٠ كانون الثاني . الملك ما يزال يشغف بدوخ موغوث بإفراط ، إلى درجة أن الملك وحده ، ودوخ يورك ، والأمير روبيرت ، ودوخ موغوث يرتدون الآن ملابس الحداد - اي العباءات الطويلة - على دوقة سافوي ؛ بحيث أنه يتدب كمالو كان من سلالة ملكية ، في حين أن دوق يورك لا يفعل ذلك . . .»

« ٢٢ شباط . الملك لا يحب الملكة مطلقاً ، ولكنه بالآخر غاضب عليها ، وهي - كما تتفق على ذلك كل التقارير - غير قادرة على الإنجاب . إنه مولع جداً بدوخ موغوث بحيث يدهش ذلك الجميع . وحسب قوله ، فإن الدوخ قال إنه سيكون سبب موت كل من يقول ان الملك ليس متزوجاً من أمه .»

«التاريخ نفسه . خال دوق موغوث له مقام في البلاط . وبصفته من سكان ويلز ، فإنه يتحدث بوضوح عن زواج الملك بشقيقته .»

« ١٦ كانون الأول ١٦٦٦ . بعد ظهر هذا اليوم تمشيت مع لورد برانكر (رئيس الجمعية الملكية ، وفي وقت ما مراقب النفقات المشارك في البحريّة) ، وتحدثنا في أمور الساعة . . . إنّه يتحدّث كما لو كان غير مستحيل أن يعترف الملك به ابناً ، وإن هناك زواجاً بين أمّه والملك ».

من المهم ليراد كل من هذه المواد لأنها تُظهر أموراً كثيرة . فيبيس ، بالطبع ، سمع الشائعات ، ويبدو أنه يصدقها بشدة على احتمال أنها صحيحة . ونحن نعرف أن بيبيس كان يتنقل في أوساط مقربة من الحاشية الملكية ، ومثل هذه الثرثارات ليست في معظمها بلا أي أساس . وبعد نهاية السنة ١٦٦٦ ، لا يعود ثمة اشارات أخرى في يوميات بيبيس لا إلى شائعة الزواج الملكي ، أو إلى نية الملك بجعل موغوث الوارث ، الأمر الذي يعطينا تاريخاً تقريباً لبدء الملك درس موضوع اعتناق الكاثوليكية بجدية . وتوّزد الأحداث في السنوات القليلة التالية ذلك حتماً .

نفي كلارندون ، وهو البروتستاني العنيد ، الذي كان يعتقد بالقصة ، في السنة ١٦٦٧ . وراح تشارلز يتلقّى الإعانات المالية من الملك لويس الرابع عشر لكي يدعم الخططات الفرنسية المتعلقة بهولندا السنة ١٦٦٨ . وتفاوض مع الملك الشمسي الفرنسي بشأن معاهدة دوفر السرية ، وعوجبها كان عليه أن يعلن نفسه كاثوليكيّاً ، وينضم إلى الفرنسيين في حربهم ضد الهولنديين ، على الرغم من انه سبق له عقد معاهدة مع الهولنديين والسويديين لمقاومة لويس السنة ١٦٧٠ . ولكنه لم ينكر رسمياً أنه تزوج لوسي ولتر إلا السنة ١٦٧٨ ، عندما دوّنت في سجل مجلس الشورى ، وسجّلت في المحكمة العليا العبارة التالية : «من أجل تجنب أي نزاع يمكن أن يحدث في المستقبل بخصوص الخلافة على العرش ، فإنه (تشارلز) يصرّح أمام الله العلي القدير ، بأنه لم يعقد قط اي زواج ، ولم يتزوج قط السيدة بارلو ، المعروفة باسم ووترز ، أم دوق موغوث ، ولا اي امرأة أخرى ، باستثناء زوجته الحالية ، الملكة كاثرين ، التي هي حية تُرزق .» إلا أن المعرف ، عموماً ، ان ملكتنا الطروب لم يكن ليغير الصدق كبير أهمية ، ويكفنا تجاهل إنكاره . فلماذا انتظر ثمانية سنوات لإصدار هذا الإعلان العام؟

في السنة ١٦٨٠ ثُشت رسالة هامتان جداً ، وعلى جانب كبير من الأهمية التاريخية ، هما «رسالة الى شخص شريف تتعلق بالصندوق الأسود» ، و«رسالة إلى شخص شريف تتعلق بانكار الملك زواجه بأم مونغوث». وهذا جزء مما ورد في الرسالة الثانية : «... ولما كان هناك عدد قليل من سنتحت لهم فرص أفضل للاطلاع على مجمل هذه القضية غير رئيس مجلس اللوردات والرئيس الاعلى للقضاء ، هايد (هايد سيصبح في ما بعد كلارندون) ، فإني لعلى يقين من أن الفوائد التي يمكن أن تصبب ذريته (ابنته آن تزوجت دجيمس ، دوق يورك ، ورُزقت في جملة من رُزق) ، بالملكتين ميري الثانية وآن» ، من جراء عزل دوق مونغوث من حقه بالتابع ، يمكن أن تعتبر دافع كافية لإقناعه ، بعد الحاج ، إن لم يكن بتأكيد عدم شرعية الدوق ، فعلى الأقل بالتزام جانب الصمت في هذه القضية ... . ومع ذلك فإن هذا اللورد نفسه الذي كان مهدداً بخطر الاتهام قضائياً بالتقسيم (السنة ١٦٦٧) ، أمام البرلمان لنصح الملك - واقناعه بالزواج بالملكة كاثرين ، برر نفسه بالتأكيد أنه كان بخلالته ابن شرعي من صلبه ، من زواج سابق ، يرث تاجه وكرامته .»

هذا اعتراف مهم ، لأنه يُظهر أن كلارندون ، إذا ما كان كذب لكي ينقذ نفسه ، فينه ، بالطبع ، لا يمكن أن يكون قام بذلك ليؤذن نفسه .

وحملت الرسالة الأولى تعبيراً أكثر إيجابية . فهي مؤرخة في ١٥ أيار ١٦٨٠ ، وتتضمن هذا المقطع : «... وكما اجرأ على التأكيد بقوة انه ليس ثمة أمرٌ معناد على الصحبة في المدينة ، لم يسمع بمثل هذا الزواج ، لذا فإنه معروف أن رسالة ضُبطت على زمن اوليفر (كرومويل) ، موجهة من الملك الى السيدة المذكورة (لوسي ولتر) ، الموجودة آنذاك في البرج ، وقد كُتبت عباره «إلى زوجته» ، فوق العنوان .»

إن أقوى مصادر الأدلة ، مع ذلك ، هي رسالة كتبها شخص يدعى دانيال اوينيل إلى تشارلز الثاني في السنة ١٦٥٤ - ١٦٥٥ . فقد عرف اوينيل لوسي ولتر عندما كان بعد شاباً . وخلال السنوات الأخيرة من نفي تشارلز وظفه الملك لكي يهتم بحاجات لوسي الملكية التي لم تكن في ذلك الوقت تعيش مع الملك ، وقد أصبح اوينيل ، في ما بعد ، وصيف حجرة النوم لدى تشارلز .

وكتب لوسي إلى تشارلز شاكية من أزمة مالية ، ومن وضعها ، ومعاملتها . فأوفد تشارلز أونيل هذا الليلى حاجاتها . ويمكن مراجعة هذه الرسالة في أوراق نيكولاس .  
«سيدي ،

بعد تلقّي أوامر للاتفاق على ديونك ، قمت بسرعة بما يكتنفي القيام به . . .  
وبنغي لي الاعتراف بأن السيد روذول (الاسم المستعار للإيرل أوف روتشرستير) كان الشخص الثاني الأفضل الذي يمكنه تفويضه للتعامل مع دائريك ، ولكن كان هناك كثيرون لا يحبونه ، الأمر الذي اقفعه بعد إلهاج لكي لا يكون ثمة استثناء غير معقول .  
وهناك آخرون تساؤلوا لماذا لم يكلّف السيد أوفيلد (الاسم المستعار لأورموند) المهمة التي كُلّف الآخر معايتها ، ذلك بأنه كان يمكن أن يكون موثقاً به أكثر ، وقالوا أيضاً إنه لو كان هنا عندما كان مجئه متوقعاً - قبل شهرين - لكان ثمة احتمال قوي بأن تكون قد أصبحت في البيت بسلام مع زوجتك وأولادك .

هذه الرسالة تُظهر أنه حتى السنة ١٦٥٥ لم يكن ثمة أي شك لا في أبوبة دوق مونموث ، ولا في قضية الزواج . وفي رسالة كتبتها الأميرة ميري (التي تزوجت ، في ما بعد ، وليام الثاني أوف أورانج) إلى تشارلز ، ومؤرخة في ٢٠ أيار ١٦٥٥ ، ومنتشرة في كتاب «حيوات أميرات إنكلترا» ، المجلد السادس ، هذه العبارة الموجبة : «زوجتك تقرر ما إذا كانت ستكتب أم لا .»

في السنة ١٦٥٥ كتبت لوسي عدة رسائل تشیر فيها إلى أنها كانت بحاجة إلى المال ، وهددت ، في آخر الأمر ، بكشف رسائل كتبها تشارلز إليها ، إذا لم يضمن أن تُدفع المخصصات البالغة ٥ آلاف ليرة انكليزية بانتظام .

وعلى الرغم من أن هذه المراسلة المعاصرة تبدو مفككة وغير مترابطة ، فليس ثمة سبب في الشك بحقيقة ما توحّي به - وهو أن لوسي وتشارلز كانوا متزوجين ! ولعلهما تزوجا ، أولاً ، في ويلز ، وتم تثبيت العقد في حفلة في القارة الأوروبية ، إما في لييج أو في باريس . وحدّها وثيقة الزواج أو نسخة عنها صحيحة ، يمكن أن تقدم علينا التاريخيين والمكانين ، ولكن من أجل غایيات هذا الفصل ، يكفي أن نكون قد أثبتنا حجة جيدة للتّأكيد أن الزواج قد حصل بالفعل .

هل وجد دوق بکلوتش وثيقة الزواج ، او نسخة عنها خلال القرن التاسع عشر ؟

اذا كان الامر كذلك ، فهل أتلفها؟ في كتاب «صورة حياة» للفيكونت ميرس ، يمكننا أن نقرأ الفقرة التالية ، في ٦ كانون الاول ١٩١١ :

«في فترة عيد الميلاد ، وأثناء إقامتي في برايتون مع حماتي اللايدи سيمور ، روى لي لورد فرنسيس هيرفي ، وهو نسيب لزوجتي ، وكان حالياً في نيوكاسل السنة ١٨٦٣ ، حكاية غريبة ألت اليه من طريق العميد ستانلي ، في جامعة الملكة فكتوريا . فقد انتقلت في السنة ١٨٧٩لجنة الخطوطات التاريخية الى قصر مونتاغيو في هوايتهول لدراسة المستندات هناك ، بتصریح من دوق بکلوتش الذي كان يعيش فيه آنذاك . ولدى التقى في ركن من غرفة مظلمة ، وجد أعضاء اللجنة صندوقاً أسود ، وبداخله وثيقة زواج تشارلز الثاني ولوسي ولتر ، أم دوق مونموث . ولما لم يكن في تلك الأيام قانون للزواج الملكي ، ولما لم يكن بالإمكان تجريد الملك من حقوقه بموجب القانون العادي (القانون غير المكتوب ، والمبني على العرف والعادة) ، فإن الوضع ، ظاهرياً ، كان أن دوق مونموث ، ودوق بکلوتش ، المتحدر منه ، هو ملك انكلترا الحقيقي ، فلما أوضح ذلك للدوق ، قال : «ربما سبب هذا الكثير من المشاكل ». وأحرق الوثيقة .

لقد بعد قانون الخلافة الصادر السنة ١٧٠١ ، بالطبع ، ورثة مونموث ، ولكن بقية القصة يمكن أن تكون صحيحة . فليس ثمة سبب وجيه للشك فيها ، ذلك بأنها شدد على ما كان عليه الاعتقاد العام في القرن السابع عشر ، وما يظهره الدليل كان بالفعل ، حقيقة تاريخية .

ويعزل تام عن الرسائل والمقتضيات التي يُستبعد ان تكون كلها زائفة ، فإن العوامل الهامة المتعلقة باعتناق تشارلز الكاثوليكية ، ومعارضة دجيمس الثاني مونموث وتأثيره على أخيه ، الملك ، والسبب في ثورة مونمooth - كل ذلك يشكل معاً حجة قوية للقبول بأن مونمooth كان ابناً شرعياً ، ولذا كان ينبغي أن يعتلي العرش السنة ١٦٨٥ . وإذا كان لم يفعل ذلك ، فالسبب يعود كلياً الى مؤامرة سياسية - دينية ، وليس له علاقة بنقص في المbert . ومن المستحيل أن تقدر ماذا كان يمكن ان تكون النتيجة فيما لو اصبح مونمooth الملك دجيمس الثاني؟ وليس تلك الغاية من هذا التحقيق ، ويبقى الواقع أن مونمooth كان ينبغي أن يكون الملك !

## روbin هود

قليلون هم الذين لم يعتقدوا ، في صغرهم ، بأن روين هود كان شخصية تاريخية ، ورجلًا خارجًا على القانون ، في غابة شيرورود وعدواً للأمير دجون ، وعمدة بلدة نوتنغهام . والكتب ، والأفلام ، والمسرحيات ، والقصائد القصصية الغنائية التي تروي حكاية روين هود ، أحد أعظم ابطال انكلترا ، لا تُعد ولا تُحصى . ولا يعز تكرار او ترداد هذه القصة التي أصبحت احدى أشهر الاساطير الشعبية في التاريخ الانكليزي ، لا اللون ولا الخيال . إلا أن موضوع هذا الفصل هو الاسطورة نفسها ، ذلك بأنه على الرغم من رومانطية القصة وتسويقها ، وإثارتها ، فليس لروين هود إلا أساس تاريخي باهت .

ولكي نرسم صورة لنمو هذه الاسطورة وأشكالها المختلفة ، ينبغي العثور على أصل تاريخي . ولكن باستثناء إشارة غامضة الى امرئ يدعى روبرت هود ، هارب من وجه العدالة ، في عهد الملك هنري الثالث ، والى آخر يدعى كذلك روبرت هود ، كان وصيفاً في عهد الملك إدوارد الثاني ، وقد عاش بعد حوالى مائة سنة من الأول ، ليس ثمة دليل كبير على وجوده مطلقاً . وفضلاً عن ذلك ، لم تجتمع أي من خصائص ما عُرف بها البطل الأسطوري ، في أي من الرجلين المذكورين . ويعتبر العديدون من الثقات أن القصة ليست إلا مجرد خرافة ، في حين أن آخرين يؤكدون أن تحت البناء الفوقي للأسطورة والقصة الرومانطية ، يقوم شخص تاريخي محدد . ولاتعني ضآلة الأدلة والبراهين التاريخية بالضرورة ان القصة محض خرافة !

لقد زُخرفت قصة روين هود كثيراً بالرومانطية في الأدب الانكليزي ، بحيث يقتضي فك الواقع من الأسطورة دراسة الدليل الأدبي في القصائد القصصية الغنائية ،

والمسرحيات ، والفولكلور ، والحكايات . ولعلّ اول إشارة أدبية (مقابل الاشارة التاريخية) الى روين هود ، يمكن العثور عليها في الرواية الثانية لقصيدة لانغلاند «بايرز بلاومان» ، الموضوعة حوالى نهاية حكم الملك إدوارد الثالث ، على لسان أحد الكهنة السكارى ، على ما نُقل .

وهذا يمكن ان يوحي بأنّ الاسطورة كانت قد انتشرت في ذلك الوقت . ويشير موجز العبارة التي نطق بها الكاهن الى أنه كان يعلم تماماً أن سامعيه سيفهمون ما يتحدث عنه .

ولا يغرينّ عن البال ان روين هود لم يكن بطلاً قومياً ، بالمعنى نفسه الذي كان عليه آرثر ، وهيرورد السهران ، وأن شعبيته كانت ، في بادئ الامر ، محلية بحتاً . ومن هنا امكننا القول انه مضت سنوات كثيرة قبل أن تُعرف الاسطورة على نطاق واسع . وهناك بعض السندي التاريجي لهذا الرأي ، ذلك بأنه قبل حوالى ثلاثين من السنين قبل «بايرز بلاومان» كتب المؤرخ الاسكتلندي دجون فوردان ، يقول - حسب الترجمة الانكليزية لكتاب تيري أوغستان المعروف «فتح النورمانيين إنكلترا» : «في ذلك الزمان ، قام بين المحرومين قاطع الطريق الشهير روبرت هود ، الذي ثُلّع عامّة الشعب بتكرّره بالألعاب والمسرحيات .»

إذًا ، فإن الاسطورة قد بلغت اسكتلندا في وقت مبكر من القرن الرابع عشر ، وربما قبل ذلك .

وتؤكّد قصيدة «بايرز بلاومان» أنه كان ثمة قصائد قصصية صالحة للغناء حول روين هود ، وراندولف ، ايبل تشستر . وسنُظهر ، في ما بعد ، ان هذا الأخير كان شخصية تاريخية حقيقة .

المعروف حتى الآن أن اولى القصائد القصصية الغنائية عن روين هود كانت تقع في مجموعتين - مجموعة بارنزديل ، في وست رايدنج ، في مقاطعة يوركشير ، والثانية مجموعة شيرروود في نوتنهامشير . ومن هاتين المجموعتين صُفت قصة مسرحية متصلة ، في قصيدة قصصية غنائية تُدعى «مغامرة روين هود الصغيرة» ، وضعها ونكن دو وورد ، في نهاية القرن الخامس عشر . وتتضمن هذه «المغامرة» -

حسبما ورد في «قاموس السيرة القومية» ، أفضل ما هناك من مواد عن روين هود ، وهي الأساس الذي استندت إليه كل القصائد القصصية الغنائية ، والمسرحيات ، والحكايات التي ظهرت في القرنين السادس عشر والسابع عشر .

في «المغامرة» هذه ، كان روين هود يعيش في غابة بارنزديل ، ويقوم بحماية الفارس السر رتشارد - آت - ذي - لي ، من رئيس دير القديسة ميري ، في يورك . ويقتل عدوه اللورد ، عمدة نوتنهام (ولكن لا يذكر أين) ، ويستقبل «الملك إدوارد» متذمراً . ويعجب الملك بروين هود ، ويقنعه بالانضمام إلى حاشيته الملكية . وفي البدء يفرح روين هود ، إلا أنه لا يلبث أن يتوق توقاً شديداً إلى حياة الغابة السابقة ، فيغادر القصر . وأخيراً يموت ، أو ينزف حتى الموت ، في دير كركليز ، بين ويكفيلد وهاليفاكس .

كثير من الأماكن التي يرد وصفها في «المغامرة» يمكن مطابقتها مع أجزاء من وست رايدنج ، ولكن قليلاً ترد إشارات أو ذكر لغابة شيرروود التي يقترب اسمها بروين هود بصورة أعمّ .

في القرنين السادس عشر والسابع عشر أُجريت إضافات كثيرة على الأسطورة . وكيفت عدة قصائد قصصية غنائية مع مغامرات خارجين على القانون آخرين أمثال هيرروود ، ووليام والاس . وقد منح المؤرخون في عهد أسرة تيودر المالكة ، روين هود أصلاً نبلاً ، وجعله انطوني ماندي ايرل هتنغدون . وفي ذلك الوقت ، أيضاً ، قرن اسمه ميد ماريون ، التي زعم بعض الكتاب أن الملك دجون أراد الاقتران بها ، ولكن لما صدّته ، دسّ لها السّم .

ولعل الاتحاد بين ماريون وروين هود مردّه إلى أسطورة كانت سائدة في أواسط الفلاحين ، في فرنسا ، ذلك بأن ثمة قصة ريفية فرنسية تعود إلى القرن الثاني عشر ، تُعرف بعنوان «روين وماريون». والجدير بالذكر أن المراجع الأدبية الانكليزية المبكرة لا تذكر اسم ميد ماريون مطلقاً مقرّوناً باسم روين هود . لقد كانت شخصية مهمة في «ألعاب أيار» ، وربما كانت ميد ماريون غير ذات علاقة بأسطورة روين هود ، ولكنها أُضيفت إليها في ما بعد .

ولما راحت الاسطورة تُلْفُ بباب كثيف من السحر ، والرومنطيقية والبالغة ، كذلك أصبح الكتاب مشككين ، وسرعان ما أصبحت «حكاية روين هود» حكاية غير قابلة للتصديق .

هناك كتاب كثيرون ينكرن وجود روين هود ، ويزعمون أنه ليس إلا شخصية وثنية ، أو شخصية ذات علاقة بالمعتقدات الخاصة بالجن . ويؤكد السردي لي ، في «قاموس السيرة القومية» أن «الاسم كان ، في الأصل ، لجنيّ صغير يعيش في الغابات ، وهو يشغل حيزاً كبيراً في الفولكلورين الانكليزي والاسكتلندي . . . لأن مثل هذا الجنّيّ كان يضع على رأسه قلنسوة أو غطاء آخر (وهود تعني بالانكليزية غطاء الرأس او القلنسوة) . ولعل الاسم هو تصحيف «روين اوف ذي وود» - ومعناها «روين الغابة» - لأن مثل هذا الجنّيّ كان يقطن في الغابات» . ولدعم هذا الرأي ، تراه يورد شخصيات خرافية مثل روري الهضاب ، في ايرلندا ، ووليام كلاودسديل (الخارج على القانون الاسطوري في غابة إنجلوود ، في كمبرلاند) ، ورويان الغابة ، في الفولكلور الريفي الفرنسي . ويستمر في ايراد لائحة كبيرة من الاماكن والنباتات التي سميت باسم روين هود ، في مختلف ارجاء انكلترا .

يضع توماس رايت ، في مقالاته حول موضوعات تتعلق بالأدب ، والخرافات الشعبية ، وتاريخ انكلترا في القرون الوسطى (١٨٤٦) ، روين هود في جملة شخصيات الميثولوجيا التيوتونية (الجرمانية القديمة) المبكرة ، في حين أن ماراي تقرنه بالسحر والعرفة .

ويبدو ان «روين القلنسوة» كان لقباً يُطلق على كبار المعلمين في عبادة العرافة ، إشارة الى غطاء الرأس الذي يرتديه هؤلاء أثناء الاحتفالات . وتقوم هذه الحجة على النظرية القائلة بأن إله العبادة كان يُعرف باسماء كثيرة ، وكان من بينها اسم روين . ويعزّ ذلك بوثيقة محفوظة في مكتبة بوديليان ، في أوكسفورد ، مفادها ان ديم كايتلر اعترف بأنه كان ، السنة ١٣٢٤ ، يعبد روحًا تدعى روين آريتسون . ثم يروي ان روين غودفيلي كان يُقرن بالشيطان ، وكان احد تجسيدات إله العرافة الأگرن . ويؤكد كيغلي ، في كتابه «الميثولوجيا الخاصة بالجن» ، الموضوع في منتصف القرن

الناسع عشر ، أن الإله الأفرون كان له عدة أسماء ، بما في ذلك روين هود . إن هذا التوحيد مع العرافة والسحر يمكن أن يكون له بعض الأساس ، ولكنه لا يفترض ، مقدماً ، أن تكون العرافة قد منحت روين هود أصله .

يُزعم برادلي أن القصة كلها استمدت من خرافة الشمس الآرية . فروين هود هو «هود» ، إله الربيع ، ونبيب وودن ؛ وميد ماريون هي مورغن ، عذراء الفجر . ويقترح ياكوب غريم ، أحد الآخرين غريم ، صاحبي المؤلف النافيس عن الميثولوجيا الألمانية ، أن هود هو تصحيف اسم هود يكن ، وهو لقب جنّي في الفولكلور التيوتوني . وما روين إلا اللقب التقديري لعاطفة حميمية ، مثل روين غودفيلو . ويفترض السر سدني لي ، إذ ذاك ، أن العدد الكبير لأسماء الامكنة مثل خليج روين هود ، وهضبة روين هود ، ينبع من شهرة «الجنّي الصغير» الواسعة الانتشار . كل ذلك حسن ، ولكن أغلبية أسماء الأماكن المتعلقة بروين موجودة في يوركشير ونوتونغهامشير ، وهما الأقليمان اللذان يقترن اسمه بهما ، عموماً . ولا يمنع وجود روين هود تاريجي الأجيال اللاحقة من إدخال قصته في الفولكلور ، وتعدد وجوه الأسطورة لا يحول ، بالضرورة ، دون أي وجود حقيقي له .

دخل روين هود في الاحتفالات الشعبية المعروفة بـ «أول أيار» حوالي نهاية القرن الخامس عشر . وهذه المهرجانات يُحتفل فيها تقليدياً كمهرجان للربيع ، وفيه تُتوَّج «ملكة أيار» ، وفيه يرقصون حول سارية نوار ، أو العمود المزين بالأشرطة والأزهار وما شاكل ، المنصوب في العراء لهذه الغاية . وفي «رسائل باستون» نقرأ عن احتفال خاص من احتفالات «أول أيار» عُرف باسم مهرجان روين هود . وكان هناك رقصة اسكتلندية باسم روين هود . ويدلّ هذا المهرجان الشعبي لتكريم البطل على أنه كان مثلاً يحتذى بالنسبة إلى الشعب ، على غرار ما كان الملك آرثر بالنسبة إلى الطبقات العليا .

وينبغي التحدّث عن قضية ترفع روين هود إلى مرتبة النبلاء . فالقصائد القصصية الغنائية المبكرة تصفه بأنه فلاّح ، في الأصل ، ولكن غرفتون اقترح السنة ١٥٦٩ ، أنه ، على الرغم من كونه من أصل متواضع ، فقد رفع إلى مرتبة إيرل ،

مكافأة له على فروسيته وشهادته . ويسمى انطوني ماندي أيرل هتنغدون ، ويوافقه على ذلك الدكتور ستاكلي ، الذي يزعم أنه اكتشف شجرة عائلة تجعل روين هود حفيد رالف فتزروث ، وهو نورماندي من رفاق ولIAM الفاتح ، وكذلك حفيد دجيفري دو ماندفيل . والدعم الوحيد لهذا هو أن ولIAM فتزروث كان يمتلك أرضاً في لوكلسي ، في ستراتفوردشير ، وروين هود كان يدعى لوكلسي من قبل الروائي السر ولترسكوت . إن روين هود نفسه ، لا بدّ أن يُدهش لترفيعه إلى مرتبة النبلاء . ويزعمون أنه اقتنى بعود فتزروولتر (ابنة روبرت ، ايريل فتزروولتر) ، المدفونة في كنيسة داغو ، والتي اشتهرت بأنها ميد ماريون ، وكان الملك دجون معجبًا بها كثيراً ، وقد سمعها ، في ما بعد . إلا أن لا شيء يدعم ذلك ، لأنّه على الرغم من أن روين هود الوارد ذكره في «وثائق البلاط» في ويكتفيلد ، كان له زوجة تدعى ماتيلدا ، إلا أنها لم تكن ابنة روبرت فتزروولتر ، لأن تلك الأبنة كانت قد توفيت قبل سنين عدة .

وليس ثمة أي دليل على أن روين هود كان قط ايرل هتنغدون ، ولكن من الممتع حقاً أن نذكر أنه خلال المائة والخمسين سنة الأخيرة كان عدد من أفراد أسرة هتنغدون هذه يحملون الاسم الأول الذي يسبق اسم العائلة اسمياً روين هود ، وأن أحد إخوة الإيرل الثاني عشر حمل اسم التنصير إدوارد بلانتجينيت روين هود هيستنغر . ولذا ، فثمة ، كما يتضح ، اعتقاد عائلي قوي بأنهم متحدرون من بطننا هذا .

إذا كانت حقيقة روين هود تقوم ، وحسب ، على الكمية الضخمة مما كُتب عنه ، وقد تصرفت هذه الكتابات كثيراً في أمور قصته وسلوكه ، وبخاصة في العصر الذي عاش فيه ، فمن السهل ، إذا ، تفهم سبب اعتبار الكثيرين الأسطورة مجرد خيال ، وخرافة لا تصمد أمام أي امتحان تاريخي .

عديدة هي الحجج التي هي في مصلحة وجود روين هود التاريخي ، ولكن ، كما هي الحال ، بالنسبة إلى الكثير من الأساطير التي تستند إلى الواقع ، فإن معظم البراهين الناشئة عن ذلك تحجبها التناقضات ، والتلفيقات ، والأشياء غير المنطقية المرؤعة . وسيُحسن ، قبل أن نجد الزائف المسجل من الحقيقي المرجح أو المحتمل ، تلخيص النظريات المختلفة بالنسبة إلى وجوده الفعلي .

اقتصر كل من أوغستان تيري والسر ولتر سكوت (في روايته آيفنها)، أنه كان زعيم آخر من تبقى من السكسون المسلمين، الذين كانوا ما يزالون يرفضون القبول بالفتح النورماني، والذين ثابروا على العيش خارج نطاق قانون ذرية ولIAM الفاتح. وكان تيري يعتقد شخصياً أن روين هود من أصل سكسوني، وحذا سكوت حذوه، فدعا له لوكلسي، بدلاً من روين. ويذكر كل من تيري وسكوت أن روين عاش في عهد الملك رتشارد الأول، وسرى أن ذلك ممكن نوعاً ما.

في عدد آذار ١٨٤٠ من «مجلة لندن ووستمنستر»، حاول غتشن أن يُظهر أنه ولد السنة ١٢٢٥، وأنه كان قائداً لأتباع سيمون دو مونفور، المحرومين من حماية القانون، الذين أقرروا واعتبروا خارجين على القانون عقب معركة إيفشام السنة ١٢٦٥. واقتصر القسّ ج. هنتر، السنة ١٨٥٢، أن روين هود كان معاصرًا للملك إدوارد الثاني، وكان مناصراً لتوomas، إيرل لانكستر، عمّ الملك الذي ثار على إدوارد السنة ١٣٢٢. وهناك كاتبة، وصاحبة مؤلفات رومanticية تاريخية، قدّمت نظرية، متعددة تقول بأن روين هود كان أخاً لرتشارد الأول بالرضاعة، وكان والدهما واحداً، والأم مختلفة. وتدعى هذه الكاتبة مргريت كامبل بارنز، وكتابها يحمل عنوان «النوع العاطفي».

وتقرنه أحدى القصائد القصصية الغنائية الانكليزية المبكرة بالملكة كاثرين، ارملة هنري الخامس، في حين أن قصيدة أخرى، ويوجد نسخة منها في مكتبة بوديليان، في أوكسفورد، تفترض أن روين هود تعدد إلى ابنة جاك كيد، زعيم ثورة كيد الشهير ضد الملك هنري السادس وزمرةه الفاسدة السنة ١٤٥٠ - وهي ثورة أطلقت حروب الوردين المعروفة. وتتوفر هذه النظريات حوالي ثلاثة عشر سنة من التحقيق التاريخي. ولكن، لما كان روين هود قد بات شخصية اسطورية في أواسط القرن الرابع عشر، حسبما ورد في «بايرز بلاومان»، فإن الاقتراحين الآخرين يصبحان مستحيلين. ويتبقى حجتان يمكن دراستهما بجدية.

يقترح هنتر في كتابه «كراريس نقدية وتاريخية» - رقم ٤، السنة ١٨٥٢ - أن روين هود كان امراً من يوركشير، أبصر النور في فترة ما تراوح بين السنة ١٢٨٥

و١٢٩٥ . وقد اشتراك في الثورة ضد إدوارد الثاني ، وكان قائدها توماس ، ايرل لانكستر ، السنة ١٣٢٢ . وعقب هزيمة الثوار في بوروبريدج ، نفي الكثيرون ، وصودرت ممتلكاتهم . فدخل روبن هود عندئذ في عداد حاشية الملك ، ولكنه لم يبق طويلاً ، وعاد إلى حياة الغابة . ولدعم نظريته هذه ، قدم هنتر بعض الأدلة الشيقة والهمة . ففي وثائق البلاط الرسمية في قصر ويكتفيلد ، في يوركشير للسنة ١٣١٦ ، هناك أمرؤ باسم روبرتوس هود . فتمنى إذ ذاك مراجعة «المغامرة» ، ووجد هنتر وصفاً لاجتماع روبن مع «إدوارد ، مليكنا الوسيم» ، ولكن ليس واضحاً أي إدوارد هو المقصود . وتضيي القصيدة القصصية الغنائية إلى القول إن روبن أقنع بالاتحاق بالقصر الملكي ، ولكنه سرعان ما يحن إلى حياة الغابة السابقة .

بالطبع قام إدوارد الثاني بالتقديم عبر المقاطعات الثلاث يوركشير ، ولانكشير ، ونوتينغهامشير ، السنة ١٣٢٣ . وقد ورد في حسابات قصر الملك إدوارد الثاني - ١٣٢٣ - ٤ - أن روبن هود كان يتلقى أجراً يومياً قدره ثلاثة بنسات بصفته أحد الخادم ، أو السعاة . وقد استمر هذا الأجر طوال ستة أشهر ، من ٢٤ أذار إلى ٢٢ تشرين الثاني ١٣٢٤ ، عندما منح روبن هود ، أحد السياس السابقين ، هبة وداعية قدرها خمسة شلنات «لأنه لم يعد يستطيع الاستمرار في العمل .» هذا كل شيء عن الدليل التوثيقي . ولكن ثمة أوراقاً رسمية أخرى تُظهر أن اسم روبن هود لم يكن غير مألف في القرن الرابع عشر ، ولكن ليس ثمة أي دليل كان على أن للخادم أو روبن هود أي علاقة ما بروبن ، الخارج على القانون . ويفضي السرد الذي أبعده من ذلك ، فيشير إلى أنه كان هناك أكثر من روبن هود واحد في ذلك الزمن ، شغلوا مناصب رسمية تختلف «على نحو وافٍ عن بطل القصيدة القصصية الغنائية .»

وعلى الرغم من أن نظرية هنتر هي أكثر ذكاءً من سواها ، إلا أنها لا تستند إلى أساس متين . وإذا ما تذكّرنا أنه لم تمض سوى خمس عشرة سنة ، حتى أحرز روبن هود من الشهرة العريضة تأثيراً خارجاً على القانون لكي يعتبر أسطورة في بلاد أجنبية - كما كانت اسكتلندا آنذاك ، ولكي يُذكر في كتاب دجون فوردان «سكوتشرونيكون» كشخصية تاريخية ، يسهل عندئذ أن نتأكد من أن روبن هود

المتعلق بإدوارد الثاني ليس رجلاً بالغة . والنقطة المهمة الأخرى هي أن ثورة لانكستر حدثت قبل وظيفة روين هود المزعومة في البلات . وإن المرء ليتساءل لماذا عُيِّن روين هود في القصر الملكي إذا كان يتميّز إلى جيش من الثوار - وهي نقطة غفل عنها هنتر . وإذا ما وضعنا نصب أعيننا طرق المواصلات في ذلك الزمن ، فإن الفترة ما بين بوروي ridge وفوردان ، أو حتى «بایرز بلاومان» غير كافية لكي تبلغ الأسطورة هذا الانتشار والشهرة ، فإن نظرية هنتر تكون غير مقبولة .

إن روين هود الذي يبدو أنه ظهر في وقت مبكر أكثر ، لهو مفضل أكثر لأسباب عده . ومع أن الدليل التاريخي ضئيل ومشكوك فيه ، إلا أنه أقوى من أي شيء آخر . وثمة نقطة واحدة مهمة ، وهي أنه في كل قرن منذ فوردان و«بایرز بلاومان» ، كانت قصيدة قصصية غنائية ، أو حكاية ، أو تمثيلية ، واحدة على الأقل ، تضع روين هود في غابة شيرروود ، في حين أن اسمه رتشارد الأول وعمدة نوتنغهام يتكرران بانتظام ملفت للنظر . وليس ثمة مثل هذا الاتساق بالنسبة إلى سائر النظريات . ومع أن هذا بحد ذاته ، لا يثبت شيئاً ، فإنه يجعل بنا ان ندع هذه النظريات نصب أعيننا .

ويصبح تاريخ «بایرز بلاومان» ذا أهمية ، ذلك بأن الاشارة إلى روين هود وراندولف ، ايرل تشستر ، ظهرها عقب فترة من الوقت سمح لها بأن يصبحا بطيئي أسطورة .

ولا يُضعف حجتنا بتاتاً أن كتاب القصائد القصصية الغنائية ، ودارسي العادات والأشياء الأثرية لم يلتزموا جميعاً بهذه الإلإاعة إلى عهد الملك رتشارد الأول . فقد تبناها المؤرخ الاسكتلندي دجون ميجور (١٤٦٠ - ١٥٥٠) ، الذي كان أول مؤرخ أكاديمي يقول أن روين هود عاش في ذلك الوقت . وتبنى اقتراح ميجور كل من المؤرخين الثلاثة المشهورين في العصر التيووري وهم : غرافتون ، وهولنشيد ، وستو . وكتب اللورد الأول ، رئيس المحكمة العليا في إنكلترا ، السر إدوارد كوك ، في المجلد الثالث من مؤلفه الشهير «قوانين» ، يقول : «روين هود هذا عاش في عهد الملك رتشارد الأول .»

ومهما تكن درجة الثقة التي يمكن أن تتمتع بها هذه الإشارات ، فقد وضع روين

هود ، هكذا ، في حقبة بطولية ، وفي عصر الابطال البواسل ، والصيادين الاشداء .  
فأنصار سلالة بلانتدجينيت المالكة في انكلترا (١١٥٤ - ١٢٠٤) ، كانوا يحبنون  
غابة شيرروود ، وكانوا دوماً في نوتنغهام ، ولا يُستبعد أن يكون أمراً قلعة نوتنغهام هو  
«العمدة» .

وإذا كانت النظريات الأخرى المتعلقة بوجود روين هود قد وضعـت جانباً بسبب  
تعذر الدفاع عنها ، فهناك مواد كافية لحلّ مـنـعـنـدـهـ لـهـذـاـ اللـغـزـ الذـيـ عـمـرـهـ قـرـونـ .  
تؤكـدـ أحـدـىـ الوـثـائقـ منـ مـجـمـوعـةـ مـخـطـوـطـاتـ سـلـوـنـ أـنـ روـينـ هـودـ أـبـصـرـ النـورـ  
الـسـنـةـ ١١٦٠ـ .ـ وـقـدـ عـادـ الـمـلـكـ رـتـشارـدـ إـلـىـ انـكـلـتـرـاـ السـنـةـ ١١٩٤ـ ،ـ عـقـبـ الـحملـةـ  
الـصـلـيـيـةـ الثـالـثـةـ ،ـ وـقـدـ سـجـنـهـ الـأـمـبـرـاطـورـ .ـ وـفـيـ أـثـنـاءـ غـيـابـهـ ،ـ أـثـارـ شـقـيقـهـ دـجـونـ ثـورـةـ ضـدـ  
ضـبـاطـهـ ،ـ وـلـكـنـ لـدـىـ عـودـةـ رـتـشارـدـ لـمـ يـكـنـ قـدـ بـقـيـ سـوـىـ قـلـعـتـيـنـ بـيـنـ أـيـدـيـ الثـوارـ ،ـ  
وـهـمـاـ نـوـتـنـغـهـامـ وـتـكـهـيلـ .ـ وـكـانـ قـلـعـةـ نـوـتـنـغـهـامـ مـحـاصـرـةـ تـمـاـمـاـ مـنـ إـيـرـلـانـدـ هـتـغـدوـنـ  
وـتـشـسـتـرـ .ـ وـهـنـاـ تـوـضـحـ الـاسـطـورـةـ السـرـ ،ـ بـدـلـاـ مـنـ أـنـ تـشـوـشـهـ .ـ فـحـسـبـمـاـ وـرـدـ فيـ «ـبـاـيـرـزـ  
بـلـاوـمـانـ»ـ اـسـتـطـاعـ الـكـاهـنـ أـنـ يـسـعـجـ باـسـمـ روـينـ هـودـ وـرـانـدـولـفـ ،ـ اـيـرـلـانـدـ تـشـسـتـرـ .ـ وـقـدـ  
كـانـ رـانـدـولـفـ اـيـرـلـانـدـ تـشـسـتـرـ ،ـ الـذـيـ حـاـصـرـ قـلـعـةـ نـوـتـنـغـهـامـ السـنـةـ ١١٩٤ـ .ـ إـذـاـ كـانـ  
لـلـأـسـطـورـةـ ايـ وـجـودـ اوـ جـوـهـرـ ،ـ فـيـكـونـ روـينـ هـودـ قـدـ تـرـعـمـ جـمـاعـةـ مـنـ الـخـارـجـينـ عـلـىـ  
الـقـانـونـ أـزـعـجـ بـغـارـانـهـ المـتـكـرـرـةـ العـمـدةـ ،ـ اوـ أـمـرـ القـلـعـةـ .ـ

ويـذـكـرـ اوـغـسـتـانـ تـيـرـيـ أـنـ أـثـنـاءـ مـحـاصـرـةـ رـتـشارـدـ نـوـتـنـغـهـامـ ،ـ كـانـ يـعـيـشـ فـيـ غـاـبـةـ  
شـيـرـوـودـ روـينـ هـودـ وـعـصـابـتـهـ مـنـ الـخـارـجـينـ عـلـىـ القـانـونـ .ـ فـاـذـاـ كـانـ روـينـ هـودـ قـدـ عـاـشـ  
فـيـ غـاـبـةـ شـيـرـوـودـ خـلـالـ الحـصـارـ ،ـ فـإـنـ ثـمـةـ اـحـتمـالـاـ كـبـيرـاـ فـيـ أـنـ يـكـونـ أـسـهـمـ فـيـ الـهـجـومـ  
عـلـىـ القـلـعـةـ ،ـ وـلـيـسـ السـرـ وـلـتـرـسـكـوتـ الكـاتـبـ الـوـحـيدـ الذـيـ يـقـرـرـ ذـلـكـ .ـ

بعـدـ اـسـتـسـلـامـ القـلـعـةـ ،ـ لـاـ نـوـدـ نـسـمـعـ شـيـئـاـ عـنـ روـينـ هـودـ ،ـ لـاـ فـيـ الـاسـطـورـةـ ،ـ وـلـاـ  
فـيـ التـارـيخـ ،ـ حـتـىـ إـلـىـ ماـ بـعـدـ ثـلـاثـيـنـ سـنـةـ .ـ

فـيـ «ـوـثـائقـ بـاـيـبـ»ـ عـنـ الـمـلـكـ هـنـرـيـ الثـالـثـ فـيـ السـنـوـاتـ ١٢٢٨ـ اوـ ١٢٣٠ـ ،ـ  
وـ ١٢٣١ـ ،ـ هـنـاكـ اـشـارـةـ إـلـىـ أـنـ عـمـدـةـ يـورـكـشـيرـ يـدـيـنـ بـمـبـلـغـ اـثـنـيـنـ وـثـلـاثـيـنـ شـلـنـاـ وـسـتـةـ  
بـنـسـاتـ تـتـعـلـقـ بـالـأـمـلاـكـ الـمـنـقـولـةـ لـرـوـيـرـتوـسـ هـودـ ،ـ الـهـارـبـ .ـ فـاـذـاـ كـانـ هـذـهـ التـارـيخـ

تقع في السنوات الأخيرة من حياة الخارج على القانون ، فانها تلمع الى عدد من الاحتمالات . إنها تؤكّد أنه أبصر النور في عهد الملك هنري الثاني ، وتسمح بأن ينشط خلال حكمي الملوك رتشارد وجون . وفي الواقع تحمله معاصرًا لراندولف ، ايرل تشستر ، وهذا ما اقترحه لإنجلترا في «بایرز بلاومان» .

عين التقليد كيركليز ، في بوركشير ، مكاناً عاش فيه روين هود ، ومات . ولما لم يُحدَّد بجديّة مكان آخر ، فليس ثمة سبب لتسويه ذلك . أما طريقة موته فليست أكيدة ، سوى أن الأسطورة تزعم أنه نُزف حتى الموت خلال المرض ، إما بسبب حادث وإما بسبب الخيانة ، وأنه وهو على فراش الموت ، أطلق سهمين في الهواء ، وطلب أن يُدفن حيث وقع . ويقال ان أحد هما سقط في أملاك الدير ، حيث يُعتقد أنه ووري الشَّرَى ليرتاح إلى الأبد .

هنا ، يمكن المرء أن يتساءل لماذا توفي في بوركشير ، إذا كان أمضى معظم حياته في نوتنهامشير . ليس ثمة أي دليل لمساعدتنا ، ولكن بالواسع تقديم اقتراح .

فعقب وفاة الملك رتشارد الأول السنة ١١٩٩ ، لا بدّ أن يكون روين هود قد أثار غضب الملك وجون ، ولعله اضطر إلى مغادرة شيروروود . ويُحتمل أن يكون عندئذ قد انتقل شمالاً شطر المقاطعة التي أبصر فيها النور .

فإذا أخذنا بعين الاعتبار الوثيقة في مجموعة سلون ، و«بایرز بلاومان» وتيري أوغستان ، ووثائق بایب ، وتقبّلنا ما ورد فيها ، فإن ثمة خيطاً متواصلاً من الأحداث يقترح أساساً تاريخياً محتملاً لقصة روين هود . وإنه يبدو من بين كل التفرعات والبالغات المتعلقة بالأسطورة ، التي حدثت عبر القرون ، أنها الأكثر قبولاً . وهنا ينبغي أن تقوم القصة .

## قصة مدفأة السر

سواء أكان دجيمس إدوارد ، المطالب الأكبر بالعرش ، ابن الملك دجيمس الثاني وميري اوف مودينا ، أم كان طفلاً غير شرعي قدّم إلى الناس على أنه وارث العرش ، لا ييدو ان هذه القضية قد حُسمت تماماً بعد . فمعظم التاريخ في تلك الحقبة تتقبل المولد الحقيقي للمطالب بالعرش السبع الطالع ، وتذكر النظرية القائلة باستبدال طفل باخر ، بطريقة سرية ، منذ الطفولة وحسب ، على أنها قضية ذات أهمية تاريخية . والسبب في ان هذه النظرية كان الاعتقاد بها على نطاق واسع ، ليس في أوساط السياسيين - لأسباب لاتخفي على أحد - بل كذلك في معظم اوساط الشعب وعامة الناس ، لم يتضح قط تماماً . ذلك بأنه يوم مولد الطفل ، أطلق الجميع باستثناء أتباع الكنيسة الكاثوليكية ، زفة فرع ورعب ، لإمكانية بروز وارث كاثوليكي للعرش .

واذا اخذنا بعين الاعتبار الظروف التي سنوردها في ما بعد ، فقد نظر الناس الى الولادة على أنها خدعة ، وكان لديهم ما يبرر ذلك . فحكم دجيمس الاستبدادي الذي تميز باضطهاده البروتستانت مع التوزيع الواقع للمناصب الرفيعة على أنصاره من الكاثوليك ، لم يكن شعبياً ، وكان يوقع الكآبة في النفس . غير أن الإعلان عن أن ذلك - يمكن ان يستمر خلال حكم آخر ، كان يحتم القيام بحركة ايجابية للتخلص من دجيمس ، بنشر شائعات مفادها ان دجيمس قد ارتكب قضية انتقام شخصية بقصد الخداع . وقد أثبتت الاحداث أن الأمرين حدثا ، وفي غضون ستة أشهر من الإعلان عن الولادة ، اختفى دجيمس الثاني وسط المنفى المذل ، حاملاً معه زوجته والطفل اللذين صبّت عليهما الأمة الكثير من الهزء والإذلال . ويحمل بنا ان نتبين مبلغ الحقيقة في النظرية الافتراضية . وإنه من المهم ، في هذا الصدد ، أن تذكر أنه بين

اولئك الذين لم يصدقوا الرواية ، كانت إينة الملك دجيمس الثاني آنْ (الملكة آنْ في ما بعد) التي ذهبت الى أبعد من ذلك ، فروجتها .

في مطلع السنة ١٦٨٨ ، بدأ دجيمس تنفيذ آخر تدابيره الاستبدادية ، فأصدر ، دون أن يستثير البرلمان «إعلان الغفران» الذي يعلق كل القوانين التي كانت موجهة ، حتى ذلك الحين ضد الكاثوليكي . وكان يمكن ان يكون عمل الرحمة هذا - على حد وصفه - خطوة تقدمية فريدة في نوعها باتجاه التسامح الديني ، ولكنه عندما يكون المقصود منه فرضه برسوم استبدادي وغير قانوني ، ومن أجل اضطهاد كل الجماعات الدينية باستثناء الكاثوليكي ، فإن النتيجة الوحيدة ستكون الاستياء العام . لقد هزَّ دجيمس متعمداً بالقانون الدستوري ، رعما لأنَّه أراد التبجُّح بأنه يستطيع أن يسيطر على كنيسة انكلترا ، وأمر بأن يُتلى الإعلان علينا من فوق كل منبر وعظ في انكلترا ، في يوم معين .

ولما أُزفَّ اليوم المحدد ، رفض رجال الأكليروس ، بلا أي استثناء ، قراءته ، وكان في طليعة الرافضين رئيس أساقفة كانتربري ، وليام سانكرافت ، واساقفة باث ، وولز ، وسينت آسباش ، وبرستول ، وشيشيستر ، وبيرثورو ، وإللي . ثم كتب هؤلاء الأساقفة السبعة رسالة الى الملك صيغت بعبارات معتدلة ، طالبين فيها إعفاءَهم من تلاوتهم مثل هذا الإعلان .

وغضب دجيمس ، وردَّ بأنه ينوي مقاضاة الأساقفة بتهمة القذف التحريري - وهو وصف ساخر لرسالتهم التي كتبوها بكل دقة وعناية . وأُلقي القبض على الأساقفة ، وأُرسلاو الى سجن برج لندن ، ثم سيقوا بعد فترة قصيرة للمثول امام محكمة الملك . ورُوِّعَ الشعب بأسره لإمكانية تجريعهم ، وإنزال العقوبة بهم ، وبالتالي ، كما هو واضح . وإذاء طبيعة هذه الاتهامات المساقة ضدهم ، تفاقم الازدراء حتى من قبل قضاة الملك الاكثر تبعية وخضوعاً له ، ولم تتردد هيئة المحلفين في إصدار الحكم بعدم تجريم الأساقفة . وقد قوبل حكم البراءة هذا بالغبطة الصارمة والشاملة ، في حين أنها زادت الملك دجيمس غضباً فوق غضب .

ولكن قبل التبرئة ، وفي ١٠ حزيران ١٦٨٨ ، جرى حديث كان له تأثير في آمال

الملك - وسلام البلاد ، بصورة عامة . فقد وضعت زوجته الثانية ميري اوف مودينا ، ابناً هو دجيمس إدوارد . وقد منح هذا انكلترا ولی عهد ، كاثوليكیا ، وأزاح کلا ابنته (ميري وآن) - ابتي دجيمس من زوجته الاولى آن هاید) عن سلسلة الخلافة . وملأ النباً هذا انكلترا رعاياً لأنه حدث وقت الإهانة التي أُنزلت بالأساقفة السبعة . ذلك بأن مخططات الملك ، كما يبدو ، لن تنتهي وهو في قيد الحياة ؛ وراح الجميع يرون حكم سلالة ملكية تدين بالكاثوليكية ، مع ما يرافقها من اضطهادات وفظائع يمكن أن تُرتكب ضد البروتستانت ، على غرار ماحدث ضد الهوغونو (بروتستان فرنسا) . وكانت النتيجة تدبير مؤامرة خطيرة ضد دجيمس . حتى المحافظون تخلىوا عن ولاءاتهم القديمة وانضموا إلى الأحرار . وكانت المؤامرة تقضي بدعوة وليام اوف اورانج زوج ميري ، ابنة دجيمس (وابن حفيد الملك وليام الصامت) أن يأتي إلى انكلترا ، للتخلص من الملك ، والتربع مكانه على العرش . وكان نصير البروتستانت في أوروبا ، والعدو اللدود الرئيسي لخليف دجيمس ، لويس الرابع عشر الفرنسي . وكان على اتصال سري مع حزب الاحرار ، وقد رحب بالدعوة ، وعبأ جيشاً من أجل هذه الغاية .

ونزل وليام في تورياي في تشرين الثاني ١٦٨٨ ، وفي غضون أسبوع أسرز ولاه الانكليز دونما معركة . وكان جيش دجيمس يفوق عدد أفراد جيشه بكثير ، إلا أنه كان في كل يوم يفر منه المئات ، وباستثناء الضباط الكاثوليكي ، كان عاجزاً عن وضع ثقته في أي كان . ولعل أسوأ الضربات أتته من تخلي صهره عنه ، الأمير جورج الدانمركي ، زوج آن . وتخلى عنه كل أصدقائه الخالص ، بمن فيهم دجون تشرشل ، الذي أصبح في ما بعد دوق مارلبورو ، والذي لم يماثل خداعه المذهل الذي تكرر في فترات مختلفة خلال حياته العسكرية والسياسية المفعمة بالغرور ، اي شيء في التاريخ البريطاني . حتى ان تشرشل خطط لاختطاف سيده ومليكته ، وكاد ينجح في ذلك .

وقام دجيمس بالأمر الوحيد الممكن - استقال وغادر البلاد ، ملقياً ، وهو في الطريق ، الخاتم الكبير في نهر الشيمز ، ومعه ذهب آخر آثار الملكية الاستبدادية ، واسم

يحكم انكلترا ، مذاك ، أحد من الذكور من سلالة ستیوارت .

هذا التاريخ الموجز يُظهر امرئين مهمين :

الاول ، هو أن انكلترا كانت بروتستانتية عنيدة وتنوي البقاء كذلك ، والثاني ، هو انها ، على الرغم من أنها كان يمكن في آخر الأمر ، أن توافق على التساهل الديني ، فإنها لن ترضى بأن يحكمها ملك حكمًا شبه استبدادي ، ويملاً المناصب الحكومية والجيش بالكاثوليكي ، ولا أن يُساس شعبها دونما موافقة البرلمان .

و جاء تزامن محاكمة الأساقفة السبعة مع مولد ابنه ليجعل الشائعة الافتراضية سهلة التصديق ، ويُظهر تحقيق دقيق في المعتقدات المعاصرة ، مع الدليل المعقول ، أنه ثمة أساس لقبول هذه الشائعة .

ورفض عدة مؤرخين قصة مدفأة السرير باعتبارها سخيفة وتابهة . وذكر المؤرخ ماكولي ان الخلف برأ دجيمس من تهمة ارتکاب الغش والتزوير ، واعتبر المؤرخ الآخر تريفيليان التهمة ظالمة . غير أنها ، مع ذلك ، تزخر بالتشويق الفريد في نوعه .

وهذه هي بایجاز الحجج التي تعتبر قضية الوضع زائفه : (١) كان الملك قد أصبح عاجزاً جسدياً عن النجاح الأطفال ، (٢) لم ترزق الملكة طفلاً منذ ست سنوات ، (٣) من الأطفال الخمسة السابقين ، أربعة توفوا في طفولتهم ، والأخر في سن الرابعة ، (٤) تم الوضع مباشرة بعد تبديل الملكة مكان إقامتها ، (٥) كانت الولادة في ١٠ حزيران على حين غرة ، وقبل الاوان بشهر واحد ، (٦) حدثت يوم أحد عندما كانت كل سيدات البلاط البروتستانتيات في الكنيسة (اين كانت الكاثوليكيات ، آنذاك) ، (٧) لم تشهد الحدث لا الأميرة آن ، ولا رئيس أساقفة كاتبريري ، ولا سفير هولندا - كانت الأميرة آن استبعدت ، وسانكرافت كان في برج لندن ، والسفير الهولندي لم يُدعَ ، (٨) كان ثمة ظروف مريضة تتعلق بترتيبات السرير وقت الوضع ، (٩) خلال فترة الحمل لم يسمح للأميرة آن ، ولا للسيدات البروتستانتيات ان يبددن الشك حول حالتها ، (١٠) قيل الوضع ، أدخلت الى السرير مدفأة السرير المعروفة ، على الرغم من أن ذلك اليوم كان يقع في منتصف الصيف ، وكان ، فضلاً عن ذلك يوماً حاراً ، (١١) وأخيراً ، لم يقم البلاط بأي جهد لكي يبعد ظلال الشك عن هذه القضية .

وكانت المحجج ضد الولادة الزائفة والمكتومة هي أن أكثر من أربعين شخصاً شهدوا الولادة ، ثمانية عشر منهم أعضاء مجلس شورى الملك ، وأنهم جميعاً أدلوا بشهادات خطية مقرونة بقسم تفيد ان الرواية الافتراضية زائفة تماماً . وقيل أيضاً ان ملامح الطفل الجنسي ، لما كبر ، كانت شديدة الشبه بملامح أبيه دجيمس .  
ووصلتنا روايتان معاصرتان بالغتا الاهمية ، تضفيان تشويقاً على هذه القصة .

فقد وضع الأسقف غلبرت برنيت ، كتاباً بعنوان «تاريخ عصري» ، روى فيه الواقع كما تناهت إلى سمعه ، ولكن ينبغي أن نذكر أنه كان ، آنذاك ، في المنفى في هولندا ، ولم يعد إلى إنكلترا إلا عندما أقبل الملك وليام الثالث إلى إنكلترا ، بعد بضعة أشهر من الولادة . والوثائق الأخرى هي رسائل كتبتها الأميرة آن إلى شقيقتها الأميرة ميري اوف أورانج . ويصعب القول ما إذا كان برنيت قد استقى معلوماته من رسائل آن ، التي يمكن المرء أن يفترض أنه اطلع عليها . وما لا شك فيه أن دليل برنيت مشبوه ، بالطبع .  
ويمكن أن يكون لدى آن أسباب وجيهة لكي تشك في مولد أخيها من زوجة أبيها ، وذلك بأن هذا الأمر يقصيها عن الخلافة عن العرش . ولكنه أقصى كذلك شقيقتها ، وكانت الأكبر سنًا ، وتأتي قبلها من حيث الخلافة .

وينبغي هنا ، ايراد ملخص موجز عن قصة برنيت ، من حيث أنها تضيف شيئاً إلى المعتقدات العامة التي كانت سائدة في تلك الأيام :

«في صباح اليوم التالي ، وحوالي الساعة التاسعة ، ارسلت تعلم الملك أنها في فترة المخاص . واستدعيت بعد ذلك الملكة الأرملة العجوز . ولكن لم تستدع أي من السيدات النبيلات ، بحيث انه لم يكن في الحجرة أي امرأة ، باستثناء اثنين من الملبيّات ، ومساعدة لهما ، والقابلة . وكانت كل سيدات القصر البروتستانتيات قد ذهبن إلى الكنيسة قبل أن يُسمح بتسلب النبا ، ذلك بأنه جرى يوم عيد الثالوث القدس (الاحد الثامن بعد الفصح) ، وصادف في تلك السنة يوم ١٠ حزيران .  
واصطحب الملك من هوaitهول عدداً كبيراً من اللوردات وأعضاء مجلس شورى الملك . ومن هؤلاء سُمِح لثمانية عشر بالدخول إلى حجرة النوم حيث كانت الملكة ، ولكنهم وقفوا في أقصى طرف الغرفة . ووقفت السيدات داخل فجوة في جدار

الغرفة . وفُرِّيت ستائر السرير بعضها من بعض كثيراً ، ولم تقترب منها إلا القابلة ومساعدة الملبيسة . وكانت الملكة خارج السرير طوال الوقت . ولكي يتم تدفئة جانب منه ، جُلبت مدافأة السرير . ولكنها لم تفتح لكي يُرى ما إذا كان فيها نار ولا شيء سوى النار . إذا ، هذا أمر يدعو إلى السرية التي ملأت نفوس الجميع .

«وَقَبْلِ العَاشِرَةِ بِقَلِيلٍ ، صَرَخَتِ الْمَلِكَةُ كَمَا لَوْ كَانَتِ تَعْانِي أَمْلَأَ شَدِيداً ، وَعَلَى الْفُورِ طَلَبَتِ الْقَابِلَةَ بِصَوْتٍ مُرْتَفَعٍ أَنْ يَنْقُلُوهَا إِلَى السَّرِيرِ . وَلَا هَتَّفَتِ الْلَّوَرَدَاتِ مَاذَا هَذِهِ الصَّرِخَةُ ، أَجَابَتِ الْقَابِلَةُ أَنَّ الْمَلِكَةَ لَا يَنْبَغِي أَنْ تَفَاجَأَ . وَأَوْمَأَتِ إِلَى الْكُونْتِيسِ اُولَفِ صَنْدِرَ لَانَدَ ، الَّتِي عَمِدَتْ أَذْاكَ إِلَى لَمْسِ جَبِينِهَا ، وَكَانَتْ تَلَكَ إِشَارَةً مُتَفَقَّةً عَلَيْهَا سَلْفًا ، فَقَالَ الْمَلِكُ إِنَّهُ عَرَفَ أَنَّ الْمُولُودَ طَفَلٌ . وَلَمْ يُسْمَعْ إِيْ صَرَاخٌ مِنَ الطَّفَلِ ، وَلَمْ يُظْهِرُوهُ لِلْحَاضِرِينَ فِي الْحَجَرَةِ . وَزُعِّمَ أَنَّ الْمَكَانَ بِحَاجَةٍ إِلَى مُزِيدٍ مِنَ التَّهْوِيَةِ . وَخَرَجَتِ مُسَاعِدَةُ الْمَلَبِّسِ بِالطَّفَلِ ، أَوْ بَشِيءٍ آخَرَ ، عَلَى يَدِيهَا ، إِلَى حَجَرَةِ الْمَلَابِسِ ، الَّتِي كَانَ لَهَا بَابٌ قَرِيبٌ مِنْ سَرِيرِ الْمَلِكَةِ ، وَلَكِنْ كَانَ لَهَا مَدْخَلٌ آخَرُ مِنْ اِجْنَاحَةٍ أُخْرَى .

«وَبِقِيَ الْمَلِكُ مَعَ الْلَّوَرَدَاتِ فِي حَجَرَةِ النَّوْمِ بِضَعْفِ دَقَائِقٍ . . . وَيَعْدُ فَتَرَةً ذَهْبِيَّاً إِلَى حَجَرَةِ الْمَلَابِسِ ، وَعَنْدَهَا تُشَرَّخُ الْخَبْرُ .

«وَكَانَ تَشْمِيرَلَنْ «الرَّجُلُ - الْمَوْلَدُ» الَّذِي كَانَ يُؤْمِرُ دُومَاً بِالاِشْرَافِ عَلَى تَوْلِيَدِهَا مِنْ قَبْلِ ، وَالَّذِي حَمَلَ الْمَسْكَنَاتَ لِلْأَكْلِمِ ، تَسَاءَلَ مَاذَا لَمْ يُسْتَدِعَ يَوْمَهَا . وَقَدْ ذَهَبَ كَالْمُعْتَادِ حَامِلاً الْمَسْكَنَاتِ ، وَلَكِنْ قِيلَ لَهُ إِنَّهُمْ لَيْسُوا بِحَاجَةِ إِلَيْهِ . فَحُسِبَ أَنَّ رَجُلَآَخَرَ اسْتَبَدَّ بِهِ ، وَلَكِنْ لَمْ يُسْتَطِعْ أَنْ يَجِدَ مِنْ تَوْلَيِّ الْأَمْرِ ، مَا جَعَلَ الْجَمِيعَ يَمْلِئُونَ أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ إِلَى الاعْتِقَادِ بِأَنَّ هَنَاكَ قَضِيَّةٌ اِنْتَهَالٌ شَخْصِيَّةٌ بِقَصْدِ الْخَدَاعِ سُتُّرَضَ عَلَى الْبَلَادِ . وَازْدَادَ ذَلِكَ بَعْدَ . فَفِي تَلَكَ الْلَّيْلَةِ ، رَوَى الصَّيْدِلِيُّ هِيمِنْغُزُ ، وَهُوَ اِمْرُؤٌ جَدِيرٌ بِالثَّقَةِ ، وَيَقِيمُ فِي مَنْزِلٍ فِي شَارِعِ سَنْتِ مَارِتنِزِ لَايِنْ ، بِجُوارِ مَنْزِلِ أُسْرَةِ كَاثُولِيكِيِّ شَهِيرٍ (بِراونِ ، شَقِيقِ الْفِيْكُونِتِ مُونْتَاكِيُوتِ) - وَكَانَ الْجَدَارُ بَيْنَ قَاعِيَّيِّ الْاسْتِقْبَالِ فِي الْمَنْزِلَيْنِ الْمُجَاوِرَيْنِ مِنَ الرَّقَّةِ بِحِيثِ أَنَّهُ يُمْكِنُ بِسَهْوَةٍ سَمَاعَ أَيِّ كَلَامٍ يُقالُ بِصَوْتٍ مُرْتَفَعٍ نَوْعًا مَا ، وَكَانَ هُوَ مُسْتَغْرِقًا فِي الْمَطَالِعَةِ فِي سَاعَةٍ مَتَّخِرَةٍ مِنَ الْلَّيْلِ - أَنَّهُ سَمِعَ اِمْرَأً

يدخل قاعة الاستقبال المجاورة ، ويقول بصوت كثيف «القد مات أمير ويلز» . . .  
«وأقبلت الكونتيس كلارندون الى البرج (برج لندن) في ما بعد ، وقالت لهم  
(للساقفة السابعة) إنها كانت لدى باب الأمير الصغير ، ولكنها منعت من الدخول ،  
وعجبت للأمر ، وسألت عما إذا عرفوها لا . فقالوا لها إنهم عرفوها ، ولكن الملكة  
أمرت بآلا يُسمح بدخول أحد مهما يكن لرؤيته ، وهذا يعزز رواية هيمينغز ، ويشير إلى  
أن كل شيء كان ينبغي أن يبقى مكتوماً ، حتى يتم العثور على طفل آخر . وقال لي  
أحد الذين رأوا الطفل بعد ذلك بيومين إنه بدا أقوى وليس كطفل مولود حديثاً . . .  
طفل يتمتع بالصحة الجيدة وليس كأي من الأطفال الذين حملتهم الملكة حتى الآن ،  
وقيل إنه كان يصاب بنوبات مرض ، ولا يمكن أن يعيش . إلا أن الذين كانوا يرونـه  
يومياً لم يلاحظوا شيئاً من ذلك» .

ويضيف برنيت أن هذه المعلومات استقاها من تقارير أرسلت إلى الأمير والأميرة  
اورانج ، في حين أن التقارير الرئيسية أرسلتها الأميرة آن .

وقال برنيت أيضاً إن الملكة ، على افتراض أنها كانت حاملاً في نهاية السنة  
١٦٨٧ ، فإنها ، في الواقع لم تكن كذلك . ويروي لنا أن الملكة أجهضت في وقت ما  
من ربيع السنة ١٦٨٨ .

كان حتماً علينا أن نقدم مقططفات مطولة من قصة برنيت من أجل إبراز ما كان  
عليه الاعتقاد العام في هولندا ، في بلاط الملك ولIAM اوF اوRانج ، ومن أجل إظهار  
مدى ارتباط هذه القصة بصورة رائعة باللاحظات التي أوردتها الأميرة آن . وتتضمن  
مذكريات دارليلبل ملحوظاً فيه عدة رسائل كتبتها الأميرة آن إلى شقيقتها ميري ، وبعض  
المقططفات يبدو أنها تؤكـد قصة برنيت .

كُتـبت هذه الرسالة الأولى في ٤ آذار ١٦٨٨ ، وهذه هي :

«لا يسعني إلا التفكير في أن بطن زوجة مانسيل (أي الملكة) الكبير يبعث على  
الارتياح نوعاً ما . صحيح أنها سمينة جداً ، ولكنها تبدو أفضل مما كانت تبدو من  
قبل ، وهذا أمر غير عادي . ذلك لأن مثيلاتها عندما يتقدّمـن في فترة الحمل ، يبدـين  
مريضات كثيراً ، فضلاً عن أن هناك امراً غريباً ، وهو أن بلدة باث التي اعتـقـدـ كلـ

الاطباء الماهرون أنها ستؤذيها ، كان لها التأثير الحسن عليها في وقت سريع . كما أنه مستغرب كذلك ان تحمل طفلاً منذ الدقيقة الاولى التي قابلت فيها مانسيل (دجيمس الثاني) بعد عودتها من هناك . وكانت واقفة تماماً من أن المولود سيكون ذكرًا . ولما كانت مبادئ تلك الديانة ، على ما هي عليه ، ولا تردد أمام اي شيء ، مهما يكن شريراً وفظيعاً ، اذا كان ذلك يخدم مصلحتها - كل ذلك يحمل على الاعتقاد بأن ثمة لعنة قدرة من المنوي القيام بها .»

وأعقبت هذه الرسالة بعد ستة أيام رسالة اخرى ، مؤرخة في ٢٠ آذار .

كتبت الاميرة آنَّ تقول إنها اذا كان الحمل صحيحاً ، فإنه كان على الملكة أن تُقْنَع الجميع ، وتدعها (أي آنَّ) تتلمس بطنها . وكانت كلما اتفق ان وُجِدَت آنَّ في الغرفة ساعة تزعزع الملكة عنها ملابسها ، فان هذه الأخيرة كانت تنسحب دوماً وبسرعة الى غرفة أخرى . وفي ٩ أيار ، كتبت آنَّ إن الملكة هي المرأة المكرهه اكثراً من اي امرأة سواها في العالم ، وأنها مسؤولة عن عنف دجيمس ، وتدابيره الاستبدادية . إنها تكره البروتستانت ، ولا تحبها حقاً (آنَّ) .

وفي ١٨ حزيران ، وبعد الولادة ، كتبت آنَّ تقول : «إنه لأمر رائع ، فإذا كانت حاملاً حقاً ، فلم يُسمح لأحد بأن يحسّ بتحرك الجنين ، باستثناء السيدة مازاران واللإيدي صندرلاند ، وكلنا هما امرأة غير جديرة بالثقة البتة . ولكن ما يبدو لي الأكثر بساطة ووضوحًا على الاطلاق هو حملها الى السرير بعد يومين من معرفتها بوصولها الى المدينة ، وقولها إن الطفل ولد في أوانه ، في حين ان الجميع يعرفون ، باعتقادها شخصياً ، انه كان ما يزال أمامها شهر للوضع . بعد ذلك ، من الممكن ان يكون الطفل طفلها ، ولكن اذا كان شخص واحد يعتقد بذلك فإن أفالاً لا يعتقدون .»

بعد ثلاثة اسابيع ظهرت هذه الفقرة الموجزة في رسالة اخرى كتبتها الاميرة آنَّ الى شقيقتها الاميرة ميري : «كان أمير ويلز مريضاً في هذه الأيام الثلاثة او الأربع . واذا كان مرضه بمثل السوء الذي يعتقد البعض ، فإنني اعتقد أنه سيكون ملاكاً في السماء عملاقاً» .

في ٢١ تموز ،تلقت آنَّ رسالة من شقيقتها ، كانت في قالب استفتاء يتضمن ١٨

سؤالاً وخمسة ملاحق . وكان واضحاً ان الشائعات المنشورة كانت تدور في ارجاء البلاط الهولندي كانت مختلطة بغير انتظام الى درجة بعيدة ، وغالباً متناقضية ، وكان من الصعب ترکيب قصة متربطة منها . وكان في جملة الاسئلة :

س . عندما أعلم الملك بيده مخاض الملكة ، هل بقي النبا سراً أم أعلن على الملأ؟  
ج . ما إن جاء الملك حتى استدعي الملكة الأرمدة ، وكل أعضاء المجلس ، وبعد ذلك عمَّ الخبر كل ارجاء قصر سنت دجيمس .

س . هل كان هناك ستار في طرف السرير ناحية القدمين؟  
ج . لم يكن هناك اي ستار .

س . هل رأت اي امرأة ، باستثناء كائنات اسرارها ، وجه الملكة وهي تعاني آلام المخاض؟ من كان في الحجرة؟ متى جاءت النساء ، والى اي مسافة اقتربن من السرير؟

ج . عندما اعلنت الملكة أنها تحس بآلام شديدة استدعي الملك رئيس مجلس اللوردات والرئيس الاعلى للقضاء ، الذي اقترب من السرير . وحذا سائر المستشارين حذوه . عندها طلبت الملكة إلى الملك أن يغطي وجهها بشعر مستعار ، بحيث لا يعود بوسع أحد النظر إليها . وأضاف أنها لا تزيد ان ينظر إليها هذا العدد الكبير من الرجال .  
س . اي نساء كن حاضرات؟

هنا تورد آنَّ لائحة شاملة بالرجال والنساء . وتضيف كذلك أن الكثير من المعلومات حول تفاصيل الولادة زودتها بها احدى خدم حجرة النوم وتدعى السيدة دوسون . ذلك بأنَّ آنَ لم يُسمح لها بالدخول في ذلك الوقت .  
من الصعب جداً معرفة إلى أي حد يكنا أن نعتمد على مراسلة بين شقيقتين . إنها صريحة ، ومعقولة ، وترتدي الكثير من علائم الدقة . ومن ناحية أخرى ، كانت الشقيقتان بروتستانتين ، وخلافتهما العرش مهددة . فضلاً عن أنَّ آنَ تعترف بأنَّ الكثير مما تقوله عرفته بالتواتر . والراسلة بحد ذاتها غير كافية لإقامة الدليل على التزوير . وإذا ما اقترنلت بالحجج المبينة أعلاه ، وأقوال برنيت ، فإنَّ ثمة أساساً للاعتقاد ، اليوم في هذا القرن العشرين ما كان يعتقد الكثيرون آنذاك ، في القرن

السابع عشر .

ليس ثمة شك في أن انكلترا كانت مقتنعة بأن زوجة دجيمس لم تكن حاملاً ، ومن الاشخاص الأربعين الغربيين ، من الجنسين ، الذين كانوا في الحجرة الملكية وقت الولادة ، لم يكن أحد يتمتع بأي قدر من الثقة والاحترام العامين . فخمسون بالمائة من المستشارين الملكيين كانوا من الروم الكاثوليك ، في حين أن الباقي ، الذين كانوا من البروتستانت ، كانوا يُعتبرون ، مع ذلك ، خونة بالنسبة إلى الكنيسة . وكثيرات من النساء اللواتي كنَّ هناك كنَّ فرنسيات ، أو إيطاليات ، أو برتغاليات ؛ أما النساء الانكليزيات فكنَّ إما كاثوليكيات شخصياً ، أو متزوجات من رجال كاثوليك . وأولئك الاشخاص الذين يحق لهم أن يكونوا حاضرين ، وكان يمكن أن تُقبل شهادتهم دونما مناقشة ، لم يُدعوا (من بينهم رئيس أساقفة كانتريري) ، وكان الملك مسؤولاً عن غيابهم .

وأورد دجونستون الارتياب الواسع الانتشار بایجاز كلبي : «إن أغلبية الشعب تستنتاج أن كل ذلك كان خدعة ، لأنهم يقولون إن التقدير تبدل فأبعدت آن ، ولم يستدعي أحد من أسرة كلارندون ، ولا السفير الهولندي ، وكون الأمر مفاجئاً ، فضلاً عن العطاء ، وإيمان كهنة الكنيسة ، والعجلة ». ذلك كان حكم الشعب الذي كان مستعداً ، على نحو لا يمكن إنكاره ، للاعتقاد بوجود تزوير . إذا أخذت كل هذه الواقع بعين الاعتبار ، فنكون قد أثبتنا وجهة نظرنا .

وأحسب أن القراء سيفرون لنا لأننا خيناً أملاهم في أواخر هذا الفصل . وعلى الرغم من كون وجهة نظرنا مقنعة ، فإنها غير مقبولة حقاً ، وينبغي لنا أن نعتقد أن المطالب الأكبر بالعرش ، هو في الواقع ابن الحقيقى للملك دجيمس الثاني ، وذلك للأسباب التالية :

هناك ثغرات كثيرة جداً في بيئة الأسقف برنيت ، وفي المعتقدات المشتركة في ذلك الزمن ، وعلينا أن نعرف بأن المراسلة بين آن وميري ليست كافية بحد ذاتها . إن نظرة المحكمة إلى الحجج الأحادي عشرة التي مررت بنا في سياق هذا الفصل ، ستفضح أخطاء خطيرة . فإن الملك دجيمس الثاني لم يصبح عاجزاً عن إنجاب

الاطفال ، ذلك بأنه السنة ١٦٩٢ ، رُزق من الزوجة نفسها ابنة هي لويسا ماريا تيريزا ، التي عاشت حتى سن العشرين . ولم يكن كبير أساقفة كاتربيري حاضراً عملياً ولادة لوجوده ، آنذاك ، في برج لندن ، بتهمة التحرىض على الفتنة ، ومن الصعب جداً أن يتوقع أحد أن نعتقد أن دجيمس قد أرسله إلى البرج بقصد إبعاده .

في الواقع أن الظروف المتعلقة بعملية الولادة لم تكن مرتبطة إلى هذا الحد ، كما سيتبين لنا في ما بعد من أقوال «الرجل - المولد». صحيح أنه لا يمكن ان ننكر أن الأربعين شخصاً الغربيين الذين كانوا حاضرين ، كانوا إما من الكاثوليك ، أو المشجعين للكنيسة الكاثوليكية . ولكن ذلك لا يستتبع أن يكونوا جميعاً كاذبين متعمدين . ذلك بأنه بعد فترة قصيرة من الولادة ، قدم دجيمس في اجتماع استثنائي لمجلس شورى الملك ، البرهان الذي لا يقبل الجدل على حقيقة مولد ابنه . وفي ذلك الاجتماع تقدم كل الذين شهدوا عملية الولادة ، بشهادات رسمية مقرونة بقسم ، فاكتفى المجلس بالدليل الذي سرعان ما تُشر . فالمعتقدات هي ، إذا ، شأن عندما تفرض على الشعب بفضل تحاوزات الحاكم ، والواقع هي شأن آخر ، وليس ثمة وقائع إيجابية تثبت هذه المعتقدات .

إن روایة برنیت عرضة للجدل . فقد كتب عقب الحدث ، وهو لم يكن في انكلترا عندما تمت الولادة . وقد اعترف بأن معظم ما ورد فيها جُمع من تقارير راجت في هولندا ، وبخاصة في البلاط . وهذا النوع من الروايات مشوقة مطالعته ، ولكنه لا يوصف بأنه تاريخ دقيق .

إن الخطأ الرئيسي في روایة برنیت هو التشويش . فنظرية محكمة تكشف ، في الواقع ، عن ثلاثة اطفال مختلفين ، وليس عن طفل واحد . فهناك المولود حديثاً الذي رأه في الغرفة المجاورة كل الذين كانوا حاضرين . وهناك الطفل الذي يعتقد أن أوصاله كانت أقوى من أوصال طفل ابن يومين ، وهذا هو أمير ويلز . وأسوأ من ذلك أنه ينبغي لنا ان نعتقد أن الملكة لم تكن حاملاً في أواخر السنة ١٦٨٧ ، وأنها أجهضت في ربيع السنة ١٦٨٨ ، وأنها لم تكن حاملاً في حزيران ١٦٨٨ . وهذا التذبذب من فترة ما قبل الوضع ، الى ما بعد الوضع ، وبالعكس ، ينبغي أن يكون حتماً ظاهرة فريدة في

## نوعها في علم أمراض النساء

ويشير برنبيت إلى تشمبولن «الرجل - المولود» ويدرك أن عدم استدعائه يضيف شيئاً إلى السر . ولكن هناك رسالة كتبها تشمبولن هذا إلى المنتخبة صوفيا ، والدة الملك جورج الأول . وهي تتضمن هذه الفقرة : «أنا واثق من أن حمل طفل غريب داخل مدفأة للسرير لا يمكن أن يتم دون أن أراه ، وقد كنت باستمرار حاضراً في كل أنحاء الغرفة .» هذا ما كتبه أمرؤ من حزب الاحرار إلى أميرة بروتستانتية ، وقد وجد كل منهما ، ربما ، الأسباب الوجيهة لرفض تصديق قصة مولد الأمير .

وملاحظات برنبيت القائلة بأن صحة الطفل كانت جيدة ، على نقيض سائر أطفال الملكة ، تعارضها ملاحظة الأميرة آن الموجزة ومفادها أن أمير ويلز سيكون عمما قريب «ملاكاً في السماء» .

من المؤسف أن يكون برنبيت قد زخرف روايته بهذه الاختفاء السخيفية غير التساوقة ، التي أضعفت قضية الاعتقاد بالخداع .

إذاً ، ليس ثمة أي دليل سليم يدعم نظرية استبدال الطفل ، وبالواسع تبرئة الملك دجيمس الثاني من تهمة الخداع . ولكن ما لا يسعه التخلص منه هو حكم التاريخ لأنّه أخفق كلياً في تسفيه الرواية ، وإهماله ، في البدء أن يثبت أن ابنه حقيقي . وقد ترك ذلك للأخرين ، وإذا كان قد أؤدي لكون شعبه حسبه عاجزاً عن مثل هذه الخدعة ، فلا يلوم من سوى شخصه . ولو انه سمح لبعض البروتستانت بدخول الحجرة وقت عملية الوضع ، لما تضمنت الشائعة ، ربما ، واتخذت هذا الحجم . إلا أنه ينبغي لنا أن نذكر أنها كانت مجرد شائعة .

## الملك آرثر، هل وُجد حقًا؟

كان الرجل الذي ندعوه الملك آرثر شخصية في الفولكلور والاسطورة الانكليزيين طوال ١٥٠٠ سنة . فمن إشارة غير مباشرة لغلاس ، ووصف لنيوس ، تسلّم القصة وتوسّع فيها بفضل كدسة من المواد الخرافية ، او غير القابلة للصدق ، دجيفري اوف موثو . وقد زوّق ذلك ، في ما بعد ، وتوسّع في التفاصيل عدد كبير من الشعراء ، بدءاً بالسر توماس مالوري وانتهاءً بلورد تنيسون . وقد تسبيّت ضخامة مجموع ما كُتب في هذا الموضوع ، فضلاً عن الأساطير المتنوعة ، في غمرة أي أساس تاريخي للوجود الحقيقي لآرثر بالغموض والإبهام .

بعض الثقات رفض اعتباره بطلاً مثيولوجياً في الأدب الرومنطيقي ، وابتكرّاً لخيال شاعري . ولكن يبدو جلياً أن جماعة من الجنود الرومان والبريطانيين ، في مكان ما في بريطانيا ، في مطلع القرن السادس ، كانوا يحاربون بيسالة للحفاظ على حضارتهم ضد الموجات المتّعاقة للغزوّة الهمجية . وعلينا أن نثبت أن آرثر كان على رأس هذه المقاومة . فالبعض يعتقد أنه كان الزعيم الروماني البريطاني ، الذي كسب معركة كبرى ضد السكسون - وهو انتصار أوقف العدو عند حدّه طوال عشرين سنة . ثم اختفى ، وسبّبت كيفية موته ، التي بقيت مجهولة ، الكثير من الأساطير التي تعزو إليه الخلود .

إن الأساطير الغريبة التي حيكت حول اسمه صنعت منه بطلاً مبهماً في التراث الفولكلوري «وُجد وحسب في مخيّلة شعب مبتدى بالحنين إلى أيام أفضل» . غير أن هذه الحكايات عن القوى السحرية ، والفضائل النبيلة والمتسمة بالفروسيّة والشهامة ، وبخاصة المتعلقة بتوقّع بعثه المبكر من الموت ، إنما هي هذا النوع من القصص التي يودّ

الواحد منا أن تعلق بالذاكرة عن قائد متصر ، ناصر شعباً مضطهدًا بسبب غزوة وثنية .

فإذا كان ينبغي اعتبار آثر شخصية تاريخية ، فعلينا أن نعيّن العصر الذي يمكن أن يكون قد عاش فيه .

غزا جزيرة بريطانيا ، في بادئ الأمر ، يوليوس قيصر السنة ٥٥ قبل الميلاد ، وفي السنوات الخمسماة التالية ، جاء الرومان ، واحتلوا البلاد ، وأدخلوا إليها حضارتهم وثقافتهم . وفي بداية القرن الخامس للميلاد ، بدأت الامبراطورية الرومانية في الغرب تفتت تحت وطأة الغزوات الهمجية التي قام بها الواندال ، والهون . وكان قد بقي في بريطانيا ، حيث كانت تأصلت طريقة الحياة الرومانية ، عدد غير قليل من الحاميات العسكرية الرومانية . ولكن ، في السنوات الأولى من هذا القرن المضطرب ، رأى الأباطرة أن الضرورة تقضي عليهم باستدعاء هذه الحاميات إلى إيطاليا للمساعدة في إنقاذ روما نفسها .

وفي الوقت نفسه ، تعرضت بريطانيا ، أيضاً ، إلى موجات غزو قام بها الأنجلز ، والسكسون ، والجوت . وما كاد يتصف القرن حتى بات الشعب الروماني - البريطاني يواجه خطر الانقراض . ويدرك غلدارس ، المؤرخ الوحيد في تلك الحقبة ، أن البريطانيين كتبوا رسالة إلى الرومان يطلبون فيها المساعدة . «الى آجيسيوس ، القنصل ثلاث مرات ، أنين البريطانيين . الهمجيون يطردوننا باتجاه البحر ، والبحر يطردنا بدوره إلى الهمجيين ، وبين الجهتين يجاهدنا نوعان من الموت ، فإما أن نذبح ذبح النعاج ، وإما أن نغرق ». ومع مرور سنوات ذلك القرن ، كان الغزاة ، بما كانوا يحشدون من قوات ، يندفعون إلى داخلية البلاد أكثر فأكثر ، باتجاه الغرب . وفي محاولاتهم التغلب على المناطق الجنوبيّة الغربية ، يبدو أنهم جابهوا أقصى مقاومة كان عليهم مجابتها خلال فتحهم الجزيرة . وكان هؤلاء الحصول على الوسائل إما من أصل رومني ، وإما أناساً متشربين كثيراً بحضارة روما . ومعلوم أنه كان على رأس هذه الجماعة من المدافعين الأبطال رجل من أصل رومني يدعى أمبروزيوس أوريليانوس . وقد ذكرت الروايات اللاحقة أن أمبروزيوس قد شنَّ حرباً متواصلة

ضد الغزاة ، كان النصر غالباً ما يحالقه فيها . إلا أنه ، بالنظر إلى تدفق القبائل الهمجية باستمرار وبأعداد متزايدة على خطى الجيوش المتقدمة ، فقد عجز عن استئثار أمجاده .

الآن ، بات من الممكن إدخال آرثر على هذه الصورة ، ولكن ينبغي لنا أن نتجاهل بعض الروايات غير المحتملة . قيل إن آرثر كان ابن أخي امبروزيوس ، ويدعى آرثر بن دراغون . ويبدو أن أوثر شخصية خرافية ، وليس ثمة أي سبب لأن يكون نسيباً لامبروزيوس ، أو لهذا السبب ، نسيباً لآرثر . حتى أنه ليس من الضروري أن نعتبر أن آرثر كان ملكاً ، أو أميراً ، أو زعيماً . وقد كان بوسعه إنجاز انتصاراته واكتساب شهرته الخالدة دون أن يكون اي امرئ غير قائد رجال - قائد حربي .

وضع المؤرخ البريطاني غلداس ، الذي لا يُعرف تاريخ ميلاده ، ولكنه يُقدر وقوعه في بداية القرن السادس ، حوالي السنة ٥٤٥ للميلاد ، تاريخاً حول فتح بريطانيا ، لا يذكر فيه آرثر بالاسم ، ولكننا نستطيع القول إنه عرف شيئاً عن آرثر ، لأنه يصف معارك خاض امبروزيوس غمارها ، وكذلك معارك جرت بعد وفاة امبروزيوس . وقد أجمع معظم المؤرخين غير المتحيزين على أن آخر المعارك التي انتصر فيها الرومان - البريطانيون ضد السكسون كانت معركة ماونت بيدون ، ولكننا لا نعرف تاريخها الصحيح . ويحدده غلداس في السنة ٥٠٠ . أما معركة بيد فيقول أنها جرت قبل ذلك بسبعين سنة . وهناك «حوليات كامبرية» التي وُضعت في القرن التاسع ، وتحدد تاريخ المعركة هذه بالسنة ٥١٦ . ولكن الأمر الراهن الذي لا جدال فيه هو أنه كان ثمة معركة بهذا الاسم ، وقد انتصر فيها البريطانيون انتصاراً ساحقاً . وقد وصفها غلداس الذي كان معاصرًا تماماً لها .

كانت أول اشارة إلى آرثر بالاسم حوالي السنة ٦٨٥ ، إلا أن عدم ذكر اسمه بعد مرور مئتي سنة على المعركة ، لا يستتبع الجزم بأنه اسطوري او خرافي تماماً - وهو حججة تذرّع بها الكثيرون .

يورد «قاموس السيرة القومية» عدداً من الاقتراحات . فقد كان بطلاً ميثولوجياً صرفاً ، نُسبت إليه مغامرات امبروزيوس البطولية خطأ . ولكي يدعم المؤرخون هذا ،

عمدوا الى البحث عن اصله في العصور الميثولوجية القديمة جداً ، وزعموا أنه كان بطل ثقافة كلتي ، وحتى إنها مبكراً ، أدخل التاريخ بفضل خطأ ذاكرة غريب . وقد حلّ الخبراء في الفولكلور اسمه بنوع من التفسير الميثولوجي ، وزعموا أنه اخترى في ميثولوجية شمسية ، أو طوطم عنصري ، آرت - اور ، الرجل الدبّ .

ان اسم آرثر هو ، بالتأكيد ، الاداء الانكليزي لاسم آرتوريوس الروماني . وهناك عدد غير قليل من هذا الاسم في أي قاموس كلاسيكي ، تسلّم أحدهم في بريطانيا ، في وقت ما خلال القرن الثالث للميلاد ، القيادة .

ومن الممكن أن يكون آرتوريوس يوستوس هذا ، الذي وُجد تمثاله منذ ربع من الزمن ، في اياليريا ، قد خلّف أنسباء في بريطانيا . وليس ثمة اي سبب يمنعنا من القول إن زعيمًا رومانيًا - بريطانياً ، كريم الاصل من الطبقة نفسها التي كان ينتمي اليها امبروزيوس ، وترعرع فيها ، قد تسلّم منصباً مائلاً للقائد البريطاني في وقت متأخر من القرن الخامس . ومجرد عدم ذكر المؤرخ غلداس آرثر بالاسم ، لا يعني اي شيء ، ذلك بأننا عندما نطالع كتابه نجده قد اعتاد ترك الاسماء جانبًا . ولعل الكتاب إنما وضع للتاثير في المعاصرين ، الذين يكونون على اي حال ، على معرفة الاسماء ، ويمكنهم وضعها في الاحداث التي يصفها غلداس .

هناك رواية تاريخية مهمة يمكننا استخدامها في هذا التحقيق ، بعنوان «التاريخ البريطاني» ، التي ظهرت ، اولاً ، غافلاً من التوقيع في نهاية القرن السابع . وقد نشرها نيوس في القرن الثامن مع مواداً أخرى . إن بعض الموارد في الرواية الأصلية هي اسطورية ، بالطبع ، لأن ثمة وصفاً للتنانين ، والقصور المنسحورة ، والنار التي تسقط من السماء . إلا أنه يبقى في الكتاب الذي نشره نيوس ، ذرة من الحقيقة المقبولة بعدما تُتنزع منه كل الخرافات - على حد ما يقول المؤرخون . والصعوبة ، هي بالطبع ، فصل الخرافة عن الواقع والحقيقة . وقد ذُكر آرثر بالاسم في هذا التاريخ . ووصف كذلك في القصائد المبكرة في ويلز ، وفي الاغاني الشعبية والقصائد القصصية في النجاد الاسكتلنديه .

يشير نيوس الى آرثر بوضوح تام على أنه قائد حربي ، وليس ملكاً . وليس

مجرد أنه أصبح في العصور اللاحقة هدفاً لكل أنواع الأساطير ، وان دورة نشأت ، وقد تألفت من أحداث مستقلة من حقب مختلفة من التاريخ ، لا يثبت أنه كان شخصية خرافية . ان حياة امبروزيوس العمليّة التي هي تاريخية ، يمكن أن تساعدنا على تركيز آرثر . نحن لا نعلم متى ولد آرثر ، ولا أين كانت وفاته ، على الرغم من أن ثمة تقاليد محلية ثابتة حول هذه النقطة في صمرسيت وكورنول . فالتواريخ المبكرة تذكر أنه توفي في أحدى المعارك مع ابن أخيه ، بعد عشرين سنة من معركة ماونت بيدون ، التي حدّدناها في تاريخ يراوح بين سنة ٤٩٣ و ٥١٦ . وهذا يجعل وفاته في تاريخ ما يراوح بين ٥١٣ و ٥٣٦ . وإذا فرضنا أنه عمر حتى السبعين ، فإنه يكون قد أبصر النور في منتصف القرن الخامس . ولنفرض جدلاً أنه توفي في سن الخمسين ، فإنه كان يكون قد بلغ السن المناسبة لقيادة القوات البريطانية بعد امبروزيوس عندما توفي هذا الأخير في مطلع القرن السادس .

كتب ننيوس يقول : «ثم حارب آرثر المولع بالحرب ، مع كل الملوك في بريطانيا وقوتها العسكرية ، ضد السكسون . ولو أنه كان هناك كثيرون أ Nigel منه ، فقد اختير ، مع ذلك ، قائداً لهم اثنين عشرة مرة ، وانتصر بهذا المقدار ». إن هذا يثبت حتماً أن آرثر لم يكن ملكاً ، بل كان مجرد قائد عسكري ، وعلى نحو بيين ، أكثر القادة قدرة في ذلك العصر . وبالتالي ، فإن امبروزيوس الذي كان قائداً كبيراً كذلك ، لا بد أنه كان قد توفي في تلك الفترة . وقد جرت المعركة الثانية عشرة ، التي كانت من أقصى المعارك ، في بيدون هيل . ويضيف ننيوس انه في هذه المعركة هلك من الأعداء ٩٦٠ شخصاً على يد آرثروحده ، ولم يكن له إلا الله وحسب العون والمساعدة . وهذا يعني أن آرثر وجشه الخاص لم ينعمما بمساعدة القوات المحلية . ولا يتفق المؤرخون على مكان المعركة ، ولعل السبب هو في أنهم لا يدركون . بعضهم قال إنها جرت على نهر سيفرن ، ولكن دجيفري موغوث يقدم اسم باث . في حين يقترح الكولونل أ.ه . بيern ، الخبير في ساحات الوجى ، اسم بادبرى ، في إقليم دورسيت ، وهي الموقـعـ الأكثر احتمـالـاً من سائر المـواقـعـ ، نظـراً إـلـىـ أنـ السـكـسـونـ لاـ يـكـنـ أـنـ يـكـونـواـ قدـ توـغلـواـ فـيـ انـكـلـتراـ إـلـىـ اـبـعـدـ مـنـ دـورـسـيـتـ فـيـ ذـلـكـ الـوقـتـ .

وكانت نسبة تقدمهم بطيئة جداً ، لأنهم لم يكونوا يأبهون لمطاردة المهزومين بعد فوزهم في مناوشة ما . ذلك بأنهم كانوا يفضلون بناء مستوطنات لأسرهم حيث هم ، وكانوا قد اعتماداً حمل هذه الأسر حتى إلى ساحات القتال . وكانت جماعات صغيرة من الغزاة توفر لهم الطعام والمؤن .

وليس ثمة أي تاريخ آخر لآرثر من نبيوس ، بعد الاشارة الى أنه توفي في معركة كاملان ، وتتفق معه «حوليات كامبريه» في ذلك . ولكن ، نظراً إلى ندرة المعلومات حول ما حدث لآرثر بعد معركة ماونت بيدون ، فإن الكتاب في حقب لاحقة قدموها روايات مغالٍ فيها عن فتوحات مزعومة في ايرلندا ، والدانمارك ، وبلاد الغول ، وحتى ضد الجيش الروماني نفسه . وهي جميعاً خيالية بصورة قاطعة .

يبدو أن الاحتمالية التاريخية هي إلى جانب آرثر ، ولم يكن غلداً غير مصيّب في ما يتعلق بمعركة ماونت بيدون ، والأحداث التي تلتها ، لأنها إنما حدثت في زمانه . ومع أنه لا يسمى آرثر ، إلا أنه يقترحه ، وقد اضافت تقاليد القرون المتعاقبة الاسم . ومن المعقول تماماً الاعتقاد أن بطلًا أحرز مثل هذا النصر المبين والمهم في تلك المعركة سيظل يُذكر زمناً طويلاً . ولا يدحض هذه الحقيقة كون أجيال من الكتاب قد توسعوا في هذا الاتصار البسيط بإضافة لهم مواد خيالية . كل ما هنا لك ان ذلك يخفيها .

ربما اختير آرثر لقيادة قوة مختلطة تحارب أنى تدعو الحاجة ، ويمكنها أن تدعم قوات محلية في مقاطعات يهددها الغزاة . وفي هذا الصدد ، اقترح أن آرثر تسلّم مركزاً شبيهاً بذلك الذي كان يشغلة كونتات بريطانيا القدامي ، وهم من الطبقة العليا ، وكانوا زمن الحكم الروماني يقودون الجيوش المتحركة التي يمكن استخدامها في أي جزء من البلاد ، من غير اعطاء مهلة كافية للاستعداد . وإن مركزاً كان يمكن أن يمنح آرثر نفوذاً يفوق نفوذ الزعيم المحلي ، وبالتالي شهرة أعرض .

وهناك مصدر موثوق به أكثر وجدير بالاعتبار لقبول حقيقة آرثر ، تاريخياً ، لا اسطورياً ، هو المؤرخ ولIAM اوF مامزيري في كتابه الموضوع حوالي السنة ١١٢٥ ، وفيه يصف امبروزيوس كملك ، وآرثر كقائد ، والقائد العام للجيش . وعاش ولIAM

في وقت كانت فيه الاساطير التي تكتنف آرثر منتشرة . إلا أنه يُظهر أنه لا يعتقد فيها ، عندما يكتب قائلاً :

ـ «هذا هو آرثر الذي يروي عنه البريطانيون بشغف كل هذه الحكايات ، حتى إلى يومنا هذا . . . رجل جدير بالاحتفاء والتمجيد ، ليس بالروايات الخيالية التافهة ، ولكن بالتاريخ الموثوق به . فقد دعم طويلاً الدولة الغارقة ، ورفع من معنويات مواطنه في الحرب .»

فولIAM ، إذاً هو آخر الكتاب من قدم إلى العصور المتعاقبة صورة لآرثر معقولة يمكن تصديقها .

وبعد حوالي أكثر من عشر سنين بعد صدور كتاب ولIAM اوف مامزبرى ، أصدر دجيفري اوف مونثوت مجلده التاريخي القيم الضخم عن تاريخ بريطانيا من زمن بروتوس إلى وفاة كادو ولادر في القرن السابع . إنه عمل يختلف عن عمل سامزبرى ، ذلك بأن كتاب هذا الأخير هو نتاج مؤرخ جدي .

إنه مزيج من الواقع ، والحكاية ، وقصص الحب الشريف والغمارات الفروسية ، يسمح فيه المؤلف لخياله الخصب أن ينطلق متحرراً من كل قيد . ويتألم آرثر ، أكثر ما يتألم من هذا الخيال الجامح ، لكن على الرغم من خطأه التي لا تصدق ، وابتكراته الميثولوجية ، وادعاءاته السخيفة بأنها تاريخية ، فقد عمل هذا الكتاب ، أكثر من سواه ، على تشكيل الانطباع عن آرثر بالنسبة إلى الأجيال العتيدة ، وقد استقى منه كل كاتب وشاعر تقريباً في ما بعد .

إن الظروف التي ظهر فيها الكتاب أفضت إلى القبول به شعبياً . كان العصر ينمي بالرومنطيقية ، فلقي الكتاب النجاح المباشر . وقد ادعى دجيفري أنه جمع مواده في بريطانيا . إلا أنه سواء أكان فعل ذلك حقاً أم أنه تبنى تقاليد ولشية (نسبة إلى ويلز) التي كانت سائدة في أيامه ، أم أنه ابتكر شخصياً التفاصيل الخيالية التي وصفها بأنها تاريخية ، فإننا لن نتوصل إلى معرفة الحقيقة أبداً . ولكن ليس ثمة أي شك في أن روایته عديمة الأهمية من وجهة النظر التاريخية . وقد ادعى أيضاً أنه حصل على معلومات كثيرة من كتاب قديم باللهجة البريطانية ، وهو كتاب زعم أنه معروف ،

وحسب ، منه ومن ولتر ، رئيس شمامسة اوكسفورد . ولا احد يدرى ، على ما ييدو ، ما هو هذا الكتاب ، وما اذا كان حقا قد وجد خارج مخيلة دجيفري . فهو لم يوجد فقط ، ودجيفري لم يُظهره إلى أي من النقاد الذين شكوا في صحة أقواله .

يرسم لنا دجيفري صورة ملك جبار وشهم ، وحاكم حكيم يكتنف مولده ووفاته الغموض والسحر ، وقد ازدهر في بلاطه الحب ، والجمال ، والظرف . ومن السهل تبيّن مصدر ذلك . فالسكنون الفروسي ، واللطيف أيام دجيفري بالذات يتخلّل الاسطورة كلها . فالنساء المثقفات ، والفرسان الانيقون ، وحتى كيرليون ، بقصورها وسفنهما ، وأعلامها الذهبية المثلثة الشكل – كل ذلك مناسب ووثيق الصلة بالقرن الثاني عشر أكثر منه بالقرن السادس . فالقائد البريطاني الذي يخوض غمار حرب يائسة ضد الغازي الهمجي ، وبالتالي ينعم بفتره من السلم ببساطة بدائية ، قلما يكشف روعة آرثر الذي يصوّره دجيفري .

ونسج على منوال دجيفري شعراء وكتّاب حكايات شغلوا أنفسهم بشهرة آرثر ، فجعلوه على صورة أيامهم اكثر منه على صورة أيامه ، وأحاطوه بطبة من سحب الغموض اكثر كثافة ، بحيث كُسفت كلّياً شخصيته التاريخية الأساسية . وفي سبيل جعل التفاصيل اكثـر روعة ، استـُخدمت قصائد قصصية وغنائية وتقاليـد قديمة ليس لها ادنـى صـلة بـآرـثر لـدعـم الأـسطـورة التي يـحبـها كلـاـ الأولـاد ، ولكنـ يجبـ على كلـ الرـاشـدـين رـفـضـها . إنـ هـذـه الزـخارـف لاـ تـاسـعـدـنا مـطـلقـاـ فيـ تقـيـيمـ آـرـثـر ، إـلاـ أـنـهـ منـ الـضرـوريـ أـنـ نـتـذـكـرـها ، لأنـها تـظـهـرـ لـنـا مـدىـ الـحرـيةـ التيـ يـمـكـنـ المرـءـ أـنـ يـعـتمـدـهاـ فيـ ماـ خـصـ شـخـصـيـةـ تـارـيـخـيـةـ حـقـيقـيـةـ . وـلـيـسـ اـسـتـثـنـاءـ لـهـذـاـ التـعـمـيمـ فـيـ مـاـ يـتـعـلـقـ بـالـأـسـطـورـةـ الآـرـثـرـيـةـ .

فـطـوـالـ القـصـةـ ، هـنـاكـ ثـبـاتـ عـلـىـ عـلـاقـةـ آـرـثـرـ بـعـرـكـةـ مـاـوـنـتـ بـيـدـوـنـ ، وـهـذـاـ أـمـرـ مـهـمـ لأنـهـ الثـبـاتـ الـوحـيدـ فـيـ الـأـسـطـورـةـ بـأـسـرـهـاـ . وـهـذـاـ يـعـنيـ ، بـكـلـ وـضـوـحـ ، أـنـ نـسـبةـ مـاـ مـنـ الـوـاقـعـ قـدـ دـخـلـتـ إـلـىـ الـقـصـةـ . وـإـذـاـ مـاـ كـانـ بـإـمـكـانـاـنـاـ أـنـ نـشـكـرـ الـأـسـاطـيرـ عـلـىـ ذـلـكـ وـحـسـبـ ، فـانـاـ شـاـكـرـوـنـ لـهـذـهـ الـأـسـطـورـةـ لأنـهاـ تـحدـدـ الـفـتـرـةـ الـتـيـ عـاـشـ فـيـهاـ آـرـثـرـ . ماـ هـيـ ، إـذـاـ ، صـورـةـ آـرـثـرـ الـحـقـيقـةـ ؟ أـيـ نـوـعـ مـنـ الـرـجـالـ يـجـعـلـهـ هـذـاـ الدـلـيـلـ الضـئـيلـ ؟

بالوسع الافتراض أنه يتحدر من أسرة لا بأس بها ، ولكنها ليست نبيلة ، بحال من الأحوال . ويُوضح «تاريخ بريطانيا» أي مقام كان يحتل في المحيط العسكري ، ولذا لم يكن ملكا ، وبالتالي لم يكن ملكا على كل البريطانيين . ولقب «قائد حربي» يدل على أن حكومة ذلك الزمان منحته قيادة خاصة ، وعندما يذكر نيوس ووليام اوفر مامزيري أنه حارب مع الملوك البريطانيين ، فالوسع اعتبار معنى ذلك ان عمله كقائد عسكري كان يقتضي التنقل مع جيشه المدمج المتحرك من إقليم إلى إقليم ، بهدف مساندة الفرق المحلية في مقاومة الهجوم . هل من المؤمن ان نشبّه بواحد من طبقة القادة السابقين؟ فعندما كتب البريطانيون ، حسبما ورد على لسان غلداس ، كتابهم إلى القنصل آجيسيوس (او آيسبيوس) طالبين المساعدة ، فإننا نستطيع الأخذ باقتراح كولنغوود القائل ان البريطانيين إنما كانوا يطالبون بقائد جديد . ولكننا نستنتاج ، كذلك ، من غلداس انه لم يصل مثل هذا العون ، لأن الرومان كانوا منهمكين جدا في الحفاظة على قلاعهم ومخيّماتهم ومعسكراتهم . أفلًا يكون من الطبيعي والحالة هذه أن يعيّن البريطانيون قائداً من بين قادتهم أنفسهم؟

في الواقع ، هكذا كان آرثر ، الرجل الأكثر ملائمة للمنصب ، ذلك بأنه كان رعماً يفهم أكثر من اي رجل آخر في شؤون الحرب ، وقد طور كولنغوود هذه النظرية أكثر على الصعيد العسكري . فقد برهنت فرق الفرسان الثقيلة في السنوات السابقة على أنها القوة الأكثر تفوّقاً على أفضل فرق المشاة . وقد جعل الرومان جلّ اعتمادهم أكثر فأكثر على القوات المحمولة ، وقد حاولوا تعليم البريطانيين الدرس نفسه . وكل قائد روماني بريطاني في القرن الخامس كان يعلم شيئاً عن الحرب كما تُمارس في القارة الأوروبية ، ويفهم كذلك قيمة الفرسان الكبيرة . وإذا ما تطلع حواليه ، فإنه سيدعوه لانعدام وجود الفرسان في بريطانيا .

إذا كان آرثر قائداً رومانياً - بريطانياً حقيقةً - وليس ثمة اي مبرر للاعتقاد أنه كان كذلك - ، فإنه قد يكون يفهم هذه الأفكار ، ويدرك مضامينها . وكان أنشأ فرقة خيالة جديدة ، وعلم البريطانيين الباقين أحياء كيفية استخدام هذا السلاح الحربي القوي . ولو كان آرثر فعل كل ذلك ، فإن القصة التي رواها نيوس عن انتصاراته في

ال المعارك الائتني عشرة التي عدّها يمكن إذ ذاك تفسيرها . ولكن في وضع لا يُقهر نوعاً ما ضد المشاة السكسون ، شرط أن يكون الانضباط حسناً ، وتتوفر الجياد مضموناً . يقول كولنغوود إن هذه النظرية لهي مجرد حدس بحت ، ولكنها تستند إلى ما هو معروف عن الحرب في القرن الخامس . فالتقالييد في قصص المغامرات والفروسية في القرن الثاني عشر لدى دجيفري اوفر مونوث تتمحور حول مفهوم آرثر كمنشىء جماعة من الفرسان . والفارسون يُقرنون دوماً بالملحقين على ظهور الجياد ، حاملين الرماح . والفارس الروماني كان من الطبقة نفسها ، اي من الطبقة المتوسطة العليا ، ورجال الطبقة الوسطى هؤلاء كانوا اولئك الذين يحاربون على مستوى الخيل . ويبدو مؤكداً ان حكايات دجيفري عن الفرسان في المزراة (الدرع المزنة ذات الزرد) ، ملتحقين بالرمح والسيف ، وهم يخوضون المعركة بقتال منفرد ، او بجموعات صغيرة ، غالباً ما يحالفهم الحظ ضد كتائب من المشاة اكبر عدداً ، فانها مستقلة من التحديد الروماني لكلمة «فارس» . ولعل هذا الحدس هو بالتأكيد الجواب عن هذا السر .

وينبغي قول كلمة حول القسم الأفضل من الاسطورة الأثرية ، وهو أنه لما حُمل إلى أفالون لم يمت ، ولكنه راح في سبات عميق . وفي القرن الثاني عشر ، ساد الاعتقاد بأن آرثر ما يزال نائماً ، ولم يكن مأموناً ، في بعض الأقاليم ، القول إنه ميت وعزّز الاعتقاد بأنه سيعود في يوم من الأيام إلى الحياة ، إلى درجة بعيدة ، إلى عدم تحديد المكان الذي دُفن فيه بدقة . فهناك مواقع تقليدية كثيرة ، معظمها يقع في غرب البلاد ، ولكن بعضهم قال إنه لا يحتاج إلى أي ضريح لأنه لم يمت .

وحرصاً من الملك هنري الثاني على تبديد الاعتقاد بأن آرثر ما يزال حياً ، لدى سماعه ان عظام آرثر موجودة في شجرة سنديان مجوفة تقوم على عمق بضع أقدام تحت مدفن غلاستونبري ، أمر - على ما يزعمون - بنبش الجثمان . وقد تم ذلك في عهده ، وعُثر على عظام ، مع صليب رصاصي . وكان الصليب يحمل نقشًا ، اختلُف في تدوينه ، ولكنه ربما كان التالي : «ههنا يرقد آرثر ، الذي كان ملكاً في ما مضى ، وسيكون من جديد ». وفحصت جمجنته ، فأظهرت آثار عشرة جراح ،

تسعة منها شُفيت تماماً والتآمت . وكانت العظام كبيرة وضخمة ، وكان يُقدر طول قامة آرثر بأكثر من ست أقدام .

وحملت بقاياه ووضعت في نعش ، مع عظام غينفير زوجته الخائنة التي كانت عشيقة لانسلوت التي وجدت هي ايضاً ، ثم ووريت الشري ، وشيد ضريح من الرخام الاسود في كاتدرائية غالاستونبرى . ومذ ذاك اختفى ضريح آرثر ، وليس ثمة أي دليل أن الهيكلين العظميين هما لآرثر ولгиневир . ويبدو ان نتائج نبش الجثمان لم تُقبل ، في أي حال ، من اولئك الذين كانوا يفضلون التمسك بالاعتقاد أن آرثر ما يزال حياً يُرزق .

إن أ Fowler التقليد القائل بأن آرثر عاش لم يكن مردّه الى النظرية التي اثبتت موته ، بل الى انقضاء زمن الانقاد من الغازي الاجنبي ، وعدم الحاجة الى منقذ . وعندها دخلت الأسطورة القولклور - او التراث الشعبي .

إن الصورة النهائية لانكلترا في القرن السادس ، هي صورة بلاد اجتاحتها الهمجيون ، فاختفت الحضارة بسرعة . ومن وسط هذه الفوضى قام قائد روماني - بريطاني متشرب تماماً بالأفكار الرومانية ، وقدر على وضعها موضع التنفيذ ، بمساعدة جماعة مختارة من الرجال البواسل ، مسلحين ومدربين على الحرب التي اختصّ بها أجدادهم .

ويرهنو عن أنهم لا يُقهرون في اثنى عشرة معركة أو أكثر ، وأمن انتصارهم النهائي في ماونت بيدون عشرين سنة من السلم لسكان الجزيرة الذين كانوا يُزعجون بغارات متكررة . ثم اندلعت نيران الحرب الاهلية بين أتباع آرثر ، الذي قُتل . ولم يكن ذلك مجرد فقدان آخر القادة القادرين على مقاومة السكسون ، بل أدى ، كذلك ، الى تفكّك فرقـة الأثـبـاع .

هكذا انتهت المراحل الاخيرة للحضارة الرومانية - البريطانية ، ومنذ ذلك الحين باتت الغزوة السكسونية تتكرر في فترات قصيرة أكثر من ذي قبل ، وتم سهولة أكبر ، حتى أصبحت البلاد معتادة على أسيادها الجدد .  
واختفى آرثر ، مخلفاً اسمًا خالداً ، اسمًا أضحى يجذب كل أنواع الحكايات

الاسطورية والسحرية ، إسمًا بات مرادفًا للفروسيّة والفضيلة . والتأثير السيكولوجي لهذه النهاية الغامضة ، مقرًوناً بظروف الزمن الذي عاش فيه ، وهو زمن كان الناس فيه بحاجة ماسة إلى قائد ، دفعاً وجده الحقيقى وأهميته التاريخية إلى لجة خمول الذكر وعدم الشهادة .

## ماذا حدث لإدموند آيرنسايد؟

ليست قصة إدموند آيرنسايد ، ملك الانكليز ، سرّاً أو لغزاً شعبياً بالمعنى نفسه الذي يرتديه مصريع الأميرين في البرج ، أو هوية الرجل ذي القناع الحديدي . وان ما نعرفه عنه قليل ، ليس أكثر من أن حكمه القصير الذي دام سبعة أشهر تميّز بسجل كان أكثر لمعاناً وإشراقاً من سجل والده ايثرليد غير المستعد الذي حكم حوالي أربعين سنة . وبالنسبة الى حروبه مع الملك كانيوت ، الدافركي ، التي انتهت بتقسيم انكلترا بينه وبين كانيوت ، يمكن أن يُعرف بالشهرير لأن موته جعل المملكة بأسرها تحت السيطرة الدافركية . وكان ايثرليد قد تبنّى عملية شراء الغزاة الدافركيين ، بدلاً من محاربتهم كما كان اجداده يفعلون . وكانت نتيجة طريقة المغمة في تفادي المحتوم ، أن الغزاة كانوا يعودون مرة بعد أخرى لقبض المال ، وكانوا ، مع الأسف ، يحصلون عليه دوماً . وأخيراً فكروا في حسنت الاقامة في انكلترا ، وفي بدء حياة جديدة بشرواتهم المكتسبة حديثاً بسهولة . وفي السنة ١٠١٤ ، أُكره ايثرليد على هجر المملكة ، عندما بسط سواين فوركيرد ، ملك الدافرك سلطته على كثير من الأقاليم في انكلترا . وتوفي هذا الأخير فجأة في السنة نفسها ، وأُعيد ايثرليد ، ونجح حتى في التغلب على كانيوت ، ابن سواين ، في المعركة . وتوفي السنة ١٠١٦ ، فاختار مجلس شورى الملك ابنه ، إدموند ، ملكاً .

قبل أن نحاول مناقشة قضية ما إذا كان قد اغتيل أم مات ميتة طبيعية ، من الضروري أن نطلع على ما هو معروف حول حياته وسلوكه .

أبصر إدموند النور حوالي السنة ٩٨٠ . ويبدو أنه اكتسب لقب آيرنسايد (ومعناه الرجل الشديد البأس والجلد) ، بفضل شجاعته وفروسيته . أما إذا كان هذا الاسم قد

استُعمل ، في الواقع ، وهو حيٌّ يُرزق ، فالأمر ليس معروفاً على وجه التأكيد . وبعد وفاته السنة ١٠١٦ بفترة غير طويلة ، نقرأ هذه الفقرة في نسخة فلورنس ورسستر من «التاريخ الانكليو-سكسوني» : «الآن وصل الأمير إدوارد إلى إنكلترا ، ابن أخي الملك إدوارد ، ابن الملك إدموند ، المعروف بـ آيرنسايد بفضل سمالته ». كان ذلك السنة ١٠٥٧ ، وهي تبني الاقتراح القائل إن الاسم اختُرَّ خلال القرون الوسطى .

في السنة ١٠١٥ شاء إدموند الاقتران بـ آيلدغيث ، أرملاة الإيرل الدافر كي سيغفرث ، الذي قُتل في معركة بالقرب من اوكتسفورد على يد آيدرييك ستريونا ، وكانت مصايره مرتبطة عن كثب بمصايره ، ولكن على نحو كريه . كان آيثلريد معارضًا لهذا الزواج ، ولكن إدموند ألحّ ، واقترن بها في نهاية المطاف . ثم إنه ذهب إلى القصبات السبع في الكونفیديرالية الدافرية ، القائمة في الشمال . وهناك تلقى طاعة رجال الكونفیديرالية ، ويبدو أنه اكتسب نوعاً من الامارة في شمال إنكلترا . وفي هذه المرحلة استهدف لعداؤه آيدرييك ستريونا (الذي كان ، في الواقع ، صهره) ، ليس وحسب بفضل الزواج من آيلدغيث ، ولكن بفضل نجاحه في الكونفیديرالية ، أيضاً . فوق ذلك كان آيدرييك ، نائب الملك إيرل في مرشيا ، وكان بعض أراضي إدموند الجديدة يتشارب مع أراضي آيدرييك . والدليل على أنه أزعج آيدرييك يكمن في أنه لما غزا كانيوت البلاد ، بعد ذلك بقليل ، وضم إدموند وآيدرييك قواهما لمقامته ، نشب نزاع عنيف وفاسٍ بين الإيرلين ، وتخلى آيدرييك عن إدموند للانضمام إلى كانيوت . فكانت النتيجة عجز إدموند عن الدفاع عن مرشيا وحده ، فحاول الانسحاب إلى الشمال . اخضع كانيوت قسماً من مرشيا ، وعاد إدموند إلى لندن ليكون مع والده ، الذي كان في حالة النزع الأخير . عندها تحول كانيوت إلى لندن ، وهدد بمحارتها . في هذه الفترة توفي آيثلريد في ٢٣ نيسان ١٠١٦ . وعلى الفور قام اللندنيون وأولئك الذين هم أعضاء مجلس شوري الملك ، بانتخاب إدموند ملكاً بالاجماع . وقد توجه على الفور كبير أساقفة كاتربيري . ولكن كانيوت كان قد انتُخب كذلك ، ملكاً من سائر أعضاء مجلس شوري الملك في ساوثمبتون .

اتجه إدموند ، وقد جوبه بالحرب حتى الموت مع كانيوت ، غريباً لتعبئة جيش .

فلما علم خصمه بذلك ، رفع في الوقت الحاضر الحصار عن لندن ، ولحق بإدموند إلى صمرسيت ، فجرت معركة في سلوفود ، كان النصر فيها حليف إدموند . وقد مكّن ذلك الجيшиين من أن يقترب أحدهما من الآخر أكثر من أجل خوض معركة أخرى . وفي فجر اليوم التالي ، بدأ خط إدموند الامامي ، الهجوم باندفاع جنود المشاة صوب أعدائهم القريبين منهم . وحارب الجيшиان طوال النهار ، وعند المساء كانا قد أنهكا ، فانسحب أحدهما عن الآخر . وفي اليوم التالي ، تواصل القتال ، وكان إدموند قد بدأ يتفوق على خصمه عندما قتل ايدرييك ستريونا ، وكان يحارب إلى جانب كانيوت ، أحد السكسونيّين المسلمين ، وقطع عنقه ، ورفعه عاليًا لكي يثبّط من عزيمة جيش إدموند موهمًا الجنود أنه قُتل ، صائحاً : «إدموند مات ، إدموند مات !» فجعل ذلك الهلع يدبّ في صفوف الجيش ، ولكن سرعان ما تبيّن إمكانية الانهيار في جانبه ، فهرع إلى هضبة ، ووقف فوقها ، ورفع الخوذة عن رأسه ، وأظهر نفسه بوضوح للجميع . وفي المساء عاد الجيшиان ، فانسحب أحدهما عن الآخر مجددًا . ولكن هذه المرة كان إدموند في وضع أفضل كثيراً من ذي قبل . وخلال الليل انسحب كانيوت كليًا من ساحة القتال ، وعاد شطر لندن لكي يستأنف الحصار الذي كان تخلّى عنه قبل بضعة أسابيع . وقد جعلت هذه المعركة إدموند سيد ويسيكس .

بعد أن سجل إدموند انتصارين في رصيده ، فضلاً عن جيش كبير ومخلص له ، بات وضعه مغرياً بما فيه الكفاية لاغراء ايدرييك على التخلّي عن كانيوت ، والانضمام إلى صهره من جديد . وقد أقسم هذا الخبيث الانتهازي يمين الولاء لإدموند ، وتبعه في الزحف لإنقاذ لندن .

وطرد إدموند الدانمركيين إلى سفنهم في نهر الشيمز ، وبعد فترة قصيرة التقى كانيوت في معركة أوتفورد ، في مقاطعة كنت . وباهجه النجاح بالحديبة ، فاستطاع بهيته وتعاقب انتصاراته أن يعيّن قوات أكبر ، فهزم الدانمركيين أيضًا في أوتفورد . ولو انه طارد العزة المنسحبين وحول الانكسار إلى هزيمة منكرة ، لكن ذلك نصراً دائمًا للانكليز . غير أن إدموند لم يتأثر بقضية خيانة ايدرييك له في ما مضى ، وتأمره ، حتى ، على حياته ، فتقبل نصيحة صهره هذا ، وترك الدانمركيين ينسحبون بكل

نظام . ومهما تكن دوافع ايدرييك ، ويمكنا التأكد من أنها كانت موضوع شك ، فإن اللوم يقع على إدموند للمجرى الذي اتخذته الاحداث .

وكانت النتيجة أن عاد الداغر كيون إلى الاشتراك في معركة جديدة . فعِبَّاً إدموند جيشاً آخر ، قيل إنه تألف من أفضل عناصر الشعب الانكليزي . وطالما استمرت سلسلة انتصاراته متلاحقة وغير متقطعة ، لم يكن يجد أي صعوبة في مواصلته محاربة الغزاة للتخلص منهم . وكان ذلك مثلاً على القول القديم السائر . «ليس ثمة ما ينجح مثل النجاح !»

وأجرت آخر معركة كبيرة في آسندون (آشنغندون) ، في ايسكس . وفي «التاريخ الانكلو-سكسوني» ، يوضح المؤذن الذي يشير إلى آسندون نفسه : «... وجرت معركة شرسة . ثم فعل الإيرل ايدرييك ، كما كان قد فعل غالباً من قبل ؛ وكان رجال هيرفورد وشروعنير ، أول من أعطوا المثال في الهرب ، وهكذا خان سيده الملكي وكل شعب انكلترا . وبين الذين هلكوا ... كل زهرة الشعب الانكليزي .»

وبفضل خداع ايدرييك احتل كانيوت انكلترا بأسرها . فانسحب إدموند غرباً لتعبة جيش آخر ، غير أن النبلاء من أتباعه ، والملك كانيوت نفسه رفضوا مواصلة الحرب . وبدلاً من ذلك اقتُرخ ان يلتقي إدموند وكانيوت في مؤتمر لتسوية خلافاتهما . وجرى اللقاء في جزيرة اولني ، في نهر سيفيرن ، بالقرب من غلوستر ، وانتهى بطريقة ودية . واتفق الاثنان على عقد اخوة بينهما ، وعلى اقسام انكلترا في ما بينهما ، فيحصل إدموند على ويسكس ، ويحصل كانيوت على مرشيا والشمال . وعلى الرغم من أنه ليس هناك اي سجل معاصر لبنيواد اخر في الاتفاقية ، فلعلهما قرراً أن يصبح من يبقى منهما حياً يرزق ملكاً على انكلترا بأسرها .

وعاد إدموند إلى لندن ، وتوفي فجأة في ٣٠ تشرين الثاني ١٠٦١ ، الموافق عيد القديس آندرو . والغاية من هذا الفصل هي اكتشاف كيف ماتحقيقة ، ومعرفة اي تبرير هناك للنظرية القائلة بأنه اغتيل ، اذا كان ثمة من تبرير . حتى ساعة وفاته ، لا تدع رواية تاريخ حياته وأعماله اي مجال للشك الجدي . إنها قصة قوية ، واضحة ، وصحيحة ، وليس فيها اي طابع للاسطورة أو الابتداع . ووفاته هي التي أثارت الكثير

من الجدل والغموض في اوساط الاجيال اللاحقة . ويبدو أنه بسبب موته شاباً ، ولأن سجل صهره ايدريك ستريونا يحمل جرائم اغتيال سياسي ، فلستنا ملزمنا مطلقاً ان نعتقد أن إدموند لم يمت موتاً طبيعياً .

إن سبب اختيار هذا الفصل كفصل من فصول الأسرار التاريخية التي ينطوي عليها هذا الكتاب ، هو أن نُظهر كيف ان المؤرخين في العصور اللاحقة غالباً ما اعتادوا اختيار نهاية غامضة لامرئ لم يفترض معاصروه أنه مات موتاً طبيعياً . فإذا كان شخصاً شهيراً ومهمّاً قد توفي بهدوء وسلام ، وإذا كان هناك أصدقاء ، أو أنسباء ، أو اعداء من لديهم الدافع والفرصة لاغتياله ، فإن هناك دوماً عدداً كبيراً من المؤرخين ومسجلي الأخبار والاحاديث مستعدون للقيام بخطوة ابتداع قصة بشعة ، بغض النظر عمما إذا كان مثل هذا التأكيد تبريراً أم لا . وقد حدث ذلك مثلاً ، في قضية وفاة كل من آرثر البريتاني ، ورشارد الثاني . وفي ما يتعلق بإدموند فإن ايدريك وكانيوت ، كان لديهما الدافع والفرصة معاً . فإيدريك كان يكره إدموند . وكان سابقاً ومتسبعاً بالاغتيال السياسي ، في حين أنه يصبح بوسع كانيوت أن يتسلّم مقدرات انكلترا بأسراها فيما لو أزاح إدموند . وليس ثمة أي اتهامات ايجابية ضد كانيوت في التاريخ الانكليزي ، ولكن بعض القصص الدافرية القديمة المعروفة بالساغة تزعم أن للكهم شخصياً مسؤولية في تدبير أمر موت إدموند . ويبدو أن ايدريك هو الشخص الذي توجّه إليه غالباً تهمة الاغتيال أكثر من سواه . وعندما ننعم النظر في الروايات العامة عن حياته العملية وسلوكه الشخصي ، يتضح لنا على الأقل لماذا اعتقد المؤرخون انه مذنب ، علمًا بأن ذلك لا يعذرهم لكونهم اثبتوا ذلك كتابة ما دام ليس ثمة أي برهان بين أيديهم .

يدرك «التاريخ الانكلو - سكسوني» ايدريك للمرة الاولى السنة ١٠٠٧ ، ثم السنة ١٠٠٩ . إنما لا يخبرنا تماماً كم يستحق التوبيخ والشجب سلوك ايدريك ، ولكنه يتضمن عبارة ينبغي أن تعني ان كل من يطالع «التاريخ» هذا سيعلم ما المقصود . فالدافر كيون كانوا يغيرون على الساحل الجنوبي ، وكان الملك ايليريد قد جمع جيشاً لصدّهم «ثم في احدى المناسبات ، طوقهم الملك بكل القوات المجندة

عندما كانوا يتوجهون إلى سفنهم ، وكان كل واحد مستعداً لالانقضاض عليهم .  
ولكن ، كما كان الحال ، فقد منع ذلك نائب الملك إيدري克 .

إن أغرب شيء في حياة إيدريك هو كيفية تمكّنه من التخلص من مثل هذا السجل الحافل بالخيانة والاغتيال ، والبقاء الأثير لدى إيشلريد زمناً طويلاً . فقد خلف إيلفري克 ، وهو خائن شهير آخر ، كنائب للملك في مرشيا السنة ١٠٠٧ ، ويبدو أنه بات هو أيضاً الخائن التالي الرئيسي . وليس تاريخ إيدريك منذ هذا الوقت سوى لائحة بالخيانات والاغتيالات ، ومعظمها يستحيل فهمه . وبعد أن تزوج ابنة الملك ، ويبلغ أرفع المناصب في البلاد ، لم يعد بالوسع فهم سبب تحالفه مع أعداء بلاده .

إلا أن القضية تبقى أنه كان كذلك ، والمصادر الأكثر اعتماداً في هذه الحقبة واضحة تماماً حول هذه النقطة . ويتضمن سجل اغتيالاته موت سيغفرت وموركار ، اليرلين الرئيسيين في القصبات السبع (التاريخ الانكليزي سكسوني» ، ١٠١٥) ، وأغشريد ، إيرل نورثمبريا ، السنة ١٠١٦ («التاريخ» نفسه ، ١٠١٦) ، وإدويغ ، ابن إدموند آيرنسايد . وكانت حياته المزدوجة - أنا يساند إدموند ، وأونه يحارب كانيوت - تتذبذب جيئة وذهاباً بمثل انتظام الساعة . ولم يكن لدى المؤرخ ولIAM اوF ماMزبرى ، في كتابه «جستاريغوم» اي شيء صالح يقوله في إيدريك مطلقاً ، ولا نجد عنه إلا مثل هذه العبارات «حثالة البشرية» ، «وخزي الانكليز» ، و«نهم خليع ، ووغد ماكر ، غنيّ ليس بالنبلة ، ولكن باللغة الغرارة والوقاحة ، ومفرق ماهر ، قادر على تلفيق أي شيء» .

ويسجل فلورنس ووستر أنه كان رجلاً من أصل وضع ، اكتسب لسانه غنىً ، رجلاً تفوق على كل رجال عصره بالحسد ، والخيانة ، والقسوة . كان ، بالطبع عبقرية إدموند الشيريرة ، ويبدو أنه كان ، كذلك ، العبقرية الشيريرة لدى إيشلريد ، خلال السنوات الأخيرة لحكمه . غير أن المظهر الأكثر غرابة في حياة هذا الرجل هو أنه ليس ثمة أي دليل على أنه كان له أدنى علاقة بموت إدموند .

من هنا يسهل معرفة لماذا زعم المؤرخون الخياليون والرومنطيقيون أن إدموند قُتل ، لأن لديهم في إيدريك شخصية تاريخية حقيقة يمكن أن تكون أدلة رائعة

للجريمة . ولكن ذلك ليس تاريخاً دقيقاً .

إن أكثر الروايات تشويقاً حول اغتيال إدموند المزعوم ، يمكن أن نقرأها في كتاب هنري أوف هنتنجدون «تاريخ الانكليز» الموضوع بعد وفاة الملك هنري الأول السنة ١١٣٥ . وقد جاء فيه : «وقد اغتيل الملك إدموند غدرًا بعد ذلك ببضعة أيام . وحدث ذلك على النحو التالي : «ذات ليلة ، بعد أن أتيحت لهذا الملك العظيم والقوى الفرصة للجوء إلى منزله لتلبية نداءات الطبيعة ، اختباً ابن نائب الملك إيدري克 ، بحيلة من أبيه ، في الحفرة ، وطعن الملك مرتين من الخلف بخنجر حادّ ، وترك أدلة الجريمة مشتبة في أحشائه ، وفرّ هارياً . عندها مثل إيدري克 أمام كانيوت ، وحياه ، قائلًا : أبشر ، فأنت وحدك ملك انكلترا . وبعد أن أوضح ماذا حدث ، أجاب الملك : لقاء هذا العمل ، سأرْقُوك قدر استحقاقك ، إلى أعلى من كل نبلاء انكلترا . ثم أمر بأن يقطع رأس إيدريك ، ويُرفع فوق عمود في أعلى الشرفة المفرّجة من برج لندن . وهكذا هلك الملك إدموند آيرنسايد .» ويروي وليام أوف مامزيري الشيء نفسه ، ولكنه يضيف أن ذلك ليس إلا شائعة . ولعله شخصياً لم يصدق القصة .

ويكرر مؤرخون آخرون رواية الطريقة التي قُتل فيها إدموند ولكن بأدوات أخرى . مثال ذلك أن المؤرخ الألماني آدم البرمياني ، يزعم أن إدموند مات مسموماً . ويجرّ تعدد الروايات حول الاغتيال المزعوم إلى استنتاج واحد هو : جهل الحقيقة . ويدوأن عدم ذكر «التاريخ الانكليو - سكسوني» أي شيء عن طريقة الموت ، مكتفيًا بالقول إن إدموند توفي ، قد فات كتاب الحكايات الرومنطقيين . وفضلاً عن ذلك ، فإن واضح «التاريخ» كان لديه من المعلومات أكثر مما لدى الذين أتوا بعده .

إن العبارة الوحيدة الصحيحة في رواية هنري أوف هنتنجدون هي أن إيدريك قُتل على يد كانيوت ، ولكن ذلك لم يكن عقاباً على اي تهمة قتل . وبعد أن ظهر على حقيقته كخائن بالفطرة ، وبعد أن أعطى أمثلة عدة على ذلك في فترة زمنية قصيرة ، كان يمكن إيدريك أن يشكل خطراً على كانيوت ، كما سبق أن شكل خطراً على إيشلريد أو إدموند . ولذا كان بإعدامه . وإن لم يكن عقاباً على جريمة محددة ، ومن هنا ليس منصفاً تماماً . محتوماً مع ذلك ، ولا يسعنا أن ندين كانيوت حقاً .

إذا نحن رفضنا فكرة الاقتراح بأن إدموند اغتيل ، وسلامة الأدراك تشير أن علينا ان ن فعل ذلك ، فإن الموت الطبيعي يبقى البديل الوحيد ، وليس ثمة اي دليل معاصر يخالف هذا الرأي . كان يمكن ان يقضي نتيجة مرضه ، او بسبب الارهاق الذي اصابته به مشاق حملاته العسكرية المضنية ضد كانيوت . فالمملوك ألفريد العظيم وذريته كانوا جميعاً معروفين بضعف بنائهم ، ولعل الحال الاكثر احتمالاً أن إدموند قضى بقليل من الاثنين معاً : المرض والارهاق .

كان البروفسور إدوارد فريمان ، صاحب العمل الضخم الذي يقع في اربعة مجلدات بعنوان «تاريخ الفتح النورماندي» رعما ، أعظم مؤرخي عصره . وكتابه الذي يُعتبر اكثرا الدراسات الموثوقة بها في كل الأزمنة ، يظهر ذكاء وموضوعية اكثرا من اي من كتب معاصريه مجموعة ، وليس هناك سبب للشك في اختصاره السر الغامض ، حيث يقول : «إن جهود إدموند الشخصية ينبغي أن تكون في الحقيقة أكبر من جهود أي رجل آخر في الجيشين . فإلى جانب السير وال الحرب ، كان هناك الذهاب والإياب إثر كل معركة ، لجمع قوات جديدة . ولا بدّ أن يكون هذا العمل قد ضغط على إدموند بقسوة اكثرا مما ضغط على سواه ، واكثرا مما ضغط على كانيوت الذي كان جيشه دائمًا جاهزاً وفي متناوله . إذاً ، فمن الممكن جداً أن يكون موت إدموند طبيعياً ، ومثل هذا الاعتقاد لا يكذبه مطلقاً أفضل مراجينا .».

يبدو لنا أنه لو قضى إدموند في ظروف يمكن أن توصف ، بطريقة ما ، بأنها غامضة وسرية ، ل كانت نشأت اسطورة ما خلا جيل من الزمن . وهذا لم يحدث ، كما نعلم جيداً ، ومن هنا كان علينا تصديق «التاريخ الانكلي - سكسوني» عندما يذكر : «ثم ، يوم عيد القديس آندره ، توفي الملك إدموند ، وهو يرقد مع جده في غالاستونبرى .».

## ماكبث الحقيقي، أي نوع من الرجال كان؟

جعل شكسبير اسم ماكبث شهيراً في كل بلد من بلدان العالم . وروايته هي احدى أكثر الروايات مأساوية في الأدب . ولكن موضوع الرواية اسطوري كلياً ، باستثناء الشخصية الرئيسية .

قليلة هي المعلومات التاريخية حول ملك اسكتلندا الذي حكم طوال سبع عشرة سنة ، وكان واحداً من اعظم الملوك في التاريخ الاسكتلندي ، لأن الاعتقاد السائد ، حتى اليوم ، أن ماكبث كان صورة طبق الأصل عما صوره شكسبير ، ولم يفعل التاريخ شيئاً لكي ينفي هذه الخراقة الواضحة : فلقد وسم بأنه نذلٌّ خسيسٌ ، اتُرَفَ كل جريمة تحمل اسمها . ويزعمون أنه كَدَّس في غضون سنوات قليلة من الاعمال السيئة وجرائم القتل ما يكفي سلالة كاملة من الملوك . ويسبب ضآلة المعلومات عن حياته العملية طُعْنَ ماكبث على اساس المبدأ القائل انه يُسْتَحْسِن شتمه بدلاً من تجاهله .

اختار شكسبير موضوعه من مجموعة تاريخ اسكتلندي يعرض للإحداث وفقاً لسلسلتها الزمني في تلك الحقبة ، ولكنه اختار وحسب أسوأ أجزاء التاريخ المشكوك فيه . انتزعه من محیطه الحقيقي ، وتجاهل خصاله ومزاياه في القيادة والوطنية ، ونسج حوله شهرة كريهة وبغيضة ، ومع ذلك ، لا يستحقها . غير أن شكسبير لم يكن أول من سوَّد صفة سلوك ماكبث ، ولا يمكن أن يُعتبر مسؤولاً وحده عن اساءات الفهم الكثيرة والفادحة التي عُدَّت تاريخاً في ذلك الزمان ، ذلك بأنه اثنا نقل عادات معاصريه . وتکمن غلطته في استمرارية هذا الاعتقاد الشعبي . وفي حين يقرأ عشرة الشخصيات المؤرخ الانكليزي رفائيل هولنشد او المؤرخ الاسكتلندي دجون

فوردان ، فان عشرة آلاف يقرأون شكسبير - ويأخذون بصدق حكمه . «رسم مشاهد تألق وإشراق تهدد بتدمير أسس التاريخ نفسها ، وتجعل الرواية الخيالية ، المستندة الى شبه التاريخ ، مرغوبًا فيها ، اكثر من الصدق العادي البسيط ، وغير المزوق .» ولكن ، لأن شكسبير يُنظر اليه عالميًّا على أنه عبقرى ، وعمله يعتبر مقدساً الى أبعد حدّ ، فإن ذلك لا يسمح لنا بأن نقبل ما نعرف أنه خطأ ، كما أنه لا يُغفر له التعامل مع التاريخ بمثل هذه الحرية ورفع الكلفة معه .

كان ماكبث شخصية في التاريخ الاسكتلندي ، لأنَّه ظهر في فترة كانت البلاد فيها بحاجة الى رجل يتمتع بالخصال ذاتها التي كان يتمتع بها ، وليس ثمة اي غاية في الشك بأنَّ أعماله كملَّك ، وكجندي ، وكوطني ، اكسبته امتيازاً واحتراماً في زمانه . وليس ثمة اي دليل معاصر ينفي ذلك ، ولا تظهر اولى الاشارات الى تشويه سمعة سلوكه إلا بعد ذلك ببضعة قرون من وفاته . وحتى في ذلك الوقت اتهم بجرائم اقترفها سواه ، من فيهم ابن عمه دنكن .

ليس ثمة ، في الواقع ، سوى دليل صغير معاصر حقاً حول الحقبة بكاملها ، ذلك بأنَّ الاسكندينافيين القدامى الذين غزوا اسكتلندا خلال القرنين العاشر والحادي عشر ، اندفعوا في ثورات تخريبية متعمدة للممتلكات العامة والخاصة دونما اي تمييز ، فأُنْتَلَفت نتيجة ذلك الكثير من الوثائق وروايات الشهود العيان . وكاد الملك ادوارد الاول يكمل إتلاف الشهادة التاريخية لتلك الحقبة ، فلم يبقَ لدينا سوى «التاريخ الانكلو - سكسوني» لفلورنس ووستر ، الذي كان معاصرًا تقريباً ، وبعده بثلاثة قرون ، مع سجل أخبار رئيس دير للرهبان يدعى آندره ونتون . وتعتبر شهادة هذا الأخير ، على الرغم من كونها غير مباشرة ، وغير موثوق بها دائمًا ، قيمة ، مع ذلك ، لأنَّه عاش في الأقليم نفسه من اسكتلندا الذي عاش فيه ماكبث ، وجمع مختارات كبيرة من التقاليد ، والتواتر ، والواقع من أناس عاشت أسرهم هناك طوال اجيال . وتنخل ونتون ، بقدر الامكان ، التاريخ من اختلاط الاسطورة بالواقع ، وسيشار الى عمله الذي سيعطي بعض الاشارات حول حقيقة سلوك ماكبث .

في السنة ١٨٢٨ ، نُشر في بيترهد كتاب بعنوان «تاريخ ماكبث السري» ، زُعم

أنه يستند إلى اكتشاف «مخطوطة قديمة جداً». ولكن قبل ذلك بمائة وعشرين سنة ، كان قد صدر كتاب في لندن بعنوان «تقارير بلاط اسكتلندا» ، الذي تضمن فصلاً عن «التاريخ السري لماكبث ، ملك اسكتلندا» . وادعى هذا الفصل أيضاً أنه استند إلى اكتشاف «مخطوطة قديمة جداً» . وجعل نشرة بيترهد عرضة للشك الكبير . فهل اتفقت المخطوطتان بطريقة ما؟

الجواب هو أنهما اتفقا . وكان التعبير العام متشابهاً . وكلا المخطوطتين تشوّه سمعة ماكبث ، وتغدق المديح والاطراء على ماكـدـفـ ، وكذلك على شخص آخر يدعى آنغوـس ، الذي زعم انه كان اليد اليمنى لماكبـث . وربما كانت هاتان المخطوطـتان زائفـتين ، فالـأولـى اخـتـرـعـهاـ الكـاتـبـ اللـنـدـنـيـ ، والـثـانـيـ كـانـتـ مجردـ نـسـخـةـ عـنـهاـ . وـيـبـدوـ ذلكـ جـلـيـاـ منـ نـوـعـ الـكـلـمـاتـ الـمـسـتـخـدـمـةـ فـيـ الـرـوـاـيـةـ ، وـهـيـ كـلـمـاتـ لـاـ تـعـقـلـ اـنـ تـكـوـنـ مـسـتـعـمـلـةـ فـيـ الـقـرـنـ الـحـادـيـ عـشـرـ . ولـلـعـلـ أـبـرـزـ فـضـحـ لـرـيفـ هـاتـيـنـ الـمـخـطـوـطـيـنـ كـانـتـ كـلـمـةـ «ـكـابـالـ» . وـهـذـاـ اـلـاسـمـ كـانـ أـطـلـقـ عـلـىـ الـوـزـارـةـ الـتـيـ حـكـمـتـ انـكـلـتـرـاـ فـيـ عـهـدـ الـمـلـكـ تـشـارـلـزـ الثـانـيـ بـيـنـ السـنـةـ ١٦٦٧ـ وـ ١٦٧٢ـ ، وـقـدـ كـانـ مـنـشـأـهـاـ الـاحـرـفـ الـأـوـلـىـ مـنـ كـنـيـةـ الـرـجـالـ الـخـمـسـةـ الـذـيـنـ تـأـلـقـتـ مـنـهـمـ الـوـزـارـةـ وـهـمـ كـلـيـفـورـدـ ، وـأـرـلـنـغـتونـ . وـيـكـنـغـهامـ ، وـآـشـليـ ، وـلـوـدـرـاـيلـ . وـلـمـ تـكـنـ هـذـهـ الـكـلـمـةـ مـعـرـوـفـةـ قـبـلـ ذـلـكـ التـارـيـخـ . وـهـنـاكـ كـلـمـاتـ اـخـرـىـ تـفـضـحـ الـزـيـفـ مـنـ مـثـلـ «ـمـفـارـقـةـ» ، وـ«ـمـتـمـلـقـ ذـلـيلـ» ، وـ«ـمـلـتـقـىـ» ، وـ«ـصـرـفـ مـنـ الـوـظـيـفـةـ» . وـيـبـدوـ كـمـاـ لوـ كـانـتـ هـاتـيـنـ الـمـخـطـوـطـيـنـ تـسـتـنـدـانـ إـلـىـ قـصـةـ شـكـسـبـيرـ .

بيـنـ السـنـةـ ١٥٣٠ـ وـ ١٥٣٥ـ ، جـمـعـ وـلـيـامـ سـتـيـوارـتـ تـوـارـيـخـ مـخـتـلـفـةـ عـنـ اـسـكـتـلنـدـاـ ، وـنـشـرـهـاـ فـيـ مـجـلـدـ ضـخـمـ . وـكـانـ شـدـيدـ التـحـيـزـ ضـدـ ماـكـبـثـ ، وـلـكـنهـ لـمـ يـسـطـعـ تـجـنـبـ اـيـرـادـ هـذـهـ الـأـبـيـاتـ الـشـعـرـيـةـ مـنـ اـحـدـ تـوـارـيـخـ الـمـبـكـرـةـ فـيـ هـذـهـ الـمـجـمـوعـةـ :

«ـكـانـ الرـمـحـ وـالـدـرـعـ لـكـلـ رـجـالـ الـكـنـيـسـةـ ،  
وـالـتـجـارـ جـمـيـعـاـ الـذـيـنـ يـخـرـجـونـ عـبـابـ الـبـحـرـ ،  
الـمـزـارـعـيـنـ الـذـيـنـ يـكـدـوـنـ فـيـ الـأـرـضـ ،  
لـمـ يـكـنـ مـمـكـنـاـ العـثـورـ عـلـىـ مـلـكـ أـفـضـلـ مـنـهـ فـيـ ايـ عـصـرـ .»

ويُظهر موجز قصير للأحداث التي أدّت إلى اعتلاء ماكبث العرش الاسكتلندي ، بوضوح كيف كانت اسكتلندا بحاجة ملحة لقائد وزعيم ، وكيف ارتفع ماكبث إلى مستوى الأحداث .

في القرن الحادي عشر ، لم تكن اسكتلندا مغيبة ، وحسب ، بقضية الغزو الذي قام به الفايكنغ ، ولكنها كانت مرهقة بالاستياء المدني ومهدهدة بالتدخل الانكليزي . وكان الملك دنكن وجلده ، مالكوم الثاني يتبعان سياسة لا يمكن إلا أن تؤدي إلى ابتلاء الانكليز اسكتلندا ، في حين كان معظم الاسكتلنديين على جانب كبير من الوطنية ، ويرفضون إضعاف الكبارياء القومي . وكانت وطنية ماكبث ، كما سيمر معنا ، المزية الأكثربعاً على تحبيبه إلى قلوب الاسكتلنديين . وذلك كان السبب الرئيسي لانتخابه ملكاً ، إثر وفاة دنكن .

اعتلى دنكن الذي كان ابن عم ماكبث ، العرش السنة ١٥٣٤ . ولم نعرف عنه إلا شيء القليل ، باستثناء أنه ، خلال حكمه ، استمرت الاضطرابات المدنية ، وبدأ أنه أعجز من أن يدير شؤون المملكة . ولكي يكتسب بعض الجد ، وربما لتحويل الاهتمام عن القلاقل في الداخل ، قاد السنة ١٠٣٩ ، حملة غزا بها نورثمبريا ، انتهت بالكارثة . فقد جرّ فقدانه قوة الارادة ، وانخفاضه المستمر إلى تفكّك القانون والنظام ، فانتشر قطع الطرق ، واللصوصية ، فضلاً عن الفساد بالحملة في أوساط أتباعه . وهناك سبب وجيه للاعتقاد بأن أغلبية أصحاب لقب ايرل (القب أدنى من مركيز وأرفع من فيكونت) والزعماء ، من فيهم أفراد من أسرته نفسها ، بدأت تنظر حواليها باحثة عن قائد وزعيم جديد .

عندما أسفرت غزوة نورثمبريا عن الهزيمة الدموية في حصار درهام ، حيث زُعم أن المتصررين جمعوا غنيمة حربية كريهة من مجموعة من رؤوس الاسكتلنديين المقطوعة ، أيقن دنكن أنه آن الأوان لتسليم قيادة جيشه إلى جندي قدير . وكان ماكبث الرجل الوحيد المؤهل لتسلّم هذا المنصب ، فعُيّن فيه . ويسجل لماكبث حقاً أنه استطاع ، في غضون بضعة أشهر ، أن يقمع بنجاح كل الثورات ، بحزم اقترب بالحلم . ويسجل ولIAM ستیوارت هذه الأبيات الشعرية أيضاً :

«كان عادلًا تمامًا في تطبيق القوانين ،  
فلما تم ذلك ، توقفت كل الحروب ،  
ويات اسكتلندا بأسرها تنعم بالراحة التامة والسلام .»  
لم يُعد تصرف ماكبث الكبارياء الوطني وحسب ، بل إنه ثُبت بذلك سمعته  
الخاصة كقائد قدير وشعبي .

يبدو أن دنكن كان حاكماً عاجزاً ، ويدرك ونتون أنه كان فاسداً أخلاقياً ، متعطشاً  
للدم ، وأنانياً . وليس من المدهش أيضاً أن يتتحمل الناس إدارته الضعيفة . وكانت البلاد  
قد بدأت تتهاوى ، وهي تتطلب زعيماً قوياً .

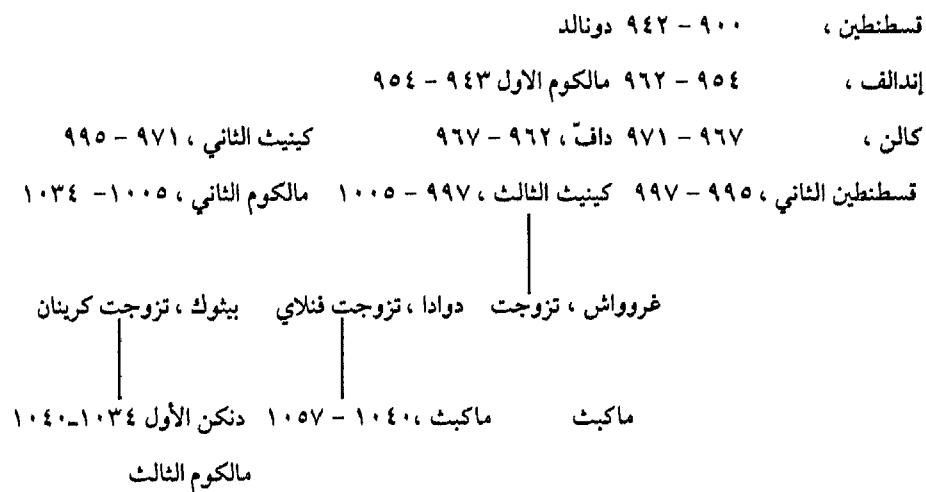
وكان ماكبث هذا الرجل ، إلا أنه ، على تقدير الاعتقاد العام السائد ، لم يكن  
بحاجة إلى قتل الملك لكي يتسلّم زمام الأمور في المملكة . ذلك بأن حمافة دنكن  
نفسها هي التي عجلت في نهايته ، وكان لماكبث ، على أي حال ، الحق الواضح في  
خلافته .

لسنا ندري متى ولد ماكبث بالضبط ، ولعلَّ أول إشارة إلى ذلك هي في «التاريخ  
الانكليو-سكسوني» ، وهي السنة ١٠٣١ ، عندما ذُكر أن الملك كانيوت ذهب إلى  
اسكتلندا للتلقّي خصوص الملك مالكوم الثاني ، وملكين آخرين ، مما مالبث  
وأيهمارك . ومن الطيش اعتبار أن مالبث كان لماكبث ، إلا أن ثمة أساساً للاعتقاد أن  
ذلك يمكن أن يكون سوء فهم للإسمين . ذلك بأنه معروف أن ماكبث خلف ، في  
السنة ١٠٣١ ، أباه فنلاي ، حاكم مقاطعة موري ، وملك أوليان . فإذا كان ثمة خطأ  
في الترجمة في «التاريخ» المذكور ، فإنه يكون بماكبث نفسه .

هنا ، يحسن بنا أن نراجع قانون الخلافة لدى ملوك اسكتلندا في القرنين العاشر  
والحادي عشر ، لأنَّه يُظهر أنَّ ماكبث كان وارثاً قريباً للدنكن . فاغتصاب العرش ، إذَا ،  
يصبح غير ذي موضوع - وعلى أي حال فإن انتخابه للتربع على العرش لا يشكل  
اغتصاباً بهذا المعنى . فقد كان العرش انتخابياً ، كما هو خلافة ، وكان يتبعه ما يمكننا  
تسميه وراثة متناوية .

ولإثبات شجرة الأُسرة يمكن أن يساعد على توضيح الطريقة الغريبة في الخلافة .

ففي بداية القرن العاشر ، كان هناك شقيقان في سلسلة الملوك الاسكتلنديين ، أحدهما كان قسطنطين ، والآخر دونالد .



إذاً ، فماكبث ، كانت تجري في عروقه دماء ملكية ، وكان في سلسلة الخلافة ، ليس وحسب ، نتيجة الزواج ، ولكن بمولده أيضاً . ومجرد أن يكون دنكن ولدان صغيران لدى وفاته ، لا يُثبت أن ماكبث حرمهما من حقهما في الميراث ، ذلك بأنه انتُخب ملكاً ، وكان الانتخاب بمثل أهمية الوراثة . لذا ، لم يكن لماكبث أي دافع مطلقاً ، لقتل دنكن ، وفي كل حال ، لقي هذا الملك حتفه أثناء المعركة .

ان الأحداث التي أدّت إلى وفاة دنكن السنة ١٠٤٠ هي الآتية . بعد الإخفاق الذريع في درهام ، عاد ، وأوكل إلى ماكبث أمر قمع الثورات . ويبدو أن أمراً هو ايرل ثورفن ، وكان صديقاً لمالكوم الثاني ، قد مُنح اقطاعاً كيثناس من قبل مالكوم . وكان ثورفن نبيلاً قوياً ، ومتحالفاً مع ماكبث لأنهما حارياً جنباً إلى جنب في معارك عدّة . وفي نهاية السنة ١٠٣٩ طلب دنكن مبلغاً كبيراً من المال من ثورفن لقاء اقطاعته التي كانت هدية فرفض هذا الأخير ، بالطبع ، فعّباً دنken من فوره جيشاً بقصد انتزاع المال

بالقوة . أما دور ماكبث في هذه الحرب الخاصة فليس معروفاً بالضبط ، إلا أنه ربما ساند ثورفن ، ليس لأسباب شخصية فحسب ، بل لما فيه مصلحة العدالة العامة ، كذلك . وجرت معركة في صيف السنة ١٠٤٠ في بوثغوانان ، بالقرب من إلجن ، هُزم فيها دنكن ، وجُرح جرحاً بليغاً . ولا يسعنا معرفة ما إذا كان توفي في إلجن . إلا أن هناك قيداً في سجل كاتدرائية القديس آندرو ، هذا نصه : «دنكن قُتل في بوثغوانان .»

وليس ثمة أي دليل قط على قتيله ، ولا يستبعد البته أن يكون قد توفي متاثراً بجراحه في المعركة . وكان موته أفضل شيء يمكن أن يحدث في ذلك الوقت ، لأنه كان شاباً ، وليس مستبعداً أن يواصل حكمه المدمر طوال سنوات عدة .  
وتحمل ولداه الصغيران إلى نورثمبريا ، حيث عني بهما جدهما سايوورد ، ايرل نورثمبريا .

عندما انتُخب ماكبث ملكاً ، وطوال السنوات الأربع عشرة التالية ، ساد السلام والازدهار اسكتلندا . ولا نعلم الكثير عن حكم ماكبث ، ولكن يبدو أنه كان حاكماً منصفاً ، وعادلاً ، «وادارته كانت تنعم بالمهارة الفائقة الأمر الذي أرضى الشعب .» ومجرد كونه حكم أربع عشرة سنة دون أن تعكر الحرب الأهلية السلام والهدوء يجرّ إلى الافتراض أنه لم يكن يُعتبر لاطاغية ولا مغتصباً .

يدرك فلورنس ووستر في تاريخه أن ماكبث كان متحرراً تماماً من الهموم الوطنية ، فقام بالحج إلى روما ، السنة ١٠٥٠ ، حيث وزع النقود الفضية على الفقراء والمعوزين .

والمعروف عنه أنه قام بشن حملة شديدة على اللصوص ، وقطع الطريق ، والنهايين ، ولم تلبث أن حُصرت نشاطاتهم في غزوات متفرقة ونادرة ، وعادة غير فعالة ، في أنحاء مختلفة ومتباعدة من الريف . وكحاكم ، وزع العدل بالقططاس على الكبير والصغير ، ولعل ذلك كان شأنه في عظمته . وكتب وتنون شعراً قال فيه :

«وسعة عشر شتاءً كاماً حكم ،  
كملك كان إذ ذاك في اسكتلندا .

كل عهده كان خيرات كبيرة ،  
زخرت بها الأرض والبحر .

كان في العدالة قانونياً مستقيماً ،  
ومع ذلك كانت قوانينه مرعبة .»

إذا كان هذا الشعر يمثل سلوك ماكبث ، فمن المنطقى ، إذا ، أنه إنما شجع الزراعة والتجارة البحرية . ومعروف أن اسكتلندا ازدهرت اقتصادياً خلال هذه السنوات السبع عشرة ، وليس ثمة أي سبب لننكر على ماكبث هذا الفضل . فلو كان طاغية ، يملأ الجشع نفسه ، كما الخداع والجريمة ، لما كانت حالة البلاد الاقتصادية أفضل كثيراً من الإفلاس . حتى أعداؤه اعترفوا بأن اسكتلندا ازدهرت في عهده ، ووصفوا الثروة التي جمعتها البلاد .

وكان سخياً على الكنيسة ، وقد وزع أراضي كيركينيس على كهنة لوكليفن ، وفي ما بعد منحهم المزيد من الأراضي في بولفاين .

إذا كان اختبار الحكم المتسامح ، والقوى يكمن في أنه لم تغير فيه ثورات خطيرة ، وفي أن الشعب يساند الملك عندما تتعرض البلاد لغزو جيش أجنبي ، فإن هدوء حكم الملك ماكبث ، فضلاً عن الدعم القوى الذي منحه لاغزا سايوورد اسكتلندا السنة ١٠٥٤ ، يثبتان أن ماكبث كان ملكاً شديداً الشعيبة وناجحاً . ففي السنة ١٠٥٤ وضع التضامن في مملكته على المحك عندما زحف سايوورد إلى اسكتلندا . ليست أسباب الغزو واضحة . ربما كانت بسبب رفض ماكبث إظهار الولاء لوليام المعترف ، هذا الولاء الذي سبق وقدمه كل من دنكن ومالكوم إلى كانيوت . وربما كانت غزوة من أجل إعادة مالكوم ، ابن دنكن ، إلى العرش . حتى أنه قيل إن ماكبث استقبل وأوى متفيئين من بلاط إدوارد ، وكلف سايوورد معاقبة الملك الاسكتلندي لهذا العمل الشرير . كل ما نعمله ان سايوورد تصرف حسب أوامر إدوارد ، وأنه حمل معه بعض الجنود والحرس الملكيين .

شنت الغزوة برأ وبحراً ، وجرت معركة كبيرة في ٢٧ تموز في دنسينين هيل ، بالقرب من بيروت . وهزم ماكبث ، ولكن بلغ من دعم شعبه له في حربه أن جيش

سايورد شُلَّ تماماً ، واضطر الى الانسحاب دون تحقيق أي غاية حاسمة . وقد سايورد ابنه البكر في تلك العملية الحربية . وانسحب ماكبث شمالاً ، وحكم مدة ثلاثة سنوات أخرى .

في السنة ١٠٥٧ ، كان مالكوم المعروف بلقب كاغور (أي الغُرُور) ، قد بلغ سنًا تسمح له بأن يحارب شخصياً ، فحاول مجدداً تأكيد حقه في العرش . وتقابل مع ماكبث في معركة لمفانان ، في آبردين . فقتل الملك العظيم ، ووُقعت المملكة بين يدي المتصر مالكوم . ولا يمكننا الشك في أن ماكبث ظل مقداماً وباسلاً حتى النهاية . وورث مالكوم مملكة مزدهرة ومنظمة ، فبدأ بحكم شعب استعاد مجدداً كبرياءه الوطني .

إن الاسطورة التي خلدها شكسبير قد «أنزلت ظلماً لا يمكن اصلاحه بذكرى ملك عظيم ». ومِرْدَ ذلك ليس ، وحسب ، إلى حقد شخصي ، ولكن إلى الكره الحزبي ، ذلك بأنه كان في مصلحة المؤرخين اللاحقين أن يقدموا سلسلة من الملوك تامة . ومع أن ماكبث كان في الواقع ، في سلسلة الخلافة ، فهو لم يكن الحلقة التي أرادها هؤلاء المؤرخون . لأنه لا يسعهم أن يغفروا لماكبث أنه انتُخب ملكاً ، كأفضل امرئ مناسب لهذا العمل ، بدلاً من مجرد صبي أفسد بتأثير من إنكلترا ، ومن ذرية أب عاجز ، وفاسد . فإذا بهم يتبعون قضية اغتصاب للسلطة لم تحدث قط في الحقيقة . وقد رسموا صورة زائفة لحياته العملية ، مختلفة جداً عن الواقع ، وجمّلوها بالشعر ، والرومنسية ، والخرافة ، وهي مادة غالباً ما جاؤ إليها مؤرخو الأحداث الاخبارية ، الذين يحملون فأساً يشحذونها ، والذين يفضلون التحيز على المبدأ . وهكذا بات اسم ماكبث ، تاريخياً ، مرادفاً للعنف ، والقصوة ، والغش ، والجريمة .

يمكن أن يكون هناك أساطير قليلة بعيدة جداً عن الحقيقة . ولعل مأساة حياته الكبرى هي أن الخرافات ما تزال تُصدق ، إما لأن الواقع الحقيقية ليست معروفة وشائعة ، وإنما لأن الناس يفضلون مسرح شكسبير على مسرح الحياة الحقيقية . في أي حال ، تبقى الاسطورة برمتها تحريفاً فظيعاً للتاريخ .

إن الواقع ، كما نعرفها ، تبرّر تماماً الحكم الذي اطلقته السيدة كارمايل

ستويس ، صاحبة كتاب «ماكبث الاسكتلندي والانكليزي» : «إنه شهير كملك صالح ، مكرّم من الكنيسة ، ومحبوب من شعبه ، مرهوب الجانب من أعداء بلاده !»

## هل قُتل الأمير آرثر، دوق بريطانيا؟

إذا مات أمير شاب في ظروف غامضة ، وغالباً ما يتسبّب هذا الغموض عن عجز أو عدم رغبة في التحقيق بالواقع والتدقيق فيها ، فإن المؤرخين يبحثون عن شخص رهيب يمكن أن يكون قضى عليه ، أو لاً بين أنسبياته ، ثم بين حرسه . وعندما يتحقق ذلك ، يخترعون عدواً ، وإذا لم يكن ثمة أي دافع أو مناسبة ، فإنهم يخترعون هذين الدافع والمناسبة ، أيضاً . وتكون النتيجة عادة اسطورة رائعة ، وأساساً لرواية أو قصة فيلم جيدة . ولكنها ، أيضاً ، هراء تاريخي .

عندما أثبتت أن ابنَ الملك ادوارد الرابع (ادوارد الخامس ورشارد يورك قد صُرِعا في سجنهما ، في برج لندن في ما بعد) ، وخلفه بحق رشارد الثالث على العرش ، السنة ١٤٨٣ ، تجاهل المؤرخون التيودريون دليل اللاشرعية ، ولفقوا بعض التفاصيل عن الجريمة المزعومة التي ارتكبت في برج لندن ، وألقوا اللوم والتبعية على رشارد . ومعالجة موت آرثر ، دوق بريطانيا ، وابن دجيفري بلانتدجينيت (الأخ الأكبر لدجون) كانت شبيهة بها . ولكننا لا ندرى أن رشارد او دجون قضيا على ابنَ اخيهما . أما القضية ضد الملك دجون فنفيها أصعب ، ذلك بأن آرثر توفي في القسم الأول من حكمه ، في حين ان الاميرين في البرج كانوا ما يزالان حيين بعد معركة بوزويرث (حيث قُتل رشارد غيلا). وإن المرء ليحسب أنه كان هناك ما فيه الكفاية من الاغتيالات السياسية والدينية في كل جيل ، لارضاء كل روائي رومanticي ، أو مؤرخ خيالي ، دونما حاجة الى إضافة جرائم قتل منافية للطبيعة والعقل وغير ضرورية في الأسر المالكة .

أبصر آرثر النور عقب وفاة والده (في احدى المبارزات) ، في ٢٩ آذار ١١٨٧ .

وكان امه كونستانس ، ابنة كونان ، كونت بريطانيا ، ووارثته . وتوفي هنري الثاني سنة ١١٨٩ ، وبات آرثر ، مذاك ، حجر شطرنج مهمًا في اللعبة السياسية . وخلف رتشارد الأول هنري هذا ، ولم يكن له اولاد . وكان توفي اخوه الأصغر دجيفري ، وكان آرثر وارثه ، وكان دجون الأخ الأصغر . فإذا كنا نسلم بمبدأ الخلافة الوراثية الدقيق ، إذًا ، علينا الإقرار بأن آرثر هو وارث رتشارد ما دام هذا الأخير ظل بلا اولاد . إلا أن تدقيقاً في العادات والاعراف المعاصرة ستُظهر لنا أنه لم يكن ثمة اي نظام من هذا النوع ساري المفعول .

وعندما توفي رتشارد الأول السنة ١١٩٩ نتيجة الغنغرينا التي أصيب بها بسبب التهاب جرح ، خلفه دجون كملك على انكلترا دون اي قلق مادي . وسبعين أن البارونات كانوا يفضلون دجون ، ولم يفكروا حتى في آرثر كمنافس محتمل . واعترفت النورماندي كذلك بدمجون ، ذلك بأن البارونات النورمانديين اعتبروه واحداً منهم ، في حين كان آرثر أجنبى . ولكن نبلاء آنجو ، ومين ، وتورين في فرنسا ، اعترفوا بآرثر وارثاً ، وأعلنوا تأييدهم له .

وأرسلت والدة آرثر ابنها هذا لكي يحميه الملك فيليب الثاني الفرنسي ، الذي منحه لقب فارس ، ثم استولى على عدد من القلاع بحججة الاحتفاظ بها لهذا الفتى . وقلده رتبة دوق بريطانيا ، ومنحه بقية الأراضي الخاضعة لسيطرة رتشارد . وبعد بضعة أشهر بايع آرثر عمه دجون بريطانيا ومتلكات أخرى ، ولكنه بقي في رعاية الملك فيليب . وبعد سنة ، ثار بارونات بواتو ، كذلك ، على دجون ، وسارع فيليب الى وضع آرثر على رأسهم . وهبط دجون فرنسا ، طالباً مزيداً من مبايعة ابن أخيه له ، ولكن آرثر ردّ بمحاصرة قلعة ميرابو حيث كانت تقيم جدّه - ام دجون ، اليانور داكيتين . وكانت اليانور شغوفاً بدمجون ، وقد دعمته وأيدته في كل أزمة وثورة ، في حياته ، حتى وفاتها السنة ١٢٠٤ . وكانت فعالة بصورة خاصة ، في تشجيع دجون في نزاعاته مع الملك هنري الثاني . وكان يمكن أن تسقط قلعة ميرابو ، لو لم يفاجئ دجون القوات المهاجمة ، ويأسر آرثر الذي كان وضع في رعاية ولIAM دو براوز ، في فاليز ، ويُقال إنه عومل معاملة لطيفة . وفي السنة ١٢٠٣ ، سلم ولIAM هذا آرثر الى

دجون الذي أرسله إلى روان . وهناك توفي في وقت ما في مطلع شهر نيسان . ولما لم تُعرف طبيعة وفاته بالضبط ، فقد رُجح (أ) أنه قُتل و (ب) أن دجون هو المذنب ، سواءً أقدم على هذا العمل شخصياً وبيده ، أم بواسطة شخص آخر معهول .

أن يكون لفيليب الثاني الدافع والفرصة للتخلص من آرثر قضية تجاهلها أو لشك الذين يمكن أن يضيفوا هذه الجريمة إلى اللائحة الطويلة من الجرائم التي يزعمون أن دجون ارتكبها ، في حين يبدو أنه لم تخطر قط ببالهم إمكانية أن يكون ثمة انتشار أو حادث ما . ولم تُدرس بجدية قضية ما إذا كان دجون قد تخلص بالفعل ، من ابن أخيه ، فلأن ثمة مبرراً ما لذلك . ذلك بأن آرثر ارتكب خيانة بمحاجمته دجون في ميرابو وعقاب الخيانة هو الموت . وليس تلك أول مرة قاد فيها نسيب أحد الملوك ثورة ضد ملك . وإذا لم تكن المرة الأولى التي نال فيها نسيب العقاب عندما قُبض عليه .

إذا ، فهناك ثلاثة حلول بديلة لاختفاء آرثر ، لم تؤخذ في الحسبان . فالاتراحان الأول والثالث مقبولان ظاهراً ، ولكن لا يمكن إقامة الدليل عليهم . والاتراح القائل بأن الانتشار أو الحادث العرضي وارد ، يمكن أن يكون الحقيقة .

إذا اهتممنا بالنظرية القائلة إن آرثر قُتل على يد دجون ، فينبعي لنا ايجاد الدافع .

فليس ثمة فائدة في التمسك بالاعتقاد بأن الجريمة ارتكبت في سورة غضب لا سبيل إلى ضبطه أو السيطرة عليه . والدافع الوحيد الذي قُدم بجدية هو أن آرثر كان خصمًا لخلافة رتشارد الأول السنة ١١٩٩ في ممتلكاته في أنجور ، وقد جُزم بأن دجون اغتصب الارث «الشرعى» الذي هو من حق آرثر ، وعمل على قتله لإزالة نقطة بؤرية للثورة .

وقد لجأ المؤرخون التيودريون إلى مثل هذا السياق من الحجج بالنسبة إلى مقتل الاميرين في البرج المزعوم ، وقد ذكرت هذه الجماعة أن ثورة بكنغهام كانت حركة لإزاحة الملك رتشارد الثالث وإعادة الأخ الأكبر بين الاميرين إلى العرش . وكل حركات التمرّد التي قادها آرثر ، أو نُظمت باسمه ، أثارها ، كما سُنرى في ما بعد ، فيليب الثاني الفرنسي . إن السبب الذي قُدم قبلًا لم يكن له أي وجود ، بالفعل ، وسيُظهر ذلك كشف نceği لمشاكل خلافة رتشارد الأول .

إن مبدأ البكورة - أي خلافة الابن البكر ، الذي حمل معه حق خلافة الابن البكر لذلك الابن البكر ، بدلاً من الأخ الثاني ، لم تُعتبر قابلة للتطبيق بصورة عامة . فالقانون الاقطاعي اعترف حقاً بمبادئ خلافة كثيرة مختلفة ، أما الشعور العام في انكلترا والنورماندي لدى وفاة رتشارد ، فيمكن الاطلاع عليه من ترجمة وليام ذي مارشال (أحد الاوصياء على العرش في انكلترا خلال غياب رتشارد في الحملة الصليبية الثالثة) ، وكان مؤيداً قوياً لدجون .

كان وليام في روان عندما أُعلن نبأ موت رتشارد . فخفّ من فوره إلى هيوبرت ولتر ، كبير أساقفة كانتربري ، لمناقشة قضية خلافة الملك الراحل . وقد أورد كاتب السيدة دجون ديرلي ، موجزاً لهذه المناقشة ، نقله في ما يلي :

وليام : «ينبغي لنا اختيار أحد ليكون ملكاً عندما نستطيع إلى ذلك سبيلاً».

هيوبرت : «أنا موافق ، واعتبر أن آرثر الشاب ينبغي أن يكون الخلف».

وليام : «هذا لا يجدي . سيكون الأمر سيئاً بالنسبة إلى انكلترا ، لأن آرثر محاط بالخونة وأعداء انكلترا (أي فيليب الثاني الفرنسي) . وهو فوق ذلك ، متغطرس ، وسريع الغضب ، فإذا كنا سنتختاره ، فلا يمكننا أن نتأكد من أنه لن يصيب البلاد بأذى كبير ، لأنه لا يهتم بالإنكليز ، ما دام لا يعرف عنهم إلا القليل . أنا شخصياً أفضل دجون . إنه صاحب حق واضح ، بصفته أقرب إلى الأرض التي كانت لأبيه هنري وأخيه رتشارد ، ولذا ينبغي أن يكون مليكتنا».

هيوبرت : «أهذا حقاً ما تفضل له؟»

وليام : «أجل . إنه الصواب . ليس ثمة شك في أن حق الابن في أرض أبيه يتقدم على حق الحفيد».

هيوبرت : «لا يمكنني الموافقة على حجتك ، ولكن عليَّ أن أضيف أنك ستعيش لتندم على قرارك».

الواقع أنه لم يكن ثمة أي رغبة في انكلترا والنورماندي لتأييد مطالب آرثر ، وفضيل النبلاء في البلدين دجون ، مهما تكن آراؤهم الشخصية في سلوكه . وفضلاً عن ذلك ، عندما توفي رتشارد ، كان آرثر تحت تأثير فيليب الثاني الفرنسي ، وكان

في رعايته منذ زمن طويل . وكل إمكانية للخلافة بدلاً من دجون ، كان يمكن أن تضع سلطان امبراطورية آل بلانت جينيت عند قدمي ملك فرنسا . وهذا الخوف حثَّ رتشارد الأول على تبديل رأيه في نهاية حياته ، وإجبار نبلائه على القبول بـ دجون .

لقد أثار المؤرخون اعتراضًا على اسلوب المناقشة بين وليام ذي مارشال وهيوبرت ولتر وت نتيجتها . فقد أكدوا أن الرجلين أبدياً تجاهلاً تماماً للناحية القانونية من الخلافة . ولكن يبدو أنهما تجاهلاً حقيقة ان العادة التي كانت ما تزال في النورماندي آنذاك تقضي بأن الابن الأصغر كان ينبغي أن يكون الوارث الأقرب إلى وراثة والده بدلاً من ابن الأخ البكر الذي يكون قد توفي قبل والده ، في حين أن قانون الخلافة على العرش الانكليزي لم يكن قط محدداً بوضوح . لقد كانت تمرّ عبر حقبة من التغيير البطيء ، وحتى يتم توضيح ذلك ، كان من الطبيعي جداً التمشي على العادة القديمة . وكان الملوك الانكليز سكسون يُنتخبون هكذا دوماً ، ولكن الانتخاب كان ، عادةً ، يقتصر على الأسرة المالكة ، مع أن استثناءات جرت في انتخاب الملكين كانيوت وهارولد الثاني . وطبق الملوك النورمانديون عادات الخلافة التي كانت سائدة في دولتهم نفسها ، وفي قضية انتخاب هنري الأول ، أجبر البارونات على الاعتراف بابنه وليام وارثاً ، وبعد وفاة وليام على السفينة البيضاء السنة ١١٢٠ ، اضطروا إلى تأييد ماتيلدا ، ابنة هنري . ويتربع هنري الثاني على العرش لم يكن قد أُنسى بعد أي قاعدة واضحة للوراثة . ولم تظهر قط خلال حكمه ، على الرغم من جهوده لتوسيع ابنائه أثناء حياته ، وحتى السنة ١١٩٩ لم تكن قط قد أُنشئت .

إذا ما وضعنا جانب المسائل القانونية ، فإن هناك أسباباً وجيهة لماذا اختار البارونات دجون . فقد كان واحداً منهم ، بينما لم يكن آرثر كذلك . كان في الثانية والثلاثين في حين كان آرثر في الثانية عشرة . وكان صلب العزيمة قوي الإرادة ، مهما قيل غير ذلك فيه . وأخيراً ، كان آرثر تحت تأثير فرنسا ، عدوة انكلترا التقليدية ، ولم يكن قط مرحباً به ، فضلاً عن أنه سيصطحب جماعة من الأجانب ، كما لا يُستبعد .

وينبغي إضافة كلمة هنا حول الاعتقاد السخيف بأن الملك رتشارد الأول أراد أن يخلفه ابن أخيه . وفي طريقه إلى الأرضي المقدسة ، في الحملة الصليبية الثالثة ، عقد

رتشارد معاہدة مع تانکرید ، ملک صقلیہ ، تحدّث فيها عن آرثر کوارٹ له . ولكنه لم یصدر بعد ذلك اي اعلان محدد حول هذا الموضوع طوال حياته . وثار دجون على أخيه السنة ۱۱۹۴ ، ولكنهما تصالحا في غضون سنة . ثم نشب نزاع بسيط مجددًا السنة ۱۱۹۹ ، سرعان ما سُوِّي على الفور . ويذكر رودجر دو هوفدون ، المؤرخ الإخباري المعاصر ، ان رتشارد استدعى بعض مؤيديه الى سريره وهو مشرف على الموت ، وأعلن أن دجون هو وارثه ، طالبًا اليهم أن يُقسموا بين الولاء له . وكان في جملة الحاضرين آنذاك ولیام دو باروز ، وبیتر دو ستوك ، وجیرارد دو فرنیفال . ومن المهم ان نذكر ، أنه خلال حکم دجون ، منح مزيداً من الاراضی لیضیفها الى ممتلكاته الواسعة أصلأً ، وأصبح دو ستوك قهرماناً لقصر دجون ، وحصل دو فرنیفال على وارثة غنية زوجة لابنه .

ليس ثمة اي دليل على حدوث اضطرابات خطيرة في انكلترا الدی وفاة رتشارد . والخلافات الثانوية التي حدثت يمكن ان تكون من عمل المشاغبين المعادين الذين رأوا في الفترة الفاصلة بين موته وخلافة الملك التالي ، فرصة سانحة لخرق القانون . ولما عُرف مرض الملك ، ارسل مارشال من فوره علمًا الى دجیفری فتزبیر کبیر القضاة في انكلترا ، لكي يتأنب لخلافة دجون ، وقمع كل أعمال الشغب ، ومحاولة تسوية شکاوی البارونات المستائين . فقد كان هناك دوماً جماعات من الأقطاب غير الراضين في كل حقبة من التاريخ في القرون الوسطى . فأقبل دجون عندئذ الى انكلترا ، وتوج في ۲۷ أيار ، على يد کبیر الاساقفة ولتر ، وأصبح هكذا ملک انكلترا ، غير المنازع . وبعد حفلة التتويج مباشرة بات فتزبیر ایرل ایسکس ، ومارشال ایرل بیروک ، في حين عین ولتر في منصب قاضي القضاة . وسرعان ما بايع آرثر الملك دجون على برتانيا ، متخلصاً هكذا من اي سبب لازاحته عن ارض بیسط دجون عليها سلطانه .

ثم انه لم يكن ثمة اي اغتصاب للعرش ، ولم يكن ثمة اي دافع لازاحة آرثر بصفته مطالباً خطراً بالعرش . ولنفرض جدلاً أنه كان هناك شيء من ذلك ، فمن المستبعد ان يكون دجون أحمق الى درجة كبيرة لكي يؤجل التخلص منه الى ما بعد

ثلاث سنوات .

من العقبات التي ينبغي التغلب عليها في محاولة حل أسرار التاريخ ، طريقة الاستنتاج من الواقع الغربية التي يلجأ إليها المؤرخون عندما يجدون نقصاً في المعلومات الدقيقة أو روایات الشهود العيان للأحداث ، وهي الأحداث التي يحجبها بالتالي التسیان . وهناك حدود لما يمكن أن يبلغه الاستنتاج ، ومع أنه من المستحب دوماً تقديم النظريات ، أو الاقتراحات ، فليس من الصواب أن تعتبر هذه الاقتراحات وقائع راهنة . وفي ما خصّ اختفاء آرثر ، قال أحد المؤرخين إن العبارة الأكثر دقة وصحّة عما هو معروف ، هي من مؤرخ إنجليزي ، مؤدّاها أن آرثر قُتل من فاليز إلى روان بأمر من الملك دجون وأنه اختفى على حين غرة بعد فترة من الزمن غير قصيرة . وليس ثمة أي خلاف على ذلك ، لأنّ بالواسع اثباته . ولكن ما لم يثبت هو الطريقة الدقيقة للاختفاء ، ومن المستغرب أن نقرأ أبعد قليلاً في ذلك الكتاب نفسه : «من المؤكد أن آرثر قُتل إما ببناء لأمر من دجون ، او بيده شخصياً». وليس ثمة أي تفاصيل بين ذكر الاختفاء والقناعة بأن دجون قضى على آرثر . ليس هناك أي شائعات ، ومخاجر دامية ، ولا حبال ، ولا زجاجات سُمّ ، او حتى لطخات دم ، وليس ثمة أي أحداث يمكن أن تكون جرت بين تاريخ وصول آرثر إلى روان واللحظة الأولى التي عُلم فيها انه لم يعد حياً . وإذا لم يكن هناك تفاصيل ، فلا يسع المرء أن يتبعها ببساطة ، أو ان يقول «من المؤكد» انه قُتل .

ليس هناك ما يمنع المؤرخين من تقديم الاقتراحات ، شرط ألا ينقلها مؤرخون آخرون على علاتها ، او يترجموها إلى وقائع وحقائق . وبالواسع استخلاص بعض الاستدلالات التي يمكن ان تؤدي إلى استخلاص استنتاج كهذا ، ولكن الاستدلالات نفسها يمكن كذلك ان تؤدي إلى استنتاج آخر تماماً . ولا يستتبع اختفاء آرثر ، وانتشار الشائعات الفظيعة في الخارج في هذا الصدد ، أنه قُتل ، كما لا يستتبع كذلك ، أنه لم يُقتل . وهذا هو التمييز بين الاسطورة والتاريخ . وليس اختفاء آرثر ، بحال من الأحوال ، المثال الوحيد الذي مورست فيه مع التاريخ تجاوزات للحدود الطبيعية سخيفة .

ان الكاتبين اللذين يقدّمان ما يمكن أن يُعتبر رواية تفصيلية لموت آرثر هما ،الحوليّ (مؤرخ يسجل الاحداث عاماً فعاماً) مارغام ،وليم اوف آرموريكا . فالاول يخبرنا ان دجون قتل آرثر عقب العشاء بيده شخصياً ، وبعد ان شدّ صخرة الى جسمه ، قذفه الى نهر السين . وقد التقشه في ما بعد أحد الصيادين بواسطة شبكته ، وتم التعرّف اليه ، ودُفن سراً . أما الرواية الثانية ، فتبتعد قصة مؤادها أن دجون يصطحب آرثر ليلاً في قارب في نهر السين ، ويطعنه بالسيف ، ثم يجذف مسافة بضعة أميال ، ويلقي بالجسماني في النهر . وليس هناك اي إشارة الى تقديم دجون اي احتجاج على هذا النوع المحرّر من الاغتيال ! ومن الصعب أن نصدق أن دجون كان بواسطة القيام بذلك بمفرده ، ولعلّ النقطة الوحيدة التي يتافق حولها هذان المؤرخان الإنجليزيان هي المكان الذي حدثت فيه الواقعة ، اي روان . ورالف دو كوغشال ليس أكيداً ، بل يذكر وحسب أن فيليب ، ملك فرنسا ، كان سمع أن آرثر أغرق في نهر السين . واكثر غموضاً منه المؤرخ الإنجليزي الآخر رودجر دو وندوفر . فقد اختفى آرثر على حين غرة . ويضيف وليام اوف آرموريكا ان دجون كان في روان ، او قريباً منها ، قبل ثلاثة أيام من تاريخ الاغتيال المزعوم . وقد حدد هذا التاريخ على عدة صور : ٣ نيسان ، او ٤ منه ، او ٥ منه ، «يوم الاثنين ، الخميس» ، او «قبل عيد الفصح ، وحسب» ، السنة ١٢٠٣ . كان دجون هناك ، ولكن ذلك لا يثبت شيئاً .

هناك أسباب وجيهة للاعتقاد بأن البارونات الإنكليز كانوا يحثون دجون على إسكات ابن أخيه ، لأنـه - على ما يقولون - لن يتوقف البريطانيون عن الثورة ما دام لدى الملك فيليب الفرنسي مثل هذه الاداة لقيادتهم . وهناك طرق مختلفة ، غير القتل ، للإسكات ، وشلّ مصدر أذى دائم ، من مثل السجن ، أو التشويه ، أو النفي . ولعلّ هناك بعض الحقيقة في القصة التي مسرحها شكسبير في ما بعد ، ومفادها أن هيوبرت دو برغ ، ياور الملك دجون ، أوفد الى روان لسمّل عينيّ الأمير ، وجعله هكذا غير ذي فائدة بالنسبة الى فيليب ودجون . ولم يكن التشويه ممارسة غير مألوفة في تلك الأيام ، وكان قبل قرن من الزمن يعتبر عقاباً لكثير من الجرائم ، وكان وليام الفاتح يفضل دوماً التشويه على القتل . ولا ندرى ما اذا كان برغ قد نفذ الأمرام لا .

وقد أعلن بريغ بعد ذلك بقليل أن الفتى آرثر توفي وهو يقوم بسميل عينيه . وقد أثار ذلك سخط سكان بريطانيا ، وأقسموا بآلا يدعوا دجون ينعم بالراحة والهدوء في ما تبقى من حياته . وكان غضبهم من الحدة والشدة بحيث شعر هيوبرت بأنه مجر على الاعتراف بأنه إنما اخترع القصة ، في النهاية ، وأن آرثر ما زال حياً ، ولم يُمس بأذى . عندها يعتقد أن دجون تولى الأمر بنفسه ، وقد قتل ابن أخيه عقب نقله من فاليز إلى روان .

وذكر بعض المؤرخين ان الملك فيليب ، نزولاً عند طلب بارونات بريطانيا ، استدعي الملك دجون للمثول أمام نبلاء البلاد ، والرد على استئلة تتعلق بما حدث لآرثر .

وأرسل الاستدعاء لكي يقدم دجون ابن أخيه حياً ، أو لكي يحاكم بتهمة القتل . ويعتقد أن هذه المحاكمة تمت قبل عيد الفصح ، وهو تاريخ اختفاء آرثر . وتجاهل دجون الاستدعاء ، وحكم عليه غيابياً بالموت ، وصودرت أراضيه وألقابه في فرنسا . وأعلن فيليب السنة ١٢١٦ أن دجون قتل آرثر ، مضيقاً أنه سبق أن استدعي للمحاكمة . ولما لم يذكر فقط أن دجون قد كذب الشائعة ، فقد اعتبر حينما أنه مذنب ، وتحولت الحكايات التي كانت في البدء ثرثارات ، إلى اسطورة هائلة ومخيفة ، دون معظمها على أنه تاريخ . وسرى أنه لم تجرب مثل هذه المحاكمة .

هناك نقاط عده بالنسبة الى قصة اختفاء آرثر ينبغي تفحصها ودراستها قبل استخلاص أي استدلال كان . أولاً ، لقد رأينا أن هيوبرت لما أعلن كذباً أن آرثر قضى نتيجة التشويه (رالف دو كوغشال) ثارت ثائرة البريطانيين . وبلغت حدة غضبهم أنه سارع الى سحب أقواله . وبذا عملاً أحمق تماماً ، من جانب دجون ، آنذاك ، بعد أن تبيّن ميلاً من البريطانيين الى الغضب بسبب مصرع الامير الفتى المزعوم ، أن ينفرد بكل هدوء ما أخفق هيوبرت فيه . ثانياً ، إذا كانت قصة هيوبرت صحيحة ، فإنها تكون قد جرت في نهاية السنة ١٢٠٢ ، ذلك بأن دجون نقل آرثر الى فاليز في كانون الثاني ١٢٠٣ . ويزعم أن آرثر قُتل في نيسان ١٢٠٣ . فما اسباب ابقاء الفتى مسجونة طوال ثلاثة أشهر ، ثم التخلص منه فجأة في عيد الفصح ؟ فالسجن المحكم ، مضاف اليه كره

الموت كانا كفيلين بإسكات آرثر ، وهو المطلب الأساسي للبارونات الانكليز . ولم تكن المذبحة ضرورية ، فضلاً عن كونها عملاً جنونياً . وإذا كانت تلك التوارييخ صحيحة ، فإن فترة الأشهر الثلاثة عندئذ تفسير لها بصورة مقنعة أكثر من ذي قبل . ولكن اذا كانت خاطئة ، فما مبلغ صحة التفاصيل الأخرى التي قدّمت حول المصرع من المؤرخين أنفسهم الذين شوّشوا عامل الزمن؟ وثالثاً ، يُعتقد أن محاكمة دجون غيابياً المزعومة ، تمت بُعيد عيد الفصح . غير أن رالف دو كوغشال ودو لайл ، في كتابلوغه عن أعمال فيليب الثاني الفرنسي ، يؤكدان ان فيليب كان يجهل ما اذا كان دوق بريتانيا كان حياً او ميتاً - وكان ذلك بعد عيد الفصح بسبعة أشهر ، السنة ١٢٠٣ . ويعتقد رالف دو كوغشال ان المدة كانت اكثر من سنة . وهذا ينفي الاقتراح القائل بأنه كان هناك محاكمة مبكرة ، ويفسر لماذا شنَّ فيليب الحرب على النورماندي في نيسان ١٢٠٣ ، ليس من أجل الثارملوت آرثر ، بل من أجل التوسيع الإقليمي . وينبغي أن نتذكر ان فرنسا وانكلترا كانتا على عداوة في ما بينهما منذ سنوات عدة . وأخيراً ، كان في مصلحة دجون - على افتراض أنه علم ماذا حلّ بآرثر- البقاء على الواقع سرية ، والسماح بانتشار الشائعات الفظيعة ، لأن لا البارونات البريتانيون ، ولا الملك فيليب الثاني الفرنسي ، سيشنون الحرب لمجرد الانتقام لمصرع الامير المزعوم ، عندما يكون هذا المصرع ، في الحقيقة ، موضوع ثرثرة !

من الممكن أن يكون فيليب قد نوى اجتياح النورماندي قبل نقل آرثر من فاليز إلى روان ، وأنه كان يتظاهر وحسب لإزاحة آرثر عن المسرح السياسي . فلما اخترف آرثر ، دون أن يترك أي دليل على القضية ، كان من المناسب لفيليب أن تذيع الشائعات حول المصير . فمثل هذه الشائعات لا تُضعف وحسب وضع دجون كثيراً في فرنسا ، بل إنها تطلق الحرية التامة لفيليب في بريطانيا . ومن هنا ، يكون موت آرثر ، إذاً ، العنيف ، في مصلحة كل من فيليب ودجون معاً ، إذا لم يكن في مصلحة فيليب بصورة أكبر . ولكن هذا الخلط من الجدل لا يمكن مواصيته أكثر من ذلك ، لأنه ليس ثمة أي دليل أو اقتراح في أي من التواريχ او الوثائق المعاصرة ، بالنسبة الى

صلوة فيليب في قضية اختفاء الامير الدمية السيني الطالع من قلعة روان .

ويعزل عن التفاصيل المثيرة ، ولكن البعيدة الاحتمال ، عن هذا المصرع ، كما قدّمها مؤرخون عديدون ، هناك نظريتان تستحقان الدراسة والتفحص . فما ثيو باريس ، في كتابه « تاريخ انكلترا » (نشر بعد نحو خمسين سنة من هذا الحدث) يسجل أن أصدقاء الملك دجون عرفوا بعض الواقع ، وكانت روایتان تتناولان . فقد توفي آرثر إما بالسقوط من قمة قلعة روان ، في محاولة للهرب من السجن ، وغرق في النهر ، وإما بسبب المرض الذي أصابه من فرط الحزن العميق . الرواية الأولى أخذ بها شكسبير ، إن لم يكن بحرفية كلماتها ، فعلى الأقل بالتلخيص . والرواية الثانية هي سبب ممكّن للموت ، ولكنها تبدو بالآخر مشكوكاً فيها . فملوت حزناً هو النهاية المثلثي لحكايات الابطال الاسطوريين . إلا أن ما نعلمه عن شخصية آرثر ، يجعل ذلك غير محتمل . ويستحق اقتراح الانتحار الدراسي ، لأنه اذا ما كان رمي بنفسه من أعلى القلعة ، فإن ذلك يرتبط بإحکام بقضية العثور على جثمانه في نهر السين ، وقد اشتبه بالغرق . ولا يغيرين عن البال أنه خلل التفاصيل المثيرة ، ولكن الخاطئة ، عن المصرع ، فإن الاشارة الى العثور على الجثمان في النهر ، تبرز دوماً .

إن نظرية الحادث لهي أفضل من نظرية الانتحار ، ذلك بأنها تبدو متناسقة مع شخصيته . إن شاباً متعرضاً يُتُنطر منه ان يقوم بمحاولات للهرب بدلاً من الاستسلام الى مشاعر الرثاء الذاتي . فقد كان ممكناً ، في اي وقت ، أن يستولى فيليب الثاني على القلعة ، وقد حدث ذلك ، بالفعل ، بعد ذلك بسنة (٢٤ حزيران ١٢٠٤) ، ولذا كان يُستحسن إما التعلق بالحياة ، او محاولة الهرب ، بدلاً من النحو والهزال .

وهذا ما كتبه هولنشيد ، في كتابه التاريخي الضخم : «والآن ، لدى التحدث عن نهاية آرثر ، يقدم الكتاب تقارير قوية . ولكن ، مع ذلك ، فإن الأمر المؤكد أنه في السنة التالية ، نُقل من فاليز إلى قلعة روان . بعضهم كتب يقول إنه حاول الهرب من السجن فتسلىق جدران القاعة ، وسقط في مياه نهر السين ، وغرق . والبعض الآخر كتب يقول إنه من فرط الحزن والضنى ، هزل ومات من مرض طبيعي . وحامت الشبهات حول الملك دجون ، ولكن ، هل له ضلع في ذلك ، ام لا ، الله أعلم ! ومع

ذلك ، لكم عامل ابن أخيه بقسوة ، وقد أطلق سراح العديدين من أولئك اللوردات الذين أسروا معه ، وهم هيولوبران ، وجيفري دولوزينيان ، وغيرهم . . .

عندما فك دجون الحصار عن قلعة ميرابو ، وفاجأ القوة المهاجمة ، أسر ، مع ابن أخيه ، كلّاً من هيولوبران ، آندرود شافيني ، البارون سافيرييك دومانيلون ، ريموند دوتوار ، وجيفري دولوزينيان ، وجميع هؤلاء الأسرى أطلق الملك دجون سراحهم في ما بعد ، ودخل سافيرييك في خدمته ، وظل وفيّاً له طوال حياته .

من المستحيل اتهام دجون بقتل ابن أخيه ، الأمير آرثر ، دوق بريتانيا ، لأنّه ليس ثمة أي دليل موثوق به لإثبات مقتله . فإذا ما أخذنا بعين الاعتبار كل التغرات والمتناقضات في الروايات حول هذا العمل المزعوم ، وعندما نذكّر أن فيليب الثاني الفرنسي كان كذلك معيناً ، كذلك ، بتديير موت آرثر ، عندها لا يعود ثمة أي قضية بحقّ ملك إنكلترا . فهل مات آرثر نتيجة حادث ، أو نتيجة الانتحار ؟ - لن يعرف ذلك أبداً . ولكن الواقع يبدو أنها تقترح أن السبب الأول هو الحلّ المعقول القابل للتصديق !

## من قتل الأميرين في برج لندن ؟

يقول الكاتب المؤرخ ماركهام في كتابه «الملك رتشارد الثالث : حياته وشخصيته» :

«حكمت سلالة بلانتدجينيت انكلترا أكثر من ثلاثة قرون ، عندما سقط الأخير في هذا السباق الملكي في ساحة المعركة في بوزيرث . وتحت حكم آل آنجو ، انصهر النورمانديون والسكسون معاً . وتعتبر انتصارات آل بلانتدجينيت أكثر تقاليد الشعب الانكليزي مجدًا وشهرة . وقد تكللت هامة آخر افراد هذه الأسرة المالكة بهالة من الرومنطية ، بالطبع ، ذلك بأنه كان الملك الانكليزي الوحيد منذ الغزو النورماندي الذي سقط وهو يحارب بشهامة ورسالة في سبيل تاجه وبلاده ». »

أمضى رتشارد الثالث (١٤٥٢-١٤٨٥) - الذي حكم انكلترا من السنة ١٤٨٣ إلى ١٤٨٥ - السنوات الثلاثين الأولى من حياته متميزة بالشرف . كان فارساً مغواراً ، وقديراً كقائد عسكري . وفي فرنسا حافظ على شرف بلاده ضد الجماعة الفاسدة التي كانت تحيط بأخيه ادوارد الرابع . وكان إدارياً حازماً في منطقة المستنقعات الشمالية ، وكان أول من أدخل نظام الخدمة البريدية بواسطة الخيول التي كانت تُستبدل في محطات معينة بسوها لأخذ قسط من الراحة . وكان يتمتع بشعبية في البلاد بأسرها حتى إلى يوم وفاته ، وكان محبوباً بخاصة في الشمال . ولما بلغت انباء وفاته يورك ، غرق السكان في حزن عميق . وقد دوّنت هذه العبارة في سجل المدينة : «هذا اليوم كان الملك رتشارد الراحل يحكمنا برحمته . . . قُتل غيلة . . . ولا شفقة ، لفطرط ألم هذه المدينة ». »

أحب رتشارد بلاده . كان حازماً في سحق حوادث العصيان المسلحة ، ولكنه

كان متسامحاً مع الشوار الى درجة التعقل ، في حين ان سخاءه على أسر العصابة المجرّدين من حقوقهم المدنية لامثل له في التاريخ الانكليزي ، ولا يماثله في السماحة الا يوليوس قيصر .

ويعتبر برمانه أفضل برمان عرفته انكلترا منذ عهد الملك إدوارد الثالث . وقضى على الفساد في الدوائر الحكومية ، ورفض المبالغ المالية التي كانت تُقدّم اليه ، وسعى دوماً الى توفير الرفاهية لشعبه . وأبدى اهتماماً خاصاً بالشؤون القانونية ، وغالباً ما كان يحضر جلسات «محكمة النجمة» حيث كان يبدي رأياً في القضايا القانونية . وهذه المحكمة كانت تلتئم وتتصدر احكامها دون هيئة محلفين ، وقد عُرفت بمداواتها وتحقيقاتها الاحتياطية . وعرفت بهذا الاسم ، ربما ، لأنها كانت تعقد في قاعة في قصر وستمنستر ، كان سقفها مزخرفاً بالنجوم . وقد ألغتها البرلمان سنة ١٦٤١ . وانشأ رتشارد نظام الكفالة للمسجونين ، وأمر بتدوين كل قوانين انكلترا بالانكليزية للمرة الأولى في التاريخ ، وحمى شعبه من مظالم المحاكم الخاصة بالبارونات .

وشجع رتشارد التجارة ، وخصوصاً المصايد حول آيسلندا . وكان يتمتع بشعبية في ايرلندا ، حيث كان حالفه النجاح ، وأبدى الكثير من الحكم في سياساته الخارجية ، بتوسيعه السلام مع اسكتلندا ، وإقامة علاقات ودية مع اسبانيا .

وكان ملكاً ذا ذوق أدبي ، وراعياً للكاتب والطابع الشهير كاستون الذي قدم اليه أولى مطبوعاته بالعبارة التالية : «الى سيدى ومل يكن الهيب ». وقد أسس «كلية ابتكار (وصنع ومنح) شعارات النبلة وتحقيق الأنساب وتدوينها» ، وشجع إقامة المراكب والمهرجانات جملةً ، وكانت حفلة تتويجه أفضل مثال نابض بالحياة على ذلك .

وكان متديناً ورعاً ، وقد سعى دوماً الى تعزيز الاخلاقيات في ما بين رجال الدين . ونُظهر بيانته ورسائله - وال الاولى منها تتجاوز الألفي رسالة عدّاً ، أنه كان يرغب في الحصول على مشورات شعبه ، وتوجيهاته كلما أمكن ذلك . وكانت إدارته أكثر الإدارات إنسانية منذ عهد الملك ألفريد الكبير ، ولم يكن يُفسد لها تأثير سياسة القوة الإيطالية التي كان خلفاؤه يسترشدون بها بشكل واضح . ويقول ماركهام : «إن الصورة الحقيقة لآخر ملوكونا من أسرة بلا تدجينيت هي مرضية عندما يُزال ما تراكم

فوقها من كلام تافه وقدر عبر قرون من الافتراء وتشويه السمعة . »

اُتهم رتشارد بسلسلة من الجرائم البشعة ، ولعن الخلف اسمه ، وتباري المؤرخون في ما بينهم في تكديس الخزي والعار على ذكره . وينبغي فحص هذه الاتهامات بدقة وعن كثب ، ذلك بأن أهم نقطة ينبغي فهمها ، منذ البدء ، هي أن خليفة هنري السابع لم يكن له أدنى حق شرعي بالتربع على العرش . وكان حتماً أن يسوق هنري تيودر اتهامات فظيعة ضد سلفه ، وكان ضرورياً ألا يستطيع أحد أن يدحضها . والكتاب الوحيدين إذاً ، الذين سُمح لهم بكتابة الهراء الذي سُمي تاريخاً ، كانوا أولئك الذين استخدمهم هنري نفسه ، أو كانوا متعاطفين مع قضيته . وقد مضى أكثر من مئة وخمسين سنة قبل أن يُسمع رأي الطرف الآخر .

من هم الثقات الذين يرتكز على شهادتهم جرم رتشارد الثالث؟ إنهم برنارد آندر ، وبوليدور فرجيل ، والكاردينال مورتون - وهم جميعاً كانوا في خدمة هنري تيودر . وتقبل راوس وفيبيان رعاية هنري . وكان «تاريخ رتشارد الثالث» الذي نشره غرافتون السنة ١٥٤٣ - وعُزي إلى السر توماس مور - من وضع مورتون على وجه التاكيد ، تقريرياً . وقد ذكر السر جورج باك ، أول المدافعين عن رتشارد أن السر توماس هوبي أخبره أنه رأى النسخة الأساسية من الكتاب ، وقد وضعها مورتون باللاتينية . ويبدا هذا الكتاب بوفاة ادوارد الرابع ، وينتهي فجأة لدى وصول رتشارد إلى العرش . ولذا ، لا يمكن أن تكون تفاصيل مصرع الاميرين في برج لندن قد كتبت بيد مورتون ، بل يبدو من الأدلة أنها أضيفت بناء على تعليمات هنري الشخصية . وقد أبرز بايكون ذلك ولم يكن صديقاً شخصياً لرتشارد ، وذلك لما وجد إشارات في الكتاب إلى أحداث جرت بعد وفاة مورتون السنة ١٥٠٠ . ولكن لما كان هذا التاريخ المزعوم من وضع مور ، فقد اعتُبر صحيحاً ومستقيماً ، في حين أنه ليس إلا مجرد دعاوة . وقد شرع هنري في مهمة الطعن والمدح برتشارد في وقت مبكر جداً من حكمه . وكان ذلك ضرورياً ، لأن القبول العام بما نسب إلى رتشارد من شرور وأذى سيعزّز وضعه . كان أكثر المؤرخين المأجورين وأشهرهم رجلاً من إيطاليا ، أصله من بلدة أوريينو ، ويدعى بوليدور فرجيل - وهو شخصية تختلف كثيراً ويشكل غريب عن اسم

شخصية سميّة اللاتيني الشهير الشاعر فرجيل . اوفره البابا الكسندر السادس الى انكلترا ، فكّلّفه هنري مهمة كتابة تاريخ الاحداث الاخيرة ، ووضع تحت تصرّفه الكثير من الوثائق الرسمية .

وبرهن فرجيل عن أنه اداة ملائمة ، وكوفئ بسخاء . وقد تسلّم ، في جملة الانعامات التي تسلّمها رئاسة شمامسة ولز . وكان رجلاً عالماً ، ولكنه لم يتربّد في تشويه الحقائق في سبيل ارضاء سيده . وروايته اغتيال ادوارد لانكستر الصغير ، حسب تعبيّره ووصفه ، ايطالية بحتة . فقد يكون خُصّ باستخدام كل الوثائق والرسائل الرسمية ، ولكنه أتّلف معظمها . وقد شاهده كايوس ولا بوبيلينير ، يحرق حمولات شاحنة من الوراق ، ولكن من حسن الطالع ، أن وثيقة واحدة مهمّة بقيت من هذه المحرقة . وهي المسودة الفعلية «تيلولوس ريجيوس» ، وهي ايضاح كامل لحق رتشارد القانوني بالعرش .

عرف دجون راوس ، وهو كاتب آخر متّملّق لهنري ، رتشارد شخصياً ، إلا أنه عندما كان يرى مناسباً ، كان يقدس المفاسد والمظالم على ملكه ، وقدّم في ما بعد كتابه «تاريخ الملوك الانكليز» الى هنري . وكان قد جهز مخطوطتين تصوّريتين ترحيبيتين لنسب ايرلات أسرة وورويك ، في وقت ما خلال حكم رتشارد . في النسخة الأولى ، وصف رتشارد بما يلي : «... ملك قدير ، وسيد طيب بصورة خاصة . هو الملك رتشارد الثالث المتّصر . في مملكته كان يُطْرَى لأنّه كان يُعَاقِب مُخالفي القوانين ، وبخاصّة ماضطهدي عامّة الشعب ، ويعزّز اولئك الذين يتمتعون بالفضيلة ، فضلاً عن أن قيادته الحكيمّة اكسبته الشر العظيم وحبّ رعاياه جميعاً ، الفقراء والاغنياء على السواء ، وتحمّل الكثيرين من سكان البلدان الأخرى .» وقد بقيت هذه المخطوطة غير مشوّهة في «كلية شعارات النبالة» ، ولكن النسخة الأخرى احتفظ بها راوس . فلما سقط رتشارد في بوزويرث ، حذف هذا المقطع من هذه النسخة ، وانتزعت صورتا الملكين اليوركيين ، وسلّب تاج الملكة آنّ نيفيل . ومعظم شهادة راوس غير جديرة بالاعتماد ، ولكنه غالباً ما يهمّ إبراز الحقيقة حول نقاط يرى المؤرخون من معاصريه صعوبة في إخفائها .

وأصدر روبرت فيبيان تاريخاً كانت متعته الرئيسية فيه تزوير التواريخ . وقد استخدم فرجيل عمل هذا النصير التيودري ، ويمكن الحكم على قيمته من مجرد معرفة أن مورتون ساعده في كتابته .

سيظهر معنا ، في ما بعد ، أن كلاماً من مورتون ، وفرجيل ، وفيبيان ، وراوس كانوا مضليلين ومتضاريين ، ولكن التاريخ الذي وضعه راهبان في دير كرويلاند - أحد المراجع الوحيدة المستقلة للمعلومات عن تلك الأيام - يتضمن قدرًا من الدقة لا توجد لدى سائر الكتاب بالنسبة إلى التواريخ المؤدية إلى اعتلاء رتشارد العرش . وقد زور مورتون وأدواته هذه التواريخ دون إبطاء . ولكن ، حتى هذا التاريخ ، فيه ثغرات ، ويدرك في أحدي الحالات أن رتشارد توج مرة ثانية في يورك . وقد أبطل هذا القول المؤرخ ديفيس ، عقب تنقيبه في سجلات يورك . ويدرك التاريخ هذا أيضًا شائعة راجت أثناء حكم رتشارد ، مفادها أن الاميرين قُتلا . ولكن ، لما كانت هذه الشائعة بدأت بواسطة العميل الأجنبي لورتون ، ويُدعى مانتشيني ، المشكوك كثيراً بصدقه ، وبالواسع تجاهلها . وربما كان مورتون نفسه على مقربة من كاتب التاريخ عندما أقحمت الشائعة . فإذا كان الأمر كذلك ، فإن الشك قد حل . ونعرف أن مورتون كان يقيم بالقرب من إللي وكرويلاند عقب هربه من السجن في قصر دوق بكنغهام في بريكنوك .

كان دير كرويلاند ملجأً ملائماً لمورتون ، والمؤرخ كان كالطين بين يدي الخراف . مثال ذلك أن الراهب أخبر أن إليزابيث ، ابنة الملك إدوارد الرابع ظهرت في البلاط مرتدية ثوباً يشبه ثوب الملكة (آن نيفيل) . ولكن ، بدلاً من استخلاص التبيجة الطبيعية ، وهي أنها إنما أقرضت هذا الثوب للمناسبة ، ترانا تتعرض لاشارات مشؤومة تفيد أنها أصبحت منافسة للملكة على حب رتشارد . وكان مكناً أن يجد مورتون مثل هذا الرجل المستعد لتقبل كل شيء .

تلك هي الشواهد المُساقة ضد رتشارد . علينا أن نختبر حقيقتها . فقد أرادوها حسبما يشهون ، وعلى طريقتهم الخاصة ، ولم يكن بوسع أحد تسفيهها ، لأن عقاب ذلك كان إنما السجن أو الموت . وهكذا سُوّدوا ذكري الملك رتشارد الثالث إلى الأبد .

يُكمن الدليل الذي هو في مصلحة رتشارد ، بصورة رئيسية ، في التناقضات ، والثغرات غير المعمدة في النقل الصحيح للواقع ، وقمع المفترين من أنصار آل تيودر . ويمكن العثور على بعض الأدلة من وثائق معاهدة قليلة لم تُتلف . وفضح تزوير التاريخ يتم بسهولة بمراجعة مخطوطات هارليان ، وفي المجلد ٤٣٣ منها كل الأوراق الرسمية التي اقترنـت بخاتم الملك خلال حكم رتشارد . وقد كونـ هذه الجموعة قاضـي القضاة لدى رتشارد ، الدكتور راسل ، فـكانت كـنزـاً حـقيقـياً منـ البيـنـاتـ التي لا تـدفعـ . وهناك ايـضاً مـخطـوطـاتـ البرـلـانـ المـعاـصـرـةـ ، وـمـخطـوطـاتـ باـنـتـ ، «ـوـفـيدـيرـاـ» لـراـيمـرـ .

إن أول زعم ضد رتشارد هو انه كان بشـعاً إلى ابـعدـ حدـ ، والـسبـبـ فيـ هـذـهـ التـهمـةـ واضحـ - ذلكـ بـأنـ المسـخـ فيـ شـكـلـهـ البـشـريـ مـفـروـضـ أـنـ يـرـتكـبـ الجـرـائمـ المعـزوـةـ إـلـيـهـ أـكـثـرـ مـنـ الشـخـصـ الطـبـيعـيـ . وـيـطـلـبـ إـلـيـنـاـ انـ نـصـدـقـ أـنـ رـتـشـارـدـ وـكـدـ بـعـدـ أـنـ بـقـيـ فيـ رـحـمـ أـمـهـ سـتـينـ (ـعـلـىـ حـدـ قـوـلـ رـاوـسـ)ـ ، وـأـنـ خـرـجـ بـقـدـمـيـهـ أـوـلـاـ (ـمـورـتـونـ)ـ ، وـأـنـ أـسـنـانـهـ كـانـتـ مـكـتـمـلـةـ ، وـشـعـرـهـ يـصـلـ إـلـىـ كـتـفـيـهـ ، فـضـلـاًـ عـنـ كـوـنـهـ أـحـدـبـ ، وـلـهـ ذـرـاعـ مـشـلـوـلـةـ (ـرـاوـسـ)ـ .

الـحـقـيقـةـ أـنـ رـتـشـارـدـ أـبـصـرـ النـورـ بـعـدـ ثـلـاثـ سـنـوـاتـ مـنـ مـولـدـ جـورـجـ ، دـوقـ كـلـارـنسـ ، السـنـةـ ١٤٥٢ـ ، وـكـانـ هـنـاكـ طـفـلـ آـخـرـ ، تـومـاسـ ، بـيـنـ الـاثـنـيـنـ . وـقـدـ أـكـدـ ثـلـاثـةـ مـنـ مـشـاهـيرـ عـلـمـاءـ التـشـرـيـحـ أـنـ الـظـواـهـرـ الـجـسـديـةـ الـمـذـكـورـةـ مـسـتـحـيـلـةـ . فـضـلـاًـ عـنـ أـنـ السـرـ جـورـجـ بـاـكـ يـسـجـلـ أـنـ قـابـلـ المـقـرـنـ سـتوـ ، الـذـيـ تـحـدـثـ إـلـىـ شـيـوخـ عـرـفـواـ رـتـشـارـدـ ، فـأـكـدـواـلـهـ أـنـ كـانـ طـبـيعـيـاـ مـنـ النـاحـيـةـ الـجـسـديـةـ . وـفـيـ الرـسـوـمـ الـمـوجـوـدـةـ لـهـ لـيـسـ ثـمـةـ أـيـ عـلـائـمـ لـلـتـشـوـيـهـ ، بـاستـثـنـاءـ أـنـ اـحـدـيـ كـتـفـيـهـ أـدـنـيـ قـلـيلـاـ مـنـ الـأـخـرـيـ . وـفـيـ طـبـعـةـ مـدـوـنـاتـ يـورـكـ ، يـُظـهـرـ دـيفـيـسـ أـنـ رـجـلـاـ مـثـلـ أـمـامـ الـقـضـاـةـ فـيـ يـورـكـ السـنـةـ ١٤٩١ـ ، بـعـدـ وـفـاةـ رـتـشـارـدـ بـسـتـ سـنـوـاتـ ، لـأـنـهـ أـثـارـ شـغـباـ فـيـ الـمـدـيـنـةـ عـنـدـمـاـ أـشـارـ إـلـىـ رـتـشـارـدـ بـقـوـلـهـ «ـذـلـكـ الرـجـلـ الـمـنـحـنـيـ الـظـهـرـ»ـ . «ـوـلـمـ يـتـسـبـبـ فـيـ التـحـاـلـلـ غـيرـ الـمـعـقـولـ عـلـىـ رـتـشـارـدـ مـثـلـ الـانـطـبـاعـ عـنـ بـشـاعـتـهـ الشـخـصـيـةـ»ـ .

ثم إن رتشارد متهم بقتله ابن هنري السادس الوحد، إدوارد أوف لانكستر . في تاريخ فليتوود (مخطوطات هارليان رقم ٤٣٥) أورد الشاهد العيان رواية عن معركة تيوكسبيري (٤ أيار ١٣٧١)، تنتهي بهذه الكلمات : « وقد أسر إدوارد وهو هارب إلى المدينة ، وُقتل في ساحة المعركة ». وقد أرفق ذلك بصورة حصان راقع ، وفارسه يتلقى الضربة المميتة ، وقد نشرت الصورة في مجلة « آركيولوجيا » - ٢١ ، الصورة رقم ٢ . وكل الدلائل المعاصرة تدعم ذلك . ولكن ما هي الروايات التيودورية؟ يقول فيبيان إن إدوارد قُتل على يد خدم إدوارد الرابع . ويضيف فرجيل اللمسة الإيطالية بتأكيده وجود كل من كلارنس وغلوستر . ويجعل هولنشيد رتشارد يضرب الضربة الأولى . لكم باستطاعتهم أن يكونوا كاذبين ! ومن المذهل أن يوافق آندر المعاصرين في زمانه ، في حين أن راوس ومورتون يلزمان الصمت . والحقيقة ان صمت مورتون يفجّر الحكاية ، لأنّه كان حاضراً في معركة تيوكسبيري . بعض المؤرخين يقولون ان رتشارد قتل هنري السادس .

هذا سخف ! ذلك بأنه ليس ثمة أي دليل على أن هنري السادس مات غيلة . وهناك مدونات تفيد أن رتشارد كان في لندن يوماً واحداً وحسب ، في أيار ١٤٧١ ، وأن ذلك اليوم كان الحادي والعشرين منه . وعلى ذلك كان يتحتم على المؤرخين التيودوريين القول ان هنري قُتل في ذلك اليوم . ولكن بالواسع تسفيه ذلك بمراجعة الحسابات الخاصة بإعالة هنري في أيامه الأخيرة في برج لندن . ويمكن الرجوع إلى هذه الحسابات في كتاب « فيديرا » لرايمير . وقد عارض فرجيل معاصريه عندما اعترف بأن الوفاة حدثت في نهاية أيار .

ولم يكن هنري عجوزاً ، ذلك بأنه كان في السابعة والأربعين ، ولكنه كان في معظم حياته عليلاً جسدياً وعقلياً - ومرضه العقلاني كان إرثاً من جده الجنون شارل السادس الفرنسي . ولقد طعنه أحد السفاحين خلال عودته القصيرة إلى العرش السنة ١٤٧٠ . ولم تكن فترة نقاهته ، على ذلك ، دائمة . ووصلت زوجته مرغريت دانجو سجينه إلى برج لندن في ٢١ أيار ، في اليوم نفسه الذي زعم أن رتشارد قتل فيه هنري . وكان زوجها ما يزال حياً يُرزق . أما الحسابات المشار إليها فقد قدّمت لإعالة

هنري طوال مدة أربعة عشر يوماً - ابتداءً من ١١ أيار ، وفترة الأسبوعين تجعل وفاة هنري أما في ٢٤ أو ٢٥ أيار ، وقد كان رتشارد في ذلك الوقت في ساندوبيتش . وقد أرسل كاتب معاصر رسالة الى سكان بروج ذكر فيه ان هنري توفي في ٢٣ أيار . لذا يمكن تبرئة رتشارد من هذه التهمة .

هل أجبر رتشارد إبنة عمه آن نيفيل على الاقتران به ضد إرادتها؟

هذا اقتراح وقع ، وخصوصاً لأنه سبق وزعم ان رتشارد قتل زوجها ، إدوارد اوف لانكستر ، اولاً . وهناك حقيقة بسيطة هي أن إدوارد وأن لم يتزوجاً فقط . فقد كان هذا الاتحاد المرتقب يتوقف على بعض الشروط ، ولم يلبّ والدها ووريك الذي قُتل في بارنيت السنة ١٤٧١ ، أيّاً من هذه الشروط . وكان راهب كروبلاند يشير اليها دوماً بعبارة «الأنسة» او «العذراء» . لقد تربى رتشارد وأن ترعرعاً معاً ، وكان اتحادهما طبيعياً . وكانت رفيقته الدائمة في كل أزمة في حياته ، في حين أنه ظهر لطفاً كبيراً تجاه أسرة حميء المجردة من الحقوق ، حتى أنه دبر أمر وراثة الورثة العقارات والألقاب (مخطوطات البرلمان ، المجلد ٦ ، الصفحة ١٢٤)

الجميع يعرفون الأسطورة القائلة ان جورج ، دوق كلارسن ، أغرق في برميل كبير من النبيذ الحلو (المزي) وقد وضعه هناك أخوه رتشارد .

معظم مؤرخي آل تيودر صامتون إزاء هذه النقطة . والذين كان يمكن أن يفيدوا أكثر من سواهم من موت كلارسن هم آل وودفيل ، وليس مستبعداً أن يكون إدوارد الرابع قد استخدمهم في عملية الاغتيال . وليس ثمة اي دليل على أن رتشارد كان في لندن في شباط ١٤٧٨ ، وهو الشهر الذي توفي فيه كلارسن ، لأننا نعلم جميعاً أنه كان آنذاك في ميدلهم ، في مقاطعة يوركشير في مطلع آذار ، وفضلاً عن ذلك هناك مدونات تُظهر أن رتشارد احتاج على تجريد كلارسن من حقوقه ، والحكم عليه بالموت .

أثنـهم رـتـشارـد باـسـتمـارـ بـأـنـهـ اـغـتصـبـ التـاجـ بـتـزوـيرـهـ حقـاـ شـرـعيـاـ بـالـعـرـشـ .  
هـذـهـ هـيـ أـهـمـ تـهـمـةـ تـسـاقـ ضـدـ رـتـشارـدـ ، ولـكـنـهاـ كـذـلـكـ التـهـمـةـ الـأـسـهـلـ بـالـنـسـبةـ إـلـيـ

دحضها . فعبارة حق رتشارد الشرعي وضعها وأقرّها الاسياد الروحيون والزمنيون ومجلس العموم او العوام بعد مراجعتهم الدليل الذي وضعه وقدمه اليهم الاسقف الدكتور ستيلنغيتون ، بين ٨ حزيران و ٢٥ منه . ويُستحسن أن نورد بإيجاز الوقائع المتعلقة بتربيع رتشارد المفاجئ على العرش بعد أن أعطيت الأوامر بتتويج إدوارد الخامس . فقد توفي فجأة الملك إدوارد الرابع في ٩ نيسان ١٤٨٣ . وكان في الأربعين من عمره ولا أحد يتوقع موته المبكر . وكان رتشارد آنذاك على الحدود الاسكتلندية . فذهب من فوره إلى يورك ، ودبر جنازاً ، وأقسم يمين الولاء للأمير الصغير ، وأعلنه ملكاً باسم إدوارد الخامس . وتقى آل وودفييل الذين رفعوا من أصلهم المتواضع جداً إلى وضع مقام رفيع بفضل إدوارد الرابع إلى احتكار كل السلطات في الدولة . وقد سبق أن شاطروا إرث كلارنس الجريء من حقوقه ، وهم يرون الآن في قصور الملك إدوارد الخامس فرصة لإشبع مطامحهم أكثر فأكثر . وكان إدوارد الخامس في لادلو ، في رعاية عمه ريفرز . وكانت غايته حمله إلى العاصمة ، وتتويجه ، وملء المجلس بالأنصار ، وفوق ذلك كله ، بإبعاد رتشارد وأصدقائه . وكان ذلك مناقضاً تماماً للشروط التي أوردها إدوارد الرابع في وصيته . ففي تلك الوثيقة ، عين رتشارد وحده حامياً وحارساً للأميرين الصغارين . فسارع من فوره إلى لندن ، بعد إقامة مراسم الدفن في يورك ، برفقة ستمائة رجل في لباس الحداد ، وليس بزيات عسكرية . وكان تصرف آل وودفييل مختلفاً جداً . وانطلق ريفرز من لادلو مع ألفي رجل مسلح من أجل مراقبة إدوارد إلى لندن . وأصدر المجلس لدى وصوله أمرين باسم ريفرز ، وغراي دوغماً ان يكون هناك أي ذكر لرتشارد اللورد الحالي المعين ، وهو أمير من أسرة بلانتجينيت ذات الدم الملكي . إذاً ، ليس ثمة اي شك ، في هذه المرحلة المبكرة ، بوجود مخططات خيانية من جانب حشود ريفرز . بالطبع ، يقول راوس وراهب كروويلاند إنهم كانوا قد وضعوا خططاً لاغتيال رتشارد . وسارع دوق بكينغهام ، ابن عم رتشارد ، للاقاء الحامي في رحلته السلمية إلى لندن ، لكي يحذرّه من نيات آل وودفييل . واجتاز رتشارد الريف والتقوى ريفرز في ستوني ستراتفورد حيث قبض عليه ، وأرسله إلى أحد القصور في يوركشير . وبدلّ جنود ريفرز ولاءهم على الفور

الى الحامي الشرعي ، وتابع الجميع طريقهم الى لندن ، فبلغوها في ٤ أيار ١٤٨٣ . وذهب إدوارد ليقيم في قصر الاسقف في سنت بول ، مع شقيقه رتشارد اوف يورك ، في حين ذهب الحامي لينضم الى امه سيسيل نيفيل ، في قصر بيبارد . فلقد أعلن ، في الواقع ، حامياً قبل وصوله الى لندن (المخطوطات ، ٤، ٢١، ٥ و ٢١، ٤، ١٤٨٣ ، ٢) . وفي ١٣ أيار أصدر دعوة الى البرلمان للالتئام في ٢٥ حزيران . وكانت الأمور حتى ذلك الحين تسير سيراً طبيعياً ، باستثناء ارتداد ريفرز . وكانت كل القضايا المتعلقة بتوسيع الملك الصغير قيد التحضير . وفي ٥ حزيران أصدرت أوامر مفصلة لكي يجري التتويج يوم ٢٢ حزيران ، وأرسلت دعوات الى اربعين من المرشحين لرتبة فارس - وتلك عادة في تقليد الرتب في المناسبات المماثلة . وفضلاً عن ذلك يذكر كومينز ان ملابس التتويج تم التوصية عليها ، ويؤكد ذلك كل من المؤرخين رايمز ، ونيكولاوس ، وليليس .

وعلى حين غرة بدأ حدث ذو أهمية تاريخية الوضع . فقد كشف الدكتور ستيلنغتون ، أسقف باث وولز امام المجلس ، في ٨ حزيران ، الحقيقة التي كتمت طويلاً ، وهي ان إدوارد الرابع ، قبل زواجه باليزابيث وودفيل ، كان عقد على اللايدي إليانور تالبوت ، ابنة الإيرل اوف شروزبري . وقد شهد ستيلنغتون شخصياً على العقد ، وأبرز ، إذ ذاك ، الوثائق التي تدعم أقواله وقد أجبره إدوارد الرابع على عدم كشفه ذلك ، وخاصة بعد زواجه السري باليزابيث . وعلمت أم إدوارد بالعقد الأول ، وغضبت كثيراً عندما أعلن إدوارد هذا «الأمر الواقع» وانسحبت اللايدي إليانور الى الدير ، وتوفيت السنة ١٤٦٦ . ولعل كلارنس دفع حياته ثمناً لمعرفته هذه الامور . ولم يكن بوسع رتشارد أن يعلم شيئاً من ذلك لأنه كان بعد في الحادية عشرة من سنّة .

لم يكن ستيلنغتون مجبراً على البوح بالسر في حياة إدوارد ، ولكن لما توفي هذا الأخير فجأة السنة ١٤٨٣ ، كان ينبغي منع إمكانية وصول ابن غير شرعي الى العرش . لذارأى أن الواجب يقتضيه التقدم وعرض الحقائق . والقول إن رتشارد صُعق لا طلاعه على هذه المعلومات لهو تصريح مكتوب - اي أنه تصريح مقصود به تصوير

الفكرة على نحو أضعف وأقل مما تقتضيه الحقيقة . إلا أنه كان على مستوى الأحداث ، ودقق في القضية تدقيقاً شاملاً . ومجرد اضطراره إلى استدعاء الجنود من الشمال عندما كشف ستيلنغتون النба ، يحمل على الاقتناع ببراءة رتشارد من أي مخطط لاغتصاب العرش . ذلك بأنه لو كان على علم مسبق بالإعلان لكان جاء بالجنود معه . وحاشيته من الرجال غير المسلمين الذين ذكروا آنفأ تدلّ على أنه فوجيء شخصياً باعلان ستيلنغتون . أما باقي المتأمرين فقد قُبض عليهم متلبسين بالجريمة . وقد حكم هيستنغرز ونفت في الحكم بعد أسبوع من القبض عليه ، حسبما ورد في رسالة من ستولويirth إلى السرطان ستونور . وحتى هنا تتجلى سماحة نفس رتشارد عندما نعلم أنه أعاد مباشرة إلى أرملا هيستنغرز وورثه عقاراتهم وألقابهم - وقلما يحدث مثل ذلك في حالة الخيانة .

ودفع ريفرز الغرامه . فقد أيدن أنه كوفئ جيداً على ما بذل من جهد ، وخسر الرهان أخيراً عندما عين رتشارد مشرفاً على وصيته ، التي ما تزال موجودة إلى اليوم . ثم إن رتشارد ارتكب الخطأ الذي كلّنه العرش وحياته ، فقد رفض معاقبة مورتون . واكتفى بارسال هذا الأخير إلى ممتلكات دوق بكنغهام في بريكنوك .

وعقد البرلمان جلسة في ٢٥ حزيران ، وأعلن أن الأمير الصغير لا يمكنه التربع على العرش نظراً لإثبات عدم شرعيته ، ولا ووريك ، وارث كلارنس أيضاً ، لأنّه مجرد من الحقوق . ولما كان البرلمان ، وفي الحقيقة البلاد بأسرها ، يخشيان القصور ، استدعى رتشارد لتقبيل العرش بصفته الوارث الحقيقي . وعندما سُجّلت الواقع المتعلقة بحقه الشرعي في وثيقة «تيتولوس ريجيوس» التي ما تزال مسودتها الأصلية محفوظة إلى يومنا هذا . وقد عين رتشارد إذ ذلك ووريك وارثه بعد ابنه نفسه .

وتذكر مدونات يورك أن آخر الملوك من آل بلانتجينيت ، تربع على العرش في ٢٦ حزيران . وقد ألقى الدكتور شو ، وهو اسقف معروف ، عظة على جماعات المصلين صباح الأحد في ٢٢ حزيران ، في لندن يوضح فيها حق رتشارد ، والقى بكلغهام خطاباً في غيلدهول (دار النقابات في مدينة لندن) ، في ٢٤ حزيران .

هذه هي الواقع ، كما تقدمها الكتابات المعاصرة والدلائل التوثيقية . ولنرَ الآن

كيف شوّه آل تيودر التفاصيل .

عندما تسلّم هنري السابع العرش ، نقض من فوره وثيقة «تيتولوس ريجيوس» ثم أمر باتلاف كل الوثائق المتعلقة بحق رتشارد بالعرش ، دون أن تُقرأ ، تحت طائلة الغرامات الكبيرة والحبس . ولكن يبدو أن راهب كرويبلاند ، استطاع ، على ما يبدو ، أن يفرّ بها ، ذلك بأنه سجل نصًّا «تيتولوس ريجيوس». فقد مرتون وفرجيل رواية مفادها أن الدكتور شو كان قد ذكر في عظه أن إدوارد الرابع وكلارسن كانوا ابنين غير شرعيين ، وأن رتشارد الثالث وحده كان ابنًا شرعياً . ثم إنه يُطلب البينا ان نصدق ان رتشارد دعا والدته لتقييم في منزله ، وأنها قبلت بذلك ، علمًا منها بأنه سمح للدكتور شو بأن يطعن بسلوكها الأخلاقي واستقامتها . أي نوع من المؤرخين هم هؤلاء التيودريون؟ ويذهب مرتون إلى أبعد من ذلك . فهو يؤكد أن شو ذكر ، أيضاً ، أن إدوارد الرابع تزوج فتاة تدعى اليزابيث لوسي . وتناقض سائر السلطات التيودورية هذا عندما تعلن ان اليزابيث لوسي اعترفت بأنها لم تكن زوجة إدوارد . والحقيقة ان لا أحد الامورتون من ذكر ذلك . إذاً ، فهو قد اسقط بنفسه حجته ، وانه في صرف النظر عن إخفاء الاسم الحقيقي وهو الالايدى إليانور تالبوت . ثم إنه يضيف أن أم إدوارد احتجت بشدة عندما أبدى رغبته في الزواج باليزابيث وودفيل سوى اتنا نعلم أن أمّه لم تسمع بالزواج إلا بعد أن تم . وتقضي هذه الأقوال الغامضة والمشوهة بعيداً لإظهار ان عقد الالايدى إليانور تالبوت كان في الواقع ، حقيقةً ، وأن حق رتشارد ، وبالتالي ، بالعرش كان سليماً . ويناقض فيبيان وفرجيل احدهما الآخر حول هذه النقطة ، ومن هنا نراهما يفضحان التركيبة بكاملها .

امضى مورتون وقته في إثارة الاستيءاف في انكلترا خلال حكم رتشارد . وكانت قضية حياة وموت بالنسبة إلى مورتون أن يبقى رتشارد متربعاً على العرش ، لأنّه إذا ما فعل ذلك ، لانتهت حياة مورتون العملية . فلن يعود هناك شيء ، لا قبة الكاردinالية ، ولا منصب رئيس الأساقفة . ولا يبقى له أي من المناصب الراقية ، فيعود كاهناً فقيراً معدماً . أما إذا استطاع مساعدة هنري لتسليم العرش ، فإن كل شيء سيصبح في متناول يده ، كما ثبت ذلك خلال حكم هنري . وقد عملت جهود

مورتون الحيثية لإظهار رشارد بكنغهام المغتصب بدلاً من التأكيد أنه لم يكن كذلك .  
رفض رشارد عريضة ابن عمه بكتنفهام الخاصة بأملاك بوهان .

أساء مورتون تفسير الواقع المتعلقة بشورة بكتنفهام . فحاول أن يُظهر للخلق أن بكتنفهام ، وهو من أسرة بلانتدجينيت ، اراد ان يدعم ثورة في مصلحة هنري تيودر .  
فلم يرفض رشارد عريضة نسيبه لأن «بارونية دغديل» تُظهر لنا أن أملاك أسرة بوهان مُنحت إلى بكتنفهام منذ ١٣ تموز ١٤٨٣ .

ومن الصعب جداً أن نصدق أن يهتم بكتنفهام بتعريف حياته للخطر من أجل مطلب أحد التيودريين من جُردوا من حقوقهم ، واعتبر خارجاً على القانون ، عندما يكون هو شخصياً متقدراً من توماس ، الابن الخامس لإدوارد . فأي أمرٍ من هذه السلالة مباشرة يساند تحرّكاً لإبعاد نفسه ووضع أمرٍ على العرش يعرف أن أسلافه متقدرون من أبي جده ، وهو ابن غير شرعي؟ من الواضح أن مورتون لم يفهم فقط آل بلانتدجينيت فلم يسعه أن يرى أنهم أسرة ولدت للقيادة ، ولا يمكن أن يشوهوا سمعتهم ويلوثوا دمهم . فلقد بات بكتنفهام ، بالطبع ، طموحاً جداً ، ورغبة في الجلوس على العرش . فساند حق رشارد بالعرش . ووافق على تحرير كلايرنس من حقوقه ، ولكنه لم يسعه الانتظار .

دس رشارد النسم لزوجته لكي يحاول الاقتران بنسبيته اليزابيث .  
لا يمكن أن يُقذف أي أمرٍ أو تشوّه سمعته بشيء أسوأ من ذلك . وهذا هو النوع من القصص الذي يوفر الحبكة لمسرحيات يوريبيديس عن الميثولوجيا الإغريقية .  
ولكن ذلك لا يصنع تاريخاً . وسعادة رشارد وأن التامة كافية لنفي هذه الرواية .  
وليس ثمة أي دليل أدبي معاصر ، أو الكثير من المؤرخين التيودريين لدعم ذلك . ومن جهة أخرى ، نحن نعلم من رسالة كتبتها اليزابيث إلى ابن عمها ، دوق نورفوك ، أنها رحّبت بالفكرة . وما إن سمع رشارد شائعة حول ذلك ، حتى أصدر إنكاراً رسمياً عاماً . وذلك من طريق الإعلان في البرلمان ، والرسائل إلى الكثير من القصبات والاقضية .

هذه آخر التهم وأخطرها . رتشارد قتل الاميرين الصغيرين ، ابني شقيقه ، في سجن برج لندن .

لمحاولة درس قضية مصير الاميرين دراسة غير متحيزة ينبغي لنا أن نذكّر ان الحجج الرئيسية ضد عهدهما إنما وجدت لتقوم على حقيقة الجرائم المزعومة التي اتهم بها ، وتشوّهه او عاهته الجنسيّة . وقد انتفى هذا الخلط من الحجج منذ البداية ، اذا كان بوسعنا القول إننا قد صرفا النظر بنجاح عن الاتهامات السابقة لكونها زائفة تماماً . وقد بيّنا أنها قدّمت من كتاب سلالة جديدة تقوم على الخوف ، من أجل تسوييد شخصية آخر ملوك أسرة بلا تدجينيت ، وبالتالي جعل تهمة قتل ابني شقيقه مقبولة اكثر . ذلك بأن إبعاد الولدين من طريقه كان قضية ذات أهمية حيوية بالنسبة الى هنري السابع ، وفضلاً عن ذلك ، الاعتقاد بأنهما قُتلا على يد سلفه . ويمكن الآن ايراد القضية لما فيه مصلحة رتشارد .

ينبغي للقراء ان يعتبروه رجالاً يختلف قام الاختلاف عما صورته الاسطورة التي نقلها آل تيودر الى الخلف ، فالانطباع عن المسلح القاتل المتعدد الوجوه قد أزيل . ولم يسبق لرتشارد ان اضططع من قبل بأي جريمة ، وكل الاتهامات التي سيقت بحقه هي تلك التي يمكن أن تساق ضد اي أمير او ملك عادي ، في القرن الخامس عشر .

كان رتشارد وإدوارد الرابع مخلصين احدهما لآخر ، وهذا وحده يقلّل من اي دافع لقتل ابني الآخر . ولكن ، في الواقع ، لم يكن ثمة أي دافع مطلقاً ، ذلك بأن الاميرين ثبت أنهما غير شرعين ، وبالتالي سيعداون عن الخلافة . ولم يكونا يشكّلان أي خطر على أحد - باستثناء هنري تيودر .

شهد كل النبلاء واللوردات في انكلترا حفلة تتوج رتشارد ، ما عدا بعض النبلاء الانكستريين ، وأولئك اللوردات الذين كانوا إما متقدمين في السن او صغار السن كثيراً . ولم يكن هناك اي فريق مع الاميرين ، ولما كانت جريمتا القتل قد تمتا كما رأى عم ، قبل ثورة بكنغهام ، فليس ثمة اي عذر للتأكد أن بكنغهام كان يمثل في وقت من الاوقات اي فريق يعمل لمصلحة الاميرين .

انتقل إينا إدوارد الرابع للإقامة في المساقن الملكية في البرج ، في حزيران ١٤٨٣ .

ويخبرنا هنري السابع وملفوته أن الاميرين صرعا في آب التالي ، ولكن ثمة دليلاً على انهما كانا ما يزالان في قيد الحياة حتى آذار ١٤٨٥ . ففي الاوامر الصادرة الى الاسرة المالكة ، والمؤرخة بعد وفاة امير ويلن سنة ١٤٨٤ ، نجد غير مرة ، ذكرأ لأولاد من ذوي الرتبة الرفيعة ، ينبغي خدمتهم قبل سائر اللوردات . وكلمة «أولاد» لا ينبغي أن تشير ، وحسب ، الى وورويك الصغير ، بل كذلك الى الاميرين . وفي «فيديرا» لرايمز ، هناك مذكرة بتاريخ ٩ آذار ١٤٨٥ ، هذا مضمنها : «يُطلب الى هنري داييفي أن يُسلم غودستاند ، خادم اللورد الزائف ، صدرتين حريريتين ، وسترة حريرية ، وعباءة من القماش ، وقمصين ، وقلنسوتين ». وهناك مذكرات اخرى بخصوص دفع ثمن المؤن ، ولكنها لا تدع أي مجال للشك في أن احد الاميرين كان ما زال حياً قبل خمسة أشهر من معركة بوزويرث . ومن السخف أن يعمد رتشارد الى قتلهمما في وقت متأخر جداً ، فيما لو كانا يشكلان خطراً قبل ذلك بستين الثنتين . وفضلاً عن ذلك لو انه كان ثمة سلوك غير أخلاقي ، أو عنف ، فإنه لا يُعقل ان نصدق ان إليزابيث وودفيل ، أرملة إدوارد الرابع ، توافق على وضع سائر اولاده في رعاية الرجل الذي قتل من قبل الاميرين . ومعلوم أنها بقيت على وفاق تام مع رتشارد ، وعولمت ، في الواقع ، معاملة أفضل من تلك التي لقيتها على يدي خليفته . وكانت بناتها يحضرن الحفلات في البلاط الملكي ، وهناك حسابات وقيود تتعلق بملابسهن واثوابهن . وقد كتبت احدى البنات ، وتدعى إليزابيث - وقد اقترنرت في ما بعد بهنري السابع- الى دوق نورفوك ، وأشارت الى رتشارد بعبارة «عمي ، بهجتي وصانعي في العالم ». فهل كانت تكتب مثل هذا عن عم قتل أخويها؟

إذاً ليس ثمة اي دليل على انهما كانوا ميتين ، غير الشائعة الواردة في تاريخ كرويلاند ، التي ر بما حشرها مورتون حشراً . فلو أن سوءاً إصاب الولدين ، لكانوا محاولة طمسه عملاً طائشاً جداً .

ان الشائعة الاولى التي يعتمد عليها لاظهر ، في الواقع ، إلا لدى اعتراف تايريل المزعوم السنة ١٥٠٢ . وقد حرص آل تيودر على أنه ينبغي تصديق قضية مقتل الاميرين على يد عمهما . إلا ان التدقيق الحكم في روایاتهم يكشف سلسلة غريبة من

لم يُعلن هنري على المأمور هذه التهمة الفريدة في نوعها ضد رتشارد خلال السنة الأولى من حكمه . والسبب الوحيد لذلك ينبغي أن يكمن في كون الاميرين كانوا ما يزالان في قيد الحياة . وبالفعل ، يقول مؤرخو هنري ، إنه لم يكن شيء معروفاً ، مثبتين بذلك أن قول السفير الفرنسي السنة ١٤٨٤ إن الاميرين قتلهم عمّهما زائف بشكل صريح . فقد اتهم هنري رتشارد بعدد كبير من الجرائم ، ولكنه أهمل إثبات هذه الجريمة . ولا بدّ أن يكون ثمة سبب واحد لذلك .

المعروف، أن أنساً من ذوي الاخلاق الحميدة قد ارتكبوا جرائم قتل ، ولكن ليس مثل هذا النوع من الجرائم ، ولا مثل هذه الاسباب السخيفه . فماذا كان سيكتب رتشارد غير الكره العام؟ فابنا شقيقه غير شرعين ، ولذا فلا يقفان عائقاً في سبيل الاختلاف . وينبغى تبرئة رتشارد من ذلك لانعدام الدليل الكافي .

وعلينا أن نبحث عما إذا كان هناك في الحقيقة ، أي دليل على أنه كان بوسع هنري تيودر قتل الأميرين الصغيرين في البرج .  
ماذا نعرف عنه؟ لقد أبصر التور في السنة ١٤٥٧ ، زمن وصول رتشارد إلى

العرش . وكان مجرّداً من حقوقه ، ومتّفياً ، ومجرّداً من لقبه ، وقد أُعدم والده ، وعمه كان خارجاً على القانون ولم يكن لحقه في العرش أي قيمة تقريباً ، كما سبق له أن اعترف حقاً بذلك . وكان يكره الحرية الانكليزية ، ولم يفهم قط معنى الاتصال الحقيقي بالشعب ، مما جعل لأنّ بلاتندجينيت الشعيبة العريضة . وكان أول ملك يتخذ حرساً شخصياً له ، كما كان يبدو عليه دوماً أنه يستمتع بالظهور بظهور التكتم والغموض . ولدى اغتصابه العرش ، أمّن رعاية الأميرة اليزابيث ، وقرر تعزيز وضعه الضعيف باقتراحه بها ، موحّداً هكذا أسرته يورك ولانكستر . ثبت أنها ابنة غير شرعية ، بموجب القانون نفسه الذي جعل أخويها غير شرعيين ، كذلك . وللتصحيح هذا الوضع أبطل هنري مفعول القانون ، واتلف الدليل على اللاشرعية ، وأمر بإحرق كل الوثائق المتعلقة بالقانون دون أن تُقرأ . وتمّ الصفع عن ستيلنغيتون بالنسبة إلى مسؤوليته في إثبات اللاشرعية . ثم أعيد توقيفه مباشرة بتهمة ملقة ، واختفى في غياه布 السجن ، الذي لم يخرج منه حياً .

وبالغاء هنري القانون ، جعل اليزابيث ابنة شرعية ، وكذلك أخويها ، وهو أمر كبير الدلالة ، ذلك بأنه يبدو انهم كانوا حيّن ، ولا ريب . ولكن هذا الوضع كان مستحيلاً . فقد كان لهنري منافسان على العرش . ولذا كانت الضرورة تقضي بأن يموت ، وينبغي تنفيذ ذلك في ظروف تكتنفها السرية التامة . ثم أثار هنري شعبه بنقض تجربته من الحقوق ، وتجريد انصار رتشارد من حقوقهم ، بالمقابل ، وقد صادر ممتلكاتهم ، وأرّخ مفعول «الخيانة» ابتداءً من اليوم الذي سبق معركة بوزويرث .

ينبغي التشديد على قضية وضع هنري لائحة بجرائم رتشارد ، ولكنه اغفل أهم جريمة ، الجريمة التي كان يمكن أن تثير من الاستياء أكثر مما يشير سواها ، وهي قتل الاميرين في البرج . لماذا؟ بالطبع لأنهما لم يكونا قد قُتلا بعد !

هل كان لدى هنري الدافع الكافي؟ الجواب عن ذلك بالايجاب . وبعد أن جعل شقيقَي زوجته شرعيين ، بات وضعه على العرش حذراً للغاية . ويمكننا أن نرى ماذا حدث لسائر الاشخاص الملكيين الذين كانوا تحت «رعايته». فدجون ، ابن رتشارد غير الشرعي ، زُجَّ في السجن ، ولم يخرج حياً . ووورويك أُعدم في ظروف جد

دنية . وسافوك ، وآكسيتر ، ومنتاغيو ، وساري ، وبكنغهام - دون أن نذكر الكونتيس اوف سولزبري - جميعاً قصوا إما على يديه أو على يدي ابنه .

ان تقريراً تقريبياً لتاريخ مقتل الاميرين يبدو أنه يصادف في وقت ما بين ١٦ حزيران و ١٦ تموز ١٤٨٦ . وقد تم تقديم التفاصيل الأولى للجريمة التي زعم ان رتشارد ارتكبها السنة ١٥٠٢ ، بعد إعدام تايريل . ويعتقد أنه اعترف بحدوث الجريمة على النحو التالي : رفض السر روبرت براكنيري ، حاكم البرج ، ان يرتكب الجريمة التي أمر بها رتشارد . فأخذ تايريل عندئذ مفاتيح البرج لمدة اربع وعشرين ساعة ، ودبر أمر قتل الاميرين على يد كل من مايلز فوريست وبلاك ول سليتر . ثم تلقى تايريل من رتشارد لقب فارس .

هذه القصة ملفقة من الألف إلى الياء ! فقد تقلد تايريل لقب فارس قبل ذلك باثنتي عشرة سنة ، من الملك إدوارد الرابع . وكان المسؤولون في البرج على علم بما يجري ، وكذلك لا بدّ ان يكون براكنيري قد اطلع مرؤوسه على الأمر . فهل يعقل أن يموت من أجل رتشارد في معركة بوزويرث ؟ ولما لم يُعرف شيء من التفاصيل قبل السنة ١٥٠٢ ، فإن قصة الاعتراف هي زائفة بالطبع .

وقد قطع رأس تايريل بسبب جريمة أخرى ، هي التآمر من أجل مساعدة شخص من آل بلانت جينيت على الهرب .

رُغم أن قصة الاعتراف صحيحة ، وأن رتشارد - على ما قيل - كافأ أولئك الذين تورطوا فيها ، فحصل براكنيري وتايريل على هبات ، ولكن ثمة دليلاً على أن هذه الهبات منحت قبل زمن طويل من الجريمة المزعومة . ولم يتلقَ بلاك ول سليتر اي مكافأة من رتشارد قط ، حسبما ورد في السجلات ، ولكننا سنرى أنه تلقى مكافأة من هنري . فقد كان يُمنح رشوة حتى السنة ١٤٨٨ ، ونجد في مذكرة هنري السابع أنه دفع مكافأة لسليتر قدرها خمسة ماركات (المارك هو وحدة نقد انكليزية قديمة تعادل ١٣ شلنًا و ٤ بنسات) .

ولا يذكر مايلز فوريست أو سليتر - وهما شخصان مهمان في الروايات الأخرى .

وإذا لم تُفْشَ طريقة القتل ، فإن الاعتراف لم يكن ليحدث ، لأن التفصيل الوحيد

الذى كان يمكن أن يُكشف . وقد تلقى غرين ، الخادم الذى يعتقد أن رتشارد اوفده ليطلب إلى براكنبى تنفيذ جريمة القتل ، هبة في ١١ آذار ١٤٨٦ ، هي نصف قصر بيتنغتون . ومن أجل ذلك كان ينبغي القيام بأمر ما بحيث أنه يتلقى النصف الآخر عقب التنفيذ . وقد قلد هنرى السابع تايريل لقب فارس في فرقة حرس الملك ، وفي ١٦ حزيران ١٤٨٦ ، منح عفواً عاماً . وليس هذا بحد ذاته أمراً غريباً ، ولكن عندما منح تايريل بعد ذلك بشهر عفواً عاماً آخر ، فإن ذلك يجعل الظنون تساورنا . والمعتقد أن هذا يساعد على تحديد تاريخ تقريري للجريمة . لقد ارتكبت في وقت ما بين حزيران وتموز ١٤٨٦ . في السنة ١٤٧٨ ، أصبح تايريل حاكم غزنيس ، ربما ، لإبقاءه خارج البلاد ، لأنه كان يعرف أكثر مما ينبغي . وظل حتى بعد مضي أحدى عشرة سنة يُخاطب بـ «الخادم الوفي والمستشار» . ثم خرج من إطار التاريخ بخفة عندما حاول الإيرل اوف سافوك ، وهو من أسرة بلانتاجينيت ، الهرب .

ومع ذلك ، ظل هنرى الرابع حتى ذلك الحين يهلم بسبب وجود مطالب آخر بالعرش .

يقول هنرى ان الاميرين لم يكونا في البرج لما تسلّم العرش ، ولكن الغريب في الامر أنه لم يذكر شيئاً من هذا في ذلك الوقت .

ولو ان ذلك كان صحيحاً ، لماذا لم يُعدم فوراً كل من تايريل وغرين ، وفوربيست ، وسليتير ، عقاباً لهم على الجريمة المنكرة - جريمة قتل ولدين بريئين؟ ولماذا ، كذلك ، أغفلت هذه الجريمة في القرار ضد رتشارد؟ إن الاجوبة عن هذه الأسئلة ينبغي ان تكمن في كون الولدين لم يكونا ميتين يوم معركة بروزويرث (آب ١٤٨٥) .

وإذا كان الملك رتشارد الثالث لم يصر عهما ، فإن الشخص الآخر الذي يمكن ان يكون فعل ذلك ، وكان لديه الدافع والفرصة لذلك ، هو الملك هنرى تيودرا ..

## شكسبير: سر عمره ثلاثة قرون

كتب بن دجونسون على ضريح وليام شكسبير :

«لم يكن ابن عصره ولكنه ابن جميع العصور .»

كان دجونسون على حق في ما قال ، فجميع الذين قرأوا ما خطته يراعة شكسبير من المسرحيات والقصائد ، ودرسوها دراسة وافية ، يعرفون جيداً أن للروائي الشهير آراء صائبة في السياسة والاقتصاد والمجتمع تنطبق على مختلف العصور .

لقب شكسبير بأديب الطبيعة الحق الذي نفذ ببصره وب بصيرته إلى المستقبل فصورة ، في اغلب الاحيان ، بأدق ما يمكن بشراً ان يصوّره . وقد ألمح شكسبير في مسرحياته إلى الكثير من الاحداث المعاصرة .

أبصر وليام شكسبير النور في بلدة ستريتفورد اون - ايлен سنة ١٥٦٤ . ولم يُعرف بالضبط اليوم الذي ولد فيه ، وكل ما هو معروف عنه انه عَمِد في السادس والعشرين من نيسان من السنة نفسها . والذين يقدرون الثالث والعشرين يوم مولده دون ان يوردو أي مستندات تثبت ما يذهبون اليه ، اثما يحملهم على هذا التقدير والتحديد الخطأ كون شكسبير قد توفي في ٢٣ نيسان ١٦١٦ ، وهذا التاريخ ثابت . وعلى أي حال لا يمكن ان يكون مولده بعد ٢٣ نيسان ما دام قد نقش على ضريحه انه في ٢٣ نيسان ١٦١٦ دخل سنته الثالثة والخمسين ! ..

وليس ثمة معلومات راهنة عمما تخلل صباحه . والمرجح انه تأثر خطى والده فعمل في دار البلدية ردحاً من الزمن .

وفي العام ١٥٨٢ تزوج شكسبير من آن هاثاوي ورُزقا ابنة سميها سوزانا . وما يذكر ان هذه الابنة البكر كانت تحبه القراءة والكتابة . . . وحلت سنة ١٥٨٥ فرُزقا

توأمين اثنين هما هامنيت وجوديث .

ويروى ان شكسبير اضطر الى مغادرة مسقط رأسه بسبب فضيحة سرقة أيل ...  
غير ان الذين اتهموه بالسرقة لم يستطعوا اقامة أي دليل يصح الركون اليه ...  
لم يتبوأ شكسبير مقامه في عالم التمثيل والتأليف المسرحي الا بعد ان انفصل عن  
أسرته ، وعاش وحده في لندن حيث انضم الى فرقه تمثيلية هي «فرقة تشميرلن» التي  
اصبحت في ما بعد «فرقة رجال الملك» ، وقد اصابت الفرقه نجاحاً عظيماً طوال  
الوقت الذي كانت تضم فيه شكسبير .

وطارت شهرة هذه الفرقه التمثيلية ووجدت طريقها الى القصر الملكي حيث  
قدمت أكثر من ثلاثة رواية في عهد الملكه البزيابيث . أما سائر الروايات فكانت تقدم  
على مسرح الفرقه الخاص المعروف بمسرح «الكلوب» .

وكان شكسبير يتلقى اكبر حصة من الارباح بصفته شريكـاً في المسرح . وفي  
اواخر ايامه عاد الروائي الى مسقط رأسه ستريتفورد اون - ايлен حيث امضى زماناً غير  
قصير في القصر الفخم الذي ابناه وسمـاه «القصر الجديـد» . وكان له من العمر  
عندما قضـى نحبـه في ٢٣ نيسـان ١٦٦٦ اثنـان وخمسـون عامـاً .

ويقدر العارفون ان هناك نصف مليون شخص بين ناشر ، وصاحب مكتبة ،  
ومحاضر ، ومدرس ، وأمين متـحف ، ودليل سياح ، وسواهم يكتبون ارزاقهم  
بفضل شـكسبـير .

يقول الفيلسوف الـاميرـكي جورج سانتـيانـا ، في احدى قصائـده : «إن الله قد  
ضاعـفـ الخـلـيقـةـ عندما خـلـقـ شـڪـسـپـيرـ .»

### سر عمره ٣ قرون !

قضـيةـ شـڪـسـپـيرـ وـحـقـيقـةـ شـخـصـيـتـهـ تـقـفـزـ إـلـىـ المـسـرـحـ

جريدة قتل مع إيدال الضـحـيـةـ ، واختـطـافـ ، ونبـشـ القـبـرـ - لـغـزـ بـولـيـسيـ بدـأـ مـنـذـ  
٣٧٠ عـاماً ، في دـبـيـفـورـدـ فيـ انـكـلـتـراـ . (كتـبـ هـذـاـ المـقـالـ فيـ السـتـينـاتـ) .  
فالسلطـاتـ الـاـكـلـيـرـيـكـيـةـ فيـ مقـاطـعـةـ «ـكـنـتـ»ـ أـجـازـتـ لـدـجـونـ مـارـشـامـ تـاـونـزـندـ ،

صاحب الاملاك المعروفة في سيدبيري (في منطقة تشيزلهيرست) ان ينبع قبر احد اجداده . ويدعى توماس وولسنهام ، وكان معاصرآ لشكسبير .

والمعتقد ان هذا القبر يضم وثائق ثبتت ان مسرحيات شكسبير كتبها ، في الحقيقة ، الاديب كريستوفر مارلو ، وهي نظرية يعتقد بها ويدافع عنها بحرارة وايمان الكثيرون من المتخصصين في دراسة شكسبير وأدبه .

وتثبت هذه الوثائق ، فضلاً عن ذلك ، ان كريستوفر مارلو لم يُقتل في أيار سنة ١٥٩٣ في دتفورد ، والذي قُتل بدله امرؤ آخر ، وأن توماس وولسنهام ، حامي مارلو وراعيه «اختطفه» .

وينتظر الشكسيريون هذا الحدث بفارغ صبر من سنوات وسنوات . وينتظر معهم ، منذ حوالي ثلاثين سنة ، صحفي وروائي مسرحي اميركي هو كالفن هوفمان الذي يدعى ان كريستوفر مارلو ، بعد الجريمة التي ارتكبت في احدى حاتمات دتفورد سنة ١٥٩٣ ، عاش في الخفاء لدى حامي ، وراح يكتب المسرحيات باسم ممثل شاب هو شكسبير .

ولكن هذه القضية لا ترقى لبعض الانكليز الذين يرون بعين الهلع هذا الامر كـ «يمزق تاريخنا بيديه !» - على حد تعبيرهم . . .

عندما اعلن الروائي الاميركي هوفمان عن عزمه على نبش قبر وولسنهام ، تلقت الصحف اللندنية الرئيسية كتاباً مفتوحاً من ايطالي اسمه سانتو بالادينو ادهشت محتوياته محاري الصحافة البريطانية . ذلك بأن الكتاب تضمن تأكيدات تفيد ان شكسبير كان ايطالياً . ويقول بالادينو ان الشكوك في شخصية واضح مسرحيات شكسبير بدأت تساوره عندما كان يقلّب منذ بضع سنوات مؤلفاً من مؤلفات القرن السادس عشر كتبه اديب يدعى ميشيل آنيولو فلوريو .

ولقد ادهشته آراء وافكار في هذا المجلد تشبه الآراء الواردة في «هامليت» ويرجع تاريخ نشر هذا المجلد الى عام ١٥٤٩ ، اي الى خمس عشرة سنة قبل مولد شكسبير . ودفع الفضول بالادينو الى التقصي الدقيق في موضوع ميشيل آنيولو فلوريو . فعرف انه ابصر النور حوالي سنة ١٥٢٥ ، فدخل سلك الكهنوت ولكنه طوره من قبل

محكمة التفتيش لوضعه كتاباً منافياً لتعاليم الكنيسة ومبادئها . فاضطر للفرار الى الداغارك بعد خلع الثوب الرهباني ، ثم استقر نهائياً في لندن حيث تزوج ورزق ابنه دعاه جيوفاني ، وذلك سنة ١٥٥٣ .

واشتهر جيوفاني فلوريو أكثر من أبيه . وكان صديقاً حميراً لشكسبير ، مما وترعرع في الوسط اللندناني الرفيع ، وأصبح من علماء اللغة المرموقين ، واستاذًا في الإيطالية والفرنسية . ونقل إلى اللغة الانكليزية كتاب «المقالات» لمونتلين ، ونشر مجلدين هما «الثمرات الأولى» و«الثمرات الثانية» وليسوا سوى ترجمة المجلد الذي دفع بالأدينو إلى القيام بأبحاثه حول قضية والد جيوفاني ، ميشيل آنيولو فلوريو . ويستفاد من نظرية بالأدينو أن ميشيل آنيولو هذا ، المطارد من محكمة التفتيش ، والراهب الفارّ - ولعله اعتقد المذهب البروتستانتي - كانت مصلحته تقضي بالبقاء في الظل .

وهكذا يكون قد كتب مؤلفاته بالإيطالية ، طالباً في ما بعد ، إلى ابنه ترجمتها ثم نشرها حاملة اسم صديقه وليام شكسبير .

وقد عثر بالأدينو في مخلفات ماسينا على صحفية تحمل اعلاناً عن تقديم مسرحية باللهجة الصقلية عنوانها هو العنوان نفسه الذي تحمله المسرحية الشهيرية المعززة إلى شكسبير «جعجعة بلا طحن» .

وانطلاقاً من هذه النقطة التي وصل إليها بالأدينو ، تراه يتساءل كيف اتفق أن انسحب وليام شكسبير من الحياة الأدبية في السنة نفسها التي توفي فيها ميشيل آنيولو فلوريو ، وكيف اتفق أن ظهر شكسبير في مسرحياته ، متضللاً من معرفته بهؤلاء الكتاب الإيطاليين وقصصهم : بانديللو ، بوكاتشيو ، ماسوكيو ، ساليرنيتانو ، لويجي دا بورتو ، مع أنه لم يختلف لدى وفاته أي مكتبة؟ ولكن ميشيل آنيولو فلوريو ترك لابنه جيوفاني مكتبة عامرة تضم كل هؤلاء المؤلفين وقد أهداها هذا في ما بعد إلى لورد وليام هربرت ، من بمبروك ، وهو الشخص الغامض الشهير بالحرفين «و . ه .» في قصائد شكسبير . فمن ناحية بالأدينو ، تكون مؤلفات شكسبير قد كُتبت بقلم ميشيل آنيولو بالتعاون مع ابنه جيوفاني . .

وهذه أشهر مؤلفات شكسبير المسرحية :

- |                          |                          |
|--------------------------|--------------------------|
| * رشارد الثالث           | * حلم ليلة صيف           |
| * سمبيللين               | * روميو وجولييت          |
| * هنري الثامن            | * هامليت ، أمير الدانمرك |
| * يوليوس قيصر            | * العاصفة                |
| * عطيل                   | * انطوني وكليوباتره      |
| * هنري الخامس            | * الملك لير              |
| * ترويلوس وكريستينا      | * هنري السادس            |
| * حسنُ هو ما ينتهي حسناً | * ماكبث                  |
| * كوريولانوس             | * رشارد الثاني           |
| * الملك دجون             | * تيتوس أندرونيوكوس      |
| * تدبیر لقاء تدبیر       | * كوميديا الأخطاء        |
| * ترويض النمرة           | * النبيلان من فيرونا     |
| * يوليوس قيصر            | * تيمون الآثيني          |
| * جعجعة بلا طحن          | * حکایة الشتاء           |
| * بريكليس ، أمير صور     | * هنري الرابع            |
|                          | * تاجر البندقية          |

\* \* \*

في ذات يوم دار النقاش امام الاديب الساخر الفونس آللية حول من كتب روایات  
شكسبير ، اهونقاً ، وهل عاش ؟ فقال أحدهم :  
- انها قضية تافهة ومهينة بحد ذاتها ، فالمهم قبل اي شيء انها كُتبت ،  
ووُجدت .

فقال الفونس آللية حاسماً الجدال بسخريته المعهودة :  
- شكسبير لم يوجد قط ... وكل مسرحياته وضعها رجل آخر كان يدعى  
كذلك شكسبير ! ..

رجل بلا قيمة يدعى شكسبيه!

بعد ٢ سنة من التحقيق ، يُلقي شرلوك هولمز الأدب الانكليزي «قبلة» ترجم  
شكسبيه!

ونعود الى حادثة الحانة في دبتفورد في لندن ، في ليل ٣٠ أيار ١٥٩٣ . فقد  
شجر خلاف على حين غرة بين اربعة متشردين ، وال tumult خنجر . فامسك احد  
الرجال بالسلاح الذي كان جاره يحمله فوق حقوقه ، مشدوداً الى حزامه ، وما إن  
ادار له هذا الاخير ظهره ، حتى ضربه على أَمْ رأسه مرتين ، وجن جنون الجريح ،  
فانتزع الخنجر من يديّ المعتدي عليه وقتله بطعنة واحدة في عينه اليمنى .

لم يستغرق المشهد الابضع ثوانٍ ولم يذكر اي من الثلاثة الذين بقوا في قيد الحياة  
في الهرب ، وأختر رجال الدرك بالحادث . وفي اليوم التالي شرع ضابط المباحث  
(قاضي التحقيق) وليام دانبي ، في التحقيق ، ووضع تقريره . اسم الضحية :  
كريستوفر مارلو . اسم قاتله : انغرا姆 فرايزر . والشاهدان الآخران هما : نيكولاوس  
وروبرت بولي .

وسرجـن إنـغـرام فـراـيزـر ، ولـكن لـيس مـدة طـوـيـلة . فـحـالـة الدـفـاع المـشـروع عن  
الـنـفـس واـضـحة جـلـية ، عـلـى ما يـبـدو ، وـقـدـ منـحتـهـ المـلـكـةـ العـفـوـ .

من هـمـ هـؤـلـاءـ الرـجـالـ؟ـ ماـضـيـهـمـ لـيـسـ باـهـرـاـ الـبـتـةـ .ـ نـعـلـمـ ذـلـكـ لـأـنـهـ عـثـرـ عـلـىـ  
سـجـلاـتـهـمـ العـدـلـيـةـ .ـ فـرـايـزـرـ اـمـرـؤـ سـلـوكـهـ مـرـبـ ،ـ وـضـعـ مـواـهـبـهـ كـجـاسـوسـ فـيـ خـدـمـةـ  
شـخـصـ مـنـ طـبـقـةـ النـبـلـاءـ الصـغـيرـةـ ،ـ وـلـكـنـهـ غـنـيـ ،ـ وـالـسـرـ تـوـمـاـسـ وـوـلـسـنـغـهـامـ ،ـ لـهـ عـلـاقـةـ  
وـثـيقـةـ بـالـدـوـاـئـرـ الـخـاصـةـ بـالـمـلـكـةـ الـيـزـابـثـ .ـ وـقـدـ وـجـدـ مـتـورـطـاـ بـسـلـسـلـةـ مـنـ حـوـادـثـ  
الـاحـتـيـالـ الـتـيـ كـانـ لـسـيـدـهـ مـنـهـاـ بـعـضـ الـمـكـاـسـبـ .ـ وـسـكـيـرـ كـانـ لـصـاـ وـقـاطـعـ طـرـقـ  
مـعـرـوـفـاـ ،ـ وـبـولـيـ كـانـ مـجـرـمـاـ مـحـكـومـاـ عـلـيـهـ سـابـقاـ وـمـنـ النـمـطـ نـفـسـهـ :ـ وـكـلاـهـماـ فـيـ  
خـدـمـةـ وـوـلـسـنـغـهـامـ ،ـ وـمـثـلـهـماـ مـثـلـ فـرـايـزـرـ ،ـ كـانـ عـمـلـهـماـ الـأـشـرـفـ التـجـسـسـ عـلـىـ  
الـكـاثـولـيـكـ الـذـيـنـ يـسـعـونـ إـلـىـ رـفـعـ مـيـرـيـ سـتـيـوارـتـ إـلـىـ الـعـرـشـ .

أـمـاـ مـارـلوـ ،ـ الضـحـيـةـ ،ـ فـمـنـ الـعـجـبـ أـنـ يـكـوـنـ أـحـدـ اـعـظـمـ الـأـدـبـاءـ فـيـ عـصـرـهـ مـتـورـطـاـ  
فـيـ هـذـهـ الـمـشـاجـرـةـ ،ـ لـوـ لـمـ تـكـنـ حـيـاتـهـ الـخـاصـةـ الـمـضـطـرـيـةـ تـحـتـويـ فـيـ قـرـارـتـهـاـ عـلـىـ كـلـ  
أـسـبـابـ هـذـهـ الـنـهـاـيـةـ الـفـذـةـ !

### قضية شكسبير

هذا الخبر التافه في العصر الإليزابي ، على الرغم من شخصية مارلو ، لم يكن مع ذلك ، ليتجاوز قط إطار التاريخ الصغير ، لو لم يعمد كاتب أميركي هو كالفن هوفمان إلى جعله موضوعاً للثارة في كتاب غريب حقاً هزّ لدى صدوره في نيويورك أركان الأدب الانكليزي . أما عنوانه فهو «مصرع الرجل الذي كان شكسبير» .

تصدى هوفمان ، مثل الكثرين سواه ، إلى «قضية شكسبير» التي تشكل منذ القرن الماضي عملاً صعباً حقاً بالنسبة إلى كل المؤرخين في العالم أجمع . وطرح هو أيضاً على نفسه هذا السؤال البسيط : كيف يمكن شكسبير ، الذي نعرف بكل تأكيد أنه لم يكن إلا مثلاً عادياً وغير مثقف ، أن يصبح على حين غرة ، السنة ١٥٩٣ ، في سن التاسعة والعشرين ، دون أن يبدي في السابق أي دليل على موهبة ، صاحب هذا العمل الأدبي الضخم الذي يُعزى إليه؟

ومثل من سبقوه ، لم يسع هوفمان إلا الانحناء والاجابة : «لم يكن شكسبير من كتب أعمال شكسبير!»

ولكن ، إذا كان المنطق البدائي يقود إلى صياغة مثل هذا التأكيد ، فإن مهمة إعادة تعميد مؤلف «روميو وجولييت» تبدو ، على النقيض ، صعبة . فقد أطلقت اسماء عدة :

الفيلسوف فرنسيس بايكون ، الذي تربى بشكسبير الصلات الوحيدة وهي انهمما عاشا في الحقبة نفسها ، وأنه كان أدبياً كبيراً ، الأمر الذي يحمل على القول - استناداً إلى الأسس نفسها - أن يكون بواه قد كتب مؤلفات راسين . . . وتكلموا كذلك عن الكونت راتلند ، أو الكونت داريي اللذين كانوا ، كما هو معلوم ، من النوعين ، ولكن لا يُعرف بالضبط إذا ما كانوا كاتبين موهوبين . بال اختصار ، انهارت هذه الفرضيات وسوها ما قدم ، وحسب ، انطلاقاً من توافق التواريخت ، امام التدقيق الموسع .

كان ثمة ، مع ذلك ، صدع في جدار الشك هذا ، ولكن أحداً لم يفطن قط إلى

سبر الغور لأن التحقيقات كانت تصطدم على الفور بعقبة مطلقة ، يصعب تجاوزها : فالرجل الوحيد في العالم الذي كان يمكن ، من الناحية الأدبية ، ان يكون مؤلف مسرحيات شكسبير ، قد مات قبل أربعة أشهر من نشر اول عمل أدبي موقع من شكسبير . . . اسم ذلك الرجل؟ كريستوفر مارلو ، الذي قُتل في دتفورد ، يوم ٣٠

أيار ١٥٩٣

كان كريستوفر مارلو عبقرية أدبية حقيقة ، وقد كان يمكن أن يخلد اسمه بتوهُجٌ كبير ، لو لم يكن هناك اسم يكسفه . . . هو اسم شكسبير . وقد كانت مهاراته تحمل عن كل نزاع بحيث أنه اعتُبر دوماً ذا تأثير كبير في الأدب الانكليزي في عصره ، وبخاصة في شكسبير ، الذي تتضمن أعماله محاكاة غربية لأعمال مارلو .

ولفت نظر كالفن هوفمان كذلك التشابه الغريب في الاسلوب ، والصيغ ، ومصادر الوحي في أعمال الرجلين ، ولكنه ، هو أيضاً ، اصطدم بهذا السرّ الهائل ، الذي يبعث على اليأس : موت مارلو في لحظة التفتح الشكسبيري نفسها .

وهكذا ، في السنة ١٩٣٦ ، كانت بداية هذا التحقيق المثير الذي بدأه هوفمان طوال عشرين سنة تقريباً بنفاذ صبر وبحدس الشرطي السري ، فكانت النتيجة التي تكمن في التأكيد البسيط : « كريستوف مارلو لم يُقتل في دتفورد . إنه شكسبير الحقيقي ! »

ودعماً لهذه الفرضية المفجرة ، أعاد هوفمان ، بعد ثلاثة قرون ، ويفضل وثائق صحيحة ، تركيب قصة حقيقة بروايات الفروسية المفعمة بالحركة ، وكذلك بالروايات البوليسية الاكثر براعة .

### كريستوف مارلو

قبل اي شيء ، ولتدشين معرض الشخصيات ، ماذا نعرف بالضبط عن كريستوف مارلو؟ أبصر النور في شباط ١٥٦٤ (قبل شهرين من مولد شكسبير) ، وكان من حسن طالعه أن يرى نور الحياة في كاتربيري . فالواقع أن كاتربيري كانت تفتخر وتعتز بأنها تضم احد أعرق المعاهد التعليمية في إنكلترا ، وقبل ظهور جامعتي

او كسفورد و كيمبريدج . وكانت مدرسة كانتريري مخصصة لبناء الموسرين . ومع كون مارلو ابن إسکافي ، إلا أنه دخلها ، وقد أبدى في صف التعليم الديني ذكاء خارقاً جعل راعي الابرشية يحدث اسقفه عنه ، واستحصل هذا الأخير على منحة مارلو الفتى .

وواصل مارلو دراسته في كيمبريدج بفضل المنحة أيضاً . وكان شديد الشغف بالمؤلفين اليونانيين واللاتينيين ، وبصورة خاصة بأوفيد الذي أثاره منه مذهب المتعة ، وهو المذهب القائل بأن اللذة هي الخير الأوحد أو الرئيسي في الحياة . وفي أثناء تحضيره لشهادة الدكتوراه ، ترجم كتاب «فن الحب» لكاتبه هذا المفضل ، ونشر مسرحيات وقصائد يتفق الجميع على أنها رائعة .

وعندما أُزف في حزيران السنة ١٥٨٧ ، موعد تسلّم مارلو شهادته علم أن رؤساء الجامعة قرروا رفض تسلیمه إليها . السبب : أشير إلى وجوده في مدينة رانس الفرنسية قبل ذلك بيضة أشهر . ورانس هي مركز تجمع الانكليز «المرتدين عن الدين» أصدقاء ميري ستیوارت .

وما هو إلا أسبوع واحد حتى بُرئ مارلو من كل ريبة . وفي هذه الاثناء ، تلقى ، رئيس الجامعة ، في الواقع ، رسالة من مجلس الملكة الخاص ، جاء فيها «صحيح أن مارلو كان في رانس ، ولكن ، بعمله هذا ، أدى خدمة جلّى لصاحبة الجلالة وبالبلاد ».

وهكذا لم يكن مارلو خائناً ، بل كان عميلاً خاصاً . فلما أثّهم هرع يشكوا أمره إلى «سيده» السر فرنسيس وولسنغهام ، وزير الدولة ، ورئيس الشبكة الرئيسية لمكافحة التجسس ، وعضو المجلس الخاص ، ولم يكن بوسع السر فرنسيس إلا أن يدافع عن «مبعوثه الخاص» .

وانقضت سنتان اثنتان . وراح مارلو يحيا حياة بحبوحة . ووجد «الطالب» السابق في شخص السر توماس وولسنغهام ، ابن عم السر فرنسيس ، حامياً وصديقاً . ويفضل هذا الراعي ، بات بواسه نشر أعمال سيقول عنها الشاعر تشارلز سوينبرن ، بعد قرون ثلاثة «انها كتبت بقلم الشاعر الأول الانكليزي ، أبي التراجيديا

الإنكليزية ، «متذكر أبيات الشعر غير المفقأة».

لم يكن مارلو عازف القيثارة الآثيري . كان متخللاً سكيراً ، مشاغباً مستعداً دوماً لاستلال خنجره لدى أدنى تحدٍ أو تخريض . وكان يواجه المشاكل باستمرار ، ولكنه لم يكن ليالي في قليل أو كثير ، علمًا منه أن بوسعي الاعتماد على السر توماس وولسنغهام لإنقاذه من أي ورطة : وكان للسر توماس أصدقاء حتى في وسط الحاشية المقربة من الملكة .

### سيناريو «روميو وجولييت»

في أيلول ١٥٨٩ ، تورط صاحبنا في «قصة قذرة» . ففي هوغ لайн ، الشارع القريب من المسرح الذي تقدم فيه إحدى مسرحياته ، التقى مارلو صاحب حانة عمره ٢٦ سنة ، يدعى وليام برادلي ، وقد سبق أن شجر بينهما نزاع . لماذا يتبدل الشابان الكره؟ ذلك لأن برادلي هو العدو اللدود للشاعر توماس وطنن ؛ ومارلو ووطنن صديقان حميمان منذ أمد بعيد .

وتبدلت الشتائم . وما لبث الخصمان أن تجاهلا وجهها ، السيف بيد ، والخنجر باليد الأخرى . وحولهما تخلق المتسكعون الذين راق لهم المشهد . وبدأ النزال لحظة ظهر وطنن ، وكان شاهراً سيفاً كذلك ، ولكن للفصل بين المبارزين (ذلك كان على الأقل ، التوضيح الذي أدلى به في ما بعد أمام ضابط المباحث) . ما إن لمح برادلي وطنن حتى انقض عليه صائحاً به: «آه ! هذا أنت ! حسناً ! معك ينبغي أن أتعارك !»

عند ذاك انسحب مارلو . وفجأة انزلق وطنن . ولسه خصمه بخنجره ونزف الشاعر الكثير من الدم ، فهرع شطر حفرة وانهار . ووافاه برادلي إلى حيث سقط ، واستعد لتسديد الضربة القاضية اليه . وعندما لمح وطنن فتحة ، فاستجمعت قواه ليطعنه بسيفه في ناحية الرئة . وما هي إلا دقائق حتى أسلم صاحب الحانة الروح . وُقبض على مارلو ووطنن ، ثم أطلق سراحهما ، الأول بعد اثنين عشر يوماً ، وصديقه بعد خمسة أشهر .

هذا النزال الذي انتهى هذه النهاية غير المتوقعة ، ما كان ليثير اهتماماً كبيراً لو لم يسترجعه بالضبط شكسبير ، بعد ذلك بتسع سنوات (١٥٩٧) في أحد المشاهد الشهيرة من مسرحيته «روميو وجولييت». فيا للمصادفة العجيبة ، حقاً ! وهناك مصادفة أخرى : موت مارلو في دتفورد السنة ١٥٩٣ ، الا يشبه بصورة غريبة موت برادلي ؟

لماذا ؟ كيف ؟

الى هذا الخدي يخرج هو فمان تأكيدات مراجعة لكي يخمن وماذا اذا كان مارلو لم يُقتل في نزاع دتفورد؟ وماذا اذا كان هذا النزاع لم يكن إلا إخراجاً ذكياً الغاية منه إخراج مارلو من الحالة المدنية ، ولكن ليس من عالم الأحياء؟ وإذا كان قد واصل حياته باسم مستعار في الخارج ، ولا ريب ، أفلًا يجوز أن يكون هو مؤلف «روميو وجولييت» ، وقد استرجع في هذه المأساة المشهد الذي لا ينسى الذي كان فيه شخصياً الممثل والشاهد؟ إنه بالطبع ، مؤهل أكثر بالنسبة الى ذلك ، من شكسبير ، شكسبير الجاهل .

غير أن هذه الفرضية الجريئة ما كانت لتعتبر إلا وهمأً فيما لو لم يعمد كالفن هو فمان الى الاجابة عن السؤالين التاليين : لماذا ؟ كيف ؟  
اولاً ، ما الضرورة «لإخفاء» مارلو ، بالمجاز؟ فمارلو لم يكن ، بالطبع ، امراً موثقاً به . فصلاته بالدوائر السرية ، وصداقه لولسنغهام فقداته ، نوعاً ما ، حسن الحقائق .

واعتقاداً منه أن كل شيء مسموح به بالنسبة اليه ، لم يكن ليرى أي ازعاج من ابداء رأيه بتعالي في المسائل المقدسة جداً . كان ملحداً ، وبيشر بالاحاد . وكان يتغافل بالتجديف المروع ، ويعلن أن العهدين الجديد والقديم من الكتاب المقدس ليسا إلا كذلة من السخافات والخرافات . حتى أنه ذهب الى حد الادعاء بأن له الحق ، مثل الملائكة ، بسلك العملة ، وكان يتبعج بأنه اتخذ كل الاحتياطات للقيام بهذا العمل .  
ومن حسن الطالع أن وولسنغهام كان ساهراً ، ولم يكن طيش مارلو الذي يحميه

يتجاوز قط حلقة صغيرة من الأصدقاء المتسامحين . وكان يوم وجد مارلو نفسه فيه مهدداً وغداً مستحيلاً على وولسنغهام أن يتدخل مباشرة .

كان مارلو يشاطر صديقاً يدعى توماس كِدْ ، غرفة في لندن ، وكان هذا الأخير ملحداً مثله ، إلا أنه ، لسوء طالعه ، لم تكن له العلاقات القوية التي كانت لرفيقه . في ١٢ أيار ١٥٩٣ ، ألقى القبض على كِدْ ، وسُجن بتهمة الاحاد . ونتيجة التعذيب ، اعترف بأن ثلاث صفحات من وثيقة تحديفيه عشر عليها لديه كانت من كتابة مارلو .

بعد ستة أيام اعتُقل مارلو نفسه في سكادبرى ، في أراضي وولسنغهام . واستحصل له محامي على اطلاق سراحه بصورة مؤقتة بانتظار المحاكمة ، ولكن كان من المستحيل الحصول دون أن يأخذ العدل مجرأه . إلا أنه ، في ذلك الوقت ، كانت تهمة الاحاد المثبت تقود المتهم بها إلى التعذيب أولاً ، ثم إلى المشنقة في ما بعد . إذاً ، فمارلو كان مهدداً بالموت !

وعندها ، في ٣٠ أيار ، «قتل» مارلو في دبتفورد . . . مصادفة غريبة ، وتحمل على التفكير في هذه «الاختفاءات» المفاجئة وفي أوانها معاً بالنسبة إلى بعض العملاء السريين في العالم الحديث . من جهة أخرى ، ألم يكن كل من مارلو ، وولسنغهام ، وفرايزر ، ورفاقهم يتمون جميعاً إلى دائرة الاستخبارات لدى الملكة إليزابيث ؟

### ثغرات وحمّاقات كثيرة

إلا أن كالفن هو فمان يحرص على عدم استباق الأمور . فالحاضر الرسمية المتعلقة بقضية دبتفورد ما تزال موجودة ، ويكتفي مراجعتها لمعرفة ظروف المأساة وملابساتها . سوى أن الظروف ، في الواقع ، كانت غير منطقية على الإطلاق ، وأحياناً غامضة ، بحيث يصعب عدم رؤية التحريف في ذلك ، هذا التحريف الذي بدى قدر مارلو .

لأننا نحن ، مثلاً ، تقرير رئيس المباحث . بالنسبة إلى هوفمان ، يمثل هذا التقرير الكثير من الثغرات ، ويشتمل على الكثير من الحمّاقات لكي لا يعود موضوع شبهة :

فرايزر ، المتنازع مع مارلو ، هل أدار ظهره ، في حين كان يحمل خنجره على وسطه؟

ما هذا؟ ! ويا للطريقة النادرة لحمل الخنجر ! وفرايزر الذي تلقى ضربتين اثنتين على أم رأسه من مارلو الخارج عن طوره ، لم يصب إلا بجراح تافهة؟ هذا أمر غير معقول ! وفي هذه الأثناء ، أكان الشريكان يشهدان المشاجرة دون تحريك ساكن؟ حتى بالنسبة إلى الانكليلز ، فإن ذلك مبالغة في البرودة .

ونقطة نقطة ، فكّ هوفمان ، هكذا ، تقرير دانيبي . وأخيراً وليس آخرأ . . . في السنة ١٨٢٠ ، كتب تاجر عadiات (انتيكا) لندني إلى راعي كنيسة دبتفورد يسأله إذا ما كان هناك ، مصادفةً ، إشارات في سجلاته ، إلى دفن مارلو . وعلى سبيل الردّ ، تلقى هذه المعلومة : «في سجلنا الخاص بالوفيات في كنيسة القديس نقولا في دبتفورد ، تبرز الاشارة التالية : الاول من حزيران ١٥٩٣ ، قُتل كريستوفر مارلو على يد فرنسيس آرتشر ». إذاً ، من كان القاتل؟ فرنسيس آرتشر (الذي لا نعرف شيئاً عنه) أم انغرام فرايزر؟ شك غريب !

أما في ما يختص بمنعش مارلو ، فلا أحد يدرى ، ولن يدرى أحد مطلقاً أين هو . على أي حال ، هل كان هناك ضريح؟ ربما ، لا ، إذا كان ما يؤكده هوفمان صحيحاً ؛ ذلك بأن كريستوفر مارلو ، حسب رأيه ، لم يُقتل . فقد تم تركيب قضية دبتفورد كلياً من جانب وولسنغهام ورجاله المتعصبين لأن الضرورة قبضت بتجنّب مارلو يد العدالة .

### مؤامرة دبتفورد

انطلاقاً من هذا المعنى ، كان من السهل إعادة تركيب سيناريو «المشاونة في دبتفورد» بشكل يرضي أكثر الفهم السليم والمعقول مما يرضي نصها الرسمي . كان وولسنغهام يعرف ويقدر الموهبة الأدبية الفذة التي يتمتع بها مارلو . ينبغي تجنب هذا الأخير حبل المشنقة المهدد به نتيجة اعترافات كيد ، ولكن يصعب القيام بذلك جهاراً ستراً للفضيحة . فقد كان مارلو ، أو ما يزال ، على علاقة بدوائر

الاستخبارات ، ويستطيع الاحتفاظ بسر المؤامرة التي ستنقذ حياته .

وهناك ثلاثة أشخاص جديرون بالثقة ، أيضاً ، كتومون ومتمرسون بممثل هذا النوع من العمل ، كُلُّفوا تنفيذ الخطة التي وضعها وولسنهام ، او ر بما ، مارلو نفسه الذي يتذكر جيداً حقائق التسوية المرضية له ولصديقه وطسن في قضية برادلي .

كان على هؤلاء الأشخاص الاهتمام بإيجاد «جثة» ، ويستحسن أن تكون من نواحي دبتغورد . وكان وولسنهام يعرف قام المعرفة رئيس المباحث الذي يشرف على هذا القطاع ؛ ويعرف أن وليام دانيي مستعد للظهور عما يظهر الساذج السريع التصديق إلى أبعد حد ممكن ، شرط ، بالطبع ، أن يُدْسَ له بضعة أكياس من الذهب . . .

وكانت التتمة بسيطة جداً . فدببتغورد ميناء مزدهر يتعدد عليه دوماً بحارة غرباء .

ولذا لا يصعب على فرايزر وأصدقائه أن يجدوا الضحية التكفيرية في أحدى الحانات ، وجرّها إلى منزل يطرون ضيافته ؛ فيُسکرون المسكين ، ويشربون هم أنفسهم . وعندما يقدّرون أن المهزلة طالت بما فيه الكفاية ، ينتقلون إلى العمل . ولا يتبقّى على فرايزر إلا أن يتصرف . . .

او حتى - وهذه ، رواية أبسط كثيراً ، من شأنها ان تفسّر عدم العثور على ضريح مارلو - لم توجد اي جثة بتاتاً؟ فيُسجن فرايزر ، في حين أن بولي او سكيرز يخفّان إلى كنيسة القديس نقولا يحملان إليها نبأ وفاة مارلو . ويتمّ هكذا تمثيل الدور . ويقال لأصدقاء الراحل إنه ذهب ضحية الطاعون - وهذا ما سيصدقه الكثيرون ، في الواقع - وقد ألقى على عجل في أحدى المقابر العامة .

عند الفجر كان مارلو قد بلغ ميناء دوفر . حتى أنه ربما استقل مركباً شراعياً واتجه شطر كاليه (في فرنسا) ، إلى المنفى الأبدى .

وعقب خروجه من السجن بعد شهر من الزمن ، ممتعاً بالعفو ، لم يقض فرايزر وقتاً طويلاً في لندن . فمن الغد عاد إلى مكانه في قصر وولسنهام ، في تشيزلهيست . فالسر توماس ليس حاقداً عليه كثيراً لـ «قتله» أفضل صديق له ومحميّه !

## وشكسبير الحالد؟

ما إن وصل مارلو إلى القارة الأوروبية حتى بات بوعيه الاقامة حيث يزيد . وأي بلاد يمكن ان تغريه اكثر من موطن فرجيل واوفيد ، إيطاليا؟ هذه البلاد التي كانت موئلاً للكثير من مسرحيات شكسبير ، والتي يبدو أنه يعرفها تمام المعرفة . ولا يستبعد فضلاً عن ذلك ، ان يكون مارلو ، بعد بضع سنين ، قد عاد سرّاً إلى انكلترا ، وانهى حياته في منطقة تشيزلهميرست .

بالنسبة إلى هوفمان ، ليس من المشكوك فيه أن يكون مارلو قد ارسل بانتظام مخطوطاته إلى وولسنهام ، واهتم ولوسنهام بتقديمها على المسرح أو بنشرها . ولم يكن النص الأصلي هو ما كان يقدمه السرتوomas إلى الممثلين أو الناشرين ؛ فقد كان خط مارلو معروفاً جيداً في أوساط المسارح والأدب . وكانت الضرورة تقضي بتجوؤه هذا الراعي إلى خدمات أحد النساخ .

هذا النساخ الذي لواه لانهارت الصقالة التي نصبها هوفمان في لحظة واحدة ، نعرف اسمه . كان يدعى توماس سميث وقد اكتشفه هوفمان وهو يطالع وصية السر توماس ولوسنهام ، وكان في جملة الورثة ولكن ، في خمسين وصية مختلفة تعود إلى تلك الحقبة من الزمن درسها هوفمان ، لم يعثر قط على أي إرث او صي به لناسخ . ومن هنا ينبغي الافتراض أنه كان لولسنهام اسباب وجيهة لمكافأة هذا للباقيه ، ومن أجل كتمانه السر ... ولا ريب .

وشكسبير الحالد؟ حسناً! إلى كل هذه الروائع التي كان ولوسنهام يضعها في التداول ، كان ينبغي حتماً ، بين وقت آخر ، تقديم «أب» فقبل مثل من الطبقة الثانية- مقابل مبلغ نقدي - القيام بهذا الدور . ويصبح محتملاً ، بالاحرى ، أن يكون شكسبير ، في رأي هوفمان ، في وضع يمكّنه من كتابة أعمال ... شكسبير (او مارلو) . هو ذا دليله !

إن كتاباً ، وكتاباً من عيار شكسبير خصوصاً ، ذا المعارف الموسوعية ، لا يظهر في العالم الأدبي بضررية عصا . فمؤلف «هامليت» وخمس وثلاثين مسرحية أخرى ، ومائة وخمسين سونيتة (قصيدة من ١٤ بيتاً) ، وملحمتين ، «يتضلع من» القدامي

كلياً : فهو لا يتقن ، وحسب ، اللاتينية واليونانية ، ولكن الفرنسية والإيطالية؟ فضلاً عن ان الصرف والنحو ، والفن الشعري ، والفلكلور لم تكن جمیعاً سراً مغلقاً عليه ؛ وأخيراً فهو متتمكن من التاريخ ، والفلكلور ، والقانون . . . . البستنة .

أين أمكن شكسبير أن يكتسب كل هذه المعارف؟ لم يكن في إنكلترا في عصر النهضة إلا جامعتان : اوكسفورد ، وكيمبريدج ، ونعرف بصورة جازمة أنه لم يتردد إلى أي منهما ، وأنه لم يدرس قط في معهد كاتربريري .

أتراه اكتسب ثقافته وحده؟ مستحيل . فالقاموس الأول ، وكتاب الصرف والنحو الأول لم يكونا قد ابصرا النور بعد . وحدهم الطلاب كان يحق لهم - ولم يكن بالمجان - الاطلاع على الكتب في المكتبين الجامعيتين . وكانت هذه الكتب من الندرة والقيمة بحيث أن معظمهم كان يُشدَّ إلى المقرأ !

ولكن ماذا لو كان شكسبير قد نعم بمساعدة راعٍ سخيٍّ من رعاة الآداب والفنون؟ ألم يكتشف واحد من هؤلاء الرعاة ومضة العبرية في هذا الفتى ، ابن أحد تجار ستريتفورد؟ ألم يكن في وسعه أن يوفر له المربين ، وينزله في أحد قصوره ، ويجعله يحيا في الجو الاستقرائي الذي برع شكسبير كثيراً في وصفه؟

اسئلة كثيرة يجيب عليها هوفمان بـ «لا» جازمة . ذلك بأنه من غير المعقول ، حتى في مثل هذه الظروف ، أن يتظر كاتب من وزن شكسبير سن التاسعة والعشرين لكي يبرز بطريقة ما ، في حين أن مارلو ، في العصر نفسه كان قد نشر عدداً من الاعمال الرائعة .

### موهبة متأخرة جداً

في الواقع ، كان أول عمل أدبي موقع من شكسبير قصيدة «عشتروت وأدونيس» ، المنشورة في أيلول ١٥٩٣ ، بعد أقل من أربعة أشهر من اختفاء مارلو ، لكان شكسبير تسلّم العبرية الأدبية من يدي «المحتفي» من دتفورد المخاذلين .

وكان شكسبير في تلك الفترة يقترب من العقد الثالث . وفي عصر كان البشر يودعون هذا العام ، في المتوسط ، في حوالي سن الأربعين أو الخامسة والأربعين ،

بلغ ، وحتى تجاوز «ربيع الحياة» وطبعياً ، كان ينبغي ان يكون جعل الناس يتحدثون عنه ، ولكن ، ماذا نعرف بصورة دقيقة عن شكسبير حتى صدور «عشتروت وأدونيس»؟ ثلاثة أمور ، وحسب : تاريخ تصويره (٢٦ نيسان ١٥٦٤) ، وتاريخ زواجه (من آن هاثاوي في السنة ١٥٨٢) ، وتاريخ مولد بنته الثالث (الاخيرة ابصرت النور في شباط ١٥٨٥) .

بين السنة ١٥٨٥ و ١٥٩٣ ، بين سن الحادية والعشرين والتاسعة والعشرين ، أثناء الحقبة التي يعبر فيها المرء بأكثر ما يمكن من البلاغة ، إن لم يكن بأكثر ما يمكن من الموهبة ، ألم ينجز شيئاً ، شيئاً يستحق الاشارة اليه في وثيقة ما؟ في المقابل ، وفي السنوات التي تلي اختفاء كريستوفر مارلو ، ومنذ تلك اللحظة ، وحسب ، يا للفيض والبروز الهائل بالنسبة إلى الروائع الأدبية !

نشرت اول مسرحية حملت توقيع شكسبير «جهد الحب الضائع» في السنة ١٥٩٨ . وهكذا يكون شكسبير انتظراً لكي يصبح في السادسة والثلاثين لكي يعرف كاتب مسرحي؟ الواقع هو انه منذ نشر «عشتروت وأدونيس» ، لم يترك إلا آثاراً قليلة في الحواليات . واذا عرفنا انه امتلك منزلًا في ستراتفورد ، وأقرض مبلغ ثلاثين ليرة استرلينية امرأً يدعى رتشارد كوبيني ، وأنه أُسند اليه دور في احدى مسرحيات بن دجونسون ، فإننا لا نجد أي اشارة الى نشاطاته الأدبية .

بعد ذلك ، سيقترب اسم شكسبير ، وهو حي يرزق ، بثمانية مسرحيات ايضاً . ومع «جهد الحب الضائع» سيصبح العدد تسعاً . غير ان المجموعة الرسمية لمسرحياته المنشورة عقب وفاته تضم ثلاثين مسرحية .

حتى هذا الحساب لا يقيم اعتباراً لغرابة اخرى . فقد ظهرت ثمانية مسرحيات بين السنة ١٥٩٥ و ١٦١١ ، موقعة إما باسم شكسبير ، وإما بالخرفين الاولين من اسمه . واحدة منها «بيركليس ، أمير صور» شملتها مجموعة المسرحيات الكاملة . فلماذا هذا الامتناع ، إذا لم يكن محض رغبة المجموعة أنفسهم قد ترددوا في ضم أعمال ييدو أصلها أو مصدرها أكثر من مشكوك فيه؟

وأخيراً ، ثمة واقعة مؤكدة : حتى بعد وفاة شكسبير ، لم يتكلم احد من

معاصريه عنه بصفة كونه مؤلفاً !

### صمت على طول الخط

في ٢٥ آذار ١٦١٦ ، حبّر شكسبير وصية مفصلة تماماً . فيها ترك ممتلكاته الى نحو عشرين شخصاً . زوجته ، بناته ، أسرة زوجته ، أحفاده ، أصدقائه ، ولم ينس أحداً . وقد بلغ من اهتمامه أنه حدد من سيرث هذا القدر ، وذلك السيف ، وتلك الصحون . وأورث أناساً كانت له ذكريات طيبة معهم ، مبالغ ضئيلة من المال لكي يتعاونوا بها خواتم يتذكرون بهـ .

إلا أن وثيقة كهذه ، على ما يلاحظ هوفمان ، تكفي وحدتها لتحطيم اسطورة شكسبير الكاتب . كيف؟ هوذا كاتب «يشعر بأن نهايته باتت وشيكة» ، يوزع في وصيته الأشياء الأكثر ابتداً ولا يشير أبداً إشارة الى مسرحياته ، وقصائده ، وحتى الى مخطوطاته . حتى ولا أدنى إشارة الى كتبه القيمة جداً آنذاك : ألم يكن لدى شكسبير شيء من ذلك؟ ولكن ، لكي يكتب روائعه الأدبية الخالدة ، كان ينبغي ان يكون في متناول يده عدد من المؤلفات ، على الأقل للتثبت بالمستندات عن تاريخ انكلترا ، وروم القديمة او ايطاليا المعاصرة .

عندما انطفأ سراج شكسبير كان له من العمر اثنان واربعون سنة . وبالنسبة الى زمن كان الناس فيه يقضون ، في المتوسط ، في حوالي سن الأربعين او الخامسة والأربعين ، فقد كان ذلك أمراً لا فتاً للنظر نوعاً ما .

وياختفائـه ، مع ذلك ، لم يتميز سـشكـسبـير إلا بـسنـةـ المتـقدـمةـ . ويـلاحظـ هـوفـمانـ انـ أحـدـاـ لمـ يـهـسـ بـكتـابـةـ تـكـرـيمـ لـلـمـنـاسـبـةـ يـحـيـيـ فـيـ الرـاحـلـ الشـهـيرـ . وـمعـ ذـلـكـ ، فـإـنـ اـمـرـأـ مـثـلـ شـكـسبـيرـ كانـ يـنـبـغـيـ لـهـ أـنـ يـعاـشـ جـمـاعـةـ مـنـ مـقـفـينـ - إـذـاـ كـانـ بـالـوـسـعـ استـعـمالـ هـذـهـ المـفـارـقـةـ التـارـيـخـيةـ ، هـذـاـ الصـمـتـ يـبـعـثـ عـلـىـ القـلـقـ . وـلـاـ نـسـىـ ، فـيـ الـوـاقـعـ ، اـنـ العـادـاتـ الـإـلـيـازـبـيثـيـةـ كـانـتـ تـفـرـضـ اـنـ يـُظـهـرـ اـصـدـقـاءـ الـمـيـتـ حـزـنـهـ بـقـصـيـدـةـ ماـ ، اوـ بـرـثـاءـ ، اوـ حتـىـ بـيـتـيـنـ مـنـ الشـعـرـ مـتـكـامـلـيـ الـمـعـنـىـ . وـقـدـ كـانـ مـنـ حقـ الـبـنـاءـ الـمـاهـرـ اوـ الصـائـغـ المـوـهـوبـ اـنـ يـُنـقـشـ عـلـىـ ضـرـيـحـهـماـ بـعـضـ الـاـبـيـاتـ الشـعـرـيـةـ .

ان النص الوحيد الذي عثر عليه حول هذا الحدث الجلل كان في مذكريات صهر شكسبير دجون هول ، وكان طيباً في ستراتفورد . فيه نقرأ : «توفي حموي يوم الخميس .» وبالنسبة الى التأيin فمن الصعب ان يكون المرء اكثرا ايجازاً . وبعد سبع سنوات من وفاته ، وفي السنة ١٦٢٣ ، ولدى ظهور المجلد الأول من «أعماله» ، شرعوا في بعض الأوساط ، يتعرفون الى شكسبير الكاتب ، ومن السنة ١٦١٦ الى السنة ١٦٢٣ ، يا للنسىان النام ! فكيف نفسر هذه الظاهرة بغير القول انه بالنسبة الى معاصريه ، وخصوصاً اوائل الذين عرفوه ، لم يكن شكسبير يستحق البتة الخلود .

ثم ، مع مرور الزمن ، اصطبعت الاسطورة . وغدت الاسطورة التقليد . وكان ينبغي انتظار السنة ١٧٠٩ - قربة القرن من الزمن - لكي تظهر ، على سبيل المقدمة لمسرحياته «سيرة شكسبير» . وماذا كان بوسع المترجم نيكولاوس رو ، أن يفعل غير تردید «يقولون» ، مع احتمال المغالاة لكي يمنح عمله نوعاً من التماسك . ومع ذلك ، لو كان شكسبير حقاً العبرى كما نعتقد ، فكيف يمكننا أن ندرك اننا انتظرنا هذه المدة الطويلة لكي نكتشفه ؟ اوائل الذين كان يمكن ان يهتموا به قليلاً قبل ذلك ، ما كانت لتعوزهم مصادر المعلومات . فاحدى بنات شكسبير ، سوزانا هول ، عاشت في ستراتفورد حتى السنة ١٦٤٩ ، والثانية دجوديث كوبيني عاشت حتى السنة ١٦٦٢ . ولم تمت حفيتها إليزابيث هول ناش إلا السنة ١٦٧٠ . ولم يكلف أحد قط نفسه عناء التحدث الى أحد من ذرية «بل» الكبير (بل ، هو الاسم الذي يطلق على كل من يدعى وليام للتحبّب) . . . كان ينبغي ان يكون شكسبير أمياً كاماً ، وإلا لما حدث الامر على الوجه الذي حدث فيه .

إن القطع التي تؤلف الاحجية ، تتشابك ، الآن ، بعضها مع بعض تماماً . ولكن ذلك لا يكفي لاعتبار ان اللغز قد جُلِّي : فليس هناك بعد براهين ، وكل ما هناك افتراضات وتتخمينات !

بالنسبة الى هوفمان ، مع ذلك ، لم يُقفل الملفّ . فقد كان سنة كتب هذا المقال المثير (في الخمسينات) قرب مكان العمل ، في تشلزهيرست ، يتنتظر السماح له بفتح نعش السر توماس ولوسنغهام . فإذا كانت أعمال شكسبير الاصلية التي وضعها

مارلو فيه ، مصادفة ، فيا للحدث الخطير ! اذا لم تكن موجودة فيه ، فإن هوفمان يبقى مصمماً على متابعة تحقيقه .

لم يُسمح بعد لأحد بالقاء نظرة على بعض أوراق أسرة وولسنغهام . ولن نعرف ما إذا كان شرلوك هولمز الأدبي قد اكتشف اكبر تضليل في كل العصور ، او اذا ما كان قد « طبل وزمر » لقاء لا شيء - اي جمعة بلا طحن - على حد قول شكسبير ... او مارلو - إلا بعد تفحّص أوراق وولسنغهام !

### مصادفات ، او انتحال ، او تذكريات مبهمة ؟

بمقارنة أعمال مارلو وشakespeare ، بين كالفن هوفمان اكثر من ألف من المحاكات والمشابهات بارزة جداً بحيث تُبعد كل امكانية للمصادفة . ومن جهة اخرى ، اذا كان من المشكوك فيه أن ينحط مؤلف من عيار ششكسبير فيرتكب سرقة أدبية من مارلو ، فإنه من الممكن ، بالمقابل - إذا كانت نظرية هوفمان صحيحة - ان يكون مارلو ضمن بعض أعماله تذكريات من اعماله السابقة .

وهذه على سبيل المثال ، ترجمة نصين تُبرز ما يذهب اليه هوفمان من التشابه الغريب لدى الشاعرين : من مارلو في « الراعي المغرم ، لحبيته » ، ومن ششكسبير في « ارامل وندسور المرحات » (الفصل الثالث ، المشهد الأول) ثبتهما بالانكليزية لإبراز التشابه هذا :

MARLOWE : "LE BERGER PASSIONNÉ

A SON AMOUR".

"By shallow rivers to whose falls  
Melodious birds sing madrigals.  
And I will make thee beds of roses,  
And a Thousand fragrant posies."

« بالقرب من الأنهر الضحلة التي تُشند  
 العصافير الشجية لشلالاتها قصائد غزلية .  
 وسأصنع لك أسرّة من الورود ،  
 وألف باقة زهر عطرة .»

### SHAKESPEARE: "LES JOYEUSES

#### COMMÈRES DE WINDSOR"

(Acte III, scène I).

"To shallow rivers, to whose falls  
 Melodious birds sing madrigals;  
 There will we make our beds of roses  
 And a Thousand fragrant posies."

« للأنهر الضحلة ، التي تُشند العصافير  
 الشجية لشلالاتها قصائد غزلية ؛  
 هناك سنصنع أسرّتنا من الورود  
 وألف باقة زهر عطرة .»

فضيحة تزوير كتابات شكسبير

تودي بحياة الكاتب صمويل آيرلند

يبدو ان الخزي والعار اللذين لحقا بالكاتب والنحات وتاجر التحف والكتب  
 النادرة صمويل آيرلند ، عجلًا في وفاته ، بعد ان ورّطه ابنه وليام هنري آيرلند  
 بفضيحة كبرى . وعلى الرغم من الاعتراف الصريح الذي ادلى به الابن بعد توريط

ابيه ليُرَفَع عنْه تهمة التزوير ، واقراره سنة ١٧٩٦ صراحة بارتکابه شخصياً هذا التزوير المتقن في منشورة بعنوان «رواية صحيحة عن مخطوطات شكسبير» ، فإن الموت حسرة عاجل الأب في تموز من السنة ١٨٠٠ .

والآن ما هي قصة هذه الفضيحة الأدبية الكبيرة؟

سنة ١٧٩٤ زار وليام آيرلند مع والده بلدة ستراتفورد ، مسقط رأس شكسبير ، حيث التقى دجون دجورдан ، وهو شاعر محلبي قام بتزوير وصية والد شكسبير . ولما تبَّينَ الابن وليام اهتمام والده الساذج ، نسخ بحبر له كل الدلائل التي تميَّز قدَّمهُ ، اسلوب شكسبير وخط يده ، وابرز عقود ايجار ، واتفاقات مع مثيلين ، وفواتير ، وايصالات ، واعلاناً للوفاء بعهد ، وحتى رسالة غرام الى آنا هاثاوي (التي تزوجها) ، مع خصلة شعر . فسرَّ والده ايماء سرور بهذه اللقى ، وانخدع بها الكثيرون من الادباء والباحثين في الشؤون المتعلقة بشكسبير .

وابتكر وليام آيرلند جَدَّاً هو وليام هنري آيرلند ، وصلت اليه تلك الوثائق عن طريق الارث ، اعترافاً من شكسبير نفسه بفضلِه عليه وإنقاذه من الغرق . وأخيراً ، أُعلن المزور الماهر عن اكتشافه مسرحية كاملة بعنوان «فورتيجرن» ، فابتاعها شيريدان لعرضها على خشبة مسرح دروري لайн . والتأم في ٢ نيسان ١٧٩٦ عقد جماعة حاشدة لاعطاء الرأي في هذه المسرحية الجديدة ! غير ان هذا العرض الأول والوحيد قوبل بالصراخ والضحك الرنانين .

وكان الأب صمويل آيرلند قد نشر سنة ١٧٩٥ «أوراق وصكوك قانونية» بخط يد وليام شكسبير وبخاتمه ، بما في ذلك مسرحية الملك لير وجزء صغير من مسرحية هامليت (مؤرخة سنة ١٧٩٦) . وكان مقتنعاً تماماً بصحتها ، ولكن النقد العدائى الذي قدَّمه ادموند مالون وسواء من الكتاب ، والرواية غير المرضية التي قُدمت في ما يتعلق بمصدر هذه الأوراق ، حمله على مطالبة ابنه وليام بكشف الحقيقة كاملاً .

وكان ما كان من إقرار الابن بالتزوير ، ووفاة الأب لفُرط التأثر بما لحقه من عار وخزي لم يكن له يد فيها !

## **هجوم فرقة الخيالة الخفيفة خطا في القيادة أرسل الخيالة البريطانية إلى الانتحار في «وادي الموت»**

قرن من الجدل

تحالفت كل من بريطانيا العظمى ، وفرنسا ، وتركيا ، وبيمونتي من أجل مهاجمة شبه جزيرة القرم بغية صد توسيع روسيا القيصرية في البلقان . وكانت قوات هؤلاء الحلفاء مرابطة في بالاكلافا ، وهو ميناء صغير على البحر الاسود يقع جنوب غرب قلعة سيفاستوبول الحصينة الروسية . وكان يفتح على مسافة ثلاثة كيلومترات واد شمال بالاكلافا يمر على طوله طريق يصل ما بين سيفاستوبول وبالطا التي كانت في ما بعد مكان أشهر مؤتمر عقد في الحرب العالمية الثانية .

حول هذا الوادي تمت المواجهة بين الجيشين المعاديين صباح يوم ٢٥ تشرين الأول ١٨٥٤ . فاستولى الروس على أربعة معاقل مسلحة من مدفعية البحرية البريطانية ، وتقدموا شطر بالاكلافا . ولكنهم صدّوا بفضل مقاومة باسلة أبداها الإيرلنديون من فوج «النجاد» ٩٣ ، وبهجوم معاكس قامت به الفرقة الثقيلة التابعة للخيالة البريطانية : فانسحبوا ، وأقاموا مواقع مدفعية على المنحدرين وفي أسفل الوادي ، جاعلين من هذا الوادي «وادي الموت» حقاً ، الذي خلده لاحقاً الشاعر ألفريد تنيسون بقصيدته الشهيرة «هجوم فرقة الخيالة الخفيفة» . وكانت هذه الفرقة تتالف من أفواج الخيالة التالية : الثامن والحادي عشر من الخيالة ويعرفون بالهوسار ، والرابع والثالث عشر من الدراجون ، والسابع عشر من الرماحين . وكانت تنتظر

الأوامر ، محشدة لدى مدخل الوادي ، بقيادة الجنرال دجيمس توماس برادنل ، الكونت السابع كارديغان .

وعلى احد المرتفعات ، كان الجنرال فنزوسي دجيمس هنري صمرسيت ،  
البارون الاول راغلان ، وهو ضابط شجاع فقد احدى ذراعيه في معركة وترلو ،  
يراقب سير العمليات الحربية . ولدى رؤيته الروس يتأنبون لحمل المدافع التي  
استولوا عليها ، قرر إعطاء أمر الى الجنرال قائد الخيالة لورد لوكان . وكان على احد  
المرافقين نقل الأمر ، ولكن النقيب لويس ادوارد نولان كان فارساً أفضل ، فلما  
للقیام بال مهمة ، وكلف ذلك . وكانت الرسالة بالنص التالي : «لورد راغلان يرغب  
في أن تتقدم الخيالة بسرعة نحو الجبهة وتحاول منع العدو من حمل المدفع ». وبينما  
كان نولان يهمز حصانه لضاغطة السرعة ، صاح راغلان مضيفاً : «قل للورد لوكان  
ان الخيالة ينبغي ان تهاجم على الفور ».

من أسفل الوادي ، كانت رؤية لوكان ساحة القتال محدودة جداً أكثر من رؤية راغلان على قمة تلته . وعندما نقل اليه نولان الأمر ، سأله : «مهاجمة من؟ أية مدافع؟» فأجاب عن ذلك بقوله : «هذه هي مدافعكم ، يا سيدي اللورد !» مشيراً لا إلى مدافع المعاقل البريطانية المستولى عليها بل إلى المدافع الروسية المركزة في أسفل الوادي . وبينما خفت لوكان إلى التشاور مع كارديغان ، طلب نولان إلى أحد الضباط من أصدقائه السماح له بالانضمام إلى فوج الرماحين السابع عشر للاشتراك في الهجوم ، وهو أمر لم يجبره أحد على القيام به . وقد قتل النقيب نولان في الهجوم . ومهما يمكن أن تكون مسؤولياته في الهجوم ، فلا أحد يجادل في أنه قضى ببسالة الجندي المقدام . وتجدر الاشارة هنا إلى أنه بعد مرور أكثر من قرن من الزمن على هذه القضية ، فإن المؤرخين الانكليز لم ينجحوا بعد في الاتفاق على نصيب كل من هؤلاء الاربعة راغلان ، ولوكان ، وكارديغان ، ونولان الذين تنتهي اسماؤهم جميعاً باللاحقة المشتركة في المسؤولية الحقيقة ، والذين يبدو أن القدر حتم وجودهم مجتمعين من أجل هذه المناسبة الغريبة .

## الانضباط البريطاني

ثمة أمر أكيد هو البسالة الفائقة الطبيعة التي أبدأها لورد كارديغان في الهجوم الشهير . ففي الساعة ١٠ ، ١١ صباحاً ، قُرع نفير مفرد . فشهر كارديغان سيفه ، وأعلن ببساطة : «فرقة الخيالة الخفيفة ستهاجم الآن». ثم اندفع على صهوة جواده ، متقدماً خط فرسانه الأول بمسافة تناهز الخمسين متراً . وكان عدد هؤلاء الفرسان ٦٧٣ بالضبط . إلى يسارهم ، كان العدو قد نشر ١٤ مدفعاً ، و٤ سرايا من الخيالة ، و٨ أفواج من المشاة . وإلى يمينهم كان هناك ١١ كتيبة من المشاة ، وبطارية ميدان ، و٣٠ مدفعاً ضخماً . وأمامهم كان هناك ١٢ مدفعاً ، و٦ سرايا من المهاجمين ، وحوالي ١٠ آلاف فارس روسي . كل هذه الجيوش كانت بإمرة الجنرال ليبراندي . معاً ، اندفعت خطوط فرقة الخيالة الخفيفة في «وادي الموت» في بالاكلافا . وخلال لحظة طويلة ، كانت الأصوات الوحيدة التي تسمع صليل السيوف وأطقم جياد الفرسان البريطانيين وحوارتها . وعلى حين غرة خيم صمت غريب على كل الخطوط المعادية . لقد ذهل الروس ، بلا ادنى ريب ، بسبب جنون هذا الهجوم . وكان طول الوادي نحو فرسخ تقريباً (الفرسخ هو أربعة كيلومترات تقريباً) . ولما صعدت طليعة فرقة الخيالة الخفيفة نصف فرسخ - اي حوالي ٢٥٠٠ متر على ما يردد تنسون ببلاغة في قصidته العصماء ، فتح الروس النار من كل مدفعهم وبنادقهم .

وبينما تساقط الرجال والجياد بالدزينات ، ممزقين بكرات المدفع والبنادق ، استمر لورد كارديغان في التقدم بهدوء ، على متن جواده الأشقر رونالد ، وخلفه كانت خطوط الفرسان المبادين تتشكل وفقاً للنظام ، في عرض رائع للنظام البريطاني الرصين . لم «تهجم» فرقة الخيالة الخفيفة ، بالمعنى التقني للكلمة ، لقد «تقدمت» كما أمر قائلها . . . الذي لم يبقَ لديه الآن نافخ بوق واحد لقرع نفير الهجوم ، على أي حال . ولدى مشاهدته لهذا الهجوم ، لفظ الجنرال الفرنسي بوسكيه وهو لا يصدق عينيه هذه الملاحظة التاريخية : «إنه أمر رائع ، ولكن ذلك ليس حرباً!»

عندما بلغ إلى مسافة حوالي ثلاثين متراً من البطارية الروسية في أسفل الوادي ،

غرز كارديغان مهمازيه في جنبي رونالد ، واندفع مباشرة بين ومضات مدفوعاً الوسط ، فكان اول الداخلين في صفوف العدو . وتبعه الرماحون السبعة والثلاثون التابعون لفرقة الرماحين ١٧ ، والثلاثة عشر فارساً من كتيبة الدراجون الثالثة عشرة الذين بقوا أحياء ، ضاربين بسيوفهم جنود المدفعية الروس ، مسكتين بذلك قطع المدفعية . وانضم اليهم فرسان من كتائب اخرى ، وجرى اشتباك وتلاحم مشوشان مع الخيالة الروس ، اشتباك سرعان ما أخذ البريطانيون في نهايته بالانسحاب ، وفي الساعة ٣٠ ، ١١ لم يعد ثمة اي وجود لفرقة الخيالة الخفيفة .

### نجدتة تنيسون

من الفرسان الـ ٦٧٣ الذين اندفعوا في الهجوم في الوادي ، قبل عشرين دقيقة ، عاد وحسب ، ١٩٣ الى نقطة انطلاقهم ، وكثيرون منهم من دون جيادهم . واعتبر ٤٩٧ قتلى ، و١٣٤ جرحي ؛ والباقيون كانوا إما اسرى أو مفقودين . قضى حصاناً في الهجوم ، او قضى عليها عمداً . وفي عرض المساء ، لم تستطع كتيبة الدراجون الا تقديم عشرة فرسان على جيادهم في الصفوف . ولم يُصب لورد كارديغان بأي خدش ، على الرغم من أن رمحاً روسيّاً اخترق رجل بنطلونه بلون الكرز . وكذلك بقي رونالد سالماً بصورة عجيبة . . .

وبينما كان لورد كارديغان يخيل نحو الخلود ، لم يبقَ لورد لوكان مكتوف اليدين . فلما شاهد فرقة الخيالة الخفيفة تهرب نحو الهلاك ، اندفع لنجدتها على رأس الفرقة الثقيلة . ولكنه سرعان ما أيقن ان الهجوم كان خطأ فادحاً ومرعباً . وقد جُرح في ساقه ، وأُصيب حصانه مرتين اثنين ، وقتل الى جانبه أحد المرافقين . ولقد قرر بكل حكمة ألا ينحر فرقة ثانية بعد الاولى ، وتراجع مع رجاله . وفي الوقت نفسه كان الفرسان الفرنسيون التابعون للفوج الرابع من القناصة الافريقيين ، يهاجمون الروس ويستكون بطارياتهم من الجهة الشمالية للوادي . وبفضل هذا العمل الذي سقط فيه قناصة كثيرون ، لم يُنصف الذين نجوا من فرقة الخيالة الخفيفة إلا من ناحية واحدة خلال انسحابهم من «وادي الموت» ، ولو لا ذلك لكان خسائرها أفدح بعد .

فضلاً عن «الإخفاق» الجميل الذي حصده كارديغان شخصياً ، كانت حصيلة اليوم هزيمة مكلفة بالنسبة الى الطرفاء . ولكن الفضول الثلاثة الباهرة في المعركة . . . معركة الاسكتلنديين ، وهجومي فرقي الخيالة البريطانية والفرنسية . . . منحت اسم بالاكلافا هالة النصر . وعندما انضم الشاعر تيسون بقصيدته الشهيرة الى ما حصل ، وعندما تضمنت البرامج المدرسية هذه القصيدة ، لم يتأخر الطلاب الشبان في بريطانيا العظمى والامبراطورية في الاقتناع بأن لورد كارديغان ورونالد هزما وحدهما جيش قيصر روسيا .

مساء المعركة ، انسحب كارديغان المحتفظ بهدوئه دوماً كما لو كان عائداً من عرض عسكري ، الى يخته الخاص «دراياد» الراسي في ميناء بالاكلافا . وبعد استحمامه بالماء الساخن ، تناول عشاء الشهي ، واندس بين اغطية سريره الحريرية البيضاء . ثم استغرق في النوم طوال الليل كالطفل ، دون أن يكون بحاجة بعد الى الحلم بمجد حوله الى حقيقة . ولما عاد إلى انكلترا بعد شهرين ، استُقبل كبطل قومي ، واستقبلته الملكة فكتوريا في قصر وندسور ، وعيّن مفتشاً عاماً لفرقة الخيالة .

### الغباء المقدام

عاش لورد كارديغان حتى سنة ١٨٦٨ ، وهي السنة التي قضى فيها إثر سقطة عن جواهه ، وهو في الخامسة والسبعين . وعاش لورد لوكان أطول منه بعشرين سنة في أملاكه في ايرلندا ، وتوفي عن ٨٨ عاماً . أما لورد راغلان فكان أول المتوفين منهم ، وذلك عن ٦٧ عاماً ، في سنة ١٨٥٥ .

وفي سنة ١٨٥٦ ، فُتح تحقيق عسكري حول كارثة بالاكلافا ، وقد نال الاسيد والنبلاء الثلاثة جميعاً بعض اللوم . وكانت رسالة راغلان غامضة نوعاً ما ، ويمكن أن تتبيّن أية أخطاء ممكنة . أو لم يكن ينبغي للورد لوكان أن يطلب ايضاحات؟ ولورد كارديغان ، ألم يكن يتوجب عليه أن يعرف أنه لم يهاجم الهدف الصحيح؟

إن ما نعاه الرأي العام البريطاني ، من جهةه ، على هؤلاء الاستقراطيين ، هو استخفافهم الكلي بسلامة جنودهم وصحتهم . . . فأكثر من نصف الذين أنقذوا من

فرقة الخيالة الخفيفة قضوا من جراء البرد ، والحرمان ، والمرض ، في شتاء ١٨٥٤ - ١٨٥٥ . وفي مناسبة حرب شبه جزيرة القرم كان الخلود من نصيب الصحفي ولIAM هاورد راسل والممرضة فلورنس نايتنجل اللذين قادا الحملة من أجل جعل الحرب انسانية . أما اسم النقيب نولان ، فقد ظهر في النص الأول من قصيدة تنيسون الذي اضطر إلى شطبة في ما بعد . فقد كان من قلة الذوق الكشف أمام طلاب المدارس الصغار أنه يمكن أن يتفق لضابط بريطاني ان يصدر امراً بنحر جنود خطأ . . .

وانه من المؤكد ، مع ذلك أن الرأي العام البريطاني يفضل أن يرى الأمور هكذا ، على اي حال . ونذكر في هذا الصدد ، في الختام ، عبارة موجهة بذكاء للمؤرخ العسكري الانكليزي ف . ج . هدلستون : «إن الانطباع الذي خلفه تصرف فرقة الخيالة الخفيفة تم التعبير عنه في قصيدة تنيسون ، والحقيقة الأعمق تنطوي عليها ملاحظة الجنرال بوسكه : «إنه أمر رائع ، لكن ذلك ليس حرياً» ، خلق تأثيراً أقل في الجمهور البريطاني الذي طالما اعتاد على اعتبار الغباء المقدام فوق المهارة الاقتصادية في حولياته العسكرية . . . وأسهم هكذا في ضمان تكرار مثل هذه الحماقات .»

## جانب مجهول من حرب القرم

بصرف النظر عن أهميتها العسكرية ، تستحق حرب القرم (١٨٥٤ - ١٨٥٦) أن تُذكر بشيء آخر ، أو بصفة أخرى : طابعها الغريب ! فلم يسبق ان جرت حرب ارتجالية مثلها ، فضلاً عن ان النواذر العجيبة الغربية كثيرة ومتعددة . وقبل كل شيء ، هرع حشد كبير من السياح الى مسرح العمليات ، على سبيل التسلية ، كما لو كانوا يشهدون تظاهرة رياضية .

وقد اندمج هؤلاء «المسافرون الجنتلمن» في حياة الجنود . وصلوا الى الجبهة حاملين مختلف أنواع الهدايا : حسائم معلب ، وحلوى الميلاد ، والمشروبات المنوعة . وزاروا الخنادق ، كما زاروا مواقع بطاريات المدفعية ! ولم يكن أحد يضطر الى تكرار القول هناك .

يروي احدهم أنه وأخوه قررا إقامة مخيّمهما مع الفوج ١٨ من المشاة . فتوجها بطريقهما الى أحد الضباط :

- نود إقامة خيمتنا في معسكركم !

فأبدى الضابط متنبه لللطف ، وقال :

- حسناً سأحاول أن أجده لكم مكاناً .

وكان القطاع خلف الخطوط الأولى مباشرة ، تحت رحمة نيران المدفعية الروسية ؛ ولم يكن المكان مريحاً بتاته . وفي المكان نفسه الذي كانوا سيقيمان عليه خيمتهما ، فقد أحد الرجال ساقه . وقال لهما الضابط بكل تأدب :

- أرجو ألا يؤثر ذلك فيكما !

هذه الفورات من التهذيب غير المتوقعة في مثل هذه الظروف ، ميّزت حرب

القرم . فقد جرى حادث غريب خلال معركة إنكرمان الغامضة ، التي نشبت وسط ضباب كثيف . ذلك بأن أحد الضباط الانكليز ، باتت مفرزته على وشك أن تكون ضحية مناورة التفاف ؛ شاهد جماعة من الجنود ، من الجنسية نفسها ، فهرع نحو ضابطهم ، قائلاً :

- المعدنة ، ولكننا في موقف حرج ورهيب . هل بوسنك المجادنا ؟ لقد كان لي شرف التعرف إليك في الصيف الماضي لدى الليدي بامرسون .

وهو بط القرم أمرؤ يدعى هيورت اوف برغ على متني يخت صديقه لورد كارديغان الذي يرتبط اسمه بهجوم فرقة الخيالة الخفيفة التي تشكل فصلاً من أكثر فصول التاريخ البريطاني من حيث البطولة التي لا جدوى منها . وقد روينا تفاصيلها في ما سبق . . .

ونعود إلى لورد كارديغان ، الذي حصل على الإذن بتناول العشاء والنوم على متني يخته ، على مسافة 11 كيلومتراً من مقر قيادته . وقد رافقه برغ في جولاته التفتيشية ، معتمراً قبعة التشريفات المسطحة الأطراف ، ومرتدياً الردنغوت ، وواضعما الطماقين (والطماق هو كساء للساقي من جلد أو قماش) فوق الحذائين المطلتين بالبرنيق) . وبينما كان يتولى قصف ميناء سيفاستوبول ، قام برغ ولورد كارديغان على صهوة جواديهما بزيارة موقع البطاريات لتفقد ما يجري . وأقبل كثيرون آخرون بدافع الفضول البحث . وقام ضابط من سلاح الهندسة ، واعتبر طبيعياً وجود هذا الحشد من المشاهدين الأغرب والجهولين خلال قصف عنيف وعلى جانب كبير من الأهمية ، بشرح خطة العمليات . فقال لورد كارديغان :

- آه ! فهمت . هؤلاء الأشخاص من هناك ، هم جماعتنا ، وهم يطلقون النار على الروس . الروس هم الذين يطلقون النار علينا . ولكن ماذا ننتظر لنجذبهم من هناك ؟

وكثيرات من زوجات الضباط رافقن أزواجهن ، بدافع الحب ، ويدافع حب المغامرة في آن .

ووصلت الليدي إرول ، زوجة لورد إرول ، النقيب في فوج البنادق الملكية ،

بواسطة البحر برفقة زوجها . حتى أنها اصطحبت كذلك وصيفتها الفرنسية ! ولما نزلت القوات الانكليزية والجهة شطر آلمـا ، رافقتها الـلـايـدي إـرـول على صهوة جوادها . وشـاطـرـت زـوـجـهـا خـيـمـة لم يكن فيها سـوـى سـرـيرـ واحدـ . وبعد زـمـن طـوـيل سـأـلـهـا أحـدـ أـحـفـادـهـا عـمـا إذا كان السـرـيرـ مـرـيحـاـ . فأـجـابـتـهـ :

ـ لـسـتـ اـدـريـ . إنـ جـدـكـ هوـ منـ اـحـتـلـ السـرـيرـ . أناـ رـقـدتـ عـلـىـ الـأـرـضـ !  
ـ كـانـ الـلـايـديـ إـرـولـ اـمـرـأـ شـدـيـدـةـ الـبـأـسـ . فـعـقـبـ مـعـرـكـةـ آـلـمـاـ ، بـرـزـتـ فـكـرـةـ إـيفـادـ  
ـ مـنـدـوـبـ لـمـفـاوـضـةـ الـرـوـسـ فـيـ أـمـرـ عـقـدـ هـدـنـةـ تـيـعـ دـفـنـ الـمـوـتـىـ . وـلـكـنـ التـرـدـ كـانـ السـائـدـ  
ـ لـأـنـ الـأـنـطـيـاعـ كـانـ أـنـهـ لـاـ يـكـنـ الـوـثـوقـ بـالـرـوـسـ مـطـلـقاـ . فـكـانـ الـلـايـديـ إـرـولـ مـنـ  
ـ اـمـتـطـتـ جـوـادـهـاـ وـاعـتـمـرـتـ بـقـبـعـةـ ذـاتـ رـيشـ ، وـاجـتـازـتـ سـاحـةـ الـوـغـىـ ، رـافـعـةـ الـعـلـمـ  
ـ الـأـيـضـ .

ـ كـانـ الـرـوـسـ فـيـ مـعـرـكـةـ آـلـمـاـ يـحـتـلـونـ مـوـقـعـاـ حـصـيـنـاـ جـداـ . وـقـدـ حـفـرـ النـهـرـ مـرـاـ بينـ  
ـ التـلـالـ التـيـ كـانـتـ تـرـفـعـ كـالـشـرـفـاتـ الـمـنـحدـرـاتـ الـوـعـرـةـ التـيـ يـصـعـبـ تـسـلـقـهاـ ! وـكـانـتـ  
ـ مـيـاهـ النـهـرـ تـنـدـفـقـ بـسـرـعـةـ ، وـذـاتـ أـعـمـاـقـ مـتـفـاـوـتـةـ . وـتـحـتـ الشـرـفـاتـ ، حـفـرـ النـهـرـ طـرـيقـاـ  
ـ فـيـ سـفـحـ اـحـدـىـ التـلـالـ ، وـجـرـتـ مـيـاهـهـ عـلـىـ سـفـحـ جـدارـ عـمـودـيـ .

ـ كـانـ الـرـوـسـ عـلـىـ هـذـهـ المـرـفـعـاتـ . وـلـمـ يـحـسـبـواـ أـنـ بـوـسـعـ اـعـدـائـهـمـ الـانـكـلـيـزـ اـيـجادـ  
ـ الرـجـالـ الـقـادـرـينـ عـلـىـ مـهـاجـمـةـ التـلـالـ . فـالـذـينـ سـيـحـاـلـوـنـ الـهـجـومـ سـيـهـلـكـوـنـ عـلـىـ  
ـ بـكـرـةـ اـيـبـهـمـ ، بـكـلـ تـأـكـيدـ .

ـ وـكـانـ الـأـمـيـرـ مـنـشـيـكـوفـ قـدـ دـعـاـ حـوـالـىـ ثـلـاثـيـنـ اـمـرـأـ صـبـيـةـ لـلـذـهـابـ إـلـىـ  
ـ سـيـبـاستـيـوـيـوـلـ لـيـشـاهـدـنـ ، وـهـنـ يـتـنـزـهـنـ ، تـدـمـيرـ الـجـيـشـ الـبـرـيـطـانـيـ . وـكـانـ الـطـقـسـ  
ـ رـائـعـاـ . وـكـانـتـ النـسـوـةـ يـرـتـدـيـنـ الـأـثـوابـ الـصـيـفـيـةـ وـقـدـ حـمـلـنـ الـمـظـلـاتـ ، وـأـقـبـلـنـ فـيـ  
ـ عـرـبـاتـ مـكـشـوـفـةـ ، وـمـعـهـنـ الـكـثـيـرـ مـنـ السـلـالـ التـيـ تـضـمـنـ الـمـؤـنـ وـالـمـشـروـبـاتـ ، لـتـنـاـولـ  
ـ الطـعـامـ فـيـ الـهـوـاءـ الـطـلـقـ .

ـ وـنـدـتـ مـنـهـنـ صـيـحـاتـ الـأـعـجـابـ وـهـنـ يـرـيـنـ إـلـىـ جـنـودـ الـمـشـاةـ الـبـرـيـطـانـيـنـ يـتـقـدـمـونـ  
ـ عـبـرـ السـهـلـ . كـتـلـةـ قـرـمـيـةـ تـزـيـنـهـاـ حـمـالـاتـ السـلاـحـ الـبـيـضـاءـ .  
ـ وـتـلـتـ ذـلـكـ أـرـوـعـ الـمـارـكـ مـنـ جـانـبـ الـقـوـاتـ الـبـرـيـطـانـيـةـ . وـأـنـجـزـوـاـ الـمـسـتـحـيلـ ،

وهاجموا مرتفعت آلا . أما المتنزهات الحسان فقد هربن ، تاركات سلال الطعام والشراب والمظلات .

لعل أشهر النساء اللواتي شهدن العمليات الحربية في القرم ، السيدة دابرلي ، زوجة النقيب دابرلي ، من فرقة الهوصار الثامنة (الخيالة) . كانت مرحة ، بشوشة ، وذات حيوية ، فضلاً عن كونها فارسة من الطراز الأول . ولم يكن يُسمح لها بمرافقته زوجها ، فوجدت السبيل للصعود إلى متن سفينة نقل . وفي بالاكلافا ، عاشت على متن زورق حربي . وكانت ، في كل يوم ، تنزل إلى اليابسة لرؤبة زوجها الذي كانت ترافقه على ظهر جوادها لدى قيامه بأعمال الدورية . وصباح يوم المعركة كانت على متن السفينة لما أرسل إليها زوجها هذه البرقية ، ولعلها فريدة في نوعها في الحوليات العسكرية والجوية :

«بدأت معركة بالاكلافا ، وهي تعد بأن تكون حامية الوطيس . أرسل إليك جواداً . لا تضيعي الوقت : تعالى بأسرع ما يمكن . لا تنتظري حتى تتناولني ترويقتك !»

وهرعت السيدة دابرلي من فورها .  
وشهدت هجوم فرقة الخيالة الخفيفة الشهيرة . . .

## **مخاوف بالنسبة الى الأميرة**

تشيئة الملكة فكتوريا المنضبطة كانت نتيجة رغبة والدتها في حمايتها من «عم شرير»!

مرّ أكثر من قرن ونصف من الزمن على صبيحة ذلك اليوم من حزيران من السنة ١٨٣٧ عندما كتبت الملكة فكتوريا : «ايقظتني أمي في الساعة السادسة صباحاً . فنهضت من فراشي وذهبت الى حجرة جلوسي ، وأنا بعد في ملابس النوم ، ووحدي ».

وكتب كذلك : «ما دام سر العناية الالهية ان تضعني في هذا الموقع ، فسأبذل قصارى جهدی لکي أقوم بواجبی نحو بلادی .»

لم يكن هناك تواضع ، وحسب ، بل كان هناك ألم أيضاً ، والكلمة التي كشفت مشاعرها هي « وحدي ». ومضت تقول في يومياتها : «في الساعة التاسعة جاء لورد ملبورن ، الذي قابلته في غرفتي ، وبالطبع ، وحدي تماماً ، كما سأقابل كل وزيري . . . ونزلت الى الطبقة السفلية ، وعقدت مجلساً في القاعة الحمراء ، وقد دخلت ، بالطبع ، وحدي . نزلت وتمنيت لأمي ليلة سعيدة .»

وفي تلك الليلة - عقب اليوم الأول لحكمها كملكة انكلترا - نامت في مخدعها ، وللمرة الاولى ، وحدها ! هذه الكلمة غدت تحدّياً .

ان السنوات التي بدت كأنها السجن بالنسبة اليها - و «المشاهد المؤلمة والكريهة» ، التي تذكرتها ، انتهت الآن . استبداد أمها المزعوم التي لم تكن تسمح لها بأن تغيب عن ناظريها ؛ طعامها الذي كان يُذوق قبل أن يُسمح لها بمذيدها اليه ؛ السرير الايض الصغير الذي كانت تُجبر على الرقاد فيه ، و دوماً بجانب امها - الانضباط

انتهى أخيراً .

كانت فكتوريا ملكة ، وعندما انتقلت إلى قصر بكنغهام ، خُصّص لوالدتها ، دوقة كنت ، غرف في جناح بعيد من المبني الكبير . ولما كانت تود رؤية ابنتها ، كان عليها طلب موعد للمقابلة ، كما لو كانت غريبة ، تقريراً .

لقد حكم كتاب اليوميات والسيَر المعاصرون ، منذ ذلك الحين بقصوة على دوقة كنت لتصرُّفها خلال تلك السنوات الأولى . وغالباً ما وُصفت بعبارة «تلك المرأة البغيضة» .

وإننا لنتساءل لماذا تصرَّفت هذه الأرملة الوحيدة ، المضللة أحياناً ، كما تصرَّفت ؟ وهل كانت الطاغية التي تصورتها الملكة فكتوريا والكثيرون من معاصريها ؟ ونراها أكثر حيرة من أي وقت عندما نقرأ قصصاً عن دوقة كنت في سنواتها الأخيرة ، السعيدة تماماً مع ابنتها ، وأحفادها .

كانت محبوبة كثيراً ، وهي سيدة عجوز لطيفة ، منهكمة في التطريز ، في حديقة قصر فروغمور ، او وهي تعزف مع احدى وصيفات الشرف لحناً من الالحان ، لقد كان خريف حياتها لطيفاً جداً .

في السنة ١٨٥٩ ، كتبت الملكة فكتوريا عن أمها ، بعد أن كانت مريضة : «أنا شخصياً لم ادرِكم احبيتها ، او كيف كان وجودي كله مرتبطاً بها .»

وعندما ماتت الدوقة ، تذكَّرت الملكة «رقها اللامحدودة» بالنسبة إليها . ولفترط حزنها الشديد ، كان هناك ، لفترة من الوقت ، ما وصفه زوجها الامير ألبرت بـ«الشائعات المرءُّعة الحقيقة» عن أنها فقدت عقلها .

يقول الكاتب هكتور بوليث ، الذي عقد هذا الفصل عن الملكة فكتوريا ، إنه كان ثمة حقبة في حياة ملكة انكلترا ، في ما بعد ، لم تشر هي إليها في يومياتها ، ولا حتى في الرسائل التي عُثر عليها . وقد أخبرته احدى حفياتها ما يمكن ان يساعد على توضيح ممکن لتصرُّف دوقة كنت ، والخلاف المبكر الغريب ، مع ابنتها .

ينبغي لنا العودة قليلاً إلى الوراء ، وتذكَّر الظروف التي توفيت فيها الاميرة تشارلوت وهي في حالة الوضع ، في تشرين الثاني ١٨١٧ ، عندما كانت في الحادية

والعشرين من العمر . كان ابنة الامير الوصي على العرش ، أميرة ويلز ، بعد ابيها ، وفي المقام الثاني في تسلسل الخلافة على العرش .

وكان منافسوها «أعمامها الشريرين» - ابناء الملك جورج الثالث الآخرين - وasherhem جميعاً، في نظر الرأي العام في ذلك الزمان ، كان دوق كمبرلاند . لم يكن ثمة اي خطيئة رهيبة جداً تلخص به . ونعرف اليوم أنه افترى عليه ، وثبتت ذلك السيرة التي أصدرها الكاتب ج . م . ويليس . ولكن في ذلك الوقت ، اشتهر الدوق بأنه كان وغداً ، وحتى قاتلاً- قاتل خادمه الخاص .

ونأتي الى الحقبة في حياة الملكة فكتوريا اللاحقة ، التي تحملنا الى قضية دوقة كنست .

في ذات يوم بلغ قصر وندسور طلب غريب من أمراة عجوز تعيش في ملجاً للقراء . طلبت ان يُسمح لها بالكتابة الى الملكة فكتوريا ، فتلتّبّي بذلك وعداً قطعته لأنّها التي كانت مرضة الاميرة تشارلوت لدى وفاتها . وقد وعدت العجوز بأنّها ستطلع أحد أفراد الأسر المالكة على سرّ غير عادي : وهو أن والدتها علمت ان سُمّاً وضع في الدواء المنبه الذي كان يُعطى لتشارلوت ، للتعجيز في موتها ، بایعاز من دوق كمبلاند - بقصد مضاعفة حظه في أن يصبح ملك انكلترا .

وتراسل هكتور بوليث مع الآنسة د . م . ستوارت ، مؤلفة كتاب «ابنة انكلترا» ، وهو الأفضل بين الكتب التي تناولت سيرة الاميرة تشارلوت . فلقد تفحصت كل الوثائق المتعلقة بالقضية ، والتقارير الطبية ، ولا تعتقد ان ثمة ادنى دليل على أن للدوق كمبرلاند علاقة بوفاة الاميرة - وأن ذلك لم يكن إلا اشاعة ، وان المرضة ، ربما خُدعت وحسبت الأمر حقيقة .

ولكن ، في الاوساط المحيطة بالاسرة المالكة ، في السنة ١٨١٧ ، صدقوا ، بلا ريب ، القصة ، أو شكوا بالأمر . إذا ، من المحتمل أن تعتقد دوقة كنت بغدر دوق كمبرلاند . فموت الاميرة تشارلوت قدمه خطوة من عرش انكلترا المشتهى . وعقب تسلّم وليام الرابع هذا العرش ، لم يعد يقف بينه وبين التاج إلا الأميرة فكتوريا . ولذا فإن موتها مغوب فيه كذلك من جانب امرئ كان يعتير وغداً طموحاً .

تأملوا ظروف دوقة كنت التي كانت تعيش كما في المنفى في قصر كنزنغتون ، تصارع قضية تنشئة ابتها . كانت مكرهه من الملك ولIAM الرابع واخوته . ولم تكن الاسرة المالكة ، ولا البرلمان يخصانها بىنس واحد من اجل العناية بالاميرة . وكانت من الفقر بحيث ان ديون دوق كنت لم تسدّ الا بعد انقضاء سبع عشرة سنة على وفاته - عندما اعتلت الملكة فكتوريا العرش في السنة ١٨٣٧ .

كان بوسع دوقة كنت أن تعود إلى الاقامة في امريكا ، حيث كان يمكن ابنها من زواجهما الأول ، أن يوفر لها مسكنًا ، او الى كوبورغ ، مسقط رأسها ، حيث كانت تستطيع الاستمتاع بالأمن والمحبة من جانب اسرتها . ولكنها بقيت في انكلترا ، وحيدة ، فقيرة ، وغالباً طائشة ، غير حكيمة ، ولكنها ، مع ذلك عنيدة من حيث القرار بأن تنشئ ابتها تنشئة اميرة انكليزية .

وضاعف عزلتها مسلك الملك جورج الرابع ، ومن بعده ولIAM الرابع . وكان ذلك المشهد المؤلم عند تنصير فكتوريا ، عندما تصرف الوصي بخشونة وقساوة افجرت معها الدوقة باكية . وبعد ذلك كانت الحقبة خلال العشاء في قصر وندسور عندما اشار اليها ولIAM الرابع بقوله «تلك المرأة» ، وقد حيل بينها وبين العودة على جناح السرعة الى لندن ، للتحرر من هذه الرفة الرهيبة . وكان في رأس محنتها خوفها من أن يكرر دوق كمبرلاند الجريمة التي كانت تعتقد انه ارتكبها في تشرين الثاني ١٨١٧ .

اذا كانت تعتقد ان الدوق صرع خادمه ، وأنه كان مسؤولاً عن موت الاميرة تشارلوت ، فمن السهل أن نفهم لماذا بنت والدة فكتوريا مثل جدران الحماية هذه حول ابتها ، ولماذا لم تكن تريد ان تزور الاميرة قصر وندسور ، وأن تكون في حضرة اعمامها ، من دون أن تكون هي إلى جانبها ، ولماذا أخذت على السرير الایض الصغير بقربها ، ولماذا كان كل طعام يقدم اليها في حجرة الحضانة يتم تذوقه سلفاً .

في أي سنة علمت الملكة فكتوريا بذلك؟ لا ندري ، ولكن علينا أن نقرأ يومياتها ورسائلها لكي نتبين أن قلبها رقّ تجاه والدتها ، وأنها أدركت أن هناك حبًا واحلاصاً وراء الانضباط القاسي الذي قاسته ، في ايامها الأولى في قصر كنزنغتون . وقد شجع

هذا التبدل تأثير الامير ألبرت الذي اجتذب الدوقة الى غط حياتهما - غط «الحب والاجماع» ، كما وصفه .

من جهة اخرى ، استمر بغض الملكة فكتوريا الدوق كمبرلاند حتى بعد أن أصبح ملك هانوفر ، وحتى وفاته السنة ١٨٥١ ؛ عندها ، وحسب ، تأكّدت الملكة أنها ، وحتى اولادها ، باتوا في منجي من شره المزعوم .

في السنة ١٨٤٣ ، عندما هبط الدوق - ملك هانوفر - انكلترا لحضور حفلة تنصير الاميرة أليس ، جرى مشهد مذل يصفه الامير ألبرت في رسالته إلى أخيه . فقد كتب يقول : «كاد الأمر يبلغ حد المشاجرة مع الملك . فقد أجبرت على دفعه بشدة ، وإنزاله بضع درجات من السلم ».

وكان ثمة مشهد آخر عندما جاء دور التوقيع على السجل . « وضع ملك هانوفر قبضة يده فوق السجل » في محاولة لمنع الامير ألبرت من التوقيع قبله . « وغادر الحفلة فريسة للغضب الشديد »، وقد سرّ الامير ألبرت ، بعد ذلك بسبعة أيام ، عندما «سقط الملك فوق بعض الحجارة في حدائق كيو الشهيرة ، وحطّم بعض الأضلاع ». بعد عدة سنوات ، وعندما اتهمت الملكة فكتوريا بالقصوة في تنشئة بكر اولادها - وقد اصبح في ما بعد الملك ادوارد السابع - قالت لأحدى حفيداتها : «لا يدرك الناس أنه لم يكن هناك سواي ، بين ادوارد وعمه الشرير ».

ينبغي ألا يُخدع أحد بتمويه التاريخ ، ولكن يبدو أن هذه القصة تسمح لنا بأن ننظر الى دوقة كنت في ضوء اكثـر رقة ولطفـا . بالوسع النـظر الى ما وراء واجهة سلوـكها ، الى مصادر شـجاعتها ، وندرـك انـها مـثلـت دورـا مـهمـا في تـوطـيدـ الملكـيةـ التي نـهـضـتـ منـ رـمـادـ الملـوكـ الجـورـجـينـ !

## الحقيقة عن القبطان بلاي والتمرد على السفينة باونتي

قصة الربّان بلاي والتمرد على متن السفينة «باونتي» مشهورة جداً ، وحمل الشريط السينمائي الذي اضططلع بدور البطولة فيه تشارلز لوتون ، الحكاية المثيرة الى الملaiين من عشاق الافلام ، ومعظمهم قبل الصورة التي رسمت للضابط البحري الصارم والقائد المتوجه على انها صحيحة .

صحيح أنه حدث تمرد ، ولكن أن يكون نتيجة قسوة بلاي ليس إلا اسطورة ، وعلى أي حال كان بلاي ملزماً في ذلك الوقت ، لانقياً ، وقد سها عن البال أنه كان صديقاً للقططان دجيمس كوك والسر دجوفز بانكس ، رئيس الجمعية الملكية ، وأن نلسون هنأ على شجاعته وقيادته الحكيمية في معركة كوبنهاغن السنة ١٨٠١ ، في حين أن القليلين يعلمون أن فلترش كريستيان ، الذي قاد التمرد ، إنما شجعه بلاي وهو بعد شاب ، وعلمه معظم ما يعرف حول شؤون الإبحار وفن الملاحة ، واختير شخصياً وكيلًا للربّان في سفينة «باونتي» ، من قبل الرجل الذي قذفه الى متن قارب في المحيط الهادئ .

لم يكن وليام بلاي المولود في بليموث في ٩ أيلول ١٧٥٤ متسرياً كل الخصال التي تجعل منه ضابطاً بحرياً شعبياً وناجحاً . ولم يكن عقرياً ، ولا يتمتع إلا بالقليل من مزايا سائر الربابة الشهيرين في عصره . ولم يكن له أي أصدقاء متقددين في البحريّة مثلما كان لنلسون ، ولم يكن موهوياً مثل كوك ، له حكمته ومخيلته . وبالطبع ، جرّ إليه طبعه النزق وعدم لباقته انعدام الشعبية ، ولكنه كان ، مع ذلك ، محترماً بسبب بسالته وكفايته . وكان ، بلا ادنى ريب ، بحاراً ممتازاً ، كما سيمّرّ معنا ، غير أن إخلاصه المفرط للواجب غالباً ما أدى إلى إساءة تفسير دوافعه وأعماله . يمكن

أن يكون نكداً ومستبداً ، ولكن هذه المشاعر كانت عادة نتيجة عدم تسامحه مع العجز المهني . فكانت النتيجة نوعاً من سمعة القسوة التي أصقت به . سوى أنه ينبغي ان نتذكر أن هذه الصراحة كانت ميزة معظم الضباط البحريين في زمانه ، وأنه كان ، بالفعل ، أقل وحشية من اي من زملائه المعاصرين . فالضباط البحريون كانوا أكثر استبداداً من أرباب العمل الخصوصيين والمدنيين ، لأنهم اعتادوا على الصدمات القاسية في أيامهم الأولى في البحر . فضلاً عن أن الضبط الناجح للسفن المصنوعة من الخشب وذات الأشرعة كان يتوقف كلياً على الحفاظ على مستوى عالي جداً من الانضباط ، ولا يمكن أن يلام رياضة هذه السفن دوماً إذا انهار بعض رجالهم أحياناً تحت الضغط والشدة .

احتفظ بلاي بثقة الاميرالية خلال حياته العملية العاصفة ، ومجرد أنه بلغ ، رغم ثورتين على سلطته ، رتبة نائب لواء بحري ، يُظهر بوضوح الاحترام والثقة اللذين كان يتمتع بهما . فلم يشك أحد قط في مهارته كملاح ، أو في قدرته كرسّام خرائط ، أو بسائله كبحار في حين أن استقامته لم يرق إليها الشك البتة .

لا يُذكر بلاي إلا بالتمرد على سفيته «باونتي» ، وقد تجاهل الكثيرون تقريباً بقية ما يميّز حياته الرائعة من أعمال . فقليلون يعلمون انه هو من حمل نبطة ثمرة الخبرز من تاهيتي الى جزر الهند الغربية ، وأنه هو من استكشف معظم تasmانيا ، واكتشف طريقاً جديداً وأكثر أماناً عبر مضيق لوترис (القناة بين غينيا الجديدة الجنوبيّة والطرف الشمالي الاقصى لكريزلاند ، في اوستراليا) ، ومن أكتشف جزر فيجي . ولم يكن وحسب ، احد أبرز الملائين في عصره وأمهرهم ، ولكنه أسهم كذلك كثيراً في علم النبات الذي انتُخب من اجله زميلاً في الجمعية الملكية . إن الرجال اللامعين غالباً ما يعانون من عادة المؤرخين الذين يفردون حدثاً واحداً مظلماً في حياتهم ، لا فرق أكان هاماً أم غير هام ، من دون سائر الاعمال التي هي أهم بكثير . وهذا حدث لبلاي ، وما يزال اسمه مرادفاً للوحشية .

أبصر بلاي النور في بلدة شهيرة بأحواض السفن ، وقرر والده منذ البدء انه ينبغي له ان يعمل في البحر . ويبدو أن دراسته في المدارس المحلية كانت شاملة ، ذلك بأن

سجلات السفن ، ويومنياته ، ورسائله ، وأوراقه تُظهر أنه كان مرتبًا ، ودقيقاً ، وكانت حساباته مضبوطة وصحيحة . وقد التحق بالبحرية السنة ١٧٧٠ ، بحاراً على متن السفينة «هتر» ، وهي سلوب (مركب شراعي وحيد الصاري) مزود بعشرة مدافع ، فخدم عليه أكثر قليلاً من سنة .

بعد ست سنوات من الخدمة القديرة ، ولكن غير المثيرة ، عَيْن وكيلاللربان على متن السفينة «ريزوليوشن» تحت إمرة القبطان كوك . وببقى سراً لماذا اختار هذا المستكشف الشهير بلاي ، ذلك بأنهما لم يلتقيا قط من قبل ، ولم تكن شهرة بلاي آنذاك قد عمت بحيث يتاح لكوك أن يسمع به . ولكن ، من الممكن ، مع ذلك ، أن يكون قد اختير لكونه تخصص في صباح ، في فن الملاحة وعلم المحيطات ، وقام بعمل جيد ، وربما بحث كوك في أحواض بناء السفن عن شاب ذي مؤهلات طيبة في هذه الشؤون ، يُعزّزها الطموح وحسن الانضباط والنظام . وكان بلاي يتمتع بكل ذلك .

بدأت رحلة كوك الثالثة السنة ١٧٧٦ ، وقد نُظمت بهدف العثور على مر شمال غربي ، فضلاً عن مواصلة الاكتشاف في البحار الجنوبي . وخلال سنوات الرحلة الأربع ، التي قطعها اغتيال كوك بصورة مأساوية ، على يد السكان الأصليين الذين أبدى نحوهم اللطف والرقة دوماً ، تعلم بلاي الكثير . اكتسب خبرة حول المياه الاستوائية والقطبية ، واجتاز خط الاستواء مراراً ، واسهم في كل اكتشافات كوك . وتعلم كيف يتعامل مع البحارة في الرحلات الطويلة ، ووجد أن أفضل طريقة لإيقائهم سعداء ومنضبطين تماماً ، هي العناية الدقيقة بصحتهم وتغذيتهم . وأفهمه كوك كيف يعامل السكان الأصليين بلطف ، وهو مثال احتجاه بلاي خلال مغامراته البحرية في تلك المياه .

وكان لديه فرص للملاحة العملية ، وقام بمسح الجزر المعروفة بالجزر الصديقة وساندويتش ، ورسم خريطة لجزء من خط الساحل الأميركي الشمالي . ولم تُظهر روايات كوك خلال رحلته الأخيرة أي انتقادات غير ملائمة لسلوكه . وقد نشأت بين الرجلين صدقة حميمة . واكتأب بلاي كثيراً لما فعل كوك .

لدى عودة الناجين من تلك الرحلة ، نُشرت القصة رسمياً ، وتلقى بلاي حوالى

الف استرلينية لقاء اسهامه فيها . تزوج إليزابيث بيندام ، السنة ١٧٨١ ، وكان عمها دان肯 كامبل ، ابن عم الاميرال دجون كامبل ، الذي كان مفيدة جداً بالنسبة الى تكليف بلاي مهمة خطيرة السنة ١٧٨٧ .

بعد خدمة طوال بضع سين في الداخل والخارج ، عين بلاي قائداً للسفينة «بريطانيا» حيث قابل للمرة الأولى فلترش كريستيان . وكان هذا من بلدة مانكسمن ، وابن محامي . تحدث عن قدرة بلاي ، ولطفه معه ، وسجل بوضوح كيف أنه علمه اصول الملاحة ورسم الخرائط البحرية . واهتم بلاي ، من ناحيته ، بالشباب ، وأوصى به الاميرالية عندما عادا من الرحلة .

في السنة ١٧٨٧ ، وافق الملك جورج الثالث على مشروع لإرسال حملة الى جزيرة تاهيتي للحصول على أشجار ثمرة الخبز ، وإعادة زرعها في جزر الهند الغربية . وعندها قدمت الجمعية الملكية وساماً ذهبياً الى كل من ينجذب هذا العمل بنجاح . وطلب الرئيس ، السرديجوف بانكس ، الى الملك أن يأمر الاميرالية بتوفير سفينة لهذه الغاية . وكان المشروع يقضي بأن يحمل من تاهيتي عدد من النباتات الصغيرة . ويرسل إلى جزيرتي جامايكا ، وسنت فنسنت اللتين كانتا تقريباً على خط العرض نفسه . ووافق الملك ، واختار بانكس سفينة حمولتها ٢٢٠ طناً ، فأعاد بناءها وتسلیحها ، وسمّاها «باونتي» (ومعناها سخاء) ، اعترافاً منه بفضل الملك . عندها أوصى كامبل بأن يقودها بلاي ، ووافق بانكس كلياً على هذا الاقتراح . وعين بلاي ملازمًا في آب ١٧٨٧ ، وعيّن هو بدوره من فوره فلترش كريستيان ، وكيلًا للربان . وأبحرت «باونتي» في نهاية تلك السنة ، باتجاه جزر سوسايتى من طريق رأس هورن .

ولكي يُمنع البخارية ساعات ثمان للنوم بدلاً من الأربع ، تخلّى بلاي عن العادة المتبعـة ، وأنشأً ثلاثة فترات مناوية . ثم عيّن كريستيان ملازمًا بالوكلـة ، وفوق ربان السفينة فراير . وربما كان في هذا العمل عدم لباقـة ، ولكن ذلك لا يمكن أن يمـلأ نفس كريستيان بأي عاطفة غير عاطفة الشـكر وعـرفـان الجـميل . وهـكـذا يـصـبـحـ أصـعبـ عـلـيـناـ فـهـمـ سـبـبـ تـورـطـ كـريـسـتـيـانـ فـيـ التـمرـدـ .

وعلى نقىض الاعتقاد السائد ، لم يُنزل بلاي أي عقوبات صارمة بحق أحد خلال الرحلة بكمالها . وحدثت أول عملية جلد في الأسبوع السابع للرحلة ، ولم يحدث كثير غيرها بعد ذلك . وكان الجلد العقوبة المعتادة لمعظم الذنوب .

ويُزعم أن أشهر الحوادث التي أدّت إلى التمرد كانت قضية الجبنة . وهذه هي رواية المتمردين : أمر بلاي بحمل صندوق الجبنة إلى سطح السفينة . فلما فتح تبيّن أن قطعّي جبنة ناقصتان منه . وعلى الفور انفجر بلاي في ثورة غضب شديد ، وصاح أنهما سُرقتا . ولكن صانع البراميل قال إن الصندوق فُتح سابقاً ، وأرسلت قطعتاً جبنة إلى مقر بلاي نفسه . عندها أمر هذا الأخير بوقف تقديم الجبنة إلى كل البحارة من مختلف الرتب ، حتى يُعاد النقص .

أما رواية بلاي للحادث ، وهي على ما يبدو ، الأقرب إلى الحقيقة ، فكانت التالية : فتح صندوق الجبنة على سطح السفينة للتأكد من سلامتها وصلاحيتها للأكل ، وتم ذلك أمام الجميع ، ثم أغلق الصندوق بإحكام ، وأنزل إلى مستودع المؤونة . وخلال الغداء سُرقت قطعتاً جبنة . فاعتبر بلاي ذلك سرقة ، ظن أنها تمت بعلم معظم الرجال . عندها أمر بمنع تقديم الجبنة حتى يظهر اللص ويعيدهما . وفضلّ وقف تقديم الجبنة على الجسم من مرتب كل بحار . كانت تلك طريقة غير موفقة في العقاب ، ولكنها كانت خرقاً أكثر منها قاسية . وينبغي أن نتذكر أن صانع البراميل سبق أن جُلد قبل بضعة أسابيع لتمردّه .

في آب ١٧٨٨ بلغت «باونتي» أرض فان ديمن ، وتوقفت للتزوّد بالماء والمؤن . وحتى ذلك الوقت لم يكن قد ظهر أي أثر للحفر أو الاسقربوط - وهو داء من أمراضه تورم اللثة ونزف الدم منها - أو للحمى ، كل ذلك بفضل إدارة بلاي الفعالة والواعية لنظام الأكل ، والتغذية . وكانت أمراض البحر غالباً ما تسبّب عن سوء التغذية ، والاصابة بالركام الشديد نتيجة البرد . ولمنع ذلك ، لم يكتفِ بتغذية رجاله جيداً وحسب ، بل إنه كان يدع النيران دائمة الاشتعال تحت لتعزيز التهوية بين الاسطح ، وللتزوّد بالهواء النقي المعش . وكان يأمرهم بتبديل ملابسهم وأغطية أسرتهم وفرشهم لكي يبقوا أصحاب البدن .

ولما كان مهتماً ببلوغ تاهيتي بأسرع ما يمكن ، أبحرت السفينة على الفور . وأثناء الرحلة جرى حادث آخر . استدعي بلاي الريان فراير إلى حجرته للتوقيع على الحسابات ، فرفض ، وتناول قصاصة ورق طلب إلى بلاي توقيعها قبل أن يوقع هو على الحسابات . وكانت القصاصة تتضمن أن فراير لم يأتِ أي عمل سبب خلال الرحلة ، حتى ذلك اليوم . ورفض بلاي بدوره التوقيع ، وكان محقاً في رفضه . ثم إنه قرأ على فراير المقاطع المناسبة في مواد الحرب التي تنطبق على سلوكه وتصرّفه ، ولكنه لم يعاقبه فقط .

وصلت السفينة «باونتي» إلى تاهيتي في نهاية تشرين الأول ١٧٨٨ ، بعد أن قطعت مسافة ٢٧ ألف ميل منذ مغادرتها إنكلترا . وكان بلاي قد اجرى فحوصاً طبية لكل بحاره من أجل حمايتهم وحماية الفتى من السكان الأصليين ، فوجدهم جميعاً خالين من الأمراض . ثم خاطب الرجال ، وأرشدهم إلى كيفية التصرف على الجزيرة . وشدد أن يعامل السكان الأصليون بلطف ، وألا تطلق النيران إلا دفاعاً عن النفس . وأشار إلى أن كل عملية تجارية مع هؤلاء السكان ينبغي أن تتم بواسطة ضابط مشرف ، مع الحرص على عدم ارتکاب أي اختلاس .

وأفضل دليل على الطريقة التي عامل بها كوك وبلاي السكان الأصليين في البلدان التي نزلوا إليها في السابق ، أظهرها السرور الذي استُقبلت به سفينة بريطانية أخرى . فقد عمر بلاي باللطف ، ومن جهته ، كان يدعو الزعماء إلى تناول الطعام إلى مائته ، كل يوم تقريباً . وكان يعاملهم دوماً كأنداد ، ويشهد رقصاتهم ، ويدرس لغتهم وعاداتهم . وبعد فترة من الزمن ، شعر أنه بات مناسباً أمر مفاتختهم بقضية ثمرة الخبز . فقدم إليهم العروض فوافقوا من فورهم . وجُمعت إذ ذاك النباتات ، وخُزنت في عنابر خاصة في السفينة .

حتى بداية السنة ١٧٨٩ ، لم يظهر ثمة أي استياء عام ، ، وكانت الحوادث معزولة ، وتفصل بينها عدة أسابيع . غير أن الطقس الجميل ، والضيافة الحارة من قبل السكان الأصليين ، والروابط التي نشأت بين بعض البحارة والفتيات من هؤلاء السكان - كل ذلك أسهم في إفساد المعنويات بصورة عامة .

واعترى التراخي النظام ، وبات محتملاً أن بعض الرجال يودّ الفرار ، وهذا ما فعلوه . ولكن قُبض على الجميع ، وعوّقرا . وبينما كانت تُنقل نباتات ثمرة الحبز ، رأى بلاي ان يدخل للمستقبل كمية من لحم الخنازير كان حصل عليها من السكان الأصليين بالمقايضة . فأنهُم على الفور بأنه سرق هذا اللحم ، في حين أنه ، في الواقع ، كان بعد نظره قد حمله على شرائها ، لكي تكون متوفّرة كطعام في الرحلة الطويلة إلى جزر الهند الغربية .

إن غلطة بلاي الرئيسية خلال كل هذا العمل هو أنه تأخر طويلاً في تاهيتي . فذلك لم يؤدِ إلا إلى إفساد الرجال أكثر فأكثر . ولكن «باونتي» رفعت أخيراً المرساة ، وغادرت الجزيرة في نيسان ١٧٨٩ . وما أن ابتعدت بضعة أسابيع عن الجزيرة ، حتى جرى الحادث الأخير ، الذي كان السبب للتمرد المكشوف ، على الرغم من تفاهته ، بحدّ ذاته . كان كريستيان قد قرر قطف بعض جوز الهند ، ولكنه فوجئ ببلاي الذي نعمته باللص . وكان يمكن أن يكون فقد وعيه ونعته بشتى النعوت القبيحة ، التي لم يكن يعنيها البتة . وواضح أنه ندم على استسلامه إلى الغضب ، لأنَّه دعا كريستيان إلى العشاء إلى مائدته في تلك الليلة بالذات ، آملاً أن يطوق ما حدث . فرفض كريستيان مقدماً العذر الأعرج بأنه ليس على ما يرام .

وفي وقت متأخر من ذلك المساء همس الأكثر تمرداً من بين طاقم البُحّارة في أذن كريستيان «إن الرجال مستعدون لكل شيء». فوضع كريستيان إذ ذاك مؤامرة لإلقاء القبض على بلاي ، والاستيلاء على السفينة . فماذا دفعه في الواقع ، إلى مهاجمة الرجل الذي فعل الشيء الكثير من أجله؟ لن نعرف ذلك أبداً . لعلَّ تهمة السرقة التي كانت أمام كل البُحّارة ، قد جرحت كبريهاء!

صباح يوم ٢٨ نيسان ، قبض كريستيان وثلاثة رجال على بلاي ، وهددوه بالموت إذا لم يطع آسريه ، وقيدوا يده وقدمه ، وسجن البُحّارة الذين لم يساعدوا «الثوار» في حجراتهم . وأنزل ، بعد ذلك ، قارب إلى البحر ، وألقبت فيه المؤن التالية : ١٦ قطعة من لحم الخنزير ، و ١٥٠ رطلاً من الحبز ، وغالون ونصف من شراب الرمّ ، وست زجاجات خمر ، و ٢٨ غالوناً ماءً ، وبعض البسكويت البحري . ثم أمر كريستيان بأن

ينزل الى القارب أنصار بلاي الثمانية عشرة ، بمن فيهم فرایر الذي لا بد أنه اصطلاح مع بلاي ، والجراح . وأعطي سجلات السفينة ، وأوراقه ، ومذكراته ، من دون خرائطه ، ورسومه البيانية ، وصوره ، وأدواته التي احتفظ بها ، وعندها دفع القارب لتتلاعب به الامواج . ويقي على متن السفينة «باونتي» كريستيان مع خمسة وعشرين من التمردين . وترك بلاي وبحارته الى قدرهم !

كان القارب مزدحماً منذ البداية ، وكانت المياه تغمر حافظة العليا ، الأمر الذي كان يتطلب جرفها باستمرار . ولم يكن الطعام ليكفي أكثر من أسبوعين وحسب ، وواجهت البحارة رحلة بضعة آلاف ميل عبر المجهول ، مع أمل ضعيف جداً بالبقاء أحياء . ويداً أمراً محتمماً الموت بسبب الجوع والتعرض للعوامل الجوية .

وسرعان ما طمأنتهم مزايا بلاي الممتازة كبحار وكقائد ، وتولى تسلّم زمام الوضع . ففرض عليهم تقنيناً في الأكل يتلخص بتناول بعض بسكوتات ، ونصف بيانت (ثمن غالون) من السوائل في اليوم الواحد ، وقطعة لحم ، مرة في الأسبوع . ورجاهم ان يثقوا به ، مؤكداً لهم أن بوسعي إنقاذهم من هذا الكابوس بسلام . ومعروف تماماً أنه إنما فعل ذلك ، وتعتبر رحلته البالغة ٣٦٠٠ ميل في قارب مكشوف أحد أعظم المنجزات في حلوليات البحر . فقد أبحر بلا أدوات أو خرائط طوال ستة أسابيع ، فبلغ جزيرة تيمور ، في الهند الغربية . ويفضل شجاعته واستخدامه المتفوق النظام ، استطاع ان يعود بالبحارة جميعاً الى شاطئ الأمان والسلامة . لم يقض اي رجل منهم ، ولم يُصب احد بداء الاسقربيوط او بالحمى . وما هو أهم ، فقد بقي معهم ماء وطعام . وقد عانى البحارة كل أنواع المصاعب البحرية باستثناء المرض : العواصف ، والبرد ، والحرارة ، والهدوء المغضب الذي يجعل الملاحة مستحيلة تقريباً . وخلال الرحلة أكتشفوا جزر فيجي ، وكانوا أول من اجتاز قناة أمير ويلز ، جنوب غينيا الجديدة .

وانتهى عذاب بلاي في ١٢ حزيران عندما بلغ ورجاله جزيرة تيمور ، ومنها سلك طريق العودة الى لندن . فقدم تقريراً الى الاميرالية . وحظي بالاعجاب العام لبراعته في الملاحة وبسالته الرائعة ، وبالعطف على ما اصابه من أذى وإهانة . وقدم الى

الملك ، وتلقى تهنته الشخصية . وعقدت محكمة عسكرية للتحقيق في فقدان «باونتي» . وناصره كل الرجال الذين كانوا معه على متن القارب المكشوف ، على الرغم من أنه تشنن وإياهم . وتقرر أن السفينة «باونتي» قد تم الاستيلاء عليها بصورة غير مشروعة ، وأنه ينبغي إرسال سفينتين آخرتين لإلقاء القبض على التمردين . وعلى نقيض الأسطورة الشعبية ، فإن سمعة بلاي لم تتأثر قط . لم يكن قبطاناً متواحشاً . وقد أثبت أنه كان دائم الاهتمام بصحة رجاله ورضاهما . وكانت عقوباته لينة ، ومن الذين جلدوا بسبب ترددتهم أو عصيانهم ، تسعة وحسب انضموا إلى التمردين ، ولم يكن سلوكه سبب التمرد ، ولا كان السبب في نزاعه مع الرجال . ولو أن كريستيان كان سيداً ماجداً حقاً ليبني الدعوة إلى العشاء ، لما حدث التمرد قط . وقد كانت لهجة بلاي القوية ، والمفرطة أحياناً ، جزءاً من طباعه ، ولكن ، على حد قول المترجم مايثيو فلندرز : «لم يكن الضباط البحريون في تلك الحقبة مدمجين مخاطبة رجالهم بالطريقة التي تخاطب بها السيدات عصافير الكناري التي يربينها» . وبعد أسبوعين ثلاثة من التحقيق ، عُين بلاي لقيادة السلوب «فالكون» ، وُنقل بعد شهر واحد إلى السفينة «ميديا» برتبة نقيب . وفي السنة ١٧٩١ ، نيت به قيادة السفينة «بروفيدانس» ، من أجل القيام بما فشل في القيام به بالسفينة «باونتي» . وفي الرحلة الثانية حالفه النجاح التام ، ونال الوسام الذهبي للجمعية الملكية السنة ١٧٩٤ .

وواصل بلاي خدمة بلاده ، فقد السفينة «دایرکتور» ، تحت إمرة الأميرال دنكن ، في معركة كامبرداون السنة ١٧٩٧ ، حيث أُنزل الأميرال الهولندي دوونتر ، لما هُزم ، علمه وقدم إلى بلاي سيفه . وفي التمرد في تور ، في السنة نفسها ، تصرف بكل رحمة ، واكتسب� الاحترام بسبب انسانيته . وفي السنة ١٨٠١ ، قاد السفينة «غلاتون» في كوبنهاغن ، واستقبله نلسون لخدماته البارزة . وقال القائد البحري الانكليزي الاشهر أنه لولا بلاي لما تمّ كسب الحرب هناك .

خلال مواعيده وعطائه على اليابسة ، كان بلاي يقضي معظم وقته منصراً إلى هواياته في مجال علم النبات وعلم الملاحة ، وقد اكتسبته بحوثه الزماللة في الجمعية

الملوكية . وكانت حياته العائلية نموذجاً مثالياً ، ويستفاد من رسالته الى زوجته أنه كان يحبها حباً حقيقياً ، حتى وفاتها . وكان معبود أولاده ، وأحبّه اصدقاؤه والكثيرون منهم كانوا ذوي نفوذ - واحترموه . وقد تقدم السر جوزف بانكس مجدداً ، وأمن له منصباً كحاكم نيوزيلندي (اوستراليا) ، السنة ١٨٠٥ .

أوفد بلاي لإدارة مستعمرة كانت أحوالها في حالة يُرثى لها . وكانت العناصر الرئيسية فيها المحكومين بالسجن وفرقة جيش نيوزيلندي ويلز . وقد حُرم هؤلاء المستوطنون أسباب الراحة الحضارية ، وتحجور اهتمامهم حول احتساء شراب الرم . وكانت النتيجة أن نشأ نظام بات فيه هذا الشراب المسكر العملة في المستعمرة .

فكان الأجر تُدفع بهذه السلعة ، وكان المستوطنون يقايسون مواسمهم ببراميل منه ؛ وبإيع أحددهم زوجته لقاء أربعة غالونات من الرم ! وكان الضباط المدنيون والعسكريون في وضع يسمح لهم بضبط هذه التجارة ، وقد فعلوا ذلك ، لصالحتهم أنفسهم . وكثيرون جمعوا ثروات طائلة بإقامتهم احتكارات للشراب . وقد اخفق سلف بلاي كلياً في تنظيم هذه التجارة ، لأن تطبيق الأنظمة كان بين أيدي الضباط الذين كانوا متورطين كثيراً في هذه التجارة غير القانونية .

علم بلاي بذلك ، وهبط نيوزيلندي ويلز السنة ١٨٠٦ ، وقد صممَ منذ البدء على تنظيف المستعمرة . ولدى وصوله الى سدني ، رحب به الميجور دجونستون ، بالنيابة عن الجيش ، وممثل النيابة العامة آتكنتر - وهو امرؤ مدمن الخمر - ودجون ماك آرثر ، مثل «السكان الأحرار» - كما كان يدعى نفسه . وقد مثل هؤلاء الثلاثة ادواراً رئيسية في الثورة التي تلت . وكان ماك آرثر مزارعاً يربي الماشية ، وقد جعلته مقدراته وذكاؤه أبعد رجال المستعمرة نفوذاً . وكان يتبع صوفياً ممتازاً ، وقد شجعت الحكومة الانكليزية تجارتة .

لم يكن بلاي وماك آرثر على وفاق في بداية الأمر ، وعندما قام ماك آرثر ، بعد بضعة أسابيع من وصول بلاي الى البلاد ، بزيارة لمناقشة مشاريعه الصوفية ، استشاط بلاي غضباً ، واتهم ماك آرثر بالفساد ، والممارسات الاحتيالية . وكانت هذه التهمة ، صحيحة ، بلا أدلة شك ، ولكنها بذرت بذور العداوة المريضة . وكان ماك آرثر يجني

أرباحاً من الاتجار بالرّم ، والصوف ، والماشية ، ولم يكن محبوباً من المستوطنين . ورأى بلاي أين هي العقبة التي تعرّض سبيله ، فلما قدمت اليه عريضة وقّعها ثمانمائة من المستوطنين لحمايةهم ، انتصر لحقوقهم ، وأعاد اليهم حریتهم في التجارة . وكان معارضًا بعناد لتجارة الرّم ، ففرض تقنيّاً على حصة الضباط منه ، وجعلها ثلاثة غالوناً وحسب في السنة . فكانت تلك ضريبة جديدة لتجارتهم غير المشروعة ، وتسبّبت في توسيع شقة الخلافات بين الحاكم وجيش نيوساوث ويلز ، الذي دعم ماك آرثر رداً من الزمن .

حدثت أولى علامات الاضطراب السنة ١٨٠٧ عندما هرب أحد السجناء المحكوم عليه بالسجن مدى الحياة ، على متنه أحدي سفن ماك آرثر إلى تاهيتي . واكتفى بلاي بالانتظار ليرى ما إذا كان السجين سيعود مع السفينة . وفي هذه الأثناء قاضي ماك آرثر بلاي في دين زعم أن له بذمته . ورفض بلاي الدفع ، وفضلاً عن ذلك استنكر أن تُرفع القضية إلى المحكمة .

وكانت تلك خطوة خطيرة - حتى لو كانت مبررة - لأنها استعدت أبرز مدنى في المستعمرة . وكان الأسوأ يتظاهر في الطريق ، إذ تدخل بلاي في إدارة جيش نيوساوث ويلز ، وكتب إلى انكلترا مشيراً بإجراء تبدلات في الواجبات العسكرية ، لأن ذلك - حسب زعمه - كان السبيل الوحيد لمنع الجيش الثابت من أن يصبح ميليشيا خطيرة . خلال مدة ولايته كحاكم ، كان بلاي يتمتع بالدعم الكامل من وزير الخارجية كاسلري ، والحكومة ، في حين كان سكان المستعمرة مذهولين تماماً من ادارته الحكيمه . فتقدموه اليه باعلان يمتدحون فيه حكمه ، ويوافقون على تدابيره الصارمة ضد المحتكرين .

حوالى نهاية السنة ١٨٠٧ ، عادت السفينة التي أفلت السجين الهارب ، دون أن يكون هذا على متنها . عندها ألقى بلاي القبض على ماك آرثر ، وعيّنت جلسه للمحاكمة برئاسة آتكنز . ولكن مع الأسف ، اختير ستة ضباط من جيش نيوساوث ويلز للنظر في الدعوى مع آتكنز ، فرفضوا . وألحوا على تعيين مثل للنيابة العامة غير آتكنز ، حتى أنهم هددوا بتوقيفه . ورفضوا تسليم أوراق الدعوى التي كان آتكنز قد

تركها على المكتب وهو يسارع إلى مغادرة قاعة المحكمة . واستدعي بلاي دجونستون الذي كان وراء هذا التلاؤ ، فرفض هذا الأخير المجيء . وقد تأكد الآن أن دجونستون وماك آرثر كانوا متواطئين .

وبات بلاي وحيداً ؛ الواقع أن تصرفه يستدعي الاعجاب . وقد أصبحت الآن العدواة بينه وبين ماك آرثر قضية بين السلطة الرسمية والتحدي المدني . وفي ٢٦ كانون الثاني ١٨٠٨ ، أمر غور ، قائد الشرطة العسكرية ، بالقبض على ماك آرثر . إلا أن هذا الأخير أُفرج عنه بكفالة ، بانتظار المحاكمة ، وذلك بأمر من دجونستون الذي كان قد أصبح لقبه «نائب الحاكم» . فكان ذلك أول عمل من أعمال الثورة المكشوفة . ذهب ماك آرثر لتوه ، بعد الإفراج عنه ، إلى مكتب دجونستون ، وقرر الاثنين فيما بينهما توقيف الحاكم وعزله . ولكي يجعلها بذلك مقبولة أكثر من المستوطنين ، كتب ماك آرثر رسالة إلى دجونستون طالباً فيها عزل بلاي لأن في ذلك مصلحة السكان ، وأخذ توقيع أنصاره عليها . وبعد ذلك أعلن دجونستون الأحكام العرفية في المستعمرة . وراح الحشود تجتمع في ساحة دار الحكومة ، وشق الجنود طريقهم إلى الدار ، وقبضوا على الموظفين المدنيين ، والقضاة ، والخدم ، ومن فيهم غور وآتكنر . وفي هذه الثناء ، صعد بلاي إلى الطبقة العليا كسباً للوقت ، ولدراسة ما يمكنه عمله لإعادة النظام . وعمد إلى إخفاء وثائق يمكن أن تبرئه وتدين الثوار ، ولكنه أوقف وهو يقوم بذلك . وأصبحت المستعمرة الآن بين أيدي العسكريين ، يوجّهم ماك آرثر . وأنهم بلاي علينا بجرائم تجعله ، كما جاء في الإعلان ، غير ملائم لممارسة سلطته العليا في المستعمرة دقيقة أطول . وصرف كل من غور ، وآتكنر ، والقضاة من مناصبهم . وقال ماك آرثر : «في الحقيقة لم تجر فقط أي ثورة مثلها من حيث الفعالية التامة والهدوء والانتظام .» ووضع إذ ذاك بلاي وابنته في الاقامة الجبرية في المنزل وتحت الرقابة المشددة .

لم يُسمح لبلاي في الأشهر الخمسة الأولى ، بكتابة أي رسائل أو باستقبال الزائرين . ولكن في أيار ، خفف دجونستون من قيوده . عندها كتب بلاي إلى كاسلري ، ووضع الرسالة ضمن رسالة أخرى بعث بها إلى أحد التجار في لندن . ثم

بدأ بعد ذلك مراسلة متواصلة مع دجونستون في محاولة للحصول على الإفراج عنه ، وأخيراً منحه دجونستون الإذن بالسفر إلى بلاده شرط أن يبقى محتجزاً على ظهر السفينة . وبالطبع رضي بلاي بهذه البنود ، ولكن لم يكن لديه أي نية في التقيد بها . وبعد بضعة أيام ، بدأ دجونستون رأيه ، وطوال الخمسة عشر شهراً التالية عانى بلاي وإبنته من الاقامة الجبرية ، في عدد من الأماكن ، بما في ذلك قضاء فترة قصيرة السنة ١٨٠٩ في كوخ في ثكنة عسكرية ، مؤلف من غرفتين .

في ربيع السنة ١٨٠٩ عاد الكولونل فوفو ، نائب الحاكم في جزر نورفوك ، من عطلة قضائها في إنكلترا ، وتسلّم على الفور حاكمة نيوساوث ويلز . ورفض مقابلة بلاي ، وأرسل تقريراً إلى إنكلترا كان في مصلحة دجونستون الذي كان تعينه نائباً للحاكم قد صدر عن الحكومة . ورفض فوفو التصرف حتى «تُعرف رغبة صاحب الجلالة» - على حد تعبيره . فلما وصلت رسالة بلاي أخيراً إلى كاسلري ، تحركت الحكومة على الفور بسرعة ، وأوفدت الكولونل ماكاري إلى نيوساوث ويلز كحاكم جديد ، مزوداً بالأوامر الصريحة لاعادة بلاي إلى منصبه أولاً ، ثم لخلافه في المنصب . فحمل معه كتيبة من المشاة بقيادة الكولونل اوكونل ، لتعزيز جيش نيوساوث ويلز .

بلغ الكولونل ماكاري سدني في نهاية السنة ١٨٠٩ ، وتأهب لاعادة بلاي إلى منصبه . وكان هذا الانخير قد أُنزل إلى البحر في المياه الشمالية تحت الحراسة . وأُفرج عنه في النهاية ، وهبط سدني حيث استقبل استقبالاً رسمياً . وقدّم إليه كل العون الذي طلبه لجمع الدلائل والعودة إلى إنكلترا . وقبل إبحاره تزوجت ابنته الكولونل اوكونل ، ويقي الأثنان في المستعمرة .

وصل بلاي إلى إنكلترا في ٢٥ تشرين الأول ١٨١٠ ، وقدّم تقريره إلى الحكومة . وشرع المستشارون القانونيون للتاج في تحضير دعوى ضد نائب الحاكم دجونستون ، الذي كان قد عاد إلى إنكلترا . وعادت الحكومة فأكدت دعمها بلاي ، وعزّز أمير ويلز ذلك بدعوة القبطان والسيدة بلاي إلى استقبال الصباح .

وبدأت المحاكمة في المستشفى الملكي ، في تشيلسي ، في ٧ أيار ١٨١١ . وعقدت برئاسة الفريق كيل و ٤١ ضابطاً آخرين . وأتهم دجونستون بأنه «بدأ ، وأثار ، وسبّ

الاشتراك في تمرّد بوضعه نفسه على رأس جيش نيوساوث ويلز ، وبالقائه القبض على الحاكم .» وشهرٌ بلاي ببعض الاتهامات ، بما في ذلك قضية التمرّد على السفينة «باونتي» . وبذا حقّا أنه يحاكم كدجونستون . وأضاف الدفاع ان بلاي كان مذنباً إذ أظهر جبانة يوم الْقي القبض عليه في سدني . ولكن ذلك أُقتل على هيئة المحكمة عندما تذكرت بسألته في معركتي كامبرداون وكوبنهاغن ، وجَلَده واحتماله فوق القارب المكشوف الذي تهادى على صفحة المحيط الاطلسي . وجُرُم دجونستون وحُكم عليه بالصرف من الخدمة . ولما أرسلت نتائج التحقيق القضائي في المحكمة العسكرية إلى الأمير الوصي على العرش ، كانت ملاحظته أن الحكم لم يكن ملائماً للبتة .

واجتازت سمعة بلاي بسلام حتى هذه الحنة ، ذلك بأن الاتهامات وُجدت غير صحيحة .

ورقي إلى رتبة عميد بحري في ٣١ تموز ١٨١١ على أن يكون ذلك اعتباراً من تموز ١٨١٠ .

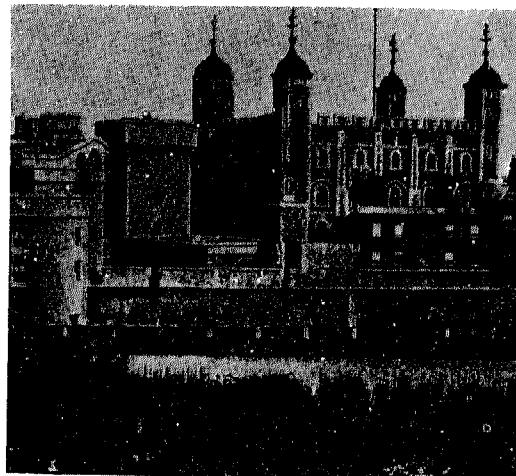
وانسحب بلاي من الحياة العامة ، وواصل هوايته في علم النبات . وكان ما يزال يتمتع باحترام الاميرالية ، ذلك بأننا نراه يصبح لواء بحرياً ، أو نائباً للأميرال ، على متن السفينة «بلو» السنة ١٨١٤ . وقد توفيت زوجته بتسي ، التي كانت له أكبر عون وتعزية خلال كل المحاكمات والمحن ، السنة ١٨١٢ ، فغادر لندن لقضاء ما تبقى له من سنوات في الريف . وفي ٧ كانون الأول ١٨١٧ ، رحل عن هذا العالم بحضور أربع من بناته .

هذه الصورة لبلاي ، التي تستند إلى الواقع الصحيح ، والتي لا تلتفت إلى الأساطير السخيفة التي سُجّلت حوله ، تختلف كثيراً عن الانطباع المقبول عامه من أنه كان طاغية جباناً . وبيدو لنا أن حياة عملية بمثيل هذا التميّز والبسالة قلماً تتفق مع صورة الطغيان والفسوة ، وما دامت تفاصيل حياته مثبتة في سجلات رسمية ، ووثائق وكتب معاصرة ، فليس ثمة أي مبرر لمواصلة قبول الأسطورة الشعبية إزاء مثل هذا الدليل الكبير على العكس تماماً .

# ملحق مصّور

## ٢ - من التاريخ الانكليزي

بيتر جورج روين صمرسيت فراري ( ١٩٣١ )  
الملقب بلاستدجنيت ، لتحدره من الملك إدوارد  
الثالث ، وشبيهه به . وهو ابن القومناندري بيتر ك .  
فراري ، مخترع المجنحة الهيدروليكيه .  
عنه ترجمت الاسرار والقضايا الغامضة من  
التاريخ الانكليزي .



برج لندن

عندما أضجعت فكتيريا مملكة ، وجاء لورد ملبورن لمقابلتها ، كتبت تقول فيما بعد : «نزلت إلى الطبقة السفلى وعقدت مجلساً في قاعة الاستقبال الحمراء . دخلت ، بالطبع ، وحدني تماماً ، انتهت سنوات الحماية الأمريكية المبالغ فيها ، والاستبداد المزور » .





دوقة كنت ، في أيامها الأخيرة ، تقوم  
بأعمال النطريز في حديقة قصر فراغمور .



اعتقاداً من والدة الملكة فكتوريا ، دوقة كنت ، ان دوق كمبرلاند دسّ السُّم لأحد وارثي العرش ، أصدرت الامر بأن  
يتم تذوقُ كل طعام يقدَّم في غرفة الحضانة .



جانب مجهول  
من حرب القرم .



هجوم فرقة الخيالة  
المخففة .

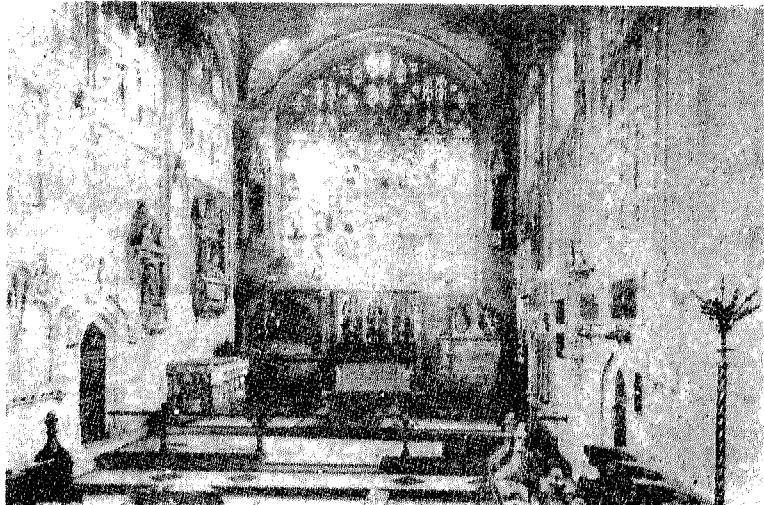
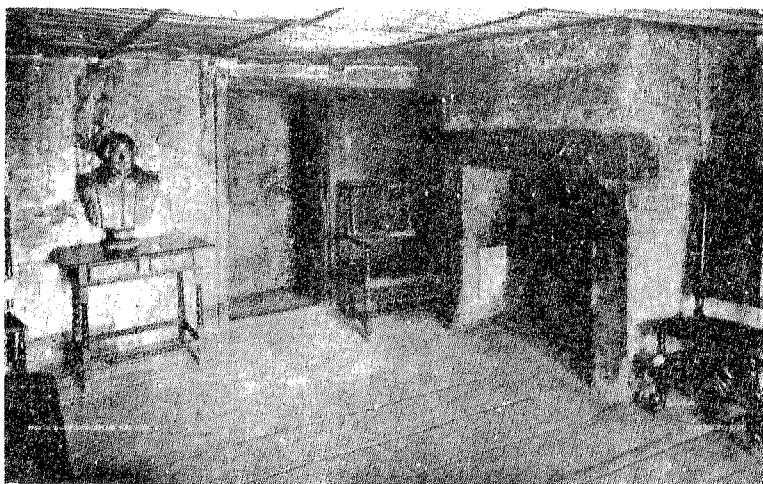
## شکسپیر سر عمره ۳ قرون



شکسپیر



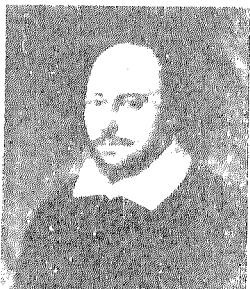
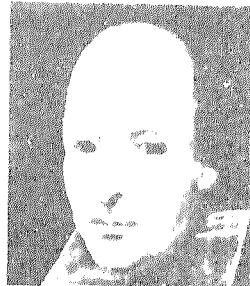
بيت شکسپير في بلدة  
ستراتفورد - اون - ايفرن ، وفيه  
أبصر النور .



فوق : الغرفة التي ولد فيها .  
تحت : الكنيسة التي يرقد فيها شكسبير رقاده الابدي .

هناك مجال كبير للاعتقاد بأن اللوحة إلى اليسار التي عُثر عليها في كيمبريدج السنة ١٩٥٣ ، تمثل كريستوفر مارلو . ولكن كالفن هو فنان يرى فيها شيئاً كبيراً لرسم لشكسبير ، حفظه دروزهاوت ، ويُوجَد على المجلد الأول من أعماله الأدبية ، وهو المشور أدناه :





من فوق الى تحت :

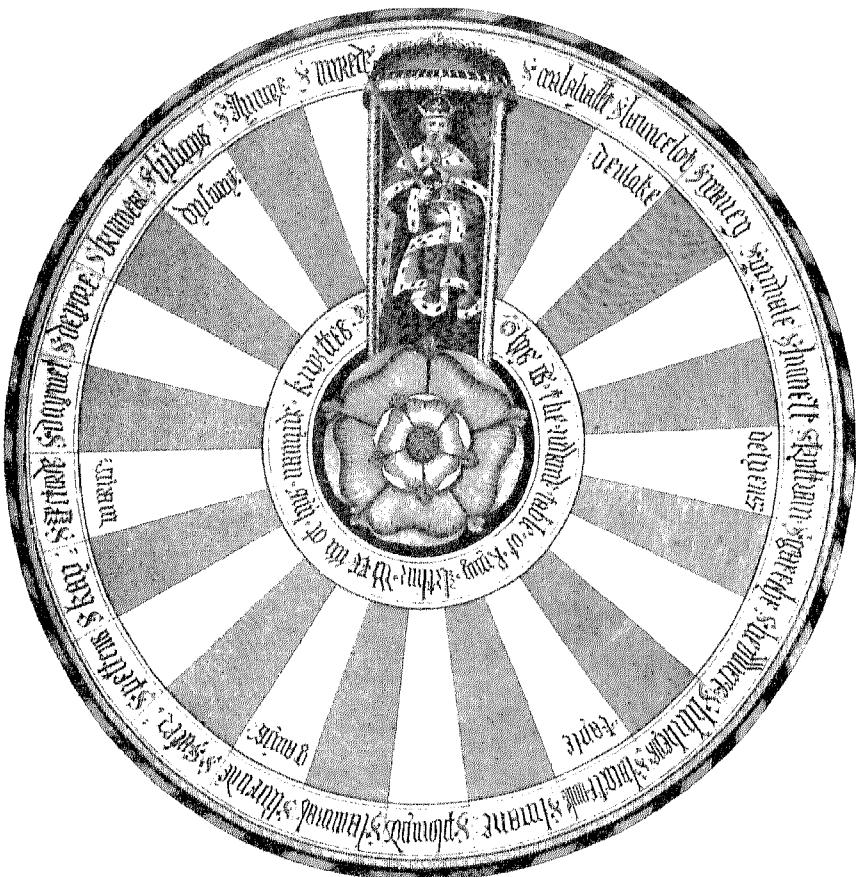
صور شكسبير هذه موجودة في (١) مركز شكسبير ، في ستريتفورد -- اون --  
ایفن ؛ (٢) و (٣) في مكتبة شكسبير في فولفر ، و(٤) في قاعة الصور  
الوطنية ، في لندن .



دجیمس، دوق مونکوٹ



رشارد الثالث



طاولة آرثر المستديرة  
 (قصة «الطاولة المستديرة» اسطورية ، ولكن  
 اللوحة هي أثر مهم من معتقد قديم جداً) .



إد蒙د الثاني (أيرنسايد) .



ماكبث ، ملك الاسكتلنديين



الملك دجون في ملابسه الرسمية .



روبن هود في غابة شرود



ريتشارد الثاني .



روبريو بورجيا ، البابا  
ألكسندر السادس .



دجيمس الثاني



اللواء البحري وليام بلاي

## الفهرس

### المجلد الأول

تقديم

٧

#### ١ - من التاريخ الفرنسي

١١	من كان الرجل ذو القناع الحديدي؟
٢٧	لقاء مع القدر : ٢٠ حزيران ١٨١٠ ، الكونت دو فرسن يقضي أغتيالاً!
٣٨	قضية زولا : هل مات الكاتب الكبير مقتولاً؟
٤٣	فيشي : اخترع «قذائف ستالين» قبل قرن من ظهورها ، لاغتيال الملك لوسي - فيليب!
٥٣	الحب والنكبة : أمزجة سان - مارس
٦٩	كان القتل صناعته ! ولكن ، في النهاية ، طالبت المقصولة بفوكييه - تانفيل لنفسها
٧٦	من ذيول مؤامرة ماله : شعر مدام سيلان المستعار
٨٢	التاريخ لم يَجُلُّ سر الماريشال ناي : هل أعدم حقاً أم ظل حياً؟
٩٨	ملك السكر وإمبراطور الصحراء : جاك لوبويدي وعرشه الشائك
١١٥	نابوليون على حقيقته
١٢٢	نفي إمبراطوري !
١٣١	فولتير المثل
١٣٥	عندما كان هناك وقت للحب !
١٤٧	هل كان شارل ناوندورف الملك لويس السابع عشر؟
١٥٦	هل قضت المثلة آدرلين لو كوفور بالسم على يد الدوقة دو بويون؟
١٦٣	ملحق مصور

#### ٢ - من التاريخ الإنكليزي

١٩١	إلى القارئ
١٩٤	مسألة قلعة بونثراكت
٢٠٨	هل كان دجيمس ، دوق مون茅ث ، ابن الملك تشارلز الشرعي؟
٢٢٠	روbin هود

٢٣١	قصة مدفأة السُّرُر
٢٤٣	الملك آرثر ، هل وُجد حقاً؟
٢٥٥	ماذا حدث لـإموند آيرنسايد؟
٢٦٣	ما كبّث الحقيقى ، أي نوع من الرجال كان؟
٢٧٣	هل قُتل الأمير آرثر ، دوق بريتانيا؟
٢٨٥	من قتل الاميرين في برج لندن؟
٣٠٤	شكسبير : سرّ عمره ثلاثة قرون!
٣٢٦	هجوم فرقة الخيالة الجفيفية وانتصارها في «وادي الموت»
٣٣٢	جانب مجهول من حرب القرم . . .
٣٣٦	مخاوف بالنسبة إلى الأميرة . . .
٣٤١	الحقيقة عن القبطان بلاي والتمرد على السفينة باونتي
٣٥٥	ملحق مصوّر

# من كواليس التاريخ

## الجزء الأول

يتناول هذا الكتاب عدداً من الأسرار التاريخية، علماً بأن الاقتراحات المقدمة فيها، على الرغم من أنها مختلفة، وربما متباعدة للجدل، هي نتيجة النظر إلى القضية من وجهيها وهي حلول، وليست الحلول، ويترك للقارئ أن يقرر ما إذا كان يود قبولها أو نبذها.

يضم الجزء الأول من هذا الكتاب ٢٨ قضية غامضة ومعقدة في التاريخين الفرنسي والإنكليزي لم تنجل بعد أسرارها مما يجعلها أقرب ما تكون إلى الأساطير ...

من أبرز هذه القضايا :

- \* من كان الرجل ذو القناع الحديدي؟
- \* هل قضى عاشق ماري - انطوانيت اغتيالاً؟
- \* الكاتب الروائي أميل زولا، هل مات مقتولاً؟
- \* نابوليون على حقيقته.
- \* حلم الملكة أورتانس بيقظة المهد النابوليوني.
- \* ملك السكر وأمبراطور الصحراء، وعرشه الشاتوك.
- \* اختراع «قذائف ستالين» قبل قرن من اختراعها.
- \* هل أعدم الماريتسال ناي أم ظلل حيا؟
- \* ما كسبت الحقيقي أي نوع من الرجال كان؟
- \* شكسبير : سر عمره ثلاثة فرون!
- \* حقيقة التمرد على من السفينة باونتي.
- \* من قتل الأميرين في برج لندن؟
- \* من كان روبن هود؟
- \* هل وجد الملك آرثر حقاً؟
- \* المخاوف على الملكة فكتوريا من «عم شرير» .